الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 31 - August 2001

مجلة شهرية . العدد الواحد والثلاثون . السنة الثالثة . أغسطس ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات



محمد حسنين هيكل

إعادة أكتشاف أمريكا

الهوية : قضية جزائرية

محمد الميلى

رحلة مقدسة فى أرض مقدسة

هانى شكر الله

أضواء النجوم .. ونجوم الأضواء

محمود عوض

الجامعات المصرية إلى أين ؟

لبيب السباعى

سوبرمانات وماركات مسجلة!

محيى الدين اللباد

ليس بالمال ينهض الفكر العربى

سلامة أحمد سلامة

كلمة..

بن بركة..

نوفمبر ١٩٩٩

قبل حوالَى السنتين، وضمن سلسلة مقالات أثارت الكثيرَ من الجدل والقليلَ من الدهشة، كتب محمد حسنين هيكل فى «وجهات نظر» عن «المعلوم والمكتوم.. فى دور الملك الحسن وسياساته». يومها، ورغم المقابلة فى اللغة، بدا أن «المكتوم» وإن كان إعلانُه يُمَثِّلُ - بحكم طبائع الأشياء - خبرًا جديدًا، مهما كان تاريخ الواقعة، فإن النظرَ فى «المعلوم» قد يأتى - إذا صح اختيارُ الزاوية - بما هو أكثر من خبر. إذ إن «المعلومات» - بحكم المنطق وقواعد البيان - حين توضَعُ بجوار بعضها فى إطار يجمعها.. وتحتَ ضوءٍ «كاشفٍ» لما بينها من علاقات وصِلات، وفى ترتيب يكشفُ جوانبها، ويوضحُ ما تحتها وما بينها من مسافات تتباعد وتتقارب، تُحمِلُ بالضرورة وبهندسةِ ما بينها من خطوطٍ تتقاطعُ وتتواصلُ، «حقائقَ جديدة»، قد تبدو صادمةً أو «مفاجئة».

سلسلة المقالات التى نشرتها «وجهات نظر»، وتضمنها بعدَ ذلك الكتابُ الأول من إصدارات المجلة «كلام فى السياسة»، وضعت - ربما للمرة الأولى - أمام «القارئ العربى»؛ المتأنى والمهتم، مجموعةً من الحقائق والمعلومات الكفيلة باستكمالِ سطورٍ ناقصة، وكشفِ أخرى مطموسة فى صفحاتٍ منَ التاريخ طوتها الأيامُ وتدافعُ الأحداث.. فضلا عن عدم الرغبة، وربما - القدرة - فى إمعان النظر.



فى مقال هيكل (نوفمبر ١٩٩٩) والذى كشف عن جوانب خافيةٍ ومثيرة فى علاقة الملك الراحل بإسرائيل واليهود، وعن محاولات الموساد الدءوب للوقيعة بين المغرب العربى ومشرقه الثائر.. وعن شخصية ولى العهد «الميكافيللى» الذى أصبح ملكًا و«أميرًا للمؤمنين».. وعن علاقاته بأفراد عائلته ورجال حكمه «موالين ومعارضة»، جاء الحديث عن «المهدى بن بركة»، وكان وقتها معارضا يرأس التجمع الوطنى للقوى الشعبية فى المغرب. وحكى هيكل فى مقاله الكثيرَ مما سمعه «من بن بركة عن الحسن.. ومن الملك عن المُعارض، الذى كان يومًا مدرسًا له فى الرياضيات».

يحكى هيكل فى مقاله تفاصيل لقاء مع الحسن فى الدار البيضاء (سبتمبر ١٩٦٥) على هامش أول قمة عُقِدت فى المغرب. وكيف كان «بن بركة» الموضوع الرئيس لحديث الملك يومها. والذى حرص - محاولا انتقاء كلماته بعناية - على توضيح أن «المهدى كان شريكا فى مؤامرة انقلاب ضد النظام الملكى فى المغرب، وكانت أول خطوة فيه قتلى (الملك). زملاؤه فى المؤامرة هم البصرى (يقصد محمد البصرى قائد المقاومة المسلحة ضد القوات الفرنسية) واليوسفى (يقصد عبد الرحمن اليوسفى وهو آخر رئيس للوزراء اختاره المَلِك الحسن قبل وفاته).

والمثير - و تاريخ الحُكام والملوكِ ملىء بكثير من تلك «المصادفات» المثيرة - أنه لم تكد تمضى بعد هذا الحديث أسابيع إلا وكان المَلِك «الحسن» هو المُتَّهَم بقتل «المهدى بن بركة»، ولم يكن «المهدى بن بركة» هو المُتَّهَم بالتآمر على المَلِك «الحسن».

ويحكى هيكل فى مقاله هذا ماجرى وكيف كانت أول المفاجأة أن الذى قام بتوجيه أصبع الاتهام إلى المَلِك مباشرة هو رئيس الجمهورية الفرنسية، وقائد فرنسا الحرة، الجنرال «شارل ديجول». وقد وجد «ديجول» - والكلام لهيكل - أن اختطاف «المهدى بن بركة» من قلب باريس (شارع «سان جيرمان») وأمام واحد من أشهر معالمها (مطعم «ليب») وفى وضح النهار (فترة الغداء)، ثم استجوابه وتعذيبه وقتله بعد ذلك بحضور واشتراك وزير الداخلية المغربى «محمد أوفقير» - هو عدوان صارخ على هيبة الدولة فى فرنسا، وعلى القانون، فضلا عما فيه مما يتصل بالأخلاق وضوابط الممارسة السياسية فى عوالم مُتَحَضِّرة.

ثم إن الأمر إلى «أوفقير» كان مُباشِرًا من المَلِك. ثم إن المَلِك كان يتابع التنفيذ فى باريس خطوة بعد خطوة.

ويمضى هيكل فى روايته إلى التفاصيل. فيحكى كيف ثبت أن «المهدى بن بركة» استُدْرِج - أو أُرْغِم - على ركوب سيارة .. تولى اثنان فيها تقييد حركة أسيرهم داخلها، ثم تحركت السيارة ذاهبة إلى بيت فى ضواحى باريس، وهناك وجد فى انتظاره وزير داخلية المغرب الرهيب وعددًا من أعوانه المغاربة والفرنسيين! وكانت بين «بن بركة» و«أوفقير» مواجهة بالكلام انتهت طعنا بحراب من حديد كان «أوفقير» يضعها فوق ألسنة النار فى مدفأة تتوسط الغرفة التى جرت فيها المواجهة، وحينما يُحمى الحديد ويحمر لونه باللهب المُتَوَهِّج على أطرافه كان «أوفقير» يبدأ فى توجيه طعناته إلى خصمه المُقَيد بالسلاسل تحت أقدامه.



ثم اختفت جثة المناضل القديم ولم يُعْثَر لها على أثر.(تقول آخر الروايات أنها نقلت إلى الرباط حيث أذيبت فى خزان من الحمض)

وأكثر من ذلك - يستطرد هيكل - فإن عميلا للبوليس - ضالعا فى العملية - اسمه «جورج فيجون» خاف (بعد اتضاح موقف الجنرال «ديجول») وطلب المثول أمام قاضى التحقيق فى باريس (القاضى «زولينجر») مُبْدِيا استعداده ليكون شاهد ملك يقول الحق، ولكن «جورج فيجون» قُتِل بالرصاص فى حَمَّام بيته قبل أن يمْثُل أمام التحقيق، وتَبَيَّنَ أن الرجل سَجَّل سِرًا شهادته تَحَوُّطا. وكان أن آخرين من المشاركين فى عملية «بن بركة» آثروا أن يبدءوا بتسليم أنفسهم لقاضى التحقيق وهناك تدفقت اعترافاتهم بالتفصيل. وكان ذلك ما دعا «ديجول» إلى عقد اجتماع خاص لمجلس الوزراء الفرنسى برئاسته يوم ١٠ نوفمبر ١٩٦٥، ليعلن بعده وبنفسه أن فرنسا تعتبر مَلِك المغرب مسئولا مباشرةً عن انتهاك قانون الإنسانية، وقانون فرنسا، وحُرْمَة الأراضى الفرنسية أيضًا - بالتحريض على جريمة قتل على ترابها وبالتواطؤ مع عناصر من الأمن الفرنسى باعت ضميرها وواجبها!

انتهت رواية هيكل فى «وجهات نظر» (نوفمبر ١٩٩٩).. ولكن رواية «بن بركة» لم تنته. فقبل أسابيع، وفى تطور آثار ضجة إعلامية وسياسية.. وقانونية، نشرت «اللوموند» الفرنسية و«الجورنال» المغربية الرواية ذاتها. هذه المرة على لسان «شاهدٍ» قرر - لأسبابٍ يقدرها - أن يتكلم. وفى التاريخ.. مثلما فى القضايا؛ إذا تحدث شاهدُ إثباتٍ، جاء المتهمون بشهود نفى.. ولكن فى محكمةِ التاريخ.. لايصدرُ الحكم أبدًا.. خاصةً إذا كانت القضية.. عربية.

وجهات نظر



محمد
حسنين
هيكل

إعادة اكتشاف



١

أمريكا

عند النظرة الأولى عبر المحيط

■■ هذه هي المرة التاسعة والعشرون التي أعبُر فيها المحيط قاصداً العالم الجديد، وهو لم يَعُد الآن جديداً، وإن ظلَّ - بعد ستَّة قرون - في حاجة إلى الاكتشاف أو إعادة الاكتشاف حتى يُمكن فهمه، لأن أمريكا الآن لم تَعُد فقط تلك القارة المليئة بالفُرَص، أو المعَبَّأة بالقوة، أو المصَمِّمة على مشروع يَرِث الإمبراطوريات القديمة - وإنما لأن الإمبراطورية الأمريكية أصبحت ظاهرة غير مَسبوقة في قصة الإنسانية، فهي حاضرة في كل قارة من قارات الدنيا - ضاغطة على كل إقليم - مَحشورة في كل بَلَد - مُندَسَّة في كل بيت - وتلك أحوال تَدعو بالتأكيد إلى القلق لأن العالم لم يَعرف من قبل دَولة «مُتَداخلة» إلى هذا الحَدّ في حياة ومُستَقبَل غيرها من الدُول. وقد عَرَف العالم من قبل دُوَلاً «مُتَدَخِّلة»، لكن «التَداخُل» الأمريكي في حياة البَشَرِيَّة مع بداية القرن الواحد والعشرين (الألفية الثالثة الميلادية) - تَجرِبة طارئة تَستَوجِب «القلق» - وتَستَدعي التَنَبُّهَ - في مُحاوَلة للفهم هي الآن «ضرورية» وعاجلة!

....

....

ومن المصادَفات أن هذا العُبور التاسع والعشرين للمحيط إلى أمريكا تَوافَقَ بالنسبة لي مع مَوعِد العُبور الأول، وبفارق خمسين سنة بالضَبط - فقد كانت أول سَفرة قَصَدتُ فيها «العالم الجديد» سنة ١٩٥١ - والآن ٢٠٠١ - نصف قرن بالضبط!

وفي ذَلك الزمَن قبل خمسين سنة - بَدَت لي الولايات المتحدة الأمريكية قوة طالعة في أعقاب الحرب العالمية الثانية، تُوشك أن تَدخل الساحة الدَولية لاعباً كبيراً - لكنه لم يَخطر ببالي في ذلك الوقت أن الولايات المتحدة - بعد خمسين سنة - سوف تُصبح اللاعب الرئيسي - وربما الوحيد حتى إشعار لاحق - وأن تأثيرها على الدُنيا، وعلى المنطقة التي تَعنيني أكثر من غيرها في هذه الدُنيا، سوف يَبلغ هذا المدى الذي نراه، ونحِس به، ونتأثر منه إلى هذه الدَرَجة.

وعندما قَصَدتُ أول مرة إلى أمريكا كانت الرحلة من القاهرة إلى نيويورك تستغرق ستاً وثلاثين ساعة في الجَو: من القاهرة إلى أثينا محطة - ومن أثينا إلى روما محطة ثانية - ومن روما إلى لندن محطة ثالثة - ومن لندن إلى مطار «جاندر» في أيرلندا محطة رابعة - ومن «جاندر» إلى «ريكيجافيك» في أيسلندا محطة خامسة - ومن «ريكيجافيك» يَنزلِق الخط الملاحي بالطائرة إلى «جرينلاند»، ومنها على شواطئ «ماينز» وحتى نيويورك - وكذلك كانت هناك دائماً ضرورة لقضاء ليلة مَبيت في مُنتَصَف الطريق، والغالب في باريس أو لندن.

اي أنها - بالطيَران، ومحطات الوقوف، وليلة المبيت - ثلاثة أيام إلى نيويورك. ومع ذلك بَدَت تلك أيامها مُعجزة من المعجزات، قياساً على ما كان قبلها، وما ظَلَّ حتى الحرب العالمية الثانية، حين كان السَفر بالبواخر أربعة أسابيع - شهر كامل على أقل تقدير - من الإسكندرية إلى نيويورك!

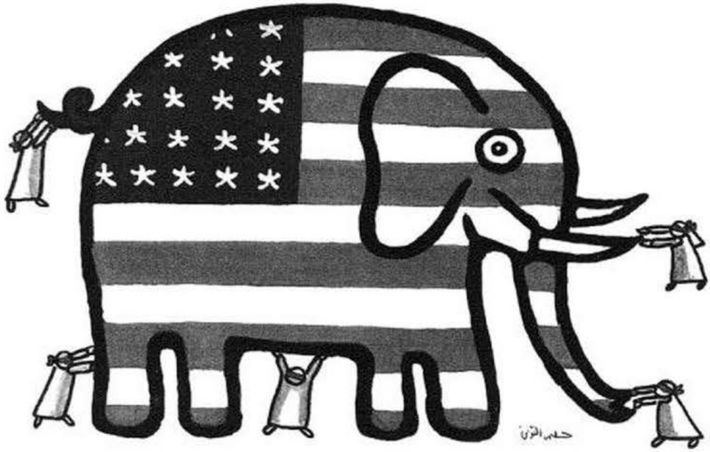
وربما أن طول المسافات على هذا النحو - حتى بالطائرة ثلاثة أيام - كان يُوحي بأن أمريكا بعيدة، لكن الزمَن راحَ يَتَلاشي بإيقاع تضطرب له الحواس، فقد عَبَرتُ المحيط في أوائل الثمانينات خمس مرات بطائرة «الكونكورد» في وقت لا يزيد على ثلاث ساعات واثنتي عشرة دقيقة كل مرة، مُخترقاً خمس مناطق زمنية في هذه الساعات الثلاث وبضع دقائق، ثم تَوَقَّفتُ عن استعمال «الكونكورد» قانعاً بالنفاثات العادية تَعبُر المحيط في ست ساعات: ساعة أو أكثر قليلاً لكل منطقة زَمَنية، وهو عبء وَجَدتُه أخَف على التَوازن البَدَني والنَفسي!

وكنت منذ أواخر الثمانينات وحتى أواخر التسعينات قد امتنعت عن السفر إلى أمريكا، لأن زيارتها أصبَحَت بالنسبة لي - على الأقل - عبئاً على الأعصاب تَتَزايَد وَطأته، فضلاً عن أنه لم يَعُد هناك إلحاح على ضرورته. وفي وقت من الأوقات كان أي مصري أو عَرَبي مُهتَم بالسياسة يَذهَب إلى واشنطن ووراءه سَنَد سياسي قوي - حتى ولو كان السَنَد نوعاً من الأساطير (والأساطير حقائق سياسية إذا قَبِلَها المعنيون بها، ومع ذلك فإن فكرة وحَرَكة القومية العَرَبية لم تكن أسطورة) - وكذلك فقد كان في مَقدور أي مُهتَم بالسياسة - مصرياً أو عَرَبياً - أن يَقصد إلى نيويورك أو واشنطن مُعَزَّزاً بنوع من المصداقية فيما يقول به أو يُحاور أو حتى يَتَفاوَض عليه. لكن الصورة راحَت تَتَغَيَّر بما جرى للعالم العَرَبي وفيه، والنتيجة أن

Colossus: How the Corporation Changed America

العملاق.. كيف غيرت الشركة أمريكا

Jack Beatty (echtor) Bantam Doubleday Dell Pub, 2001, 506 pp.



أمريكا

الأوضاع العَرَبية فى الولايات المتحدة أصبَحَت مَكشوفة - بل وعارية. وكان المزعج أن السياسة العَرَبية نفسها هى التى تكفّلت أوْلاً بنَزع سلاحها، ثم تطوّعَت ثانياً بنَزع مَلابسها - ثم إنها - ثالثاً - فرّطت فى ثقتها بنفسها وما يُلازم هذه الثقة من عِزّة الكبرياء.

وهكذا أصبَحتُ أجد عبور المحيط فى ثلاثة أيام أو ثلاث ساعات عبئاً مَعنوياً ونفسياً لا حاجة لى به. وتوَقّفتُ عن السفر إلى أمريكا. ورغم أن «فرانك ويزنر» سفير الولايات المتحدة الأسبق فى مصر لم يَكُف عن تذكيرى بين وقت وآخر أن «الولايات المتحدة أكبر وأخطر من أن يُقاطعها أحد» - فقد ظللتُ لأكثر من عَشر سنوات مُكتفياً بالشاطئ الشرقى للمحيط الأطلسى - لا أفكر فى غربه!

ثم كان أن وَجدتُ نفسى أخيراً - ولأسباب طارئة - عابراً للمحيط ثلاث مرات مُتوالية، عائداً مرة أخرى وأخرى وأخرى إلى أمريكا مُسَلِّماً مع «فرانك ويزنر» بأن «الولايات المتحدة أكبر وأخطر من أن يُقاطعها أحد».

□

وهذه المرة الأخيرة - وهى العُبور التاسع والعشرون إلى أمريكا - خَطَرَ ببالى أن ذلك البَلَد الذى لا يستطيع - لحُسن الحظ، أو لسوء الحظ - أن يُقاطِعَه أحد يَحتاج إلى استكشاف جديد بعد مرور خمسين سنة على أول عُبور إليه سنة ١٩٥١.

....

....

[والشاهد أن إعادة استكشاف الأشياء والأفكار والظروف - وحتى الأمزجة - عملية ضرورية لابُد أن يقوم بها الناس ما بين الوقت والآخر - نوعاً من الحساب والمراجعة والتَثبت بالحَذف والإضافة حيال أزمنة مُتغَيّرة - وإلا فإن هؤلاء قد يَتَنبّهون ذات يوم وإذا الحقائق قد غافَلَتهم وسافَرَت إلى المستقبل، وتَرَكَتهم حيث تَوَقّفوا بظن - أو وَهم - أنهم «أدركوا» و«تيقّنوا» بما لم تعُد بَعده زيادة لمستزيد.]

....

....

وربما اعتَرَفتُ أننى فى ذلك العُبور الأوّل للمحيط - السفرة الأولى للولايات المتحدة الأمريكية - سنة ١٩٥١ - لم أرَتّب نفسى بما فيه الكفاية لإعادة اكتشاف العالم الجديد!

● وعلى نحو ما فقد تأثرتُ بالصورة الشائعة وقتها عن الولايات المتحدة الأمريكية، وانطباعها أن أمريكا بَلَد فادح الغِنى، وهو غِنى مفاجئ لم تُرَوّضه ثقافة مُتأصّلة، ونتيجة لذلك فإن هذا البَلَد قوة هائلة لكنها ساذجة - لم تصل إليها خبرة وحكمة القارات القديمة. وكذلك فهو بَلَد سَهل وبلا عُقَد كما تُعَبّر عنه أفلام «هوليوود» - على عهد براءتها الأولى. فهُم جميعاً رجال على رَسم النجوم أمثال «كلارك جيبل» و«روبرت تيلور» و«جارى كوبر»، وهُن نساء على رَسم «جريتا جاربو» و«نورما شيرر» و«بيتى دافيز»، وأما الأطفال فكلهم «ميكى رونى» (صَبى مَرح) - أو «شيرلى تمبل» (طفلة جميلة).

وبرغم هذه الصورة البَرّاقة فقد كان هناك كلام كثير خصوصاً فى أوروبا مُؤدّاه أن المخفى يَختلف عن المعلَن. وربما من هنا أننى فى تلك السفرة الأولى إلى الولايات المتحدة - قبل نصف قرن - وَضَعتُ فى حقيبتى عدّة مراجع لا بد أنها كانت تشير إلى شكوك ساوَرَتنى عن العلاقة بين المخفى والمعلن فى الشأن الأمريكى.

وأتذكر أن المرجع الرئيسى الذى رُحتُ أطالع فيه طول سفرتى الأولى عبر المحيط - كتابٌ ذاعَ شأنه وقتها للكاتب الإنجليزى الشهير «دوجلاس ريد» وكان عنوانه «بعيداً وواسعاً» Far and Wide. وما زلتُ أذكر فصل البداية فى الكتاب، ومُلَخّصه ما لاحظه «ريد» من أن «كل الأمريكيين يَجرون أو يُهَرولون. واستنتاجه أن بعضهم يُحاول الهَرَب من ماضٍ يَخاف أن يلحقه - وبعضهم الآخر يُحاول الإمساك بفُرصة يَخاف أن لا يَلحَقها!».

وعندما أراجع ما نشرتُه عن تلك السفرة الأولى إلى أمريكا - فى مجلة «آخر ساعة» - وكنت أرأس تحريرها فى ذلك الوقت - فإنى أستطيع الآن أن أتمَثّل الصورة التى رأيتُ عليها أمريكا وقتئذ:

● كتبت تحقيقاً عن الرأسمالية الكبيرة التى تحكم أمريكا، تكَرّر فيه استشهادى بكتاب «ستين عائلة تَحكُم أمريكا»، وكان ذلك كتاباً أوصانى بقراءته الدكتور «محمود فوزى» مندوب مصر فى مجلس الأمن (وقد أصبح الدكتور «فوزى» فيما بعد وزيراً للخارجية، ورئيساً للوزراء، ونائباً لرئيس الجمهورية).

● وتحقيقاً ثانياً عن «التمييز العُنصُرى» ضدّ السود فى أمريكا، وقد بَنَيتُه على زيارة قُمتُ بها إلى الجنوب الأمريكى، وإلى ولاية «لويزيانا» حتى عاصمتها «نيو أورليانز».

● ثم تحقيقاً ثالثاً وأخيراً عن «الجريمة المنظمة فى أمريكا»، وكان موضوعه ذلك الدور الذى تقوم به عصابات «المافيا» فى الحياة الأمريكية: فى الاقتصاد والمال - وفى السياسة بما فيها انتخابات الرئاسة والكونجرس بمجلسيه - وحتى فى مَجالات الفنون بما فيها عاصمة السينما فى «هوليوود».

ومع أن تلك كانت - ولا زالت - عَناصر مُهمّة فى الحياة الأمريكية، فإننى فيما بعد أدركتُ أنها جُزءٌ من الحقيقة الأمريكية، وليست كلها. وأن التركيز عليها وحدها - فى تلك السفرة الأولى إلى أمريكا - كان قصوراً - لعل بعضه جُموح شباب!

□

وربما أن جزءاً من هذا الجموح فى ذلك الوقت - يَرجع فى بعض منه إلى تأثير صديق كبير كان بالنسبة لى أيامها مزيجاً من «مُرشد ومُعلّم». وأقصد الدكتور «محمود عزمى»، وهو واحد من أهَمّ العقول المصرية المفكّرة فى العشرينات والثلاثينات من ذلك القرن العشرين، وكان رائداً من رُوّاد الكتابة الصحفية المتعمّقة فى قضايا الشرعية والديمقراطية والتجديد. وكان منذ عاد من بعثته إلى «السوربون» (فى باريس) لتدريس القانون فى الجامعة المصرية الوليدة (ذلك الوقت) -



قد انجذب إلى الحياة العامة، وشارَك فى الحوار النشيط الذى دار طوال العشرينات حول الخلافة، والدستور، وحقوق المرأة .. وغيرها!

وكنت قد تعرّفتُ على الدكتور «محمود عزمى» أواخر الأربعينات، وأصبَحتُ مَدعُواً كل يوم خميس إذا كنتُ فى مصر إلى بيته ـ فى حدائق القُبّة ـ حيث كان يعيش مع زوجته الروسية. وكان بيتهما حافلاً بثلاثة مواضع للجَمال قريبة إلى العَقل والقلب: كُتُب التراث العالمى ـ والموسيقى الكلاسيكية ـ وتلك الساعات المليئة بالتأمُّل والسكينة أمام مدفأة تتحاوَر فيها ألسنة النار فى ليالى الشتاء الباردة.

ثم كان أن لقيتُ الدكتور «محمود عَزمى» فى اليوم التالى لوصولى إلى نيويورك (سنة ١٩٥١) وهو وقتها عُضوٌ فى الوفد المصرى لدى الأمم المتحدة ـ ثم وَجدتُه ناقداً إلى دَرَجة النقمة على أمريكا وكل ما فيها، والسبب (كذلك عَرَفتُ منه ثم فَهِمتُ أكثر فيما بعد) أنه رغم عُضويّته فى الوفد المصرى إلى الأمم المتحدة ـ رَفَضَت السُلطات الأمريكية طَلَب تأشيرة دخول لزوجته (لأنها روسية ـ شيوعية ـ وكانت تلك ـ سنة ١٩٥١ ـ سَطوة السناتور «مكارثى» الشهير ـ الذى نُسبَت إليه فترة «المكارثية»، وهى اتهام ومُطاردة كل شبهة فى تَحَرُّر أو يَسار، واعتبارها انتماء للشيوعية يستوجِب البَتر والتطهير).

ولم تكن «بوشكا» (كما كان الدكتور «عزمى» يُدَلِّل زوجته) شيوعية ـ بل على العكس فقد كانت فى الواقع روسيّة بيضاء من أسرة هاجَرَت إلى باريس بعد «الثورة البلشفية»، والتقت بزوجها وهى تدرس القانون ـ مثله ـ فى «السوربون».

(والغريب أن القصر الملَكى ـ من أيام الملك «فؤاد» وحتى أيام ابنه الملك «فاروق» ـ كان يَعتبر «بوشكا» شيوعية ـ وكذلك فإن الدكتور «عزمى» وَجَدَ سَقفاً على فُرَصه فى الحياة السياسية المصرية لم يَستطع تجاوزه.)

لكن «المكارثية» السائدة والحاكمة فى أمريكا وقتها (وكذلك قُصور الشرق الملَكية) لم تُفرِّق بين أن تكون «بوشكا» روسيّة أو «بلشفيّة» ـ فقد كانت الواحدة مَوصولة بالأخرى زَمَن الاتحاد السوفيتى!

وعند وصولى إلى نيويورك عَرَفتُ أن الدكتور «محمود عزمى» يسكن فندق «الباربازون بلازا» المطل على «سنترال بارك». واتصلت به، والتقينا. وفى لقائنا مشينا من فندقه فى الشارع السابع إلى ميدان «التيمس» الشهير. وطوال الطريق كان الدكتور «عزمى» ساخطاً على كل ما يرى!

وأتذكر عند وصولنا إلى الميدان الشهير أن الدكتور «محمود عزمى» تَوَقّف أمام محل لربطات العُنق وقال ما مُؤدّاه «أن واجهة المحل وهى تُعرض العشرات من رَبطات العُنق صورة ناطقة بالذوق الأمريكى ـ فى تعبيره المباشر عن حال الثقافة الأمريكية».

وفى ذلك الوقت كانت ربطات العُنق الأمريكية صاخبة فى الألوان والأشكال والرسوم إلى دَرَجة تثير الاندهاش، وما هو أكثر منه أحياناً. وفى تلك الوَقفة أمام محل ربطات العُنق فى ميدان «التيمس» كان الدكتور «عزمى» يُشير إلى ربطة عُنق بالذات صفراء اللون، فى وسطها رسم عَين سوداء فقأها دَبُّوس حاد فسال بطولها نُقَطاً حمراء كأنها قطرات دَم. ثم مَضى يقول بمزيج من السُخرية والاشمئزاز: «تَفضّل يا سَيِّدى ـ هذه هى القِيَم الجَمالية للحَضارة الجديدة التى يَتَعَيَّن علينا أن نَتعامَل معها». ثم يُضيف الدكتور «عَزمى» بلهجَته المشهورة وقتها: «ها الله ها الله يا سيدى على الحضارة الجديدة»!

□

ومن الواضح لى ـ بعد زَمَن طويل ـ أن الدكتور «محمود عزمى» كان له تأثير من نوع ما على نظرتى إلى الولايات المتحدة ـ ذلك أننى بعد أسبوع فى نيويورك قصدتُ إلى «ديترويْت» لرؤية تلك القلعة الصناعية الكبرى (للسيارات)، وكان من حظى بتوصية من الوفد المصرى الدائم إلى الأمم المتحدة ـ أننى وَجَدتُ نفسى ضيفاً على مائدة غداء مع «هنرى فورد» (الثانى)، وهو وقتها رئيس مجلس إدارة شركة «فورد» للسيارات. ويومها كنا خمسة ضيوف على مائدَته من جنسيات مُختلفة.

ومساء نفس اليوم كتبتُ من «ديترويْت» خطاباً إلى الدكتور «عزمى» فى نيويورك أصف له وَقائع الغداء مع «هنرى فورد» (الثانى) قائلاً له:

«أنت فى نيويورك تشكو مما تُراه حولك من تُعبيرات الثقافة الأمريكية ـ فما بالك بما هو مَوجود هنا فى الداخل الأمريكى وما عِشتُه بنفسى اليوم فى «ديترْويْت» على مائدة «هنرى فورد».

تَصَوَّر ثلاث مُلاحظات قالها الرجُل فى ظرف نصف ساعة ـ وتأمَّل معانيها (الحضارية!):

ــ جلسنا مع الرجُل بضع دقائق قبل الغداء، ثم دعانا إلى المائدة بقوله: «أظن أننا فى حاجة إلى التَزَوُّد بالوقود»!

ــ وكان الطبَق الأول على المائدة حساء («كونسوميه») ساخناً جداً، وأراد مضيفنا أن يشرب بسرعة، وكان لابد من تَبريد الحساء، وهكذا أخذ «فورد» من وعاء فى منتصف المائدة قطعة ثلج وَضَعَها فى طَبَق الحِساء قائلاً: «هذا أحسَن». وراح يشرب.

ــ وحين فَرَغنا من الغداء والقهوة، وحان وقت انصرافنا، أشار لنا أن الحَمّام مَوجود إذا رأى أحدنا أن يَغسل يديه أو أراد شيئاً آخر، لكن إشارته إلى الحَمّام وَرَدَت بأسلوب «جِلف» لأنه قال لنا: «إن عادم الطاقة لابد أن يَجِدَ لنفسه مَخرَجاً»!»

ثم قلتُ للدكتور «عزمى» فى نفس الخطاب: «تَصَوَّر كل هذا الفساد فى الذوق والتعبير فى نصف ساعة»!

□

هكذا كانت نظرتى الأولى على الولايات المتحدة الأمريكية.

وأحسب ـ بأثر رَجعى ـ أنها كانت نظرة مشوبة إما بنوع من العَجَلة سارَعَت إلى اتخاذ موقف دون أن يكون لديها ما يكفى من المعرفة ـ أو أنها كانت مُنحازة مُبَكّراً مُتأثرة فى ذلك بدَواع غير مَوضوعية. لكنه فى تلك الأيام كان يُطمئننى أن شعوراً من الحساسية إزاء الأمريكان يَتَّسع ـ حتى فى أوروبا ـ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية. وكان فى إنجلترا على سبيل المثال تعبير ذائع يقول «إن العيب فى الأمريكان .. أن لديهم أكثر من اللازم فى الطعام ـ وأكثر من اللازم فى الملبَس ـ وأكثر من اللازم فى الجنس ـ وأكثر من اللازم فى وُجودهم هنا» (أى فى إنجلترا، وفى أوروبا بعموم).

وكان ذلك يُقال فى إنجلترا وفى أوروبا، وكان الرَدُّ الأمريكى عليه أنه الحقد والحَسَد لأن أوروبا التى فَلَتَت نفسها ـ بضرائب الدَم وتكاليف الدَمار ـ صانعة النصر فى الحرب العالمية الثانية ـ عَرَفت بعد انتهاء المعارك أن الموارد الأمريكية هى صانعة النصر الحقيقى، ثم إن الولايات المتحدة خَرَجَت من وَسط العاصفة مالكة لأهم ثروات العالَم: نصف ذهَبه فى خزائنها دَخَلَ قلعة «فورث نوكس»، وثلاثة أرباع بتروله امتياز تمسك عُقوده فى يَدها، ومائة فى المائة من قوته النووية فى ترسانتها.

وكذلك فهو الحقد والحَسَد من عالَم قديم ـ نحو عالَم جَديد.

ولم تكن أكثر المواقع حساسية تجاه الأمريكان أنهم الأغنى، أو الأقوى، أو الأوفر غذاء وكساء ـ وإنما كان مَوضع الوَجَع الحقيقى أن تَواجُدَهم وظهورهم «هنا» (فى أوروبا خصوصاً) ـ بَدا وُجوداً جاء ليُقيم ويَبقى!

وهنا كان الأمر يختلف هذه المرة فى المجىء الأمريكى الأول إلى أوروبا أثناء الحَرب العالمية الأولى.

فأمريكا التى شارَكَت فى تلك الحَرب ـ وادّعت أيضاً أن مَواردها صَنَعَت النصر ـ لم تَلبَث أن سَحَبَت قواتها عبر المحيط من حيث أتت، ولعله إحساسها أن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية (بريطانيا وفرنسا) ما زالت مُتماسكة بما فيه الكفاية ـ وبالتالى فإزاحَتها صَعبة ـ وإرثها مؤجلا بَعد!

وأما هذه المرة، بعد الحرب العالمية الثانية ـ فإن القوات الأمريكية التى شارَكَت فى الحرب لم تَعُد من حيث أتت، بل بَقيَت فى أوروبا، وكانت الإشارات واضحة، وأوّلها أن أمريكا أصبَحَت على يقين من أن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية لم تَعُد تستطيع أن تُحافظ على أمن دَولى أو استقرار.

وفوق ذلك، وهو الأخطر، فإن الإمبراطوريات الأوروبية التقليدية نفسها ـ ذلك الوقت ـ راوَدَها خَوفٌ من انسحاب أمريكى يَعود إلى الشاطئ الغربى للمحيط الأطلسى، ويَتركها وحيدة فى القارة الأوروبية أمام جحافل الجيوش الروسية التى زَحَفَت من الشرق إلى ألمانيا فى المعركة الأخيرة ضدّ «هتلر». وهذه الجَحافل الروسيّة لم تجئ إلى الغرب إعصار نار فقط، وإنما هى تَحمل وراء إعصار النار نظرية اجتماعية لها تلك «اللحظة التاريخية» فِعل حريق ـ وهى الشيوعية!

هكذا كانت أمريكا تريد أن تَبقى فى أوروبا ـ ولم تَكُن تُدارى فيما تُريد.

ثم إن أوروبا بدَورها كانت تَخشى أن تَبتعد أمريكا كما فَعَلَت مرة من قبل. وعلى أى حال فقد كانت لدى الأمبراطوريات الأوروبية بَقايا ثقة بالنفس جَعَلتها تَتَصَوَّر أن زمانها فيه عُمر ـ وأنها ما زالت قُوَى كبرى مهابة وليست إرثاً ضخماً يجرى حَصره استعدادا لإجراءات نقل ملكيّته!

....

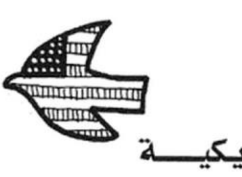
....

وهكذا فإن لقائى الأول السريع مع الولايات المتحدة أخَذه جُموح الشباب ـ وتأثَرَ أيضاً بما شاع وقتها فى أوروبا ـ ومنها إلى غيرها فى العالَم ـ ثم إنه استعار فى بعض مَواقفه نَظّارة صَديق!

على أن التجارب تُعَلِّم الناس أن الحقيقة أعقد من نظرة أولى ـ وأكبر من انطباع يشيع فى زَمَن بعينه، له أحواله ومناخه .. وأخطر من مأثورات تَنتشر حتى وإن كان فيها الكثير من الصِدق، والحكمة المختزلة. ■

الامبراطورية الأمريكية أصبحت ظاهرة غير مسبوقة فى قصة الإنسانية، فهى حاضرة فى كل قارة من قارات الدنيا. ضاغطة على كل إقليم. محشورة فى كل بلد. مندسة فى كل بيت. وتلك أحوال تدعو بالتأكيد إلى القلق لأن العالم لم يعرف من قبل دولة «متداخلة» إلى هذا الحد فى حياة ومستقبل غيرها من الدول

إذا كان مطلوبا إخـلاء الفضـاء المفتـوح من أية عوائق. ومن أية دعـاوى سـابقة على الادعـاء بملكيته بصـرف النظر عن أية حـقـوق سـابقـة تاريخـيـة، أو إنسانيـة، أو أخـلاقـيـة، أو قانونيـة. فـإن السـبيل إلى ذلك هـو القـوة، وقـوة السـلاح، وقـوة السـلاح وحـدها



٢

حـوارات طويلة مع السيـاســة الأمريكيــة

لم يَكـد يَمُـر عـام واحـد منذ عَـبَرتُ المحيط غـربًا لأول مرة - سـائحًا أكثـر مني دارسًا، ومُتفرجًا أكثر مني مَشغـولاً - حتى وَجَدتُ نفسي طرفًا نشيطًا في جَـدَل سياسـي طويل ومُعَقَّـد مع السياسـة الأمريكية.

ففي يوليـو سنة ١٩٥٢ - بعد عـام واحد بالضـبط من النظرة الأولى على أمـريكا - قـامت الثـورة في مـصـر، وكـان الخـصـم الخـارجي الطبيعي لهذه الثورة هو بريطانيا (التي تُحـتل مـصـر)، وفرنسـا (التي تُحـتل شمال أفريقيـا). وفي عملية الفرز الضـرورية للأوضاع الدولية - ذلك الوقت - فقد بَـدا أنه إذا أرادَ النظام الجديد في مصـر طَرَفًـا عالميًا كبيرًا يُـوازن القـوى الإمبراطورية المتَمَسِّكة بمواقعها - فليس أمامه غير بَديلين: الولايات المتحـدة الأمـريكيـة وهي مُنافس ظاهر يَطلُب إرث الإمـبـراطوريات القـديمة - والاتحـاد السـوفـيـتي وهـو عَـدُوٌّ زاحـفٌ يَطلُب نفس الشـيء وإن بوسائل مختلفة.

وكـان البديل السـوفـيتي فـي ذلك الوقت مُستَبعَدًا لأسباب كثيرة - عقائدية وسياسية وثقـافيـة وحـتى جـغـرافيـة - ومن ثـم كـان البديـل الأمريكي هو الخيار المعقـول، وربما زَكّـاه أن حـساسـية الإمبراطوريات القديمة تجاه الولايات المتحدة بَـدَت عامِـلاً مُسـاعِدًا، أو يمكن أن يكون مُساعِدًا.

وبصَـداقـة خـاصـة مع «جـمـال عـبـد النـاصـر» نشَـات وتَوَثـقت عُـراها تلك الأيام (ومـا زالت) - وَجَـدتُ نفـسـي في صـمـيم سياسـاته، خصوصًا وهي وقتها (وما زالت) شواغل الوَطـن وهُموميه!

ثم كان أن حَـضَـرتُ مُحـاولتـه الأولى في مُقاربة أمريكا وتشجيعها على دور اقبلَت هي أيضًا عليـه بحـقـائق الأشـيـاء في الشـرق الأوسـط، وكـان الأمَـل - تُـغـذيه تَصَـوُّرات مثـالية عن «دَولة كبرى» لم تَتَوَرَّط بعد في سياسات إمبراطورية - أن الولايات المتحدة أقـرب من غيرها إلى فـهـم تَطَلُّعـات الشعوب العَـرَبيـة (والآسـيـويـة والأفـريقـيـة) - والإحساس بأشواقها المشروعة إلى الحُرِّية في عـالَـم يجـرى بنـاؤه الآن على أسـاس مبـادئ وميثـاق الأمـم المتحـدة.

وكـذلك حَـضَـرتُ لقـاءات «جـمـال عـبـد النـاصـر» (وعَدَد من أعضـاء مجلس قـيادة الثـورة وقتها) مع السفير الأمريكي في مصـر تلك الأيام («جـيفـرسون كـافـري»). وكـان «كافري» (الذي عَرَفتُه قبلها بظروف العَمَل الصَـحَـفي) - واجـهـة لا تُعَـبِّـر بدِقَّـة عن الشخصية الأمريكية. فالرجُل أصلاً من عُنصر «أنجلوساكسوني» - تَمتلك أسـرته أرضًا شاسـعة في الجنوب الأمريكي من قبل الحرب الأهليـة. وكان عَمَله الطويل سفيرًا لبلاده في باريس قـد جَـعَـلَه - إلى جـانب أصل «أنجلوسـاكسـوني» - أقرب إلى «جنتلمان» من اسكتلندا منه إلى راعي بَقَـر من تكساس - أو من لويزيانـا!

وفي تلك الأيام (سـبـتـمـبـر ١٩٥٢) زارَ مـصـر نائب وزير الدفـاع الأمريكي «ويليـام فوسـتر»، وكـان ذلك أعلـى مستوى بَعَثت به الولايات المتـحـدة إلى مـصـر في حـينه. وتصـادف مَـجـيئـه مع بداية المفـاوضـات المصريـة - البريطانية في طلـب الجـلاء عن مصـر، وكـان ذلك شاغِـل الوطنية المصريـة الأول والأكبر. ومع الرغبة المشتركة (مصرية وأمريكيـة) في إقامة علاقات ود من نوع جديد ومُستوى أرقـى - فإن مصـر سَألَـت، وكـان السُّؤال على عَشاء أقيم لنائب وزيـر الدفاع الأمـريكي عن إمكانيـة شراء سـلاح أمريكي للجـيـش المصـري. وبَـدا الزائر في رَدِّه مُستعدًا لقبول الطلب، وفي بعض تعليقاته مُتَحَمِّسًا. ومع أن السفير «كافـري» الذي كان اللقاء على العَشـاء في بيتـه - بدا مُتَحَفِّظًا - فإن الحضـور جميعًا، وأوَّلهم «جمـال عبد النـاصـر»، اعتبروا أن «حماسـة» نائب وزير الدفاع الأمريكي هي الجَواب، وأن ما بـدا من تَحَفُّـظ السـفير الأمريكي هو جُملة اعتراضيـة داعـيـهـا التَّحَـوُّط الدبلومـاسي الزائد لدى البيروقراطية في أي بَلَـد في العالَـم!

وكان «كـافـري» - كما أظهَرَت التَجارب - على حَـق. وكان على حَـق أكثر من مَـرة:

ـ مـرة لأنه كـان يعرف مسبقًا أن كلمـة نائب وزير الدفـاع لا تُمَـثـل ارتبـاطا أكـيـدًا لحكومته (لأنه يتكلم اجتماعيا على عشاء في بيـت سـفـير لبلاده بعد أن احتسى كاسًا من الويسكي، وشَدَّ أنفاسًا من سيجـار فاخـر - كذلك كـان تعـبـير «كـافـري» بالنـص فيمـا بعد).

ـ ومرة ثانيـة لأن فترة سبتمبر ١٩٥٢ والشـهور التـاليـة لها فـتـرة انتـخابات رئاسـة أمريكيـة، والإدارة القائمة التي يُمَثلها «ويليام فوسـتـر» الضـيف الزائر - وهي إدارة الرئيس «هاري ترومان» - لم يَبـق لها في السُلطة غير ثلاثة شـهور انتقـالية، والكل واثِق مسبقًا أن الجنـرال «دوايت أيزنهـاور» هـو الفـائز - أي الرئيس القـادم - بعد الانتـخـابات في نوفمبر ١٩٥٢.

ـ ومرة ثالثـة لأن «كافري» كـان يعلم أن الولايات المتـحـدة لن تَتَطوَّع لمصـر بأي شيء مُقَدَّمًا - دُفعة على الحسـاب - خصوصًا من السـلاح. فـهي في تقـديره (وهو صـحـيح) تُفَضِّل أن تَتَفـاوَض وتُسـاوم مع حليفـهـا البـريطاني (بصَـرف النظر عن الهـواجس والشكوك) - ثم إن الولايات المتـحـدة إذا أعطـت شيئًا لمصـر فلن تُعطيها سلاحًا يُمكن أن يُستَخدَم ضدَّ إسرائيل.

ـ ومرة رابعـة لأن «كـافري» وهو يعـرف سياسة بلاده مُتـأكِّد أنها لن تُعطـي إلا بقدر ما تأخـذ أوَّلاً - فـإذا كـانت مـصـر تريد شـيـئًا فـعليـهـا أن تَدفَع مُقـدَّم ثمَنـه. ولأن أمـريكا لا تبـحث عـن «عَربون» مالـي من مـصـر وإنما تبـحث عـن «عربون» سيـاسي وإستـراتيجي - إذن فليسـت هناك صفـقـة مُحتَمَلة في القريب العـاجل - وربما بَعـده لأن مـصـر المطالبـة بجلاء الإنجليز (الإمبراطورية القديمة) عنها ليـست على اسـتـعـداد لأن تَدفَع «عـرابين» سياسية وإستراتيجية.

ـ وكـان «كـافري» على حـق - مـرة خامسة وأخـيـرة (وذلك شـيء لم أعرفه منه إلا بعد اعـتـزاله الخـدمـة بسنوات طويلة. وكـان قد ذهَبَ ليـعـيش آخـر أيامـه ويموت ويُدفَن في فـرنسـا) - لأنه كـان على يقـين بأن الولايات المتحدة لن تساعد أي بَلَـد عَرَبـي إلا إذا وَقَّـعَ اتفاقية صُلـح نهائي مع إسرائيل!!

....

....

لكن «جمـال عبد النـاصـر» أيامهـا - وبعد ثلاثة شـهـور من الثـورة - كـان أمْيَـل إلى تَصديق «ويليام فوسـتـر» نائب وزير الدفـاع، ولعله حُسن النيَّـة في السيـاسـة الأمريكية وقتهـا - أو لـعلها أمانيه غلَبَت دَلالة مَوقف «كـافـري» - الذي بـدا تَحَـفُّظه دون شـرح أسـبـابه - ثم آثـر الصـمـت حـتى انتـهى اللقـاء. ثـم ظَهَـرَ ذلك وكـأنـه الأدَب الدبلوماسي. بما مَعناه أن السـفير الأمريكي كمـا تَقتَضي اللياقة ألـزَمَ نفسه بالحدود الفاصلة بين السياسة والدبلوماسية!

ونتـيـجـة لتصديق «ويليام فـوسـتـر» استجاب «جمال عبد النـاصـر» لدَعوة وَجَّهتها وزارة الدفـاع الأمـريكيـة إلى وفـد مـصـري يـزور المنشآت العسكرية في الولايات المتحدة الأمـريكيـة - وقـد اعـتـبرها «جـمـال عـبـد النـاصـر» مُقَدِّمة تُمَهِّد لمفاوضـات. وكـان أن سـافَرَت بعثـة مصريـة لهذا الغَرَض رأسها «قـائد الجناح» الطيـار «علي صـبري» (وكـان وقتهـا مسئولاً في المكتب العـسكري لـ«جمال عبد النـاصـر»).

ثم حَدَث أن «جـمـال عـبد النـاصـر» طلب مني أن أسافر إلى الولايات المتحدة، بعيدًا عن الوَفـد العـسـكري، وظنه أنني أسـتـطيع المساعدة على إنجاح مُهِمَّة الوَفد بصداقـات يعـرف أنهـا قـائمـة بيني وبين عَـدد من الصحـفيين الأمريكيين البارزين وقتهـا، وكان معظمهم ممن عَرَفتُ وزاملتُ في مهـام عديدة عندما كنا جميعًا مراسلين لصُحُفنا في حروب «البلقـان» (الحـرب الأهليـة في اليونان ومـا حولهـا) - وفي مـعـارك فلسطـين (قبل قـيـام الدَولة اليـهـودية وبَعـده) - وفي أحـداث الثـورة الإيرانيـة (مـعـركة «مُصَدِّق» وتأميم البـتـرول الإيراني) - وفـي أزمـة الشـرق الأوسـط (الانقلابات والاغتيالات في سوريـا وغيرها) - وفي صـراعـات الشرق الأقصـى (كوريا - والهند الصينيـة - وفيتنام الأولى ضدَّ فـرنسـا) - وفي غيرها من شواغِـل تلك الأيـام.

وهكذا عَـبَرتُ المحيط غربًا للمرة الثانية إلى أمـريكـا. وفـي هذه المرة لم أكن زائرًا أو مُتَفَرِّجًا، وإنما كنت في مُهِمَّـة عَمَـل تَداخَلَت فيها السياسـة مع الصحـافة. فقد وَجَدتُها - أيضـًا - فرصـة مناسبـة لتـغطيـة مـعـركة الرئاسة في مرحلتها النهائية الحاسمة بين الجنرال «دوايت أيزنهـاور» عن الحـزب الجـمـهـوري - وبين منافـسـه «أدلاي سـتـيـفنسـون» عن الحـزب الديمقراطي.

ظهـرت أخـلاقيات وقـوانين وقـواعـد «نظـرية المنفعـة» الأمريكية، ومشى فقههـا من بداياته إلى نهاياته على أساس أنه إذا كان ما هو نافع مطلوبا، فإن ما هو نافع بـدوره مشـروع. مهمـا كانت وسـائله. وكـذلك ينبغـي أن يسـتقر القـانون وتصـاغ مواده



وفى ذلك الوقت. وفى إطار هذه المهمة التى تداخلت فيها السياسة مع الصحافة - اقتربت من بعض دوائر صُنع القرار الرسمى فى أمريكا، وضمنها قيادات الحزبين الكبيرين المتنافسَين فى انتخابات الرئاسة، وعَدَد من الرجال النافذين فى الإدارة القديمة («ترومان») ونُظرائهم القادمين مع الإدارة الجديدة («أيزنهاور» - السفراء الكبار فى وزارة الخارجية - وكذلك مع الجنرالات الأهم فى وزارة الدفاع).

ولم يَكن من المصادفات أننى وَجَدتُ موعداً تَحَدَّدَ لى مع مدير برامج المساعدات الأمريكية العسكرية (وهو وقتها الجنرال «أولمستيد») - فالذين قاموا على ترتيب جزء من برنامج اتصالاتى السياسية كانوا بغير شك يعرفون ما فيه الكفاية عن الأسباب المختلفة لقدومى إلى واشنطن.

....

....

وباختصار فقد كانت تلك الزيارة إطلالة أكثر تَدقيقاً وأشد تأنياً فى النظر إلى القوة الأمريكية الخارجة إلى المسئولية العالمية الأوسع.

والحاصل أننى عُدتُ - عبر المحيط - أقل تفاؤلاً مما ذهبتُ، وعلى شبه يقين بأن مُهمَّة بعثة شراء السلاح فى واشنطن (قائد الجناح «على صبرى») - مُهمَّة صَعبة - إن لم تكن مُستَحيلة - وكانت أسبابى وقد تَحَدَّثتُ بها مع «جمال عبد الناصر» مُضيفاً إلى رأيى شَواهِد ما استخلصته، ومنها:

١ - أن الولايات المتحدة لديها مشروع «حلف عسكرى» يقوم فى المنطقة بعد جلاء القوات الإمبراطورية (البريطانية والفرنسية) منها. وهناك تَلازُم بين العَمَليتين خطوة بخطوة - الخروج الأوروبى والدخول الأمريكى. (وذلك سمعتُه من الجنرال «أولمستيد» وهو يُحَدِّثنى عن خُطَّة لدى الولايات المتحدة لإقامة «حلف إسلامى» يملأ فراغ المنطقة العسكرى بعد جلاء الإمبراطوريات القديمة عنها - ثم يكون منه عُنصُر جَذب لعَشرات الملايين من المسلمين يعيشون وراء «الستار الحديدى» - داخل الاتحاد السوفيتى والصين.)

٢ - أن الولايات المتحدة لن تبيع لمصر سلاحاً تستطيع به مُحارَبة الإنجليز إذا تعَطَّلت مُفاوضات الجلاء من منطقة قناة السويس. (وذلك سمعته من الجنرال «جودباستر»، وهو من أركان حَرب الرئيس الجمهورى الجديد الجنرال «دوايت أيزنهاور»، وتَفصيله أن «رئيس الوزراء البريطانى «ونستون تشرشل» (وقتها) اتصل بـ«أيزنهاور» تليفونياً ليقول «إن الحكومة البريطانية تعرف بوجود وفد عسكرى مصرى فى أمريكا يَسعى لشراء سلاح، وأن هذا الوفد «يَظُن أنه يَستَنِد إلى وَعد رسمى أمريكى»، وأنه - أى «تشرشل» - لا يَتَصَوَّر أن صديقه الجنرال «أيزنهاور»، وهو القائد الأعلى لقوات الحلفاء فى معركة تحرير أوروبا، يرضى أن يُعطى للمصريين سلاحاً يقتلون به جنوداً حاربوا تحت إمرَته (إمرة «أيزنهاور») فى الحَرب المقدَّسة ضِدَّ النازية والفاشية.».

وخِتام ما سَمعتُه من الجنرال «جودباستر» أن «أيزنهاور» تأثر - وتَعَهَّد لـ«تشرشل» بأنه لن يُعطى المصريين طلقة رصاص (على فرض أنه كان فى النِيَّة أصلاً إعطاء شيء!)

٣ - أن الولايات المتحدة سوف تُحاول تحقيق صُلح بين العَرَب وإسرائيل كمقَدِّمة لمشروعاتها المقبلة فى الشرق الأوسط - وأنها إذا لم تستطع «بالإقناع» تحقيق هذا الصُلح، فسوف تُجازف لتحقيقه «بالفرض» مهما اقتضى ذلك من زَمَن أو من جهد. (وذلك سَمعتُه من «جون أندرسون» - وهو واحد من أقرب المعاونين إلي «أيزنهاور» وقد أصبح وزير خزانته - ومُلَخَّصه «أن أيزنهاور قاد حلفاً كبيراً لكل المعسكر الغربى، وهو بتفكيره لا يَعرف علاقة مع بَلَد واحد، وإنما يَعرف علاقة مع أقاليم كاملة «لأننا فى عالم جديد لا يَعتَرف بالحدود التقليدية للسيادات الوطنية». وإذا كنا ذلك «فإنك تستطيع أن تُدرك أننا لا نريد صراعات داخلية فى قلب هذه الأقاليم. وهذا يَعنى أن الصراعات الصغيرة يجب أن تُرَتِّب نفسها للصراع الأكبر مع الشيوعية الدولية، وتَنسى «خناقاتها» المحلية من نوع «الخناقة» بين العَرَب وإسرائيل - وهذا هو شَكل المستقبل!»

وقد رَويتُ ذلك كله وأكثر منه لـ«جمال عبد الناصر» عندما حكَيتُ له قصة تجربتى الأمريكية الثانية. والحقيقة أنه لم يكن مُفاجأً بما قُلتُه. فقد وَجَدتُه بعد أن غِبتُ عنه قرابة شهرين أقل تفاؤلاً. والظاهر أن مُتابَعَته لمهمَّة البعثة العسكرية («على صبرى») إلى الولايات المتحدة جَعَلَته أكثر حَذراً فى «تَوَقُّعاته» الأمريكية!

□

ومن أوائل الخمسينات وحتى أوائل الثمانينات من القرن العشرين عَبَرتُ المحيط غرباً إلى أمريكا أربعاً وعشرين مرة، وشارَكتُ فى حِوارات ومُناقشات بلا نهاية (وبلا نتيجة) مع إدارات أمريكية عديدة ومع رجالها من الساسة ومن العسكريين - فى البيت الأبيض وإداراته، وفى الكونجرس بمجلسَيه، وفى وزارتى الخارجية والدفاع، وفى هيئة أركان الحرب المشتَرَكة - بل وكذلك فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

وبسرعة واختصار فقد قابلتُ وتَحَدَّثتُ مع الرئيس «دوايت ايزنهاور» وأبرز أركان إدارته وهو وزير خارجيته «جون فوستر دالاس» - وفيما بعد قابلت وتَحَدَّثتُ مع الرئيس «جون كنيدى» وأبرز أركان إدارته، وكانوا مجموعة من أكفأ وألمع ما شَهِدَ البيت الأبيض، وبينهم وزير الخارجية «دين راسك»، ومستشار الأمن القومى «ماك جورج باندى»، ووزير الدفاع «روبرت ماكنمارا»، إلى جانب رجال أحاطوا بالرئيس زمانها وأشهَرهم المؤرِّخ الكبير «أرثر شليزنجر» و«إدوارد سورنسون» و«بيير سالنجر» - ولم تُتَح لى الفرصة لمقابلة الرَجُل الذى خَلَف «جون كنيدى» بعد اغتياله، وهو الرئيس «ليندون جونسون»، لكنى قابلتُ أقرب الناس إليه، وبينهم «والت روستو» مستشاره للأمن القومى، وشقيقه «جين روستو» الذى بقى قوة مُحَرِّكة فى وزارة الخارجية الأمريكية مع «دين راسك» الذى واصَلَ مع «جونسون» ما بَدَأه مع «كنيدى» - ثم قابلتُ (واستضفت فى بَيتى فى القاهرة) الرئيس «ريتشارد نيكسون»، وتَحاوَرتُ طويلاً معه ومع أركان إدارته، وأهَمُّهم مستشاره للأمن القومى «هنرى كيسنجر»، ووزير خارجيته الأول «ويليام روجرز» - ولم تُتَح لى الفرصة أن أقابل الرئيس «فورد» الذى خَلَفَ «نيكسون» بعد فضيحة «ووترجيت»، لكن إدارته ظلَّت فى الواقع هى إدارة «نيكسون» حتى خَسِر معركة الانتخابات سنة ١٩٧٦ - وقابلتُ وتَحاوَرتُ مع الرئيس «جيمى كارتر»، وكبار مساعديه وبينهم مستشاره للأمن القومى «زبجنيو برجينسكى»، ووزير خارجيته «سايروس فانس» - ولم تُتَح لى الفرصة أن أقابل الرئيس «رونالد ريجان» - لكنى لقيتُ وحاوَرتُ أهَمَّ أقطاب إدارته وضمنهم «ألكسندر هيج» مستشاره للأمن القومى، و«جورج شولتز» وزير خارجيته.

وفى تلك الفترة كذلك (ما بين أوائل الخمسينات إلى أواخر الثمانينات) قابلتُ وتَحاوَرتُ مع غير هؤلاء كثيرين فى أمريكا من المفكرين والأدباء (من «كنيث جالبرايت» إلى «نورمان ميلر») - ومن رجال الأعمال إلى نجوم هوليوود (من «دافيد روكفللر» إلى «لانا تيرنر») - ومن مسئولى عوالِم الأسرار إلى ملوك الإعلام (من «آلان دالاس» أشهَر مُدير لوكالة المخابرات المركزية - إلى «كاترين جراهام» صاحبة مجموعة صُحُف «واشنطن بوست»).

ولقد أضفتُ إلى ذلك كله قراءات لها بداية وليست لها نهاية. ثم إنها تَشعَّبَت بعيداً وواسعاً (على حَدِّ تعبير «دوجلاس ريد» فى كتابه الشهير).

وبناءً عليه كله فقد أستطيع القول بأننى اقتربت وعايَنتُ وخالَطتُ بنفسى عقل القوة الأمريكية وقلبها. ومع ذلك فقد ظَلَّ يُراودنى إحساسٌ بأن ما عَرَفتُه عن الولايات المتحدة ليس كافياً - على الأقل ليس كافياً لكى يُفَسِّر لى طبيعة السياسة الأمريكية، ومَطالبها، ودوافعها، وأساليبها.

ولقد ظننتُ أن التجربة المباشرة فى التعامُل مع القوة الأمريكية حَسَّنَت معرفتى بحقيقتها. لكنى مع ذلك ظللتُ على يقين بأن ما أعرفه ليس كافياً.

بمعنى أن عُبورى الأول للمحيط سنة ١٩٥١ تَرَك علىَّ انطباعا - جاء قاصراً.

ثم إن عُبورى الثانى للمحيط سنة ١٩٥٢ - تَرَك لدىَّ إحساساً بخَيبَة الأمَل.

وتلى ذلك من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٨٦ أربعة وعشرون عُبوراً للمحيط إلى الغرب - أضافت إلىَّ بغير شك حَصيلتها. لكنه بَقى يُراودنى على نحو أو آخر إحساسٌ بأن ما أعرفه عن أمريكا ما زال دون المطلوب.

ولقد ظننتُ فى بعض الأحيان أننى تَوَصَّلتُ بطول الدَرس وتَتابُع التَجارب إلى مجموعة من المفاتيح تَصَوَّرتها مُهِمَّة لفهم أمريكا!

وإلى حَدٍّ ما فقد يكون لهذا الظن بعض ما يُبَرِّره. ■

بادأنى «كيسنجر» بقوله:

- أريد أن أسمع منك

كل ما تريد قوله لى

عن الأزمة الحالية فى الشرق الأوسط،

لكن لى شرطين:

أولا - لا تحدثنى عن التاريخ

وثانيا: حدثنى عن مصر وحدها

عـــرفت الولايـــات المتحـــدة
ومارســـت مبكـــرا «حـــدود ســـيادة»
على أرض القـــارة الأمريكيـــة، ثم رســـمت لنفســـها «حـــدود أمـــن»
وصـــلت إلى منتصـــف المحيـــط. وذلك ما أخذته
إســـرائيل فيما بعـــد ومارســـته

٣

هل تكفى هذه المفاتيح لفـــهـــم أمـــريكـــا؟



أظنني تَوَصَّلْتُ بالتجربة والمعايَنة، وبالقراءة والدَّرس، إلى «تسعة» مفاتيح حَسَبْتها مطلوبة لفتح بَوَّابات أمريكا، والدخول منها، والبَحث وراءها عن الأشياء والأحوال، بما قد يَسمَح بفهم أو برؤية تُعَزِّز فعلاً أو تُسند رَدَّ الفعل!

ومع أن الظن قد يكون إثماً، فإنني أجازف بعَرض المفاتيح التى تَوَصَّلْتُ إليها - تاركاً الحُكم لغيرى - أعلَم وأقدَر.

■ **المفتاح الأول:**

أن الولايات المتحدة بَلَد مَحظوظ: لديه كثير من الجغرافيا وقليل من التاريخ. ومعنى ذلك أن لديه غِنى في الموارد بلا حدود، وخِفَّة في أثقال التاريخ وحُمولاته لم يَتَمَتَّع بها غيره، وذلك مَنَحَه اطمئناناً إلى وَفرة مادية طائلة - ثم إنه أعفاه من وَساوس تاريخية ينوء بها عَديد من الأوطان أو البلدان.

والذاكرة الوطنية للشعوب فى بعض الأحيان عبء بمقدار ما هى حافز - لكن الهجرة إلى أمريكا كانت مَشروطة بالتَخلِّى عن القديم والبدء من جديد لمن يَبغون الفُرَص الطموحة.

وإذا اعتبر هذا الحال فقراً في الإرث أو التراث - فإنه كان فى نفس اللحظة عَوناً على مُواجَهة المستقبل مُفرَغاً من العُقَد والمسئوليات مما يُخَلِّفه الإرث أو التراث.

وفى حين أن شعوباً أخرى أرهقتها تجارب القرون (من أول التاريخ) فإن الشعب الأمريكي بدأ مسيرته فى الواقع منذ القرن السابع عَشر الميلادى، وبالتالى فقد كان أكثر شَباباً وأكثر نشاطاً من غيره، فهو فى بداية العُمر، وعُنفوان الصِبا (فى حين كان غيره فى آسيا قُرب الشيخُوخة - وفى أوروبا قُرب الكهولة).

وفى حين أن كل الحقائق لها بدايات ومُقَدِّمات فى فكر عامة الشعوب - فإنه فيما يَخُصُّ الشعب الأمريكى - كل الحقائق تبدأ الآن. هنا والآن.

....

....

[وذلك يُذَكِّرُنى بليلة من الليالى (ليلة ٧ نوفمبر ١٩٧٣ - أى بعد أسبوعين اثنين من تَوَقُّف معارك حرب أكتوبر) - وتلك ليلة ظللتُ فيها مُؤَرقاً حتى الصباح أفكر فى وقائع لقاء تَمَّ فى المساء بين «هنرى كيسنجر» وبينى - وفيه بادَأنى «كيسنجر» - بقوله:

ـــ «أريد أن أسمع منك كل ما تريد قوله لى عن الأزمة الحالية فى الشرق الأوسط، لكن لى شرطين:

أولاً - لا تُحَدِّثنى عن التاريخ. حَدِّثنى عن الواقع الراهن هذه اللحظة - لأننا من هنا نبدأ.

وثانياً - حَدِّثنى عن مصر وَحدها، ولا تَقُل لى شيئاً عما تُسَمُّونه أنتم «الأمة العَرَبية» - أعرف أن هناك شعباً فى مصر - هذه حقيقة - ولكن أن هناك أُمَّة عَرَبية فذلك ادِّعاءٌ تقولون به، وهو لم يَثبُت لى، وبالتالى فلستُ مُستَعِداً له!»

[وكان ذلك سَبَب الأرَق - ومعه الدَهشة - لأن ذلك الرَجُل الذى كان دارساً وأستاذاً للتاريخ - لم يَعتَبر التاريخ بداية لأى شىء، وإنما اعتبر اللحظة الراهنة بداية كل شىء!]

ومع أن ذلك بدا لى مُستَغرَباً، فإننى كنت على يقين أن ذلك الطلب صَدَرَ منه عن قناعة لديه بأن «التاريخ بدأ اليوم»!

ومع أنى حاولتُ أن أشرح له أن تلك البداية تلغى الحقوق - بل وتهدر القانون. فقد كان منطقه «إننا إذا كنا نريد التعامُل مع الماضى فسوف نَظل فى الماضى، وإذا أردنا المستقبل فأول المطلوب منا أن ننسى» - (وبالطبع فقد كان ذلك منطق التجربة الأمريكية أصلاً وأساساً!)]

....

....

■ **المفتاح الثانى:**

أن الولايات المتحدة لم تنشأ كوَطن، وإنما نشأت كمَوطن. ولم تبدأ كدَولة، وإنما بدأت كملجَأ. أى أن الولايات المتحدة فى واقع الأمر بَدَأت ونشأت كفضاء مفتوح لكل من يَقدر على عُبور المحيط أو يَضطر لعُبوره وإن تَنَوَّعَت الأسباب: كان هناك المهاجرون الأوَّل من المغامرين - ثم لحقهم المنفيُّون ممن كانت دُوَل أوروبا راغبة فى التخلُّص منهم لأسباب سياسية أو أمنية - ثم كان هناك الهاربون من الاضطهاد العُنصُرى أو الدينى - ثم كان هناك الباحثون عن الثروة فى بَلَد تَكَشَّف أن مَوارده بلا حدود من الأرض إلى الماء - ومن الفضة إلى الذهَب!

ومنذ تَمَّت رحلة «كريستوفر كولمبس» الأولى - ثم الثانية - كانت الأخبار فى العالَم القديم عن العالَم الجديد أسطورية. فتلك هى «أرض الميعاد» الحقيقية تَتَّسع لكل من يشاء، وفيها ما يَحتاج إليه وأكثر، ثم إنها أرضٌ بلا ملوك - ولا كنيسة - ولا إقطاع - ولا قانون - ولا بوليس، وإنما هى فضاء مفتوح لأى قادر على عُبور المحيط، وعلى التعامل مع الحدود القابلة للاتساع والتَمَدُّد كل يوم.

....

....

[وربما أنه من هنا يمكن فهم استعداد السياسة الأمريكية فى هذه اللحظة أن تتقدم لأى مشكلة بمقترحات غير محكومة بثوابت، وبمنطق أنه لا ملوك - ولا كنيسة - ولا إقطاع - ولا قانون - ولا بوليس - وإنما هو فضاء مفتوح!

وكذلك يَتَوَصَّل رئيس ذكى مثل «بيل كلينتون» إلى أنه من «صالح العَرَب» أن يَترُكوا القدس لإسرائيل - وإذا كان العَرَب والمسلمون على تصميمهم بأن «القدس عَرَبية» فإنه فى مَقدورهم تَغيير اسم قرية قريبة «وراء التل» - هى «أبو ديس» - لتُسَمَّى «القدس» - وميزتها أنها على بُعد كيلومترات قليلة من القُدس الأصلية أمام التل. ثم يُضيف إنهم فعَلوا ذلك كثيراً فى أمريكا، فهناك مُدُن كثيرة فى أمريكا اسمها «القدس»، وهناك مُدُن اسمها «القاهرة» - «والإسكندرية» - و«بيروت»!]

....

....

■ **المفتاح الثالث:**

أن الفضاء المفتوح لا يَقبل بأى عوائق من أى نوع، سواء فى ذلك الطبيعة أو حتى سكانها الأصليون، ذلك أن الطبيعة لابد لها أن تَتَّسع بما يوافق طموح القادمين بحثاً عن الفرصة، ثم إن السكان الأصليين عليهم أن ينزاحوا وإلا فهُم تَذكرة دائمة للقادمين الجُدُد بأن هناك حقوقاً سابقة تُعتَرض حقوقهم اللاحقة، وذلك خلط مادى ومعنوى كبير يجب تسويَته - وبكل وسيلة مُتاحة!

هكذا أخذت أمريكا
من العالم القديم كل
ما أرادتـــه دون معـــاناة
أو ألـــــم. دون
حقوق أو رسوم

كذلك عـرفت
التجربة السياسيـة
الأمـريكيـة نفـوذا يتـوسع
بالبيــع والشــراء،
وبالخصم وبالتقسيط!

وهكذا فإنه بعد النزول الأول على الشواطئ الشرقية للقارة - شواطئ الأطلسى عبر أوروبا - فإن النفاذ إلى الداخل أصبح مُعَلَّقاً بما يستطيع الجواد أن يَرمَح فيه ويَستَحوذ عليه ويَضُمُّه. ثم إن الأمن فى الداخل أصبح مَرهوناً بما يستطيع المسَدَّس أن يُسَيطر عليه من الفضاء المفتوح، ويخليه ويَضمنه.

وكذلك فإنه إذا كانت الغابات والأحراش عائقاً، فإن الغابات والأحراش عليها أن تَزول - وإذا كان الهنود الحُمر وراء التلال والجبال مُلاكاً - على نحو ما - للأرض، فإن هؤلاء الهنود الحُمر يَتَعَيَّن أن يَختفوا - وجوداً وظلاً.

....

....

[وهنا يمكن فهم الرؤية الأمريكية لقضية فلسطين، فالمستوطن اليهودى ليس فقط مُهاجراً إلى أرض جديدة، وإنما هو كذلك وبقوة الجواد والمسَدَّس (المجَنزَرة والمدفع الرشاش هذه المرة) عائد إلى أرض يَملك عليها امتيازا من قديم (وهذه حُجَّة إضافية يزيد عليها أنه إذا كانت الغابات والأحراش فى القارة الأمريكية قابلة للإزالة - فإن «الخَلاء»! - الفلسطينى من باب أولى لابد من تجهيزه للاستيطان، ثم إن «الفلسطينى» الأصلى (!) - شأنه شأن الهندى الأحمر - عليه أن يَختفى وجوداً وظلاً - ولم لا؟ - إذا لم يكن للحق الأزلى اعتبار قانونى، وإذا لم يكن للحقائق الحَيَّة على الأرض قبل المستوطن اليهودى (وقبل المهاجر الأمريكى) اعتبار إنسانى وأخلاقى!]

....

....

■ **المفتاح الرابع:**

أنه إذا كان مطلوباً إخلاء الفضاء المفتوح من أى عوائق - ومن أى دعاوى سابقة على الادعاء بملكيَّته بصرف النظر عن أية حقوق سابقة تاريخية، أو إنسانية، أو أخلاقية، أو قانونية - فإن السبيل إلى ذلك هو القوة، وقوة السلاح، وقوة السلاح وحدها.

وعندما تَتَجَرَّد قوة السلاح من كَوابح المبادئ والقيَم والثقافة - مع غياب كافة أنواع الشرعية - فإن السلاح يطيح - بدون مُقَدِّمات، وبغير ضَوابط - وبالتالى تكون الكلمة الأولى فى أى لقاء هى تصويب المسَدَّس، والكلمة الأخيرة هى الضغط على الزناد، وكذلك تَتَحَوَّل القوة فى حَدِّ ذاتها إلى مَصدَر للمشروعية، وبها وليس بغيرها يَتَحَوَّل «الاغتصاب» إلى «حيازة»، وتَتَحَوَّل «الحيازة» إلى «ملكيَّة» تَسُنُّ لنفسها قوانين جديدة تتعامَل بها الأوضاع المستَجَدَّة فى تنظيم علاقات الغَلَبة والسيطرة.

وكان ذلك ما حَدَث طوال قرنين من الزمان، فقد كان على أرض أمريكا الشمالية - ووديانها وسهولها ومروجها وجبالها - ما يُقَدَّر عَدده بخمسين مليونا من الهنود الحُمر عندما ظهَرَت «سانتا ماريا» - سفينة «كريستوفر كولمبس» - تَتَقَدَّم سفينتين وراءها. ثم ظلَّت أمريكا الشمالية تَسمَع طلقات



الرصاص، وتلمح من بعيد دُخانه، وترى على الأرض بُقع دَمه. وحين هَدأت الضجة تَبَيَّن أن ذلك الشعب النبيل الذى رَفض أن يَستسلم للنازلين على شواطئه والزاحفين على أرضه لم يَعُد باقياً منه غير مليونين أو ثلاثة.

....

....

[وهنا يُمكن فهم المنطق الذى تحاورَت به السيدة «مادلين أولبرايت» وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة فى مقابلة تليفزيونية (مايو سنة ١٩٩٨):

سُئلت «أولبرايت» عن استقالة اثنين من مُفوَّضى الأمم المتحدة مَسئولَين عن تنسيق برامجها فى العراق، وهما «دنيس هاليداى» و«هانز فون سبونيك» - كلاهُما قدَّمَ استقالته لأنه لم يَستطع أن يَحمل على ضميره وزرَ وفاة نصف مليون طفل عراقى راحوا ضحيَّة نقص الغذاء والدَواء بسبب الحصار الذى تفرضه الولايات المتحدة (باسم الأمم المتحدة!) على العراق؟

ورَدَّت «أولبرايت» قائلة للسائل بالحَرف: «ربما أنه ثمَنٌ غال كما تقول، لكننا نرى أن الهَدَف الذى نطلبه يُساوى ذلك الثمَن وأكثر منه»!!]

....

....

■ المفتاح الخامس:

أن الضمير الأمريكى كان يَتَعَيَّن عليه أن يَجد مسوغات مَعنوية ونفسية تُبَرِّر له جوانب العُنف والقسوة فى مغامرته التى بَدَأها على الشواطئ الأمريكية، ومنها إلى الداخل والوسط، وحتى أقصى الغرب. وهنا تأسَّسَ فكر راحَ يَستكمل ويَستوفى مطالبه وضروراته حتى تحَوَّلَ إلى مَدرَسة بأكملها.

وكانت بداية التأسيس من عناصر المهاجرين بسبب الاضطهاد الدينى، ومن المفارقات أنه من عندهم ظهَرَت «نظرية المنفعة» فى طبعَتها الأمريكية، وفى سياقها الأساسى وخلاصتها:

● أن الله لم يَخلق هذه الأرض وما عليها عبثاً، وإنما خَلَقَها لبَشَر سواهم على مثاله.

● وإذا كان ذلك فإن هؤلاء البَشَر - على مثال الإله - مُكلَّفون بما يَنفع الأرض ويُحقِّق عليها كلمة خالقهم.

● وإذا كان نَفع الأرض هو هَدَف البَشَر فإن الأقدَر منهم على النَفع هو الأحَق بالقيام عليه.

● وإذا كانت هذه الأرض فى حَوزة الهنود الحُمر منذ نَشأة الحياة، ولم يقوموا بحَقِّها - فإن مَشيئة الله تتحَقَّق بأن يَحِل محلهم من هو أقدَر منهم.

وكذلك ظهَرَت أخلاقيات وقوانين وقواعد «نظرية المنفعة» الأمريكية، ومَشى فقهُها من بداياته -!- إلى نهاياته على أساس أنه إذا كان ما هو نافع مَطلوبا - فإن ما هو نافع بدَوره مشروع مهما كانت وسائله - وكذلك ينبغى أن يستقر القانون وتُصاغ مواده.

....

....

[وهنا يُمكن فهم ما يَراه العَرَب ويَنسبونه أحياناً إلى بَلادة فى شعور الرأى العام الغَرَبى تجاه اغتصاب فلسطين.

فقد نَجَحَت إسرائيل أن تُرَسِّخ لديهم - على عكس الحقيقة - صورة مُؤدَّاها أن فلسطين كانت صحراء جرداء قبل أن ينزل عليها الخصب الصهيونى.

ومالك الأرض الحقيقى - والقانونى - ليس مالك صَكِّ الملكية، وإنما القادر على الأرض أكفأ - والممسك بها أقوى - ذلك أن الصَكَّ وَرَقة - وأما الحَق فهو القوة.

وهذه نُقطة مركزية تستحق فهما عَرَبياً أعمق، فالعَدل حُلم الضُعَفاء - لكن القانون يكتبه الأقوياء.

وغير ذلك هو الادِّعاء.]

....

....

■ المفتاح السادس:

أن كل شىء فى أمريكا سَهل ومُيَسَّر، فذلك الوَطن الأمريكى الذى أعفى نفسه من أعباء التاريخ القديم، والشرائع السابقة، والتقلُّصات والتقلُّبات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، والحروب والثورات التى صَهَرَت قارات العالَم القديم منذ فجر الوَعى الإنسانى - وَجَدَ نفسه فى وَضع لم يُتَح لوَطن من قبل:

- قارة بكامل مَواردها فضاءً مفتوحاً، وقد استطاع المهاجرون أن يملئوا «فراغها»، وأن يَستولوا على الأرض وما فوقها.

- وهؤلاء المهاجرون استطاعوا فى قرنين اثنين تأسيس مَوطن - تحَوَّل إلى وَطن - له ثروته المادية، وله فكره المتَحَرِّر من القيود، وله طرائقه فى الإنتاج والحياة، وله قوانينه - بل وله أخلاقه.

- ثم إن هذا الوَطَن التفت إلى يمينه من خريطة العالم فوَجَدَ أوروبا إلى الشرق من الأطلنطى وقد وَصَلَت إلى عَصر النهضة، وفاضَت فيها الفلسفات والعلوم، والآداب والفنون، والمعارف والثقافة، ومعها تكنولوجيا من نوعٍ مُذهِل يَحِل فيه البخار مَحَل عَضَلات الناس من الأحرار كانوا أو من العَبيد (وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك فى أوروبا نبوءات مُبَكِّرة عن طاقة الكهرباء (وهى سِحرٌ قادرٌ على كل شىء!)

ولم يُرهِق المجتمع الأمريكى نفسه فى إعادة إختراع الأشياء!

نظَرَ إلى أوروبا ونَقَل، وذهَبَ إلى أوروبا واشترى، وعايَن ما وَجَدَ أمامه واختار ما رآه نافعاً - مفيداً - أو حلواً. وكان له ما أراد بغير مَوانع. ولم تكن هناك على الفن والفكر - من «شكسبير» و«دانتى» إلى «روسو» و«مونتيسكيو» - حقوق ملكية فكرية - ولا كانت هناك على موسيقى «بتهوفن» أو «موزار» أو «باخ» أو «فيفالدى» أو غيرهم حقوق أداء علَنى - وكانت كل المخترَعات من قوة البخار المحَرِّكة إلى قوة العَدَسات المبصرة، ومن المدافع بعيدة المدى إلى القطارات المسافرة فوق قضبانها حيث تمتد - مَعروضة لمن يَشاء فى السوق دون شروط تعجيزية من نوع ما تواجهه الدُوَل النامية الآن (وأوَّله أن تدفع من اللحم الحَى ضرائب كل شىء تريد أن تأخذه من العالَم، حتى الكتاب، والفكرة، والنَغَم).

وهكذا أخذت أمريكا من العالَم القديم كل ما أرادَتهُ دون مُعاناة أو ألم - دون حقوق أو رُسوم.

....

....

[وكذلك يُمكن فهم تعَوُّد الأمريكان على طَلَب الأشياء - مادية ومعنوية، من حقوق الثروات الطبيعيَة إلى حقوق السيادة الوَطنيَة - بلا عناء - مقابل ثمَن نقدى يُدفع، ثم يتم شحن البضاعة!

وذلك بالضبط - على سبيل المثال - ما جرى فى صفقة شراء الرئيس الصربى السابق «سلوبودان ميلوسوفيتش»، وكانت الصفقة بَيعاً وشراء - تسليماً وتَسَلُّماً - قيمتها بليون دولار. والغريب أن الولايات المتحدة رَتَّبَت دَفعَها قسمة مع آخرين:

٤٤٥ مليون دولار يَدفعها الاتحاد الأوروبى.

٢٠٠ مليون دولار يَدفعها أطراف دَوليون مُختلفون منهم سويسرا واليابان.

١٥٠ مليون دولار يَدفعها البنك الدَولى.

وأما الولايات المتحدة الأمريكية نفسها فقد كان نصيبها النَقدى فى الصفقة ١٨٢ مليون دولار - لكن الصفقة جَرَت تحت إشرافها وإدارتها!]

....

....

■ المفتاح السابع:

أن التجربة الأمريكية جاءت بسابقة مُغايِرة لما كان قبلها فى التاريخ. فالعادة أن الأوطان تظهَر مع ظهور الدُوَل فيها، داخل رُقعة مُحَدَّدة من الأرض لها أطراف وحدود وتضاريس طبيعية تُحَوِّل مَوطن أى مُجتمَع إنسانى إلى وعاء مُستقل بذاته وصفاته - ومن ثم تُمَهِّد لظهور سُلطة فيه ترسِم حدود الدَولة وتُشهِر قيامها.

فى أمريكا اختلف الأمر. تأخَّرَت الدَولة كثيراً عن الظهور، وإن تناثرَت على سطح القارة بُؤر استيطان وعُمران مَكشوفة راحَت حتى عُصور مُتأخرة (القرن السابع عشر والثامن عشر) تُدافع عن نفسها بوسائل ابتدعتها من إنشاء شركات إلى إنشاء ميليشيات. ولما كانت الهجرة إلى أمريكا مُستجَدَّة، والثروات وَفيرة، فإن الدُوَل الأوروبية تَدافعَت، وراح ملوكها يَبسطون حمايتهم على مساحات تفوق حجم ممالكهم الأصلية، وكذلك كانت سيادتهم رمزية.

لكن المجتمعات الاستيطانية الجديدة فى أمريكا رأت لنفسها مَصالح مُختلفة عن مصالح هؤلاء الذين رأوا الفراغ الناشئ عن وجود «دَولة أمريكية» وتَقدَّموا لملئه - وهنا ظَهَرَت حركة الاستقلال الأمريكية يقودها «جورج واشنطن»، وكانت بدَورها معركة سهلة، ذلك أن السيادات الملَكية الأوروبية كانت رمزية، ثم إن المجتَمَعات الاستيطانية الجديدة فى أمريكا كبرَت واتَّصلَت، واشتدت حاجتها إلى دَولة وَطنية تحفظ لها مَصالحها المتَمَيِّزة عن غيرها، وتكفل للجميع أمناً مُشتركاً. وكذلك اتحدت الولايات، أو بعضها، فى حَرب لطَلَب الاستقلال - ثم تقاتَلَت الولايات مع بعضها فى حَرب لطلب الوحدة - ثم تَوَصلَت التجربة إلى شكل الدُولة الاتحادية - يَقوم عليها مركز قوى يَملكه الجميع - وحقوق مُتساوية تمارسها الولايات دون وصاية من المركَز. وفى ذلك كله كان الوَطَن الأمريكى يَتَوَسَّع من الشرق إلى الغرب، والمدهش أن «الفتح» لم يَجر بالسلاح فى بعض الأحيان، وإنما جرى بالشراء: جزيرة «مانهاتن» وعليها «نيويورك» جرى شراؤها مَرَّتين (زعيم هندى أحمر باعَها إلى شركة هولندية - وبعدها بعَشرات السنين باعَتها الشركة الهولندية إلى الولاية الأمريكية). ولاية «كاليفورنيا» - صفقة بالبيع والشراء من أسبانيا. «لويزيانا» صفقة مع فرنسا.

....

....

[كذلك عَرَفت التجربة السياسية الأمريكية نفوذاً يَتوَسَّع بالبيع والشراء، وبالخصم وبالتقسيط!

وربما هنا فإنه يُمكن فهم ذلك الشعور الجازم فى الكونجرس الأمريكى «بأننا اشترينا السلام فى الشرق الأوسط بحزمة مُساعدات أمريكية مُلحَقة باتفاقية كامب دافيد بين مصر وإسرائيل، واسمها الرسمى هو «جائزة السلام» - وقيمتها خمسة بلايين دولار سنوياً - تُقسَّم بنسبة أكثر من ثلاثة لإسرائيل وأقل من اثنين لمصر - ومُدة الجائزة عشرون سنة قابلة للتجديد «حتى يَستقر ويَترسَّخ السلام»!»]

يمكن فهم مشروع
الدفاع الإستراتيجى بالصواريخ
المضادة فهما أعمق إذا جرى النظر إليه
على أساس أنه استمرار لإستراتيجية «عازل»
المحيطين (الأطلسى والهادئ).
وهو «العازل» الحامى
للأمن الأمريكى

كانت تلك أول إمبراطورية
في التاريخ لديها
«نظرية مصالح» وليس «نظرية أمن».
ذلك أنه في غياب «التهديد»
لا يوجد مطلب «أمن»

....

....

■ المفتاح الثامن:

أن الدولة الأمريكية ظهَرَت في وقت احتدمت فيه الصراعات والثورات في أوروبا. فقد كان ذلك زَمَن قطع رقاب الملوك في إنجلترا وفي فرنسا - وزَمَن الحروب بين الإمبراطوريات التي اشتد غضَبها ونُقِص دَخلُها بعد أن فقدَت ممتلكاتها الأمريكية، وزادَت عليها تكاليف السباق الاستعماري إلى آسيا، وفيما بعد إلى أفريقيا.

وفي تلك اللحظة الحَرجة من تاريخ الإمبراطوريات فإن زعيم وقائد الاستقلال الأمريكي: «جورج واشنطن»، قدَّمَ لوَطنه وَصيَّته الأهَم وهي «الابتعاد تماماً عن صراعات القارة الأوروبية التي لا تُعني أمريكا، ولا تُهمها، ولا يُصيبها منها إلا الضَرَر».

وكانت وجهَة نظر «جورج واشنطن» أن الصراعات الأوروبية بُحور دَم لها مَنابع دَم بَعيدة غائرة في الزَمَن، وذلك كله حَدَث قبل أن تُولد أمريكا، لكن حُدوثه الآن يُعطي لأمريكا ميزة، لأن التهاء أوروبا في حروبها السياسية والدينية والاقتصادية والاستعمارية يَكفل للدَولة الأمريكية المستقلة فترة كافية تدعم فيها وحدَتها بصَهر عناصر الهجرة إليها (باللغة والثقافة الجديدة) حتى تَذوب وتتَوحَّد مصالحها. وذلك يُمكِّنها من صُنع وَطن ودَولة - بل وأُمَّة إذا تُواصلَت عملية الصَهر دون تَدَخُّلات من الخارج.

وإذا كانت وَصيَّة «واشنطن» صحيحة، وقد كانت كذلك في زمانها، فإن ابتعاد أمريكا عن الصراعات الأوروبية كان لها مُلحق ضروري هو تصفية بقايا الجيوب الأوروبية في أمريكا الشمالية، وتخليص ولايات الاتحاد وما حَولها من قبضة الإمبراطوريات البائدة - وهنا جاءت الحَرب مع البرتغال ومع أسبانيا.

....

....

[ومن غرائب التاريخ المصري أن آخر ملوك المكسيك وهو الإمبراطور «ماكسميليان» - طَلَبَ قوات تساعده على تمكين مُلكه، وتطوَّعَ لمساعدته خديو مصر «سعيد» باشا، ثم «إسماعيل» باشا، وكلاهما أرسَلَ لـ«ماكسميليان» حَملة عسكرية مصرية تفاوَتَت التقديرات في شأنها - فمن تقدير يقول إنها عشرة آلاف جندي مصري، إلى تقدير يَصل بهذا الرقم إلى أضعافه - وبالفعل فقد ذَهَبَ مُجَنَّدون مصريون - فلاحون بالسُخرة - بالألوف جيشاً مُهدَى بلا مُقابل من خديو مصر إلى إمبراطور المكسيك، ولم يَظهَر لهؤلاء الآلاف فيما بَعد عَدَدٌ - ولا أثر!]

....

....

وفي كل الأحوال فإن الدولة الأمريكية الناشئة تطبيقاً لوصيَّة «جورج واشنطن» قامت بتصفية كل الجيوب الأوروبية في أمريكا الشمالية.

وأكثر من ذلك فإنها انتهزت فرصة الفوضى الأوروبية طوال القرن التاسع عشر ثم أعلنَت أن خط المياه وسط المحيط هو حدود سلامتها وحمايَتها من صراعات العالم القديم، وأصبح ذلك الخط وفقاً لـ«مَبدأ مونرو» (١٨٢٣) هو خط الأمن الأمريكي.

....

....

[هكذا عَرَفت الولايات المتحدة ومارَسَت مُبكِّراً «حدود سيادة» على أرض القارة الأمريكية - ثم رَسَمَت لنفسها «حدود أمن» وَصلَت إلى منتصَف المحيط - وذلك ما أخذته إسرائيل فيما بَعد ومارَسَته مُعتبرة أنه إذا كان خط حدودها هو كل فلسطين، فإن خط أمنها واصل - طبقاً لـ«آرييل شارون» - إلى إيران وباكستان وجنوب السودان. وبالطبع فإن الولايات المتحدة تَتَفهَّم - بوَعي التجربة، وحتى دون ضرورة الاعتراف العَلَني الآن!]

....

....

■ المفتاح التاسع:

أن الولايات المتحدة حين استكملت تَوَسُّعها إلى الغرب وتَمَلَّكت «كاليفورنيا» و«تكساس» - وَجَدَت نفسها في مَوقع فريد مُؤدَّاه أن المحيطات نفسها: الأطلسي شرقاً، والهادئ غرباً - هي بذاتها حَواجز الأمن الضامنة له.

فهذه المساحات الشاسعة من الماء، وهذه الجبال العالية من الموج، عَصيَّة على أي جيش غازٍ حتى بعد ظهور وتَقَدُّم الطيَران. وفي أسوأ الأحوال فإن أي جيش غاز لا يستطيع أن يَنقَضَّ على أمريكا مفاجأة، كما تفعل الجيوش الألمانية مع فرنسا مثلاً أو مع روسيا.

هكذا ظَهَرَ في التاريخ لأول مرة وَطن تَضمَن الطبيعة ذاتها أمنه وتُعفيه من أي تهديد خارجي، وكان ذلك حَدَثاً في الفكر الإستراتيجي مُستَجَداً بالكامل، لم يَخطر على بال «فرعون» مثل «رمسيس» الثاني، ولا غازٍ مثل «الإسكندر»، ولا إمبراطور مثل «نابليون»، ولا مُفكِّر عسكري مثل «كلاوزفيتز».

وَطنٌ ضَخم غني بموارده، فادح في ثرواته - ومع ذلك فهو غير مُعَرَّض لتهديد من أي نوع (حتى ظهَرَ عَصر الصواريخ في أواخر القرن العشرين).

....

....

[وربما أنه يُمكن فهم مشروع الدفاع الإستراتيجي بالصواريخ المضادة - وهو المشروع الذي تقوم الدُنيا وتَقعُد الآن تَصَدِّياً له - فهماً أعمَق إذا جرى النظر إليه على أساس أنه استمرار لإستراتيجية «عازل» المحيطين (الأطلسي والهادئ) - وهو «العازل» الحامي للأمن الأمريكي. فمشروع الصواريخ المضادة للصواريخ يَكفل أن لا يَنفذ في سماء المحيطين تهديد - صاروخي - يَصل إلى الولايات المتحدة. وكان ذلك - من وجهَة نظر السياسة الأمريكية - أفضل، لأنه يَقفل الباب على سباق في الأسلحة النووية تبارَت فيه دُوَل كثيرة وَفرَّت لنفسها إمكانياته. ومن المنطقي أنه إذا استطاع طَرَف إلغاء سلاح طَرَف آخر فإنه يَضمَن النصر. وبما أن الولايات المتحدة سابقة - بتجربة النجوم أيام «ريجان» - فإن الصواريخ المضادة للصواريخ تَكفُل لها مَوقع القلعة المنيعة لا يَصل إليها تهديد. هذا مع الأخذ في الحساب (وتلك نقطة جديرة بالاعتبار) أن الصواريخ المضادة للصواريخ كفيلة بإلغاء فاعلية كل الترسانات النووية التي تملكها - ولا تملك غيرها الآن - روسيا - وتلك الترسانات التي تملكها بلاد كانت تنتمي إلى الاتحاد السوفيتي سابقاً مثل أوكرانيا - وفوق ذلك تلك الترسانات التي تملكها دُوَل صديقة في الغرب الآن (بريطانيا وفرنسا) - وذلك من باب الاحتياط ليوم تتغَيَّر فيه الأجواء وتَختلف - وكله جائز!

وهكذا فإن الولايات المتحدة في دفاعها عن نفسها لا تتسابَق مع طَرَف، وإنما هي تَمنَع كل الأطراف مرة واحدة!]

....

....

■ المفتاح العاشر:

أن قوة الولايات المتحدة - المجتمع والدَولة - عندما نَمَت وزادَت وتَراكمَت، أصبح عليها أن تخرج من عُزلتها وأن تتَوَسَّع بالمصالح والنفوذ إمبراطورياً، وتلك طبائع الأشياء بعد قوة الأشياء.

لكنه كان لافتاً أن أمريكا شارَكَت في الحربَين العالميَّتين الأولى والثانية بغير نظرية أمن!

وكانت تلك أول إمبراطورية في التاريخ لديها نظرية مصالح - وليس نظرية أمن - ذلك أنه في غياب «التهديد» لا يُوجَد مَطلب «أمن».

وعلى سبيل المثال فإنه خلال حَربَين عالميَّتين، لم تكن الولايات المتحدة الأمريكية في أي وقت مُعَرَّضة لغزو، ولا كانت مدينة من مُدُنها مَكشوفة أمام طَيَران مُغير.

وفي أوروبا مثلاً ضُربَت كل العواصم، بل واحتل مُعظمها: باريس - روما - أثينا - فيينا - وارسو - براج - برلين - وفوقها نصف موسكو على الأقل. ونفس الشيء عَواصم آسيا، وفي مُقدِّمتها طوكيو وبكين وسنغافورة!

لكن نيويورك وبوسطن وواشنطن وشيكاجو ولوس أنجلوس وسان فرانسسكو ونيو أورليانز ظلَّت طوال سنوات الحرب تُمارس حياتها العادية، ولا يَشغلها خطر أو مَظنَّة خطر.

يُلفت النظر أكثر في غلبة «نظرية مَصلحة» وغياب «نظرية أمن» - أن الولايات المتحدة الأمريكية اتخذت قرارها بدخول الحربَين العالميَّتين بناء على حسابات هادئة باردة تجري تقديراتها من بعيد، وتُدَقِّق وتختار لحظتها المناسبة، وحين تكون الضرائب أقل والفوائد أكثر.

● ففي الحَرب العالمية الأولى ظلت الولايات المتحدة تُتابع ما يجري على المسرح الأوروبي - ثم قرَّرَت الدخول سنة ١٩١٧ - وكانت نهاية الحرب سنة ١٩١٨.

● وفي الحَرب العالمية الثانية ظلَّت الولايات المتحدة تنتظر حتى بَعثرَ «هتلر» جيوشه في القارة الأوروبية وشمال أفريقيا، وأكثر من ذلك تَوَرَّط في بحر الثلج الروسي بغَزوه للاتحاد السوفيتي أول أغسطس سنة ١٩٤١. وبعد خمسة شهور، وعلى استحياء بعد الغارة اليابانية الشهيرة على الأسطول الأمريكي في «بيرل هاربور» - دَخَلَت أمريكا الحَرب العالمية الثانية يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ - وكانت هزيمة جيوش المحوَر في ذلك الوقت مُحقَّقة - شبه مَضمونة تقريباً.

....

....

[وكان دخول الولايات المتحدة إلى حَرب إرث الإمبراطوريات القديمة تطبيقاً رائعاً لإستراتيجية كان يُمارسها القُرصان الشهير الكابتن «مورجان» (في القرن السابع عشر) - وكان الكابتن «مورجان» يرى أن «القُرصان العظيم» هو ذلك الذي يُهاجم «القراصنة الصغار» العائدين بغنائمهم من مُهاجَمة السُفُن المتناثرة في البحار، أو الراجعين بعد الغارات على الموانئ المصَدِّرة للذهَب في البحر الكاريبي. كان رأيه تَرك «القراصنة الصغار» يقومون بالعَمَل القذر، ثم الاستفراد بهم وهُم مُحَمَّلون إلى الحافة بالغنائم. وكذلك فعلَت الولايات المتحدة. فهي لم تَذهَب لتستولي على المستعمرات واحدة بعد واحدة، وإنما انتظرت لترث الإمبراطوريات. كذلك إستراتيجية الكابتن «مورجان» (وهو الأصل والأساس في عائلة «مورجان» المهاجرة من مُقاطَعة «ويلز» الإنجليزية، والتي مَلَكَت ولا تزال بعضاً من أكبر البنوك والمؤسَّسات المالية الأمريكية).]

....

....

■ المفتاح الحادي عشر:

أنه إذا لم تكن للولايات المتحدة «نظرية أمن قومي» لغياب تهديد يمس الوَطن حدوداً وعُمقاً - كما هو شأن أوطان العالم ودُوَله - وإذا كانت

ينسى الكثيرون
أن مشاهد حياة
كل يوم هي المسودة الأولى
للتاريخ بأكثر من الأوراق
المحفوظة في الخزائن
تحت الأقفال
والأختام!



للولايات المتحدة «نظرية مصالح قومية» فقط - فإن هذه مُقدِّمة تترتَّب عليها نتيجة شديدة الأهمية، بعيدة الأثر، وتلك هي غياب «الوَطنيَّة» بالمعنى المتعارَف عليه في أوطان أخرى وتواريخ مُختلفة. ذلك أن حَيَويَّة الوَطنيَّة في بَلد من البلدان في أي مكان وزمان هي نتيجة لتهديد مباشر يَمس هَويَّته أو أرضه أو استقلاله. أي أن التهديد أو احتمال التهديد هو الذي يَخلق ردَّة الفعل والمقاوَمة، وتلك شرارة الوَطنيَّة. وأما إذا كانت المشكلة طَلَب المصلحة، وليس رَدُّ التهديد - فإن المصلحة لها دَواع وحوافز ومُحرِّكات من نوع مُختلف لا يَعرف الصمود إلى النَفَس الأخير - ولا الاستعداد للتضحية - ولا القبول بالشهادة.

وربما أن ذلك هو التفسير المقنع للحقائق الظاهرة - والمؤثرة - على السياسة الأمريكية، خلافاً لدُوَل كبرى وإمبراطوريات سَبَقت في التاريخ:

ـ الشعور بالطمانينة، والرغبة في مُتابَعة صراعات الآخرين أو حتى إدارتها من بُعد.

ـ الدخول في المعارك عندما تَميل الموازين إلى الرُجحان، ويَفوت وقت التضحيات الكبرى، ويَحين وقت تقسيم الغنائم الكبيرة.

ـ التَرَدُّد في مواجهة الموت لأن الدفاع عن المصالح - خلافاً للدفاع عن الأوطان - لا يَعرف الصمود والتَضحية والقبول بالشهادة - لأنه إذا كانت المسألة مصالح فالكل يريد أن يَعيش حتى تَتحَقَّق المصالح، وليس لديه استعداد دون حافز يُسابق به إلى الموت ثم يفوز غيره بالجائزة.

....

....

[ولعل ذلك يُفسِّر عُقدة فيتنام حتى الآن في الولايات المتحدة. ومن المفارقات أنها الحَرب الوحيدة الفكرية، أو المبدئية، أو العقائدية - التي دَخَلتها الولايات المتحدة الأمريكية في تاريخها وخَسِرَتها - لأنها نَوعٌ من الحروب لا تعرفه أمريكا ولا تُمارسه، وهي من الأصل لم تُؤمِن به لأن الظروف لم تُلجئها إلى هذا الإيمان!

ثم إن ذلك أيضاً هو التفسير المعقول لكَون شاب مُتَهَرِّب من خدمة العَلَم، وهو «بيل كلينتون»، أصبح رئيساً للولايات المتحدة الأمريكية رغم أن تَهَرُّبَه من الخِدمة كان مَعروفاً ومَشهوداً!]

....

....

■ المفتاح الثاني عشر:

أنه إذا كان ذلك كله صحيحاً - وهو كذلك في الغالب - إذن فإن «نظرية المصالح» لابُد أن تَجد لها في ممارسة الصراعات وسائل أخرى لا تَحتاج إلى الصمود - ولا تنتظر التضحية - ولا تُلاقي الشهادة.

ومعنى ذلك أن عليها أن تُمارس صراعاتها أو حروبها بوسائل مُبتَكَرة، أهَمُّها أن تكون المعارك عن بُعد، وأن يَتحَقَّق النصر بغير دَم أمريكي، لأن الدَم الأمريكي قد يَسيل - إذا سالَ - دفاعاً عن وَطَن وليس دفاعاً عن مَصلحة! (وهنا فسوف يكون السؤال باستمرار: أي مصلحة ؟ ثم مصلحة مَن ؟ وأين الغنيمة في النهاية ؟)

هكذا ظَهَرت ومُورِسَت إستراتيجية «مصالح أمريكية»، راحَت تَرسم خُطَطها، وتجري تَحرُّكاتها خُطوة بعد خُطوة!

● وكانت البداية الافتتاحية للإستراتيجية العالمية للولايات المتحدة سُفُناً تستكشف الشواطئ؛ حاملة مُنتَجات وسلعاً (عبر الأطلسي نحو شمال أفريقيا على طول شاطئها من الدار البيضاء إلى الإسكندرية من أواخر القرن الثامن عشر).

● والخطوة الثانية بعثات تبشيرية تنادي بنقاء ديني لا تُؤثر عليه صراعات الكنائس والملوك في أوروبا (تَواصَلَت هذه البعثات التبشيرية الأمريكية طوال القرن التاسع عشر - من أعماق الصين إلى أعماق صعيد مصر).

● بعد البعثات التبشيرية، وامتدادا لها، بعثاتٌ تعليمية (وكذلك ظَهَرَت طوال القرن العشرين جامعات أمريكية يَستحق بعضها الاعتراف له - مهما كانت الأسباب الداعية إليه - بأن نتائجه ساعَدَت على كثير من التنوير - خصوصاً في بيروت والقاهرة).

● بتدبير - أو من غير تدبير - إعلام قوي خصوصاً بالصُوَر، وبالذات بعد ظهور السينما، يَنقل إلى الدُنيا نوعاً آخر من الحياة الجَذابة، وأصبحت قلعَته «هوليوود».

● نداء مُستمر إلى أكبر عُقول العالَم في كل التَخَصُّصات لكي تَذهَب إلى أمريكا، بغواية أنه هناك وليس هنا يُوجَد المجال الحقيقي لهذه العُقول لتَعمَل وتُبدع وتُطل على العالَم من أوسَع نَوافذه، وتَعودُ إليه من أوسَع أبوابه (وتلك حَرب استنزاف تأخذ من بقية العالَم قُدراته الخَلاقة).

● مُخابرات لم يَعرف العالَم مثيلاً لوَسائلها ومَواردها، لأن المطلوب منها أن تَلمَح أي عائق يَعترض المصالح الأمريكية - ثم تتكَفَّل بالقضاء عليه (بالانقلاب من الداخل) قبل أن يَستفحل ضَرَرُه. والمخابرات الأمريكية لا تَنشَط ضدَّ العَدُو فقط - بل ضدَّ الصَديق مع العَدُو (وكانت العَمَليَّة «إيشلون» - ولا تزال - تُرَكِّز هَمَّها للتَجَسُّس على أسواق لندن وباريس وبرلين - فأسرار الشركات في هذه العَواصم أكثر أهَميَّة من أسرار الحكومات).

● العَمَل على تطوير أسلحة مُتَقَدِّمة تَدخل للقتال إذا فَرَضَته الظروف - على أن يكون القتال من بعيد - ثم يَدور ويُحَقِّق كامل أهدافه بغير دَم أمريكي قَدر ما هو مُمكن.

● وفي تطوير هذه الأسلحة المُتَقَدِّمة - بعيدة المدى - فإن الإمكانيات الأمريكية تَقدر على تحقيق سَبق تَنقطع أنفاس الآخرين دونَه ثم لا يَبلغونه، ويَكتشفون بعد فوات الأوان أنه كان سباقاً إلى الإفلاس.

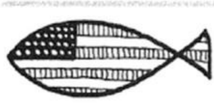
● وفي أثناء ذلك كله وخلاله - وقبله وبعده - سَيطرة على الموارد الرئيسية للعالَم كله عن طريق شبَكة مَصالح مُعَقَّدة تَتوَلَّى حماية الموارد البحرية - وتأمين الأجواء - وتكفُل وجود محطات محَلِّية ومأمونة لتَقوم على حماية المصالح (شُرطة إقليمية) وهي محطات يمكن تزويدها بالسلاح وبالمال وبالخِبرة دون داعٍ لوجود أمريكي مباشر في ساحات الصراع (وإسرائيلُ هي النموذج الأشهَر).

● تَرويج لأسلوب حياة مُعَيَّن هو أسلوب الحياة الأمريكية، وإذا كانت أمريكا لم تُنتج ثقافة تُصاحِب القوة وتُثَبِّتها، فإنها تستطيع أن تُغري العالَم بأسلوبٍ ابتدعته، والمنطق فيه أنه «إذا تَصَرَّف الناس على مثالك في حياتهم، واستعملوا مُفرَداتك في خطابهم - إذن فقد قَبِلوا رسالتك طواعِية» - وذلك أكفأ أنواع التأثير - وبعد ذلك فهي الحَرَكة السريعة، والطعام السريع، والصُوَر السريعة، وحتى الملابس السريعة تُوضَع وتُخلَع في طرفة عَين!

□

وكانت تلك المفاتيح - دَستة مفاتيح - حَصيلة نِصف قرن تقريباً - تَكَرَّرَ فيه عُبور المحيط أربعًا وعشرين مَرة، ولعلها أفادَت من حقيقة أن العالَم العَرَبي كان الساحة الأهَم لمطالب الإستراتيجية الأمريكية - ومع ذلك ظلَّ وحتى النهاية يَظهَر لي، وكان ما لديَّ مَحصورٌ كله في مجال التوصيف لم يَنفذ بعد إلى مجال التحليل.

فهي إذن مَعرفة ناقصة مهما كانت مساحة الزَمَن الذي تَوَفَّر لها، ومهما بَلَغَت دَرَجَة الجُهد الذي بُذِلَ فيها، وضِمنه عُبور المحيط أربعاً وعشرين مَرة، وكلام، وحِوارات، واتصالات (ومُفاوَضات في بعض المرات). ■



٤ مشاهد الهجرة والإمبـــراطــــوريـــة

■■ عُبوران للمحيط في البداية للاستكشاف، وأربعة وعشرون فيما بَعد، ثم عُبور لثلاث مرات حَكَمَتها مقولة أنه «لا أحد يستطيع مُقاطَعة أمريكا» - والمجموع كله تسعة وعشرون عبوراً.

وهذه المرة الأخيرة - نهاية الربيع وبداية الصيف من سنة ٢٠٠١ - وَقَعتُ بالمصادفة البَحتة على كتاب لَفتَ نظري عنوانه - وراجَعتُ فهرسه، وأخذتُه معي، ومَرَرتُ على فصوله في ساعة، ثم تَوفرتُ على قراءته تفصيلاً وتدَقيقاً في بضع ساعات، وكان شعوري أن الكتاب يَطرَح على قارئه طريقة مُعَيَّنة في تحليل أمريكا - وليس مُجَرَّد توصيفها، مع وُجود تداخُل بالطبع بين التَحليل والتَوصيف. وتَوافَق وُصول الكتاب إليَّ مع لحظة تَزايَدَ فيها إحساسي بأن هذا البَلَد يَحتاج إلى مَن يَغوص فيه عُمقاً ليَبحَث عن البُذور والجُذور، ويَنظر في التركيب النفسي لهذه القوة الجديدة التي نَمَت تحت سَمع الدُنيا وبَصَرها، ولم تَكن مثل غيرها من القوى التي نشأت في أعماق الماضي، وقرونه الغابرة التي تَباعَد عنها الزَمَن، بحيث شَحبَت الوقائع، وخَفَتَت الأصوات.

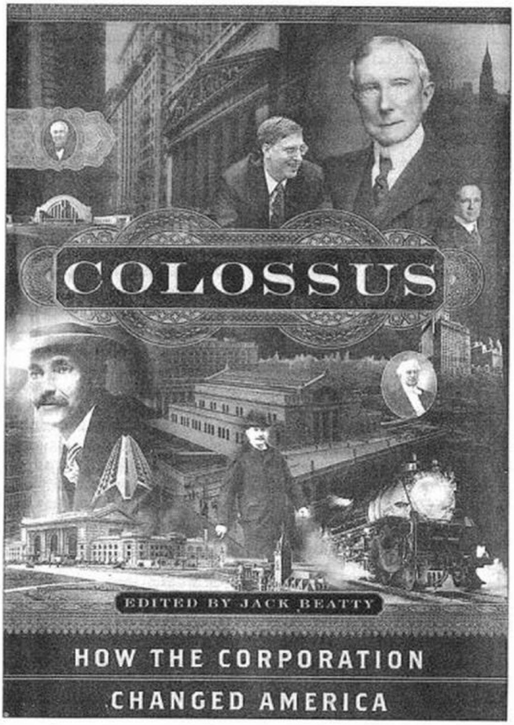
وكانت الإمبراطورية الأمريكية ظاهرة مُختلفة - فقد نشأت تحت سَمع وبَصَر عالَم دَخَلَ عَصر النَهضة بكل وسائله وأدواته المعرفية، وتحت مُتابعة ورقابة القوى الإمبراطورية التي تَحَكَّمَت اقتصاديا وسياسياً من معقلها الأوروبي - في قارات العالَم القديم، وخصوصاً آسيا وأفريقيا - ومع ذلك فإن المسعى الإمبراطوري الأمريكي استطاع أن يُغافِل الجميع ويَسبق، ويَأخذ من الإمبراطوريات القديمة ما عندها ويُضيف عليه، ويَتَمَلَّك ويَحتكر في سنوات. وبينما كانت الإمبراطوريات القديمة ما زالت تَتَوَهَّم أن مَقادير العالَم في يَدها - إذا أمريكا فجأة وفي أقل من نصف قرن (وتلك طرفة عَين في التاريخ) تَزيح الجميع وتُسَيطر، حتى وإن جاءت سَيطرتها قليلة الحكمة، ثقيلة اليَد، لا تُدرك أن الإمبراطورية فنٌّ، وأن القوة وحدها حَماقة!

....

....

والشاهد أن الكتاب الذي أتحَدَّث عنه عنوانه يمكن تَرجَمَته بـ«العملاق»، أو بـ«المارد»، أو بـ«الطَوْد»، وأي وَصف غير ذلك يُفيد مَعنى زيادة الحجم، مُتَرافِقة مع زيادة القوة، والعُنوان هو Colossus - وقد صَدَرَ سنة ٢٠٠١ في نيويورك، وهو في ٥٠٦ صفحات على ٣٨ فصلاً، وشارَك في وضعه أكثر من ثلاثين مُؤلِّفاً، قام بعضهم على كتابة أكثر من فصل فيه، وقَصدُهُم أن يَكون نظرة بالعُمق على نشأة الدَولة والقوة الأمريكية. ومن جانبي فقد أحسَستُ طوال قراءة الكتاب أنني أمام عملية تحليل نفسي دَقيق - مُضيء وكاشف للتَجربة الأمريكية. واللافت للنظر في فصول الكتاب أن مُؤَلِّفيه على اختلاف مَواضع اهتمامهم تَوافَقوا فيما بينهم على أسلوب يَستَخدم التَوثيق الاجتماعي الذي تَكمُن أهمِّيَّته في خُلُوِّه من الأسرار والخبايا، وفي أنه يَرجع إلى مصادر أُتيحَت لكل الناس، ولم يَتَوَقَّفوا طويلاً عندها لأنها من مَشاهد حياة كل يوم، وفي ذلك يَنسى الكثيرون أن مَشاهِد حياة كل يوم هي المسوَدَّة الأولى

ذهب أحد أصدقاء الرئيس الأمريكى الأسبق «تيودور روزفلت» يلفت نظره إلى ضرورة عمل شىء، وكان رد «الرئيس» بعبارة صارت مثلاً فى التاريخ الأمريكى الحديث: «أنت تريدنى أن أمارس الحب مع فيل»!



للتاريخ بأكثر من الأوراق المحفوظة فى الخزائن تحت الأقفال والأختام!

والمشاهد التى نُوَقِّف أمامها المؤلفون كثيرة، وكلها أشبه ما تكون بطبقات، فوقها طبقات، وتحتها طبقات، وتكاد كل واحدة منها أن تكون قناعاً ينزاح فتسفر وراءه لمحة من وجه الحقيقة التى صنعت التركيبة النفسية للقوة الأهم فى التاريخ وفى الدنيا:

■ مشهد:

أن المهاجرين الأُوَل إلى أمريكا أذهلهم ما وجدوه من ثراء مُكدس لا يخطر على البال، وأبلغ تصوير لذهول المهاجرين الأُوَل يرد فى حوار مشهد مسرحى لرواية عُرضت - سنة ١٦٠٥ - فى لندن على «المسرح الشرقى»، وعنوانها «فرجينيا: فردوس العالم الفريد» - والإشارة واضحة إلى أقاليم (ولاية) فرجينيا، وكانت من أول مواطن الهجرة إلى أمريكا، وأصبحت أشهرها. والسبب كما يرد فى سياق المسرحية يظهر فى حوار بين اثنين من أبطالها، أحدهما كان اسمه «سكابتريست» والثانى «سيجال» - والحوار يجرى على النحو التالى:

«سكابتريست: ولكن قُل لى يا كابتن.. هل الكنوز وفيرة على هذا النحو هناك كما سمعت؟

سيجال: اسمعنى أقول لك. الذهب هناك أكثر من النحاس هنا. الذهب بالأكوام حيثما نظرت. كل الأوانى من الذهب. كل شىء.. كل شىء مصنوع من الذهب حتى سلاسل الأسرى. وأما المجوهرات فهى منثورة حيثما أدرت البصر، حتى على ملابس الأطفال هناك: مُرصعة بياقوت وزمرد يخطف بصرك إذا التفت إليهم!»

■ مشهد:

يكتشف المهاجرون الأُوَل - حتى فى فيرجينيا - أن الموارد الطبيعية لها قيمة تستطيع إنتاج ثراء يفوق كل ما يلمع من ذهب سلاسل الأسرى، وياقوت وزمرد ملابس الأطفال - ثم إن الجهد المطلوب لتحقيق هذا الثراء بسيط، وإن كان يحتاج بسرعة إلى رأس مال يتمثل فى أدوات للزراعة، وللبناء، ولتمهيد الطرق. وكلها لابد أن تجىء من الشاطئ الآخر للمحيط. وذلك ممكن لأن الذين سمعوا عن موارد العالم الجديد مستعدون للاستثمار فيها، لكنهم لبعد المسافات يريدون ضمانات. وأول الضمانات تنظيم مضمون لحركة أموالهم، يصون لهم حقهم فى الأصل وأرباحه - ويضبط محدودية خسائرهم إذا وقعت. وهنا يظهر سنة ١٦٠٧ إطار الشركة المساهمة - شركة «فرجينيا» - يديرها من بعيد مفوضون عن ملاكها، ويكون عليهم نوع من نظام يتابع، ويتأكد أن الأرباح واصلة، وأن الخسائر محدودة، لأن كل مساهم لا يلتزم بما هو أكثر من نصيبه فى رأس المال.

ويقول كاتب هذا الفصل من الكتاب: «إن من يريد أن يفهم أمريكا عليه أن يدرس بعناية فكرة الشركة المساهمة المحدودة». ثم يضيف: «إن بداية الولايات المتحدة الحقيقية كانت شركات من نوع شركة «فرجينيا». وكان رأس مال شركة «فرجينيا» مائة ألف جنيه إسترلينى (بقيمة نقود ذلك الزمان). وكان أحد المساهمين البارزين فيها السير «فرانسيس بيكون» (الوزير الشهير فى عصر الملكة «إليزابيث» الأولى، وخلفها الملك «جيمس»).

وكان أهم ما قامت به الشركة شق طرق واصلة إلى مختلف أنحاء «فرجينيا»، وقد فرضت الشركة رسوم مرور يدفعها المسافرون عليها فى كل مرة يستفيدون منها، وكان ذلك اختراعاً جديداً فى أداء الخدمات يستوفى ثمنها أولاً بأول من لحظة إنشائها.» (وكانت تلك بداية مشروعات الطرق الكبرى، يدفع تكاليفها المستفيدون منها كلما سافروا عليها!)»

وخلال مائة سنة كانت الشركة هى الولاية - والولاية هى الشركة: شركة «فيرجينيا».

■ مشهد:

يتنبه الهنود الحمر من سكان أمريكا الأصليين إلى أن المهاجرين البيض الذين نزلوا على شواطئهم لم يعد يكفيهم ما امتدت إليه أيديهم من ذهب وجواهر (وما خطفوه من بنات ونساء!) - وإنما هم الآن ينصبون خياماً على الأرض، ويدقون ويحفرون، وقد جاءوا بآلات وبذور - وإذن فهى إقامة وليست زيارة. ويورد «جاك بيتى»، وهو محرر كتاب «العملاق»، واحداً من تقارير شركة «فرجينيا» مكتوباً سنة ١٦٢٤، ومرسلاً إلى جمعية المساهمين بها فى لندن، وفيه بالنص:

«إن الخلاص من الهنود الحمر أرخص بكثير من أية محاولة لتمدينهم. فهم همج، برابرة، عراة، متفرقون جماعات فى مواطن مختلفة، وهذا يجعل تمدينهم صعباً، لكن النصر عليهم سهل. وإذا كانت محاولة تمدينهم سوف تأخذ وقتاً طويلاً، فإن إبادتهم تختصره، ووسائلنا إلى النصر عليهم كثيرة: بالقوة، بالمفاجأة، بالتجويع، بحرق المحاصيل، بتدمير القوارب والبيوت، بتمزيق شباك الصيد، وفى المرحلة الأخيرة المطاردة بالجياد السريعة والكلاب المدربة التى تخيفهم لأنها تنهش جسدهم العارى.»

■ مشهد:

فى خطاب بتاريخ سنة ١٦٣٣ يظهر فى تقارير الحكومة البريطانية خطاب يفرق بين أنواع من المهاجرين، بالتحديد هؤلاء الذين هاجروا إلى «فرجينيا»، وهؤلاء - طبقاً للخطاب - مهاجرون هدفهم الربح بأية وسيلة. لكن هناك مهاجرين من نوع آخر ظهروا فى «نيو إنجلند»، وكلهم عائلات هاجرت هرباً من الاضطهاد الدينى (معظمهم من أتباع «كالفن»)، وقد جاءوا من سويسرا وهولندا واسكتلندا وغيرها حيث انتشرت دعوة التطهر الدينى والنقاء. وهؤلاء المتدينون أنشأوا شركات تجارية، ولكنها شركات «أخلاقية» يؤمن المساهمون فيها بـ«رضا الله»، ويعتبرون زيادة أرباح استثماراتهم شاهدهم على «رضا الله» عنهم. وقد أسس هؤلاء «الأخلاقيون» منطقاً - شبه عقيدة - ينظمون به أعمالهم، ويديرون شركاتهم فى «نيو إنجلند»، وخلاصة منطقهم طبقاً لخطبة شهيرة لراعى كنيستهم «توماس شبرد» أنه «لابد من ضفاف للماء وإلا علا سيله وأغرق الجميع». و«الضفاف» كما يراها «شبرد» هى أن يعمل البشر جادين على رفع مستوى أنفسهم بما يلقى «رضا الله» - ووسيلتهم إلى ذلك هى العمل بـ«إخلاص مسيحى» على زيادة الثروة، وتوسيع الملكية، وإعلاء بناء البيوت. و«رضا الله» عن المخلصين له يتمثل بالضبط فى تحقيق هذه الأهداف، أى فى «الطوفان» بكثرة «المال والأرض والعقار» - ولابد أن «يتذكر المؤمنون» أن «زيادة النجاح» مرهونة بـ«زيادة الإيمان»، وبالتالى فإن «الدين ثراء»، و«الثراء دين»، والاثنين معاً «ضفاف الماء حتى لا يسيل ويغرق الجميع»!

وفى «فرجينيا» وفى «نيو إنجلند» تكبر الشركات، وتتراكم الثروات، وتظهر الحاجة إلى توكيلات على الشواطئ تتعامل مع أوروبا فى الاستيراد والتصدير، ثم تقوم شركات أخرى على صناعة التخزين لأن الملاحة مواسم، والزراعة مواسم. وظهرت فى أمريكا بدايات أسر فعلت كل شىء حتى تغتنى، وفى حين أن بعض طالبى الغنى طارد الثراء جهاراً نهاراً بالسلاح، فإن بعضهم استدعاه جهاراً نهاراً -!- بالصلاة!

■ مشهد:

لكن الشركات (الولايات) التى تعمل من الشاطئ الشرقى للولايات المتحدة حيث نزلت أولى موجات الهجرة واستقرت، ومضت تزرع وتتاجر، وتغتنى وتراكم الثروة - راحت تواجه مشكلة تحجم نشاطها بالرغم منها، وهى مشكلة اليد العاملة. ذلك أنه حتى قرابة سنة ١٧٠٠ - لم يزد عدد المهاجرين من أوروبا عبر المحيط عن ربع مليون مهاجر، وكلهم يريد المال والأرض والعقار، وليس فيهم أحد يريد أن يكون أجيراً، وإلا فلماذا ركب جبال الموج وجاء إلى أرض الميعاد.

إلى جانب ذلك فإن سكان البلاد الأصليين من الهنود الحمر (وممن تتم عملية إبادتهم لأنهم همج لا يصلحون للتمدين ولا للتدين) - ليسوا على استعداد للعمل، ولا لخدمة هؤلاء الذين انقضوا عليهم مع أمواج المحيط.



والحل العملي الذي يطرح نفسه هو الإتيان عن أي طريق بيد عاملة. تشتغل ولا تشارك. وتقبل بالقليل ولا تنتظر زيادة. والحل هو «العبودية». أي عضلات تعمل بطعامها وليس أكثر. وطاعة تقبل الأمر لأنها لقنت تحت الأسر درس الطاعة بالسلاسل والسياط. وكذلك قامت في أمريكا شركات (شركات مساهمة أيضاً) نشاطها «تجارة العبيد». ويورد «جيمس هيدجز» الذي قام على كتابة الفصل الخاص بـ«التجارة في الأرواح» كما سماها - مجموعة من أوراق إحدى الشركات المساهمة في هذا المجال. وقد ركز فيها على سجلات سفينة الشحن «سالي» وقبطانها «أيسيك هوبكنز».

وفي سجلات السفينة «سالي» توجيه من الملاك («نيكولاس» و«براد» - شركة مساهمة) يقول للقبطان: «إننا نثق فيك وفي إخلاصك لنا. وخدمتك لمصالحنا. ونحن نفوضك بأن تذهب إلى شواطئ أفريقيا (شاطئ غينيا) وتشحن سفينتك بمن تستطيع أن تجلبهم من العبيد «بالوسائل» التي تراها. وأنت مخول أن تبيع وتشتري منهم كما تشاء في طريق رحلتك إلى أمريكا عندما تتوقف في جزيرة «باربادوس». ونذكرك طبقاً للعقد بأن حصتك هي ٤ عبيد لك مقابل كل ١٠٠ عبد للشركة، مضافاً إلى هذا نسبة ٥٪ من ربح الحمولة عندما يتم بيعها. ونريد أن نذكرك بأن السرعة في هذه التجارة مطلوبة لأن الحاجة إلى اليد العاملة ماسة!»

وضمن سجلات «سالي» يوميات قبطانها «هوبكنز». وهو يكتبها بالتفصيل لتكون في علم المساهمين عندما يتحاسب معهم على حصيلة أرباح رحلته:

- «قدمت لشيخ القبيلة «جالون» من (مشروب) الروم مقابل «عبدة - فتاة»!

- دفعت ٧ جنيهات لشراء صبي.

- اشتريت ٥ عبيد صالحين للعمل هذا اليوم بعد الظهر مقابل بصل وسكر وروم للجلاب.

- حمولتنا الآن ١٩٦ عبداً.

- واحدة من العبيد شنقت نفسها.

- ثلاثة عبيد قفزوا إلى البحر ولم نستطع إنقاذهم من الغرق. وقررنا حبس الباقين في العنبر الأسفل للسفينة (وكنا نخصصه لبقرتين معنا) - وربطنا الأسرى بالحبال.

- الحمولة الآن كاملة العدد وزيادة -! - وسوف نبدأ رحلة العودة نحو الكاريبي غداً.

[وفي سجلات «فرجينيا» و«نيو إنجلند» و«ماساشوستس» في ذلك الوقت (أول القرن الثامن عشر) أربعمائة شركة في تجارة العبيد تملك حوالي ١٢٠٠ سفينة - غير مئات الشركات ومئات السفن تعمل من أوروبا.]

■ مشهد:

سنة ١٨٠٠، ومع بداية القرن التاسع عشر - أي بعد قرن كامل من تأسيس الشركات المساهمة المتاجرة في العبيد - سواء تلك التي عملت من أمريكا - أو التي تعاملت معها من أوروبا ومن شواطئ أفريقيا - وصل عدد العبيد الذين حملتهم السفن عبر المحيط إلى ثلاثين مليونا من البشر - من الأرواح. هذا غير عدد غير معروف - بالملايين - ماتوا في السفن وألقيت جثثهم في المحيط طعاماً للحيتان. وينقل كاتب الفصل الخاص بالعبيد في كتاب «العملاق» - عن كتاب آخر سبقه - صفحة كاملة وجدها أكثر دقة وأمانة في التعبير، والكتاب السابق عنوانه «دور العبودية في نمو مستعمرة (ولاية) نيو إنجلند: محركات النمو». وفي الصفحة (٢٥٤) يرد ما يلي بالنص:

«سنة ١٧٧٠ كانت مستعمرة (ولاية) نيو إنجلند أغنى مناطق أمريكا. وقد كانت بالفعل قصة نجاح رائع، وطاقة في الإنتاج لا مثيل لها. وكان محرك النمو هو العبيد الذين كانوا العنصر الفاعل على الأرض وفي المصانع، والترس الدوار في عجلة التجارة والتصدير إلى أوروبا وغيرها: كان العبيد هم أساس الزراعة، وعماد الصناعات القائمة عليها مثل السكر والتبغ، وغير ذلك من المنتجات الأخرى.»

وتختم الصفحة المستعارة من كتاب سابق قائلة: «باختصار كانت العبودية هي المولد الأكبر للثروة الزراعية والصناعية والتجارية. وبرغم أن عدد تجار العبيد في «نيو إنجلند» لم يكن كبيراً، فإن كل التجارة بعموم اعتمدت إلى آخر حد على عبيدهم (عبيد هؤلاء التجار).»

ثم بدأت الأصوات ترتفع بـ«لا إنسانية تجارة العبيد» عندما ظهرت قوة البخار - بعدها وليس قبلها - فتلك طاقة أقوى من عضلات العبيد مئات المرات. ومحركاتها لا تحتاج إلى وجبات طعام أو حظائر نوم، أو حراسة ليل ونهار تضمن أن لا يهرب العبد أو ينتحر (وكانت نسبة الهرب أو الانتحار أعلى بين النساء منها بين الرجال).

ويبدو أنه في تلك الفترة ظهرت وانتشرت أدبيات واسعة تعارض تحرير العبيد أو تقييد «التجارة في الأرواح». وكانت الحجج الأكثر تردداً وتكراراً:

« - إن استعمال البخار ليس له أن ينهي دور العبيد في الإنتاج، فهذه وسيلة، وتلك وسيلة، وكلتا الوسيلتين تؤدي دوراً يتكامل - ولا يتعارض - مع الأخرى.

- وإذا أوقف التجار الأمريكيون تجارتهم في العبيد فإن غيرهم من جنسيات أخرى سوف يحصلون على الفائدة، والأرباح.

- والقيود على تجارة العبيد سوف تكون وبالاً على هذه «الأرواح» التي لا تعرف ماذا تفعل أو كيف تعيش إذا رفع «السيد» يده عن «التجارة» فيها.

- إن السلطات لا يصح لها أن تتدخل في حرية التجارة بأي شكل من الأشكال، لأن ذلك يتعارض مع الفكرة الرئيسية التي قامت عليها أمريكا، وهي الحرية - حتى من القانون (وضمن حجج المنطق أنه لا يصح لأحد أن ينسى أن ضيق أفق القانون كان مشكلة المشاكل في العالم القديم)».

■ مشهد:

وبرغم وصية «واشنطن» لأمريكا أن تبتعد عن أوروبا - فإن أمريكا مع مطلع القرن التاسع عشر اقتربت لكي تكون أكبر مستفيد من مصائب أوروبا. وكانت تلك فترة الثورات الكبرى، وزمن حروب «نابليون» الطاحنة، ومسرح عمليات المطاردة البحرية والحصار حول القارة الأوروبية. لكن السفن الأمريكية شراعية - وبخارية فيما بعد - كانت لها ميزة «الحياد»، فهي بعيدة لا تطولها المعارك ولا إجراءات الحصار، والسفن التي تحمل الأعلام الأمريكية لا شأن لها بصراعات أوروبا التي كانت لدولها وشركاتها وأفرادها استثمارات واسعة في العالم الجديد تحرص عليها وتحاول إخراجها من دائرة النزاع والخطر. وفي هذه الحقبة من الاضطراب في أوروبا تمكنت التجارة الأمريكية من السيطرة على الملاحة في المحيط الأطلسي، وبنت لنفسها فوق الموج سعة سفن تزيد عما تملكه بريطانيا أو فرنسا، وكان ذلك خروجاً كثيفاً إلى أعالي البحار - زادت معدلاته بعد شق قناة «بناما» لأن السفن الأمريكية أصبحت قادرة على الانتشار في المحيط الهادئ نفس قدرتها في المحيط الأطلسي.

وبذلك فإن المحيطات الحامية لأمريكا لم تعد مساحات شاسعة فقط، وإنما أصبحت أيضاً مناطق مأهولة - أمريكياً - لأن أساطيل أوروبا بقيت قريبة من شواطئها تمارس الحصار أو محصورة هي نفسها - بينما أصبح العلم الأمريكي في الأطلسي علم الملاءمة، تتحرك تحته البضائع بحرية، وتتوقاه أعمال المصادرة، لأن الكل يستفيد منه أو يحاول أن يستفيد!

■ مشهد:

وعندما جاءت قوة البخار - كان أول قادم بعدها هو القطار، وكان بناء السكك الحديدية في أمريكا. ويكتب «جاك بيتي» محرر كتاب «العملاق» أن مد خطوط السكك الحديدية كان هو «قاهر المسافات وموحد الأرجاء» على اتساع قارة بأكملها.

كانت أمريكا منذ البداية كنزاً هائلاً - لكن حجمه كان مشكلة لأن النفاذ إلى عمقه كان يمشي بسرعة الحيوان، ومداه الأسرع هو سعة رئة الحصان - فلما جاء القطار البخاري على البر ومعه السفينة البخارية في النهر والبحيرة استسلمت القارة بأكملها للاستغلال والاستثمار، للإنتاج وللتوزيع، وعندما لحق برق التلغراف بطاقة البخار تحولت القارة إلى شبكة اقتصادية ومالية واحدة مع حجم لم يعرف له في العالم مثيل، وذلك طبيعي لأنه لم يحدث من قبل أن انفتحت قارة كاملة بكل مواردها وكل طاقاتها على هذا النحو. وشاعت في تلك الأيام مقولة أن «صوت قطار السكة الحديد هو نبض القارة الأمريكية - يدق»!

وكان الفضاء الأمريكي أكبر مشجع ومناد لقوة البخار - وكان أن الميكنة بتفاعلها مع هذا الفضاء الأمريكي تمارس صنع معجزة في الإنتاج تجاوزت كل التوقعات.

ثم كانت الحرب الأهلية الأمريكية هي القبضة التي كسرت آخر الحواجز على أرض القارة، لأن الحرب الأهلية عبأت قوى، وخلقت صناعات ضرورية - مدنية وعسكرية، وضمنها ثورة في صناعة النسيج حتى يلبس الجنود في الصيف وفي الشتاء، وكانت الإضافة الأكبر في صناعة النسيج أن الأطفال أصبحوا عمالها - لأن الرجال كانوا في الحرب، والنساء في المزارع - خصوصاً مزارع القطن.

وحين سقطت آخر الحواجز في القارة بين الشمال (الصناعي) والجنوب (الزراعي) - وعاد الرجال من ميادين القتال - كانت الرأسمالية الأمريكية جاهزة لأداء دورها في سوق اتسع بما فاق الخيال، وساعدته ثروات راكمتها فرصة التجارة أثناء انشغال أوروبا بصراعاتها - وفرصة الصناعة التي اقتضتها ضغوط الحرب الأهلية - وفرصة الضرورات التي قضت أن يعمل كل السكان - حتى الأطفال.

■ مشهد:

كانت الرأسمالية الأمريكية من طراز مختلف عما عرفته أوروبا أو آسيا - فهذه رأسمالية جديدة، عاملة، ومقاتلة، بل وعدوانية، وليست رأسمالية إقطاعية ووراثية وعلى مشارف الانحلال. فالرأسمالية الأمريكية راكمت ثرواتها من أرض الهنود الحمر التي صادرتها وزرعتها، ومن جهد العبيد الذين جلبتهم ورفعت سوط الجلاد فوق ظهورهم، ومن تجارة المحيط التي سيطرت عليها في غفلة من أوروبا، ومن موارد قارة شاسعة وغنية وصلت خطوط السكك الحديدية إلى كل

السياسة الأمريكية
راحت تبشر وتدعو إلى
«اقتصاد السوق». ثم إن
«اقتصاد السوق» تحول إلى «مجتمع السوق».
ثم إن «مجتمع السوق»
تحول إلى
«عالم السوق»

العداء لأمريكا.
وهو أسهل المواقف.
فى هذه الأزمنة خطأ كبير لا تحتمل مخاطره،
والوقوع فى غرام أمريكا خطأ
أكبر لا تحتمل خسائره

ارجائها طولاً وعرضاً، وجعلتها سوقاً واحدة - ثم إنها كانت رأسمالية لها «قلب من حديد» لم تؤثر عليه الثقافة - كما حدث فى أوروبا - فلم يلن لصوت الموسيقى، ولم يتأثر بمسرح النهضة، ولم يجرب المتعة إلى درجة الانحلال فى قصور أسر أوروبا الحاكمة مثل آل «هابسبورج» وآل «رومانوف» وآل «بوربون».

وفى حين أن الرأسمالية الأوروبية الإقطاعية الوارثة قاومت انتشار التعليم - فإن أول ذكاء الرأسمالية الأمريكية إدراكها لأهمية التعليم بمنطق أن «أى عامل يتعلم له قدرة إنتاجية أكثر من عامل جاهل» - وكان المهم هو ماذا يتعلم ؟!

وينقل واحد من مؤلفى كتاب «العملاق» صفحة من كتاب يدرسه تلاميذ المرحلة الابتدائية ضمن منهج بدأ تعميمه فى ولاية «نيو إنجلند» سنة ١٨٣٣، والصفحة على شكل أسئلة وأجوبة تجرى على النحو التالى:

«س: لنفرض أن الرأسمالى الذى يستثمر أمواله حقق أرباحاً كبيرة، فهل هذا يضر بالرجل العامل ؟

ج: بالعكس .. ذلك يساعده على أن يدفع أجوراً أحسن لعماله.

س: ما هو الأفضل.. أن يدخر رجل غنى أمواله ليستثمرها، أو يصرفها على هواه ؟

ج: بالطبع يدخر ويستثمر.

س: هل يمكن أن تشعر بالأسف لأن رجلاً حقق أرباحاً طائلة ؟

ج: بالعكس .. سوف أكون شديد السعادة.

س: ما الذى يحول رجلاً من عامل إلى رأسمالى ؟

ج: أن يدخر».

وهكذا سؤال وجواب ملء صفحة، وملء كتاب بأكمله!

وهنا كانت أمريكا تقدم نموذجاً جديداً فى «ترويض الوعى» يبدأه التعليم - ثم تجربة العمل - (وفيما بعد جاء دور الإعلام).

■ **مشهد:**

كانت الرأسمالية الأمريكية تنمو وتنمو، وكانت قدرتها على التنظيم خرافية لأن المجال أمامها مفتوح للتجديد والنمو، والاندماج فى وحدات لها قوة دول. وهكذا ظهرت دولة «روكفللر» تحت اسم «ستاندارد أويل»، وتملك النصيب الأكبر من بترول أمريكا الشمالية، ثم راحت تنزل على أمريكا الجنوبية وتكاد تحول فنزويلا إلى مستعمرة لإمبراطورية «روكفللر» الذى كان شعاره «إن الله أعطانى ثروتى وليس من حق بشر أن يعترض على إرادة الله».

وفى فصل كتبه المؤرخ الإنجليزى الشهير «بول جونسون» - ضمن فصول كتاب «العملاق» - بدأ «جونسون» كلامه قائلاً:

«هناك فى تاريخ أمريكا نوعان من الآباء المؤسسين للولايات المتحدة:

ـ نوع من صانعى الاستقلال وكاتبى وثائق الدستور، قادوا محاولة تطوير «الشركة» إلى «دولة» (رجال مثل «ألكسندر هاملتون» - و«صمويل جونسون» - و«جيمس ماديسون» - و«بنيامين فرانكلين» - وغيرهم).

ـ ونوع ثان من «البارونات اللصوص»، قادوا الرأسمالية الأمريكية وحاولوا أن يحموا «الشركة» من طغيان «الدولة» («روكفللر»، ثم رجال مثل «فورد» و«فاندربيلت» و«ديللون» و«راند»).

ولم يكن تعبير «البارونات اللصوص» مجازاً بلاغياً، وإنما كان للتعبير أصل فى الحقيقة. ذلك أن الرأسمالية الأمريكية بنت قوتها الطالعة على عصر جديد تحققت كل اكتشافاته فى أوروبا، وقد أخذت الرأسمالية الأمريكية هذه الاكتشافات وأخضعتها لفكرة التنظيم الذى لا يحده قيد من عرف أو تقليد.

وذلك حدث للسيارة، وللطائرة، وللكهرباء، وللطاقة النووية، وللتليفون واللاسلكى، وللكومبيوتر، وللصواريخ - وحتى لمساحيق التجميل.

ومثلاً فإن أوروبا كانت هى التى بدأت صناعة السيارات، لكن تدافع العمال فى ورشة واتكفاءهم لإنهاء العمل كان يستغرق ثلاثة أيام لصنع سيارة واحدة - ثم توصل «هنرى فورد» فى التنظيم إلى فكرة خط التجميع: مسار واحد لهيكل السيارة يضيف إليه كل عامل يمر أمامه مسماراً واحداً أو صامولة واحدة - وتم اختصار مدة صنع سيارة واحدة من ثلاثة أيام إلى ثلاث ساعات، وخطوط التجميع صفوفاً - واحداً إلى جانب الآخر - والعمال لا يتزاحمون أو ينتظر بعضهم بعضاً، وإنما هم واقفون فى أماكنهم وخط التجميع يمر أمامهم، ويؤدى كل واحد منهم حركته بسرعة. وكان ذلك فتحاً فى وسائل الإنتاج وصل بأمريكا إلى أن تصبح الأقوى فى العالم صناعياً وتجارياً.

وكانت الرأسمالية الأمريكية قد وضعت لنفسها هدفاً صاغه «جاك بيتى» فى سؤال واحد:

«كيف يمكن تحويل ترف الرجل الغنى - إلى حاجة يومية للرجل العادى ؟»!

وقد كان: وذلك ما حدث للسيارة، وحدث للكهرباء، وحدث للتليفون، وحدث فيما بعد للتلفزيون، والغسالة الكهربائية، وجهاز تكييف الهواء، والكومبيوتر.

وكذلك أصبح الترف الذى خطر للأغنياء حلماً - سلعاً جاهزة تحت تصرف الأجراء.

وكان ذلك عالماً جديداً واعداً - وقاسياً فى نفس الوقت - لأن السيطرة على هذه السوق المتسعة كل يوم تحتاج وسائل مختلفة. وينقل «جاك بيتى» نص خطاب بعث به المليونير الشهير «كورنيليوس فاندربيلت» إلى منافس له، معتبراً أن ذلك الخطاب أبلغ تصوير وقع عليه لروح الرأسمالية الأمريكية «المتوحشة» (كذلك تعبيره).

والشاهد أن الخطاب نص شديد الاختصار موجه إلى شريك لـ«فاندربيلت» تحول إلى منافس له وأقام شركة مستقلة. والنص كما يلى موجه إلى مجلس إدارة الشركة المستقلة:

«السادة:

إنكم حاولتم خداعى. ولن أقاضيكم لأن إجراءات القانون تأخذ زمناً طويلاً، ولهذا فإنى سوف «أخرب بيوتكم» I'll ruin you.

المخلص: كورنيليوس فاندربيلت»

■ **مشهد:**

ومع ذلك فقد كانت الرأسمالية الأمريكية التى أكدت سطوتها فى حاجة إلى ترتيبات تحمى الثروة: نظام سياسى قوى - ونظام قضائى أقوى - وقانون يسرى على كل الناس (باستثناء الهنود الحمر الذين حوصروا فى مستوطناتهم، وباستثناء العبيد الذين سقطت عنهم صكوك العبودية وذلك يكفيهم!)

كانت الحاجة إلى نوع من القانون ماسة فى أمريكا منذ نشأتها، خصوصاً على الشواطئ الشرقية التى ظهرت عليها موانئ التجارة عبر المحيط ومخازن السلع (مستوردة أو جاهزة للتصدير). ثم إن المستثمرين الأوروبيين الذين أنشأوا الشركات المساهمة الأولى للتجارة، واعتمدوا فيها على المسئولية المحدودة وعلى الثقة بالمفوضين عبر المحيط - كانوا أيضاً فى حاجة إلى حماية قانون.

وحتى المغامرون الذين بدءوا بالدخول إلى عمق القارة بحثاً عن الفرص الهائلة المعروضة فى انتظارهم - كانوا فى حاجة إلى وسائط اتصال وتأمين وتمويل يعطونها ما لديهم فى مقابل أن تزودهم حيث كانوا بما يحتاجون إليه فى حياتهم - حتى المسدسات وطلقات النار - وتلك علاقات تتطلب قدراً هائلاً من الثقة. وذلك ما أعطى سلطة غير محدودة لرجل الأمن الذى أطلقوا عليه لقب «شريف»

ليس معقولا
أن تنتقل السياسة
فى العالم العربى
من مباراة فى العداء لأمريكا.
إلى مباراة
فى الولاء
لأمريكا

(عن أصل عربى انتقل إلى أمريكا أيام الإسلام فى الأندلس).

وفى الحقيقة فإن الحاجة قضت بإطارات متعددة للقانون - فالشواطئ والموانئ والمخازن تحتاج إلى أطر قانونية لها مواصفاتها - لكن الداخل الذى يغزو الأرض الجديدة ويتجه غرباً يحتاج إلى أطر قانونية لها مواصفات معقدة - ثم إن المساحات الشاسعة المفتوحة كانت لها حياة تحتاج إلى أطر قانونية أوسع، وذلك جعل القانون الأمريكى عوالم متداخلة وليس عالماً واحداً كما هو الشأن فى بلاد أخرى. وكان المكلفون بوضع أطر القوانين فى أمريكا أحسن المشرعين وضعاً فى التاريخ. وفى حين أن القوانين فى أوروبا صاغتها احتكاكات طبقات من النبلاء، وطبقات من الإقطاعيين، وطبقات من البورجوازيين الكبار والمتوسطين والصغار، وطبقات من الفلاحين، وطبقات من العمال - فإن عملية وضع القوانين الأمريكية كان أمامها أن تطلع على التراث السياسى والقانونى بكل غناه وخصوبته، وأن تستوعب، وأن تستوحى ما تشاء، وتصوغه من جديد على أحوالها، وتفصله تفصيلاً محكماً على مصالح وعلاقات أمامها على مساحة قارة جديدة.

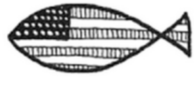
■ **مشهد:**

لكن «وحشية البارونات اللصوص» وجدت آخرين غير «فاندربيلت» لا يكفيهم القانون، ولا يحتاجون إلى خراب بيت خصومهم!

وبالفعل فإن الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف AT & T وجدت من يرفع ضدها عشرات القضايا لأن احتكاراتها أصبحت عابرة لكل الولايات، وتهمتها أنها لا تريد أن تترك «لقمة لأحد». وأحست الشركة أن صورتها تتأثر، وقررت أن تحاول تغييرها «بمسحة ملائكية» يمكن إشاعتها بين الناس. وكان أن لجأت الشركة إلى مشتغل بالإعلان اسمه «آير» طالبة منه «أن يفعل لها شيئاً» - وكانت تلك سنة ١٩٠٨ بداية فن العلاقات العامة (فى عصور الصناعة). واكتشف «آير» أن شركة التليفون والتلغراف الأمريكية تعرض خدماتها على الناس تحت حملة إعلانات تناديهم أن يأخذوا خدماتها «لأنهم لا يستطيعون الاستغناء عنها»! - وقرر أن البداية من هنا، فاختار لإعلانات الشركة شعارات جديدة تخاطب المستهلكين: «هدفنا أن نخدمك» - «روح الخدمة العامة دافعنا» - «ولاؤنا تحت تصرفك» - «أنت شريك معنا».

وتغيرت صورة الشركة الأمريكية للتليفون والتلغراف.

وأصبحت العلاقات العامة من يومها «فناً قائماً بذاته»، وهو فن أمريكى. وبلغ طغيان هذا الفن فى تأثيره على الرأى العام الأمريكى حداً دعا كثيرين إلى التخوف من أن «البارونات اللصوص» سوف يفلت عيارهم. وذهب أحد أصدقاء الرئيس الأمريكى الأسبق «تيودور روزفلت» يلفت نظره إلى ضرورة عمل شىء، وكان رد «الرئيس» بعبارة صارت مثلاً فى التاريخ الأمريكى الحديث: «أنت تريدنى أن أمارس الحب مع فيل»!



■ مشهد:

لم تكن وحشية الرأسمالية الأمريكية مُظلمة ـ كما كان إقطاع القرون الوسطى فى أوروبا.

وكذلك فإن الرأسمالية التى أدركت فى بدايات القرن التاسع عشر أهمية التعليم على طريقة الاستثمار والأجور والادخار ـ وصلت إلى أواخر القرن التاسع عشر وهى على يقين من أنه إذا أرادت أمريكا أن تخرج للعالم وتلعب دورها فيه فإنها فى حاجة إلى تعليم من نوع جديد. وكان أن بعضاً من أهم مؤسسات التعليم الحديث جرى إنشاؤها، وأقيمت جامعات فى الولايات المتحدة الأمريكية تحمل أسماء مؤسسيها القادرين على التمويل والدعم: «هارفارد» ـ «ييل» ـ «ستانفورد».. وغيرها.

وإلى جانب التعليم أدركت الرأسمالية حاجتها إلى المعرفة. فإذا مؤسسات الفكر والبحث الكبرى تلحق بالجامعات وهى الأخرى تحمل أسماء القادرين على التمويل والدعم: «روكفللر» ـ «فورد» ـ «راند».. وغيرها.

كانت أمريكا على وشك أن تنافس العالم فى جامعات التعليم العالى ـ وكانت قد بدأت تسبقه بمؤسسات التفكير والبحث (وقد استطاعت هذه المؤسسات بالفعل أن تستوعب طاقة المثقفين الأمريكيين، وبدلاً من نزوعهم إلى «التغيير» ـ وتلك طبيعة المثقف ـ تم تجنيد فكرهم لصالح التقدم وليس لصالح التغيير فى مفهوم الرأسمالية الأمريكية).

■ مشهد:

عندما عادت أمريكا خلال الحرب العالمية الثانية إلى أوروبا، وبقيت على أرضها تنتظر إرث إمبراطورياتها السابقة فى آسيا وأفريقيا ـ كانت واثقة أن هناك حدوداً لمقاومة الآخرين، لأنهم جميعاً ينتظرون إشارتها ـ رغم حساسيتهم الشديدة من القوة الأمريكية التى بدت أمامهم طاغية ـ كانوا يحتاجون مساعدتها فى مهمة إعادة تعمير ما خربته الحرب.

وأصرت أمريكا على أن تأخذ التنظيم الدولى الذى وقع عليه عبء إدارة العالم بعد النصر، وهو الأمم المتحدة، إلى عاصمتها المالية: نيويورك. وكان أن قام مبنى ومقر الأمم المتحدة على أرض تبرعت بها أسرة «روكفللر» أشهر «البارونات اللصوص»!

ومع أن الاتحاد السوفيتى راح يشاغب فى أروقة هذا التنظيم الدولى الجديد ـ فإن أمريكا تجنبت أن تحاربه ـ وإنما تصرف رؤساؤها من «روزفلت» إلى «ريجان» بنفس منطق «فاندربيلت»: «حضرات السادة .. «لن أحاربكم لأن الحرب فى الأزمنة النووية مخاطرة» ـ لكنى سوف أستنزف قواكم بسباق سلاح لا تستطيعون الخروج منه، ولا تستطيعون الوصول فيه إلى نهاية ـ وكذلك أخرب بيتكم!»

وكانت الفرصة مناسبة اقتصاديا لأمريكا ـ كما كانت مناسبة سياسيا. ويكتب «جاك بيتى» أن السياسة الأمريكية راحت تبشر وتدعو إلى «اقتصاد السوق» ـ ثم إن «اقتصاد السوق» تحول إلى «مجتمع السوق» ـ ثم إن «مجتمع السوق» تحول إلى «عالم السوق».

و«عالم السوق» أو «سوق العالم» فيه ألف شركة عابرة للقارات تملك الرأسمالية الأمريكية الأغلبية فيها. وهذه الألف شركة تسيطر على أكثر من نصف اقتصاد العالم إنتاجاً وتوزيعاً، خصوصاً فى قطاعات حاكمة أهمها: المال، وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات والإعلام ـ وكلها متربعة على عروشها فى أقمار صناعية سارية فى كل أرجاء الفضاء، مطلة على الدنيا من عل ومن بعد!

□

كذلك أصبح القرن العشرون قرناً أمريكياً ـ وكذلك القرن الواحد والعشرون على الأرجح. وهنا تجىء أهمية تحليل أمريكا ـ كما كانت من قبل أهمية توصيف أمريكا.

والشاهد أن العالم عرف من قبل مستويات من الدول:

● فهناك الدول: القوى Powers (بريطانيا ـ فرنسا ـ النمسا ـ روسيا ـ الدولة العثمانية ـ مثلاً ـ فى وقت من الأوقات قبل الحرب العالمية الأولى).

● وهناك الدول: القوى الكبرى Great Powers (بريطانيا ـ فرنسا ـ ألمانيا ـ إيطاليا ـ الاتحاد السوفيتى ـ مثلاً ـ فى وقت من الأوقات قبل الحرب العالمية الثانية).

● وهناك الدول: القوى الأعظم Super Powers (الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وحدهما فى وقت من الأوقات زمن الحرب الباردة).

● وهناك بعد ذلك كله «الدولة الكاسحة» ـ وتلك هى الترجمة الأقرب إلى معنى الوصف الذى يطلق الآن على الولايات المتحدة فى تفردها بالقوة العالمية، وهو وصف Hyper Power.

والمشكلة الكبرى فى القوة الكاسحة ـ الأمريكية بالذات ـ أنها ما زالت تجربة مفتوحة وكان مرحلة الخلق الأولى لها لا تزال مستمرة، وهنا فإن وصف القوة الكاسحة وما يتضمنه من الشعور بفعل مستمر ـ ينطبق بشكل مدهش على القوة الأمريكية ـ الإمبراطورية.

لكن الإمبراطورية دائماً، وبقوانين الحياة، علو ثم نزول، وتوهج ثم خفوت ـ والسبب ـ طبقاً لنظرية المؤرخ الأمريكى الكبير «بول كنيدى» ـ أن أعباء الإمبراطورية ـ راسخة أو كاسحة ـ تظل تتزايد حتى ينوء بحملها من أقبل عليها فى البداية ـ وقد صدقت نظرية «كنيدى» على كل الإمبراطوريات فى التاريخ. وبالفعل فإن الإمبراطورية الأمريكية التى كانت تعطى للاقتصاد العالمى ثلاثين فى المائة من مدخوله سنة ١٩٦٠ ـ تراجعت بعد ثلاثين سنة، وإذا هى تنزل إلى ٢١٪ فقط ـ أى أن التفوق المطلق ـ أو النسبى ـ للإمبراطورية الأقوى لم يعد كما كان، وإنما تخلف سواء بالإرهاق، أو بجهد أكثر تصميماً من آخرين.

على أن الإمبراطورية الأمريكية الكاسحة تحاول هذه اللحظة أن تعوض الاقتصادى بالعسكرى، وإذا كان نصيبها فى القوة الاقتصادية العالمية قد تنازل، فإن سطوتها العسكرية غالبة. وأكبر الظن أن الخطر الحقيقى القادم على الدنيا هو اللحظة التى تحس فيها الإمبراطورية الكاسحة أنها مرغمة على التراجع ـ أمام قوة يمكن أن تسبق، أو تحالف قوى يستطيع أن يتصدى، لأنه ساعتها سوف تكون اللعبة الدولية شديدة الخشونة، بالغة العنف، لأن القوة الأمريكية ـ حتى هذه اللحظة ـ تعلمت كيف تكسب، ولم تتعلم كيف تخسر.

وما لم يحدث غير المنتظر وغير المتوقع، فإن هذه اللحظة موعدها على الأرجح بعد عشرين أو ثلاثين سنة، لكنه طوال هذه المدة وحتى هذا الموعد سوف تظل الإمبراطورية الكاسحة تمارس دورها بكل ما عندها ـ ظاهراً يراه الناس فى حياتها ويقدرون على توصيفه، أو باطناً يدركه الناس من تحليل تجربتها ـ طبقة فى النفس وفى الوعى، فوقها طبقة وتحتها طبقة ـ ويقدرون على تحليله.

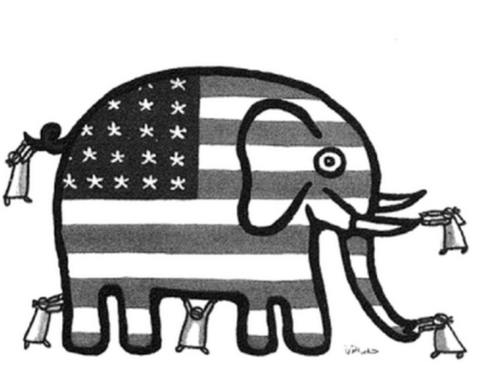
□

وأخيراً فلا أعرف إذا كان ما حكيته عن الولايات المتحدة فى مجال «التوصيف» ـ أو إذا كان ما عرضته من خلال كتاب «العملاق» فى مجال «التحليل» ـ كلاهما يكفى لفهم الولايات المتحدة الأمريكية ؟ ـ لكنها فى كل الأحوال محاولة لاستثارة العقول.

ذلك أن فهم أمريكا، أو محاولة فهمها، ضرورة حيوية «للتعامل» معها دون «خوف» يصنعه الجهل، ودون «خفة» يصنعها الوهم.

فالعداء لأمريكا ـ وهو أسهل المواقف ـ فى هذه الأزمنة خطأ كبير لا تحتمل مخاطره، والوقوع فى غرام أمريكا خطأ أكبر لا تحتمل خسائره.

ثم إنه ليس معقولاً أن تنتقل السياسة فى العالم العربى من مباراة فى العداء لأمريكا ـ إلى مباراة فى الولاء لأمريكا، لأن حقائق الحياة أعقد من ذلك ـ وأيضاً ضروراتها! ■



الهـويـة: قضيـة جزائريـة

محمــــد الميـــلى

ظاهرتان تبرزان بقوة كلما جاء ذكر الشأن الجزائرى - (وكذلك الأمر فى بلدان عربية شقيقة) - وتعرضت الأحاديث لأزماته التى تزداد تأزمًا من زمن:

(اتهام جهات أجنبية بالتدخل فى الشان الداخلى) و(بروز المسائل المرتبطة بالثقافة ومنظومة التربية والتكوين ولغات التعلم والتعليم).

وسواء تعلق الأمر بأحداث «الربيع البربرى» فى عام ١٩٨٠، أو بالأحداث التى عرفتها القبائل منذ أبريل ٢٠٠١، فإن بروز هاتين الظاهرتين يمثل قاسمًا مشتركًا جديرًا بالتسجيل، رغم أن الأوضاع الراهنة تختلف اختلافًا كليًا عن أوضاع ١٩٨٠.

فأحداث الربيع البربرى التى انطلقت منذ إحدى وعشرين سنة كانت بسبب منع محاضرة كان مقررًا أن يلقيها فى جامعة تيزى أوزو الكاتب المعروف المرحوم مولود معمرى.

وقد تطورت تلك الأحداث إلى درجة دفعت بعض المسئولين آنذاك إلى التفكير فى استعمال الجيش لقمع الحركة التى انطلقت إثر منع المحاضرة. لكن هذا الرأى لم يؤخذ به لحسن الحظ.

وقد قيل آنذاك، لو أن المحاضرة لم تمنع لما عرفت المنطقة تلك الحوادث.. كما قيل الآن إنه لو لم يتم مقتل الشاب ماصينيصا، أو لو عولجت الحادثة معالجة معقولة - إن صح هذا التعبير - لأمكن تجنب سلسلة الحوادث التى عرفتها منطقة القبائل وعرفتها بعدها مناطق أخرى من الجزائر.

إن مثل هذا القول تبسيط يحاول أن يعطى للصدفة دورًا أساسيًا فى توجيه التاريخ، فى حين أن ما يسمى صدفة أى «الحادث الصدفة» هو فقط المناسبة المباشرة التى حركت أحداثًا كانت مدعوة للانفجار لا محالة، سواء فى ضوء هذه الصدفة أو بعامل صدفة آخر.

إن بروز أحداث تبدو مباغتة، تجعل الناس يبحثون لها عن تفسير فى ظواهر طافية على السطح غافلين عن جذور المشكلة.

فى ربيع ١٩٨٠، تحدث ناطق باسم النظام عن وجود أيد أجنبية وراء أحداث الربيع البربرى. وقد انتقد آنذاك بعض أعضاء اللجنة المركزية لجبهة التحرير هذه الفكرة على أساس أن هناك عوامل موضوعية ساعدت على تهيئة المناخ داخليًا، لتفجر تلك الأحداث.

فى شهر يونيو الماضى اتهم الرئيس الجزائرى عبدالعزيز بوتفليقة فرنسا بتحريكها لأحداث هذا العام، وإن لم يسمها صراحة.

وأثناء النقاش حول الموضوع من طرف



الإشـــارة إلى التدخـــــل الأجـــنبى فى الجـــزائر كانت فى الماضـــى تســاعد عـــلى تعـــزيز الجبهـــة الداخلية حـــول النظـــام عندما كانت ذكــريات الكفــاح ضد المـــستعمر ما تـــزال حيـــة فى الأذهــان ومؤثـــرة فى النفــوس

مجلس النواب الجزائرى تحدث رئيس الحكومة عن «حملات أجنبية» تسببت فى قلاقل هذا العام، وإن لم يفته أن يسجل بأن العوامل الداخلية التى تسببت فيها كانت موجودة قبل أن يظهر السبب المباشر الذى أضرم النار فى وضع كان قابلاً للاشتعال. وقد ذهب بعض نواب الائتلاف الحكومى إلى حد المطالبة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع فرنسا.

والواقع أن ترديد هذه المقولة ليس بالأمر الجديد، لأن الإشارة إلى التدخل الأجنبى فى الجزائر كانت فى الماضى تساعد على تعزيز الجبهة الداخلية حول النظام عندما كانت ذكريات الكفاح ضد المستعمر ما تزال حية فى الأذهان ومؤثرة فى النفوس. أما الآن فهى لم تعد تثير من ردود الفعل ما كانت تثيره فى الماضى، أى أنها لم تعد مجدية.

على أن التهمة الموجهة لفرنسا تحتاج إلى شىء من التوضيح.

فلا يجادل أحد فى أن فرنسا ما فتئت تهتم بالشأن الجزائرى، سياسيًا وإعلاميًا، ليس فقط نظرًا لنوعية وطبيعة العلاقات التاريخية والحالية التى تربطها بالجزائر، وليس فقط نظرًا لوجود جالية جزائرية معتبرة بفرنسا بالإضافة إلى الفرنسيين من أصل جزائرى وخاصة الجيل الثانى والثالث الذين تشكل أصواتهم الانتخابية قوة لا يُستهان بها، ولكن أيضًا لأن تدهور الأوضاع فى الجزائر، ينعكس سلبًا على بلدان الجوار المتوسطى فى أوروبا، نظرًا لما يتسبب فيه من تدفق أمواج المهاجرين السرِّيين.

لكن هل يعنى ذلك أن الاهتمام يتطور حتمًا إلى تدخل؟ وإذا افترضنا أن هناك تدخلاً ما بشكل من الأشكال، فهل يعفى ذلك الطرف الجزائرى من مسئوليته فيما حدث عام ١٩٨٠ وفيما يحدث عام ٢٠٠١؟ طبعًا لا.

أوجـــه شـــبـــه:

إذا حاولنا تجميع عوامل الشد والجذب هنا وهناك، أى العناوين التى استعملتها هذه الجهة أو تلك لتبرير موقفها فى الصراع الذى دار منذ أكثر من عشرين عامًا والذى يدور الآن، فإننا نجد قواسم مشتركة ومواطن اختلاف.

بالنسبة للقواسم المشتركة أى أوجه الشبه يمكن تلخيصها فيما يلى:

١ـ طابع العنف: فقد برز العنف ـ وإن بدرجات متفاوتة ـ فى أحداث مارس ١٩٨٠ وكذلك أثناء المناقشات التى دارت حول المشكل الثقافى فى عام ١٩٨١، كما برز فى أحداث هذا العام.

٢ـ ارتباط الصراع فى المرحلتين الزمنيتين كلتيهما بصراع أشخاص وإن كان عام ١٩٨٠ أقل وضوحًا وأشد خفاء.

٣ـ احتلت المنظومة التربوية ولغة التعليم مكانة رئيسية هنا وهناك أى أمس واليوم.

٤ـ وجود الدين فى قلب الصراع: المتمسكون به بوصفه من الثوابت المرتبطة بالهوية، يرى بعضهم أنه يجب أن يظل الدين الإسلامى هو محور المشاريع المجتمعية فى الوقت الذى ينادى آخرون بإبعاده عن حلبة الصراع السياسى.

٥ـ وجود التاريخ فى قلب الصراع: فهناك من يعتبر أن الفتح الإسلامى وما استتبعه من تعريب قد حسم الموقف وجعل الجزائر عربية مسلمة إلى أبد الأبدين، وهناك من يعتبر الأصل الأمازيجى هو المرجعية الأساسية، ومن هنا برزت الدعوة أمس واليوم إلى ضرورة أن تكون الأمازيجية لغة رسمية، تعليمها إجبارى.

وقد برزت بالأمس أصوات شاذة متطرفة، قليلة العدد، تعتبر الفتح الإسلامى «غزوًا عربيًا». وهناك من صرح اليوم بأنه لا يحتفل بالمولد النبوى. وعلى الرغم من أن الاحتفال بالمولد النبوى لا يعتبر فى نظر كثيرين من علماء السنة من صميم الدين (بل هناك من يعتبره بدعة) فإن العادة التى درجت عليها منطقة الشمال الأفريقى منذ قرون تجعل الاحتفال بالمولد النبوى فى نظر أغلبية الشعب من صميم الإسلام، وهذا ما يجعل تصريح بعضهم بأنه غير معنى بالمولد نوعًا من الاستفزاز.

وقد صدرت عن بعض رموز الحركة البربرية تصريحات فهمت على أنها دعوة إلى انفصال منطقة القبائل عن الجزائر. وقد تصدى للرد على ذلك عدد من الزعامات السياسية فى منطقة القبائل جعل صاحب التصريح يقول إن كلامه قد تم تحريفه.

ولعل مثل هذا التصريح هو الذى جعل بعض الصحف الفرنسية المحترمة، مثل مجلة «لوفيجارو ماجازين» الأسبوعية تجعل على رأس الأسباب التى فجرت الغضب فى بلاد القبائل هو «الغزو العربى»، لأن فرض الإسلام بالقوة وفرض اللغة العربية «تسبب فى اغتصاب الهوية، نتج عنه نزاع خفى بين العرب والبربر» حسب تعبير «آلان شوفاليرياس» فى العدد الصادر بتاريخ ٢٣ يونيو ٢٠٠١.

أما مواطن الاختلاف بين أحداث ١٩٨٠ و٢٠٠١ فهى عديدة، لا داعى لذكرها، لأنها قد تبتعد بنا عن الموضوع أى بعبارة أدق عن الطرح والتناول الذى نريد أن نستعرض من خلاله المشاكل الراهنة.

عن العــــرب والبـــربر:

ومهما يكن من شىء فإن كلا من أحداث ١٩٨٠ ووقائع هذه السنة ترجع إلى تراكمات يرجع بعضها إلى العهد الاستعمارى وبعضها الآخر إلى فترة الحكم الوطنى، أى بعد الاستقلال، فقد ظهرت منذ القرن التاسع عشر نظرية فرنسية تزعم أن البربر من أصل أوروبى.

أما الأبحاث الجادة فهى ـ على اختلافها ـ لا تجزم برأى قاطع لفائدة أطروحة معينة من الأطروحات التى تعرضت لأصول سكان الشمال الأفريقى. فهناك من لا يستبعد أن يكون التأثير قد جاء من المشرق إلى المغرب، دون أن يطعن فى الأطروحة التى لا تستبعد أن يكون التأثير فى عصور ما قبل التاريخ قد أخذ اتجاهًا معاكسًا أى من المغرب نحو المشرق. وهناك من المؤرخين العرب مثل ابن عبد الحكم من يقول إن البربر هاجروا من فلسطين بعد انتصار داود على جالوت. وهو نفس الرأى الذى يذهب إليه المؤرخ الفرنسى «هنرى لوت» عندما يلاحظ أن المؤرخ البيزنطى «بروكوب» كان قد كتب بأن البربر كانوا يُنعتون بـ «Philiatins» لأنهم قدموا من فلسطين بعد أن طردهم منها العبرانيون.

ويذهب المؤرخ المغربى المعروف «عبد الله العروى»، بعد أن يستعرض مختلف الآراء حول أصول البربر إلى أن معظم سكان المنطقة يتشكل من خليط استقر بعضه فى شمال أفريقيا منذ العصر الحجرى الحديث، وبعضه الآخر يتشكل من مجموعتين متوسطتين جاءت كلتاهما من آسيا. لكن إحداهما دخلت إلى المنطقة من جهة شمال شرق، والأخرى من جنوب شرق، وإن كان يرى أن الأبحاث عن لغة قدماء البربر ترجح الكفة فى جهة المشرق.

على أن المنظرين الاستعماريين لم يكتفوا بالقول إن البربر من أصل أوروبى. ولو اقتصروا على ذلك لما كان قد تسبب فى تراكمات شديدة التعقيد. لكن المشاكل التى اصطدم بها الاستعمار الفرنسى بعد فشل المقاومة المسلحة، سواء فى عهد دولة الأمير عبد القادر أو بعدها، إذ اتخذت المقاومة أشكالاً معنوية، جعلت أولئك المنظِّرين يتصورون أن الإسلام هو الذى يقف حجر عثرة أمام مشروع الاحتلال الشامل المدعوم باستيطان أوروبى ضخم. ونتيجة لذلك ظهرت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر أطروحة تحمل مسحة تأصيل تاريخى خلاصتها أن الجزائر كانت قبل الإسلام مسيحية فأصبحت بعد «الغزو العربى» مسلمة أى «بلد بدون روح» ولذلك يتعين إعادة الروح إليها عبر تمسيحها من جديد.

على هذا الأساس صدرت تعليمات تقول إن «البربر مسلمون سطحيون» فلا يجوز «السماح بتعميق إسلامهم كما لا يجوز السماح بتعريبهم عن طريق فرض الشريعة القرآنية عليهم. ومن ثم شددت التعليمات الرسمية على ضرورة الحفاظ على كل ما من شأنه «أن يضمن التمايز بين السهول العربية والجبال البربرية».

ولم يتردد الجنرال بريمون فى أن يلح على ضرورة فرنسة البربر وتجريدهم من الإسلام، كما تنص التعليمات الموجهة إلى المعلمين المشرفين على تعليم الجزائريين على ما يأتى: «علموهم كل شىء ماعدا العربية والإسلام».

وقد أقام الكاردينال لافيجرى مؤسسة سماها «جمعية الآباء البيض» أتبعها بعد عشرين سنة بجمعية «الأخوات البيض» عسى أن تؤثر على الأسرة الجزائرية من الداخل.

وإذا كان مسعى التبشير يمثل مسعى دينيًا بحتًا لا علاقة له بالاستعمار. فإن تصريحات الرجال الذين اضطلعوا بهذه المهمة تدل على أن المجهود المبذول لم يكن دينيًا صرفًا.

فقد كتب «دى جوركى دى لاسال» فى مجلة تاريخ الإرساليات يقول: «إن السماح للمسيحية بالتأثير فى الروح البربرية يعنى ولا شك المساعدة على تفتيت الكتلة العربية والقضاء عليها. وذلك يعنى بالتبعية القضاء على الإسلام فى أرضنا بشمال أفريقيا لفائدة حضارتنا وعرقنا».

وهناك كتابات أعربت فى نفس الفترة عن الأمل فى «أن يؤدى مجهود التمسيح إلى تعود البربر على شرب الخمر» وأن «يصبح الخمر شرابًا وطنيًا بوصفه شرابًا محليًا بهيجًا بدلاً من الشاى الأخضر بالنعناع ذلك الشراب المخنث».

وهذا على الرغم من أن عددًا من الكتابات الفرنسية الجادة تؤكد على أن الهجرات البشرية التى تعاقبت على المنطقة فى التاريخ القديم لم تدخل كبير تغيير على الوضع العرقى للسكان على فرض أن العرق يلعب دورًا أساسيًا فى مصير الشعوب.

ولذلك يذهب «ماكسيم رودانسون» إلى أن الوضعية العرقية ظلت مستقرة منذ القرن الأول الميلادى، ولم تتأثر إلا قليلاً بالموجات التى جاءت فى فترات مختلفة مع الرومان والجاليات اليونانية وغيرها. ويؤكد شارل اندرى جوليان أن مجموع الهجرات العربية التى تعاقبت على شمال أفريقيا فى العهد الإسلامى لم تتجاوز مائتى ألف نسمة أو ثلاثمائة ألف على أكثر تقدير.

ويرى عدد من المؤرخين، عربًا وفرنسيين، أن هناك عربًا تبربروا مثلما هناك بربر تعربوا. ويذهب هؤلاء إلى القول بأن التعريف الاجتماعى للبربر هو الأقرب لتصوير الواقع، لأنه يأخذ فى الاعتبار مجموع العوامل التى صهرها التطور التاريخى، وهو التعريف الذى يكشف عن «وجود وحدة بشرية منسجمة رغم اختلاف اللهجات وأنماط الحياة فى الماضى والحاضر» حسب تعبير شارل أندرى جوليا مؤرخ شمال أفريقيا.

لكن هذه اللوحة التاريخية تظل ناقصة إذا نحن لم نتعرض إلى توظيف للتاريخ مضاد للتوظيف الاستعمارى، ظهر بصورة خاصة بعد الاستقلال، يحاول أن يوجد نوعًا من التأصيل التاريخى الطابع للدعوة الإسلامية، وذلك عبر





الرسوم المصاحبة للمقال للفنان محمد حجى. رسمها من الطبيعة فى مناطق سكن قبائل الأمازيج

الإلحاح على أن البربر من أصل عربى، بحيث يكون انتشار الإسلام فى شمال أفريقيا قد تم فى مجال عربى لا يختلف عن المجال العربى الجاهلى فى الشرق.

فى هذا السياق لابد من الإشارة إلى أن ممارسات الحكم الوطنى بعد الاستقلال أو بعبارة أصح تعمده السكوت عن تناول الأصول التاريخية للمجتمع الجزائرى جعلت هذا الموضوع مشمولاً بنوع من «التحريم» أو التابو الفعلى.

عوامل التابو:

يستطيع من يتتبع كتابات الوطنيين الجزائريين أثناء العهد الاستعمارى أن يلاحظ غياب الأطروحات التى ظهرت بعد الاستقلال وخاصة فى نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات متصلة بما عرف فيما بعد بـ «الهوية الأمازيجية». وهذا لا يعنى أنها لم تكن مطروحة على الإطلاق، ولكنه يعنى أنها لم تطرح بنفس الحدة التى طرحت بها فيما بعد. وهو أمر معقول لأن متطلبات الكفاح ضد الاستعمار لم تكن تسمح بوجود مثل ذلك الجدل الذى يتنافى مع روح الوفاق الوطنى ضد المحتل، سواء فى عهد الكفاح السياسى السلمى أو فى فترة الكفاح المسلح.

إلا أن ما يمكن قوله فى هذا الصدد أنه لم تكن توجد قبل الاستقلال، مناقشات علمية أو عقد وتوترات حول البعد الأمازيجى للشخصية الوطنية. وكل ما كان موجودًا هو الخلافات والحزازات بين قبائل أو فروع قبائل تسودها الأمية، سواء كانت تتحدث البربرية أو تتحدث العربية، نتيجة تنظيم قبلى متخلف.

فمؤرخ معرب مثل مبارك الميلى الذى كان يعلن اعتزازه باصوله العربية الهلالية كان يستعمل منذ عام ١٩٢٨ مصطلح «الأمة العربية» كما يستعمل مصطلح «الأمة البربرية» دون أية عقدة أو أى تمييز. وكان ـ وهو المعروف بتدينه الشديد ـ يعتبر الكاهنة التى حاربت المسلمين «درة فى جيد تاريخ المرأة، لما كانت عليه من حسن التدبير وشدة البأس وصدق الدفاع عن الوطن والثبات على المبدأ».

ولم يكن هناك فى أدبيات الأحزاب السياسية ما يبرز التفرقة بين العرب والبربر. وعندما تبلورت المطالب السياسية الوطنية من خلال عدة تنظيمات وأحزاب، لم تقم هذه على أساس عرقى أى جهوى بل على أساس اتجاهات سياسية وفكرية. فحركة النواب التى كانت تطالب فى وقت من الأوقات بالفرنسة والإدماج، كانت تضم عناصر من المناطق الناطقة بالأمازيجية وعناصر من الجهات التى تستعمل العربية. ونفس الشىء يقال عن الحركات الأخرى سواء منها المتشددة التى تطالب بالاستقلال التام مثل حزب الشعب الجزائرى وسليله حركة انتصار الحريات الديمقراطية، أو تلك التى تعتبر أكثر اعتدالأ مثل حركة الإصلاح الدينى وحزب الاتحاد الديمقراطى للبيان الجزائرى.

وعندما حاولت السلطات الفرنسية أن تغذى من جديد التفرقة بين العرب والبربر لضرب المطالب الوطنية، تصدت لها أقلام الوطنيين. وأبرز من تولى الرد على تلك المقولات الاستعمارية فى فترة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، هو الشيخ عبدالحميد بن باديس الذى استشهد بوجود لهجات محلية فى بروطانا بفرنسا وكذلك أخرى فى جنوبها، ومع ذلك لم تحل تلك اللهجات دون تكوين أمة فرنسية واحدة موحدة. وقال فى هذا الصدد «ليس تكون الأمة يتوقف على اتحاد دمها ولكنه متوقف على اتحاد قلوبها وأرواحها وعقولها اتحادًا يظهر فى وحدة اللسان وآدابه واشتراك الآلام والآمال» (فهو يلتقى هنا بعض الشىء مع مقولة إرنيست رينان).

وقد كان الصراع الأساسى حول اللغة هو الذى يهدف إلى انتزاع الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية.

ولا شك أن مناخ الكفاح ضد الاستعمار ساعد على إسدال الستار على مشكل اللهجات المحلية وعلاقتها بالعربية. فى هذا الصدد أتذكر واقعة خلاصتها أن عددًا من الخطباء بمناسبة حملة انتخابية فى إحدى جهات المنطقة القبائلية، تداولوا على المنصة، فتحدث بعضهم بالفرنسية وتحدث بعض آخر، هو الشيخ صادق عيسات بالقبائلية على أساس أن المعروف عن سكان المنطقة خلال فترة ما قبل نوفمبر ١٩٥٤ أنهم لا يتقنون إلا الفرنسية، بالنسبة للنخبة وسلك الموظفين أو الأمازيجية بالنسبة للجماهير الأمية. (وهذا الوضع لم يعد قائمًا الآن).

وبعد انتهاء الشيخ صادق عيسات من خطابه بالأمازيجية ارتفع صوت من الجمهور محتجًا يقول ما معناه: لماذا اقتصرتم على الفرنسية والقبائلية ولم يتحدث أى منكم بالعربية، ألسنا مسلمين» (سمعت هذه الواقعة من المرحوم الغسيرى، وهو بربرى من الأوراس ومن تلاميذ عبدالحميد بن باديس، وممثل جبهة التحرير الوطنى فى دمشق خلال حرب التحرير).

وتجدر الإشارة إلى أن عبد الحميد بن باديس كان يستعمل كلمة «الأمازيج» أو «أبناء مازيج» عندما يتحدث عن البربر؛ إن لم يكن هو أول من استعملها فى الخطاب السياسى الجزائرى المعاصر.

فاين هى عوامل التابو أى التحريم الفعلى الذى كان ـ بعد الاستقلال ـ يحول دون نشوب نقاش مسؤول حول أصول السكان؟

يبدو أن المبالغة فى التاصيل العرقى التى ظهرت على الخصوص بعد الاستقلال سواء لدى الذين يقولون إن البربر عرب قدامى، أو الذين يؤكدون أن البربر ليسوا عربًا هى التى أوجدت حساسيات تتصل بمصطلح «البربر»، بعضها شكلى وبعضها غير شكلى.





فالحساسية الشكلية ترجع إلى الاشتباه الذى يحدث فى الاستعمال العربى عندما تطلق الكلمة على الأمازيج أو عندما تصف المتوحشين، على خلاف الاستعمال الفرنسى الذى تختلف فيه كتابة المعنيين بعضهما عن بعض، إذ إن كلمة «Berberes» تعنى الأمازيج، وكلمة «Barbores» نعت للمتوحشين؛ بينما لا يوجد أى فرق فى رسم الكلمتين بالعربية.

أما المؤرخون الإسلاميون فكانوا يستعملون مصطلح البربر دون أى تحفظ، سواء كانوا مشارقة أو مغاربة. وهو ما نلحظه فى كتابات المعربين من رجال الإصلاح الدينى بالجزائر فى سنوات العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين.

أما الجانب غير الشكلى فى تفسير الحساسية المتصلة بهذا المصطلح فهى أقل خفاء. فرغم أنه لم تصدر بعد الاستقلال أية تعليمات رسمية تغذى هذا التحريم، فالذى لا شك فيه أنه كانت توجد ممارسات تحركها اجتهادات شخصية لبعض من يحتلون مناصب مسؤولية سياسية أو ثقافية تسمح لمن هم أدنى مرتبة فى سلم الإدارة أو سلك الوظيفة أن يتصوروها معبرة عن خط سياسى محدد وإن لم يكن معلنا.

وقد ساعد على تغذية هذا التصور ظهور فكرة يجزم أصحابها أنها تحسم الموقف مفادها «أن البربر عرب قدامى» صيغت بصورة قطعية غير قابلة للنقاش؛ ولاشك أن إغلاق باب النقاش والاجتهاد حول المسألة من شأنه أن يساعد على تعزيز الشعور بوجود تحريم؛ إذ لا يستبعد أن يوجد - فى ظل ظروف معينة (وقد حدث ذلك فعلاً) من يستنتج من هذه الأطروحة أن أصحابها يعترفون بالبربر على شرط ألا يكونوا بربرًا!!

ومما ضاعف انتشار هذا التصور تضافر عاملين:

الأول: أن هذه الأطروحة تعززت بصعود المد القومى العربى، من جهة وبعودة عدد من الطلبة الجزائريين حاملى الشهادات من جامعات البلدان العربية الذين أدوا دورًا معتبرًا فى سد الفراغ الثقافى الذى كانت تعانى منه الجزائر بداية الاستقلال.

أما العامل الثانى فيتمثل فى سيطرة لغة الحزب الواحد، فقد مُنعت كل الأحزاب ماعدا جبهة التحرير الوطنى؛ وهى لغة «اللسان الخشبى» التى لا تسمح بالنقاش الحر، إلا فى المجالس الخاصة. ومثل هذه اللغة تحرص على إعطاء انطباع بوجود وفاق وطنى حول المسألة، ولو كان وفاقًا مظهريًا وسطحيًا.

ولا يخفى أن غلق الاجتهاد والنقاش الحر حول المسألة المتصلة بالأصول التاريخية من شأنه أن يدفع الفئات التى لا تتعرف على نفسها فى الشعارات الرسمية، إلى أن تبحث - ولو عبر عمل سرى - عن صيغة تعتبرها أكثر تمثيلاً لها.

وهكذا ظهرت الأطروحات الاثنية التى تركز على الخصوصية البربرية، فى نفس الوقت الذى انصرفت فيه فئات أخرى إلى لغة الخطاب الدينى الذى ما لبث أن تطور منذ منتصف السبعينيات إلى خطاب أصولى.

ماذا عن المؤامرة الأجنبية؟

إن طبيعة العلاقات بين الجزائر وفرنسا تجعل من الصعب إقامة حدود واضحة بين «الاهتمام والتدخل». فالزيارات المتبادلة على المستوى السياسى والمستوى العسكرى، بين الجزائر وفرنسا وبلدان الاتحاد الأوروبى، إزاء الزيارات المتبادلة مع الحلف الأطلسى والولايات المتحدة الأمريكية، تدل على أن كلا من الاهتمام الفرنسى والأوروبى والأطلسى والأمريكى لم يخف بعد انتهاء الحرب الباردة ولم تنل منه المشاغل والأزمات الجزائرية الممتدة منذ سنوات عديدة. وهذا رغم أن الجزائر لم تحتفظ بالمكانة الدولية التى كانت تحتلها فى سنوات الستينيات والسبعينيات.

فى هذا السياق قد يكون من المفيد التذكير بأن فرنسا كانت إثر الحرب العالمية الثانية فكرت فى إقامة خمس قواعد عسكرية اقتصادية لحماية وصيانة مستعمراتها فى أفريقيا وآسيا. ولم يَكُنْ محض صدفة أن تكون ثلاث قواعد من بين تلك الخمسة فى الجزائر: واحدة فى بشار قرب الحدود مع المغرب وواحدة فى بئر العاتر قرب الحدود الجنوبية مع تونس، وثالثة بالهوقار المتاخمة للبلدان الأفريقية المجاورة وهى النيجر والسودان الغربى (الذى يعرف اليوم بمالى).

وعندما تولى الجنرال ديجول الحكم فى مايو ١٩٥٨ بادر إلى تحييد الأقطار الأفريقية حتى لا تصيبها عدوى الثورة المسلحة، فنظم استفتاء ٢٨ سبتمبر ١٩٥٨ الذى يسمح للمستعمرات الأفريقية جنوب الصحراء أن تحكم نفسها حكمًا ذاتيًا فى إطار المجموعة الفرنسية.

وبعد التأكد من استقلال الجزائر سعى الجنرال ديجول من خلال اتفاقيات إيفيان التى تم التوقيع عليها يوم ١٨ مارس ١٩٦٢، لتكون نافذة من الغد، إلى الاحتفاظ بقاعدة مرسى الكبير مدة خمسة عشر عامًا قابلة للتجديد، إضافة للتسهيلات التى منحت للجيش الفرنسى فى عدد من المطارات الجزائرية.

ورغم أن الجنرال ديجول كان يعارض فى أن تظل فرنسا تابعة لأمريكا فى إطار الحلف الأطلسى الذى غادره فإنه لم يعاد الحلف الأطلسى، بل فكر فى استعمال بعض دوله الأوروبية لتاسيس تحالف يضم دول المغرب العربى وبعض دول أوروبا الغربية المتوسطية.

ولا باس من أن نشير هنا إلى أن بعض حكومات الجمهورية الرابعة كانت فكرت عام ١٩٥٦ وعام ١٩٥٧ فى أن توجد حلاً لما كانت تسميه «المشكل الجزائرى»، عن طريق حلف عسكرى يكون متفرعًا عن الحلف الأطلسى على غرار حلف بغداد المتفرع عن حلف جنوب شرقى آسيا.

وبعد التوقيع على اتفاقيات إيفيان، بادر الجنرال ديجول إلى الاتصال برئيس الحكومة الإيطالية، السيد



فانفانى يعرض عليه مخططًا يستوعب الانعكاسات التى قد تترتب على استقلال الجزائر.

ورغم بعض تحفظات البروتوكول الفرنسى، فإن الجنرال ديجول قام بزيارة إلى رئيس الحكومة الإيطالية الذى كان موجودًا بمدينة «تورينو» وذلك يوم ٤ أبريل ١٩٦٢، أى بعد أسبوعين فقط من توقيع اتفاقية إيفيان، رغم أن السيد فانفانى كان رئيس حكومة ويصغره بعشرين سنة.

ومع ذلك ورغم أن مصطلح «حلف» لم يرد ذكره فى الخطة التى عرضها الجنرال ديجول على زعيم الديمقراطية المسيحية فى إيطاليا، فإن الأمر كان يتعلق بحلف يضم دول المغرب العربى الثلاث وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا واليونان ويوغوسلافيا.

صحيح أن المعلومات التى تسربت عن تلك الخطة قليلة لكن يبدو أنها كانت عبارة عن حلف عسكرى أكثر منها بناء سياسيا قانونيا.

لأن ما كان يهم الجنرال ديجول آنذاك هو الاحتفاظ بكل من قاعدة بنزرت فى تونس، وقاعدة مرسى الكبير فى الجزائر، وهذا ما أشار إليه فى تصريح له يوم ٥ سبتمبر ١٩٦٢ عندما قال: «إن فرنسا لا تريد ولا تستطيع فى الوضع الراهن للعالم، أن تعرض نفسها أو أوروبا أو العالم الحر لإمكانية سقوط بنزرت بين أيدى قوات عدوة». ولم يذكر الجنرال ديجول مرسى الكبير فى هذا التصريح، لأن النظام الجزائرى الوليد كان مشغولاً بصراعات داخلية، ولأنه يعرف حساسية الجزائريين، وبعد أن اطمأن إلى استقرار الأوضاع فى الجزائر قرر الانسحاب من مرسى الكبير عام ١٩٦٦.

قد يقال لكن ظروف الأربعينيات والستينيات تختلف كليًا عن الظروف الحالية. وذلك صحيح. لكن مؤشرات عديدة تدل الآن على أن خطط الاتحاد الأوروبى والحلف الأطلسى ما تزال تقرأ للموقع الجزائرى بعض الحساب.

ومهما يكن من شىء فإن طبيعة العلاقات التى تربط بين الجزائر وفرنسا وتعقيداتها وتنوعها تدفع إلى تناول مقولة «المؤامرة» الخارجية بشىء من الحذر.

وقد كنت كتبت تعليقًا على مقولة «المؤامرة» التى ظهرت عام ١٩٨٠ بمناسبة أحداث الربيع القبائلى ملخصها أن مثل هذا الطرح يبدو مشكوكًا فيه لعدة أسباب:

١- أن اللجوء لذلك يهدف عادة «لتبرير رد فعل قمعى» وهذا ما يجعل مثل هذا الطرح «مبتذلاً فى نظر عديد من المثقفين، بل وحتى فى نظر الرجل العادى».

٢- خيبات الأمل التى تحدث بعد الاستقلال تدفع فى حالة عمليات قمع تمارسها أنظمة وطنية إلى «الترحم» على أيام زمان.

٣- ما يساعد على إضفاء مظاهر البراءة على الدول الاستعمارية بالأمس أن «تاريخ الاستعمار يلقن عادة فى شكل «معلومات جافة لا روح فيها، ومع مرور الوقت يطغى النسيان على الذاكرة حتى بالنسبة للذين عايشوا الاستعمار، فكيف إذا تعلق الأمر بجيل لاحق لم ير من الاستعمار إلا بعض ما قرأ عنه فى الكتب». ثم تساءلت عن العوامل الداخلية وجوانب القصور الذاتى التى تسمح بنجاح التدخل.

كان ذلك التعليق عام ١٩٨٢.

على أن هناك مؤشرات يمكن أن يستغلها أنصار أطروحة التدخل الأجنبى هذه المرة لم يكن يوجد لها نظير عام ١٩٨٠، وهى تتمثل فى البيان الصادر عن الاتحاد الأوروبى متصلاً بالأحداث الأخيرة، وتصريح وزير الخارجية الفرنسى.

فقد لاحظت الصحافة الجزائرية أن بيان الاتحاد الأوروبى يدعو كل المسؤولين (الجزائريين) إلى اتخاذ مبادرة سياسية لتجاوز الأزمة تسمح بالتحاور مع كل الجزائريين». كما تلاحظ الصحافة المذكورة أن هذا البيان تعمد إغفال ذكر رئيس الجمهورية كما أغفل ذكر الحكومة: وتساءلت بعض الصحف: «هل الأمر مجرد صياغة لفظية بيانية أم هو دعوة إلى اتخاذ موقف مسؤول داخل متاهات السلطة الجزائرية الحقيقية؟».

أما وزير الخارجية الفرنسى، فقد صرح أن «فرنسا مستعدة لتكون جنب هذا البلد الصديق فى تحركه على طريق الإصلاحات لأن فرنسا تعتبر مطالب المتظاهرين الجزائريين شرعية، وهى (أى فرنسا) جد حساسة لهذه المطالب وتلك الرغبة وهذا النداء الصاعد من أعماق الشعب الجزائرى من أجل إحداث تغييرات حقيقية واستئناف مسيرة التحديث السياسى والديمقراطى والاقتصادى والاجتماعى» ثم أضاف: «إننا اتفقنا فى الاتحاد الأوروبى على أن نعبر عن شعور الاهتمام والحيرة والانشغال».

وهناك ما هو أخطر من ذلك، ويتمثل فى بيان أصدره بعض نواب البرلمان الأوروبى يتصل بأحداث منطقة القبائل، تحدثوا فيه عن «الشعب القبائلى».

ولاشك أن مثل هذا التصريح هو الذى دفع كثيرين فى الجزائر إلى التأكيد على أطروحة «المؤامرة الخارجية»، لكن يجب تسجيل رد الفعل الذى صدر عن أبناء منطقة القبائل إذ رفضوا نعتهم بـ«الشعب القبائلى» وأكدوا جزائريتهم.

ومن هذا القبيل كانت الشعارات التى أعدت لتكون دالة على مغزى مظاهرة كجوبليه التى منعت، والتى تنص على شعب واحد موحد.

ومــــاذا بعـــــد؟

من المشاهد السينمائية التى أثرت علىّ زمن الطفولة مشهد لسيدة عجوز كانت تروى قصة بطل معركة «الطرف الأغر» التى حطم خلالها الأسطول الفرنسى - الإسبانى عام ١٨٠٥، وكانت السيدة العجوز وهى تروى قصتها مع الأميرال Nelson (١٧٥٨-١٨٠٥) بطل معركتى أبو قير والطرف الأغر (التى توفى فيها) تركز على حياتها الخاصة معه. وكانت مشاهد الفيلم عبارة عن تجسيم لروايتها. وعندما تنتهى من القصة، يسألها المستمع أو المستمعة وقد بدت عليها الشيخوخة «وماذا بعد»؟ فتجيب: «لا يوجد بعد».

تذكرت هذا الجواب وأنا أقرأ لبعض المتشائمين ما يدل على أنه لا يوجد أى أمل فى خروج الجزائر من أزمتها أو مأساتها كما يفضل بعضهم تسميتها. ولذلك طرحت هذا السؤال الذى يمكن أن ينتهى به جواب صديقة نيلسون، وفى هذه الحالة تكون «لا يوجد بعد» هى خاتمة هذا العرض.

لكنى لست متشائمًا، أو بعبارة أصح لست متشائمًا إلى هذا الحد.

إن العرض الذى تقدم إذا كان يلقى بعض الضوء على التطورات التى عرفتها الجزائر متصلة ببعض مقومات الهوية، فماذا عن احتمالات المستقبل قريبه والبعيد؟

إن ظواهر الأمور توحى بأن نقطة الضوء التى تؤذن بقرب الخروج من الأزمة لم تظهر بعد فى النفق المظلم.

فالمجال السياسى، رغم المتغيرات التى عرفتها سنوات العنف العشر الماضية التى جاءت فى أعقاب سنوات «الانفتاح الديمقراطى» بعد أحداث أكتوبر ١٩٨٨، ما تزال مطبوعة بتشرذم القوى السياسية المعارضة التى يفترض فيها أن تمثل كفة التعادل فى ميزان القوى كما هو الشأن فى كل بلد تحكمه ديمقراطية غير شكلية. والقوة الأساسية التى برزت إثر أكتوبر ١٩٨٨، وهى الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد شوهت واقترن اسمها بالويلات التى انصبت على المدنيين منذ تفجير مطار الجزائر فى ١٩٩٢. وحزب «الوفاء» الذى تشكل من أجل أن يكون ممثلاً لتيار إسلامى معتدل ومستعد لأن يتحاور مع النظام ويتعامل معه ديمقراطيًا، لم تعترف به السلطة. أما الأحزاب المعترف بها والممثلة فى البرلمان فهى فى نظر الرأى العام مدجنة، فقدت كل مصداقية، وأصبح دور ممثليها فى الهيئة التنفيذية يقتصر على تسيير الشؤون العادية.

ويبدو أن القوانين والتشريعات التى أدخلت تعديلات بهدف سد الثغرات الموجودة فى الميدان المؤسسى لم تؤد الدور المنتظر منها. لأن التنظيمات المؤسسية ليست هى الأساس، كما يقال فى بلدان العالم الثالث. فقد عرفت الجزائر وضعًا مستقرًا من غير وجود دستور من عام ١٩٦٥ حتى عام ١٩٧٦، أى بعد تعليق دستور ١٩٦٣. واستمر الاستقرار بعد غياب بو مدين فى ظل الحزب الواحد حتى عام ١٩٨٨.

وقد اتسمت السنوات العشر الماضية بنوع

من عدم استقرار الوضع المؤسسى، ضاعف من سلبياته عدم الاستقرار الذى عرفته قمة السلطة: ففى ظرف ثلاثين سنة، (١٩٦٨ - ١٩٩٨) عرفت الجزائر ثلاثة رؤساء؛ بينما توالى عليها خلال عشر سنوات كل من محمد بوضياف، وعلى كافى والأمين زروال (رئيسًا للدولة معينًا فى يناير ١٩٩٤، ثم منتخبًا فى نوفمبر ١٩٩٥) وعبد العزيز بوتفليقة فى أبريل ١٩٩٩.

يضاف لذلك أن الجزائر فى الفترة نفسها عرفت وقائع ما يسميه البعض «حربًا أهلية» وما يسميه آخرون صراعًا بين جماعات إرهابية وسلطة فعلية، وهى وقائع زيادة عما تسببت فيه من ضحايا، خلّفت آثارًا سلبية ونتائج مدمرة فى مجالات الاقتصاد والثقافة وأثرت على النفسيات، وضاعفت من تأزم الوضع الاجتماعى بفعل سحق الطبقة الوسطى. يضاف لذلك أن الدولة تقلص دورها الاقتصادى تحت ضغط المؤسسات النقدية العالمية، فكان انتقالها من الاقتصاد الموجه إلى اقتصاد سوق عبر سوق سوداء غير واضحة القواعد، مطبوعًا بنوع من الفوضى.

وها هى الأوضاع تشى بتطورات حبلى بعدد من المجاهيل منذ أبريل الماضى. فالمظاهرات والاضطرابات التى عرفتها منطقة القبائل، والتى امتدت إلى مناطق أخرى جردها من الطابع المحلى أو الجهوى أو الاثنى، تكشف عن أن المرض عضال وأنه يتجاوز ما يسمى «المطلب الأمازيجى» الذى أريد حصرها فيه.

لقد فجرت مسيرة ١٤ يونيو الماضى مرحلة جديدة تشتمل على بذور تمرد أو انفجار اجتماعى غذّى الطموح لدى كثيرين وخاصة من الأجيال الجديدة، فى إدخال تغييرات جذرية على الواقع السياسى وخريطة الحكم.

إلا أن مشاهد التخريب التى واكبت المسيرة المذكورة أضعفت القوى الاحتجاجية وأجهضت الحلم الذى بدا وشيك التحقيق، ومهما قيل عن المتسبب الحقيقى فى تلك التخريبات - لأن النقاش حول ذلك يصبح ثانويًا - فإن النظام يكون قد كسب جولة واستعاد نفسًا. ويتأكد المكسب الذى حققه النظام خلال هذه الجولة فى النتيجة التى تترتب على ذلك حتمًا وهى التشكيك فى مصداقية نظام «العروش» أو «الجماعات المحلية» بالمفهوم التقليدى القديم، تلك الجماعات التى تولت تسيير المظاهرات وحاولت أن تنتزع من خلالها صفة المحاور الأساسى للنظام.

والواقع أن هذا النظام ليس خاصًا بمنطقة القبائل الكبرى، فهو نظام قديم كان موجودًا فى عدة مناطق جزائرية، وكان يمثل زمن الاستعمار سلطة فعلية تتولى حل النزاعات والخصومات المحلية سواء كان محورها طلاقا أو أرضا أو إرثا. وكان المقصود بالحفاظ عليها زمن الاستعمار هو الحيلولة دون احتكام الناس إلى ممثلى السلطة السياسية والقضائية الفرنسية.

وقد أتيح لى أن أحضر طفلاً (كان عمرى ثمانى سنوات) مداولات جماعة محلية فى بنى قليلان، قرب الميلية، بالقبائل الصغرى، (وهى منطقة معربة). وتتسم مداولات هذه الهيئات الفعلية بنقاش يديره أعيان القبيلة أو القرية أو العرش، ويتم البت فى النزاعات بالوفاق دون اللجوء إلى التصويت الذى لم يعرفه الناس آنذاك إلا فى الانتخابات المحلية البلدية فى نظام الأحواز غير الممتزجة - وغنى عن القول أن النساء لم يكن يشاركن فى مثل هذه المداولات.

وقد سجلت الصحافة الجزائرية أن نظام العروش هذا الذى أعيد إحياؤه انطلاقًا من ولاية تيزى وزو، يرفض هو الآخر الحضور النسوى، ويرفض التصويت. لذلك فهو يمثل انتكاسة وعودة إلى الوراء تحت شعار «العودة إلى الأصل».

فأية احتمالات يمكن التكهن بها فى ظل وضع متأزم ضبابى المعالم، غير واضح القواعد؟

إن كل ما يمكن الجزم به حاليًا هو أن ما تقوله الصحف الجزائرية - وغيرها - عن وجود صراع فى هرم السلطة بين مؤسسة الرئاسة ومؤسسة الجيش، على فرض صحته، ليس هو جوهر المشكل. إن مثل ذلك الطرح جعل الأمر يبدو كما لو كان «ماتش» أو مبارزة بين طرفين يفتقد كل منهما إلى جمهور متحمس: فالجمهور هنا لم يعد يتحمس لهذا أو ذاك.

إذن ما هو جوهر المشكل؟

إن جوهر المشكل يتمثل فى رأينا فى حقيقتين أساسيتين لا يمكن بدونهما فهم ما يجرى والتكهن بما سوف يحدث.

الحقيقة الأولى تتلخص فى أن صراع الأجيال قد برز هذه المرة بقوة لم يعرفها فى الماضى. وقد تميز هذا الصراع بظهور عناصر تمثل جيلاً ثالثًا، يفكر بطريقة تختلف كلية عن الجيل الأول (جيل ١٩٥٤) والجيل الثانى (١٩٨٠ - ١٩٨٨).

الحقيقة الثانية تتمثل فى أن الأحداث الأخيرة تختلف عن أحداث أكتوبر ١٩٨٨، لأن هذه كانت مبرمجة وإن كانت قد خرجت بعد ذلك عن الإطار الذى حدده المخططون لتفجيرها. أحداث هذا العام كانت تلقائية، (وهذا لا يعنى أنه يستحيل استغلالها أو توظيفها من هذا الطرف أو تلك الكتلة.

خاصية أحداث هذا العام أنها تكشف عن وجود عوامل تمرد اجتماعى أو ثورة اجتماعية، لا يقتنع مفجروها بتحسين الأوضاع المادية كما يتصور كثيرون. إن هؤلاء يطمحون اليوم لأن يشاركوا فعليًا فى تسيير دفة السياسة التى ينبثق عنها الانقلاب الاجتماعى القادم.

إن الجولة التى كسبها النظام ككل وليس ككتل، لم تنه الانقلاب الاجتماعى ولكنها أجّلته فقط. ■

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

ترجع هذه القصة إلى العهد الإهناسى فى مصر القديمة فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد، وهو عهد سادت فيه الفوضى وعم الاضطهاد. وهى من أبلغ وأروع ما كتب فى الأدب المصرى القديم، حتى إنها كانت تعد نموذجًا يحتذى ويقتبس منه فى عهد الدولة الحديثة.

والقصة تتكون من مرحلتين أساسيتين: الأولى مقدمة قصصية، والثانية خطب تسعة. أما المقدمة فإن طريقة عرضها أبدع ما فى الأدب المصرى. وأما المرحلة الثانية فتلك الخطب التسعة التى أشهر بها ذلك الفلاح الحرب على ما كان يرتكبه الموظفون من الفوضى والظلم والعبث بصغار الفلاحين.

ملخص القصة

بطل القصة فلاح كان يطلق عليه فى اللغة العربية المصرية ساكن الحقول، وهو أحد سكان حقل الملح «وادى النطرون» حاليًا. وكان هذا الفلاح يسكن فى مجاهل هذه البقعة، وكان يسافر من حين لآخر إلى مصر ليبيع محصول أرضه محملاً على حمير له، ولما وصل فى مرة إلى مصر اعترضه أحد الموظفين المسمى «تحوت نخت» واغتصب منه حميره وما عليها بحيلة دنيئة، فذهب الفلاح على أثر ذلك إلى عاصمة المقاطعة ليشكو أمره إلى «رنزى» رئيس «تحوت نخت» المغتصب، فجمع «رنزى» مجلس الأشراف ليفصل فى هذه القضية، غير أن أعضاءه لم يعلنوا حكمهم لأسباب لم تذكر فى القصة، فصاغ الفلاح شكايته لرنزى فى أسلوب فصيح بهره وأعجب به، فرأى أن الأمر جدير بأن يعرض على جلالة مولاه الملك، وأمر الملك ألا يبت فى أمر ذلك الفلاح الفصيح حتى يكرر الشكوى فيكون ذلك مصدر خطب بليغة أخرى.

أضواء النجوم ونجوم الأضواء

صــــورة بالألـــوان الطبيعيـــــة

محمـــود عـــوض

حاولت سعاد حسنى
أن تنسحب سعيًا
إلى أن تعيد ضبط
أوضاعها فى مواجهة
الخصمين الطارئين،
الزمن والمرض، فواجهها
خصم جديد هو:
جماعة آكلى
لحوم البشرية

حينما تلقيت هذه الدعوة للكتابة عن العلاقة المركبة بين النجوم والأضواء، تقاطع فى عقلى مزيج من الإشارات الحمراء والخضراء. فى الموضوع أيضًا مناسبة حزينة هى رحيل الفنانة سعاد حسنى.. بما فجر لدى الجماهير العريضة بركانًا من الحزن لم يجربوه من سنوات طويلة. لكن هذا الرحيل بحد ذاته اختلطت فيه المأساة بالملهاة.

فى المأساة فجيعة حقيقية لنجمة جمعت من الأضواء والفن وحب الناس الكثير. وبعد عشر سنوات من الغياب المتقطع والسفر وإعادة السفر والمرض والصحة.. ها هى تموت فى الغربة وحيدة ومريضة ومكتئبة، بالسقوط من شرفة شقة بالطابق السادس من مبنى ضخم بمدينة لندن.. يوجد فيه ستة مصريين على الأقل، بعضهم يعرفون سعاد حسنى من زمن. مع ذلك فلم يعرف أحد منهم بحياة سعاد حسنى فى نفس المبنى إلا مع ذيوع خبر موتها فى نشرات الأخبار. فقط.. توجد فى هذا المبنى أيضًا سيدة مصرية لم يعرف أحد بإقامتها الدائمة السابقة فى نفس المبنى. والآن، بأثر رجعى، يتبين أن سعاد حسنى كانت تقيم فى شقة تلك السيدة تحديدًا باعتبارها المحطة الأخيرة فى حياتها.

فى المناسبة أيضًا شىء من الكوميديا السوداء. فمع حرص تلك السيدة المصرية على مصاحبة جثمان صديقتها سعاد حسنى فى الطائرة إلى القاهرة، وفاء لها وإصرارًا على أن تلازمها حتى النظرة الأخيرة، إذا بتلك السيدة تتحول فى مطار القاهرة من صديقة وفية إلى مشتبه فيها. البعض أفتى ـ كبداية.. ومن غير علم ولا معلومات ـ بأن سعاد حسنى لم تسقط من الطابق السادس وإنما جرى إسقاطها بفعل فاعل. من تلك المقدمة انطلقت الاتهامات فى شتى الاتجاهات.

هناك ـ ولله فى خلقه شئون ـ من أفتى بأن جهاز المخابرات الإسرائيلية «الموساد» له يد فى موت سعاد حسنى. والغريب أن الذين أفتوا بذلك هم من الذين يستسهلون إعطاء «الموساد» ما لا يستحقه.. وهو كثير.. بينما هم فى نفس الوقت يغضون الطرف عما يقوم به «الموساد» فعلاً.. وهو خطير.

هناك من أفتى أيضًا بأن أصواتًا عالية من الخبط و«الرزع» قد سمعها السكان فى الشقق المجاورة بذلك المبنى المحدد، وأن تلك الأصوات العالية استمرت لنحو خمس عشرة دقيقة وبعدها جرى سقوط (أو إسقاط) سعاد حسنى من الطابق السادس، وأن لدى الشرطة البريطانية بلاغا من هؤلاء السكان الجيران هو بحد ذاته أحد أدلة الاحتمالات الجنائية فى موت سعاد حسنى. ولأن الكلام بغير جمرك فلم يذكر أحد أدلة الاحتمالات الجنائية فى موت سعاد حسنى. ولأن الكلام بغير جمرك فلم يذكر أحد اسما واحدا لأولئك الجيران الشاكين، ولا أرقام شققهم، ولا رد فعل الشرطة البريطانية بعد تلقى الشكاوى المزعومة. وبالتالى فالباب مفتوح لكى تصبح هذه الشرطة بدورها متواطئة فى قتل سعاد حسنى.

هناك من الأقرباء دمًا من استكثر على نفسه توجيه الشكر إلى تلك السيدة المصرية القادمة مع جثمان سعاد حسنى من لندن. وبدلاً من ذلك حث الشرطة المصرية على إلقاء القبض عليها والتحقيق معها لأنها تخفى مجوهرات سعاد حسنى ومذكراتها المكتوبة.

كان هؤلاء الأقرباء دمًا لسعاد حسنى يثبتون بذلك أنهم أبعد ما يمكن عن معرفتها. فهى لم تكن فى أى وقت من هواة المجوهرات.. ولا كانت أيضًا ضليعة مع الورق والقلم والكتابة والتاملات الفلسفية. كما أن عشقها للحياة وثقتها بقدرتها على الاستمرار فى العطاء الفنى يتنافى أصلاً مع فكرة تسجيل مذكرات. كل المسألة أن السيدة المصرية الصديقة الأخيرة لسعاد حسنى ومضيفتها فى شقة لندن قد جاءت معها فى الطائرة بكل متعلقات سعاد حسنى وحقائبها. ولأنها رفضت تسليم تلك الحقائب إلى بعض هؤلاء الأقارب دون بعضهم الآخر.. وقررت من البداية تسليم الحقائب إلى سلطات مطار القاهرة للتصرف فيها قانونيا.. فقد أصبح التشهير بها هو الانتقام الفورى.

هناك بعد ذلك من هم أكثر شبقًا وتنافسًا على الأضواء مع سعاد حسنى.. حية وميتة. هؤلاء ذهبوا إلى مطار القاهرة (وفاء وحزنًا؟ جائز). إنما بمجرد ظهور الكاميرات انهالت الدموع خصيصًا.. مصحوبة بفتاوى مؤكدة بأن فى القصة جريمة قتل. ومن باب الاحتياط.. يصبح واجبًا القبض على نفس تلك السيدة المصرية القادمة من لندن مع جثمان سعاد حسنى.

من هؤلاء أيضًا من بدأ دفاعه عن نفسه بالهجوم على الآخرين: نحن لم نقصر فى حق سعاد حسنى فى أى وقت وإنما شملناها بالرعاية التليفونية والبريدية والمالية الدائمة. لكن.. ما الحل وسعاد حسنى نفسها كانت تغير محال إقامتها وأرقام تليفوناتها؟

منهم كذلك من بدأ القول إن الدولة لم تقطع إنفاقها المالى على علاج سعاد حسنى إلا بعد دفع مبلغ ٨٥ ألف جنيه إسترلينى. ومع ظهور المزيد من الكاميرات رفع البعض الآخر الرقم إلى مليون ونصف مليون جنيه استرلينى، قبل أن تطلب سعاد حسنى من الحكومة ذات الحسب والنسب والأصول التوقف ـ سعاد التى تطلب التوقف ـ عن الصرف على علاجها فى لندن.

وحتى لا يضيع هذا الكرم الدعائى مع الحكومة هباء أمام الكاميرات.. فقد ذكر هؤلاء البعض أنهم تحركوا فورًا لتكوين جمعية لأحباء سعاد حسنى ـ سندريلا السينما المصرية ـ وتخليد ذكراها. جمعية باسم «جمعية السندريلا للاستثمار العقارى» بأموال خاصة وأسهم حين ميسرة.. إنما كل المطلوب من الحكومة هو توفير عشرة أفدنة أو عشرين فدانًا من الأرض المناسبة مجانًا لحساب أعضاء الجمعية، الذين سيصبحون محبين لسعاد حسنى بخاتم النسر ـ حتى لا تضيع الدموع على رحيل سعاد حسنى هدرًا.

كلمات وأشياء تفلق الحجر.

وهكذا تحولت المأساة إلى ملهاة سوداء. والملهاة جوهرها ركوب الموجة أو بلغة السينما سرقة الكاميرا. سرقتها من الجمهور العريض الملتاع، ومن سعاد حسنى نفسها جوهر المأساة.

فقط نسى الجميع ـ تحت غلالات دموع الكاميرات ـ أن أهم ما لصق بسعاد حسنى نفسها هو أنها فى أى عمل فنى كانت «تسرق الكاميرا». أما التعبير الدقيق الصحيح فهو أن الكاميرا هى التى كانت تسرق سعاد حسنى. ففى الكيمياء الغريبة بين الفنان والكاميرا اعتادت الكاميرا ـ



عبدالحليم



أم كلثوم



عبدالوهاب



الصماء أصلاً ـ على الانحياز إلى وجوه دون أخرى. وفي تاريخ السينما المصرية تحالفت كاميرا التصوير مع وجه سعاد حسني منذ بدايتها الأولى في فيلمها الأول سنة ١٩٥٩. هذا التحالف استمر يخدم سعاد حسني ثلاثين سنة متواصلة. بعدها ترددت الكاميرا بعض الشيء فتحولت رحلة سعاد حسني الفنية من السعادة إلى الشقاء.. ومن الإضافة إلى الخصم.. ومن النظر إلى الكاميرا كحليف مؤكد إلى التشكك فيها كخصم محتمل.

لقد بدأت رحلة العذاب.

في الحديث عن الشهرة والأضواء والنجوم ينجذب قلمي ـ غصبًا ـ إلى أم كلثوم.. ثم إلى يوم محدد ضمن شريط معرفتي بها. لقد رفعت سماعة التليفون في بيتي لأجد على الطرف الآخر الصديق الموسيقار بليغ حمدي. وبكل مودة وتفاؤل يتصل بليغ حمدي لينقل الرسالة: ثومة تريدك غدًا في ستوديو ٤٧ بالإذاعة لتحضر التسجيل الأول للأغنية ـ أغنية «حكم علينا الهوى» (من كلمات عبدالوهاب محمد وألحان بليغ حمدي).

استغربت تمامًا من الدعوة. فلا أنا حضرت من قبل أي تسجيل لأم كلثوم.. ولا هي أصلاً من طبعها دعوة أي أحد ـ خارج نطاق الأغنية ذاتها ـ لحضور التسجيل. وفي ردهات الإذاعة كان محفوظًا عن ظهر قلب أنه في المرات التي تحضر فيها أم كلثوم لتسجيل أغنية جديدة لها.. لا يمتنع الاقتراب من الأستوديو فقط.. وإنما من الطابق كله. في نفس الوقت لم أكن أتصور أن بليغ حمدي سيخترع لي من خياله دعوة لا أساس لها. لكنني تصورت فقط أنه ربما حماس زائد من جانبه للحنه وموسيقاه، هكذا شكرته.. واعتذرت.

بعد أيام اتصلت أم كلثوم نفسها. لم تحك لي عن الأغنية أو التسجيل، ولا أنا أيضًا فتحت سيرة مكالمة بليغ حمدي. فقط هي اقترحت عليّ أن أمر عليها في «الفيللا» صباح غد بسيارتي. في الغد ذهبت. وقبل أن أغادر السيارة كانت أم كلثوم قد دخلت إليها لتجلس على المقعد المجاور وتقول لي: هيا بنا إلى الإذاعة.. ثم بدأت، كعادتها، تتمتم بصوت خفيض بعض آيات القرآن الكريم.

في الأستوديو جرت مفارقتان. فبينما الفرقة تضبط آلاتها في قلب الأستوديو.. إذا بأم كلثوم تدخل مع بليغ حمدي ومعي في مداعبات ومجاملات رقيقة وكريمة. أما حينما تغادر هي إلى داخل الأستوديو ليبدأ التسجيل فقد كان بليغ حمدي يفاجئني هامسًا بتساؤلات قلقة: مالها أم كلثوم إنها لاتبدو في كامل لياقتها. اللهم اجعله خير. بعدها أوقفت التسجيل لبعض الوقت وعادت إلينا حتى يأتوا لها بكوب من اليانسون. لا قلق. كلها دوخة بسيطة عابرة. الدردشة والمداعبات من جديد ثم محاولة استكمال التسجيل وإرهاق أم كلثوم من جديد.. وقرار منها: لينصرف الموسيقيون الآن.. وربما نكمل غدًا.

في سيارتي عائدًا معها إلى منزلها بالزمالك راودتني أفكار متقطعة أساسها التفاعل مع حالة الإرهاق غير المسبوقة التي شهدتها لثوى في صحة أم كلثوم. هي لم تكن ظاهريا تشكو من شيء. لم تكن تشكو أيضًا من حالة نفسية تعاني منها مؤخرًا بمناسبة مشروعها الخيري الذي تفكر فيه.. واختارتني ضمن مجلس إدارته لأجد نفسي الأصغر سنا. هي أيضًا كان نبض عروقها عزة نفس وكبرياء.

بمجرد أن استدرت بسيارتي يسارًا إلى كوبري «أبو العلا» كنت قد استجمعت شجاعتي وقلت لها أنصاف أفكار متقطعة: ياثومة.. هل الغناء المنتظم للجمهور نص مكتوب وملزم في علاقتك مع الناس و.. و.. و.. تاه الكلام.

ردت أم كلثوم بقفزة مفاجئة: أعتزل الغناء؟ سهل جدًا. سهل ومريح. إنني حتى أستطيع أن أجد عذرًا مناسبًا لذلك. مع هذا فإنني أعرف في داخلي أنني لو قررت الاعتزال فهذا معناه نهايتي. لا أستطيع. لا أستطيع. إنني أحسب عمري بعدد مرات وقوفي على المسرح.

بعدها حشر الصمت نفسه بيننا. السيارات والشوارع وإشارتان أو ثلاثة وصدق فظيع في كلماتها. إن كلماتها الأخيرة عند بيتها كانت: هيه؟ هاتيجي التسجيل بكره؟

إنني لم أكن أعلم بعد أنه تسجيلها الغنائي الأخير. لهذا قلت: أكيد. لكن.. هل أنت بخير؟ نعم. كانت بخير. أو ـ لم تكن؟

كل الفنون ترتبط بالنسب. كلها أولاد خالة. الرسم والكتابة والغناء والموسيقى والتمثيل والإخراج والتصوير فيها من المشترك بأكثر مما فيها من المختلف. كل المبدعين أيضًا عجينة متقاربة. قد تختلف نسب المكونات وعناصر التفاعل. لكن الكيمياء في النهاية هي نفسها: التفاعل بين المبدع وجمهوره. الانضباط والحزم والخيال والثقافة والمعرفة والخبرة والتطور كلها أساسيات. إنما في نهاية المطاف: الفنان يعطي إبداعًا.. متوقعًا أن يأخذ حبًا. قد نجد من يبدع لإرضاء المؤرخين بعد جيل أو جيلين. لكن الإبداع الغالب هو المتجه إلى هؤلاء الناس.. في هذا المجتمع.. ولهذه اللحظة.

مع ذلك فإن «لحظة» الكاتب تختلف عن لحظة نجم السينما مثلاً. قد يظل الكاتب في عطائه سنة وعشرا قبل أن يتعرف عشرا أشخاص على صورته.. أو حتى يتعرفون عليه أصلاً. إنما السينما تحديدًا يحكمها قانون آخر.

في السينما هناك «النجاح الفوري».. بفيلم واحد ناجح يصبح الممثل مشهورًا عند آلاف من الناس. وحينما يصبح الممثل نجمًا تتسع شهرته بامتداد الملايين.. وربما تؤلف من أجله القصص وتتحدد ميزانيات الأفلام.

في السينما قانون السوق. فإذا ابتعدنا عن لغة الاقتصاد يصبح التعبير هو قانون شباك التذاكر، أو ثقة الموزعين وإقبال المولين توقعًا لمجيء الأرباح من شباك التذاكر. أملاً في أن الطلب سيفوق العرض.. والإيرادات ستجيء بأضعاف المصروفات.

لكن هناك أيضًا وجها آخر لنفس العملة. فمقابل «النجاح الفوري» هناك «الفشل الفوري». فيلم واحد يكسب فيصبح النجم في سابع سماء. فيلم آخر لنفس النجم يخسر فيصبح النجم في سابع أرض. قانون السوق. لا مشاعر هنا. لا حب ولا كراهية. ولا رحمة أيضًا.

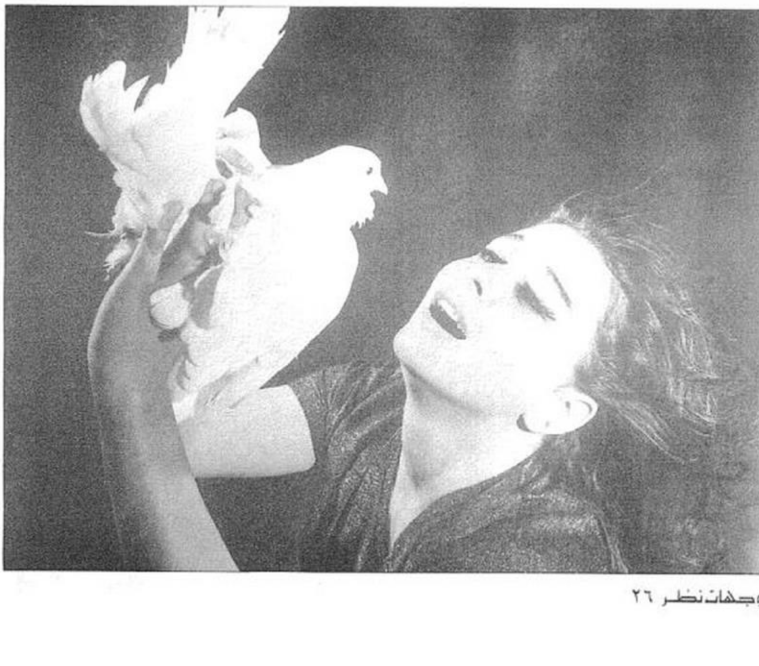
في نجومية سعاد حسني السينمائية اشتغل قانون السوق لصالحها طوال معظم مشوارها. في نجومية أم كلثوم كانت السوق موجودة لكن مع بعض التحسينات. شهرة أم كلثوم ونجوميتها جاءت ببطء، ومن قرية إلى قرية، وبغير ميكروفون ولا حتى إذاعة في بداية البداية. هذا يحافظ على توازن الفنان نفسيًا لأطول فترة ممكنة ويجعله أيضًا أكثر اطمئنانًا إلى الزمن وأكثر ثقة في التعامل معه.

مع رحيل أم كلثوم توقف الزمن.. مؤقتًا.

ويوم الجنازة اتصل بي الموسيقار الصديق محمد عبد الوهاب لكي يرتب معي الذهاب سويًا لحضور الجنازة المنطلقة من مسجد عمر مكرم بميدان التحرير بالقاهرة. لكنني ذكرته بأن الزحام يصيبني بضيق في التنفس، وبالتالي فلن أذهب إلى الجنازة مكتفيًا بالتسمر في البيت أمام جهاز التليفزيون لأتابع مسيرة الجنازة على الهواء.

وقال لي عبد الوهاب: معك حق. أنا أيضًا سأبقى في المنزل وأحزن مع التليفزيون.

قلت له معترضًا: لا.. لا.. القياس هنا مختلف. أنت محمد عبد الوهاب ولابد من وجودك بشخصك في الجنازة ليراك الناس جميعًا مشاركًا لهم في أحزانهم. هذا وإلا



نظام النجوم هذا هو النوع العصرى من نظام الرق والعبودية. يتفرج عشرات الملايين على نجمهم المحبوب ويهيأ لهم أنه معبر عنهم وملك خاص لهم. لكن فى حقيقة الأمر هو لا يعبر عن نفسه. وإنما عما يقرره له الاستوديو

ستنشر جميع صحف العالم العربى غدًا فى صفحاتها الأولى خبرًا متكررًا بأن محمد عبدالوهاب ـ شريك أم كلثوم الفنى ورفيق مشوارها ـ لم يحضر الجنازة. هل أنت مستعد لمثل هذه الصدمة من الجمهور فيك؟

فكر عبد الوهاب لبعض لحظات قبل أن يغير رأيه من جديد متمتمًا: معك حق. أنا ذاهب إذن إلى «مسجد» عمر مكرم.

الجنازة تزاحم فيها مئات الآلاف من الناس الحزانى. لكن مع متابعتى لها فى شاشة التليفزيون لم ألحظ عبد الوهاب فى المقدمة. لم ألحظ حتى أن الجنازة بدأت فى التحرك.

نصف ساعة على الأكثر ودق التليفون بجوارى من جديد. إنه محمد عبد الوهاب.

فى هذه المرة كلماته مرتعشة فعلاً: شفت شورتك؟ أنا سمعت كلامك وذهبت. وابتداء من فندق هيلتون. يعنى من قبل ميدان التحرير بمسافة، وجدت بحارًا متلاطمة من البشر مما جعل السائق مضطرًا إلى المسير بالسيارة ببطء. منتهى البطء. يا دوب .. مترًا بمتر. وبدأ بعض الجمهور الحزين يتعرف علىّ داخل السيارة. ومن نوافذ السيارة دخل الناس بأعناقهم ليحاصرونى بأصواتهم الباكية الخانقة لى ولهم مرددين.. يا أستاذ عبد الوهاب.. أم كلثوم راحت.. فريد راح.. وأنت البركة فيك..

قلت له: والله شعور طيب..

قاطعتنى كلماته المرتعشة: أنا عارف أنه طيب. لكن يجوز معناه أيضًا أنهم يعتبرون أننى أصبحت من العهد البائد. شكلها كده. لا يا عم. أنا لست محتاجًا لإثبات حزنى على أم كلثوم لأى أحد. الله وحده يعلم بفجيعتى وفجيعة الغناء العربى كله من خسارتها. إنما.. الروح حلوة.. أنا كدت أموت اختناقًا من الزحام. زحام الناس والمشاعر.

فكرت بسرعة ثم قلت له: على العموم فاتت لحظة المشاركة فى الجنازة. بالليل سيخف زحام الناس كثيرًا والنظام فى سرادق العزاء سيكون أكثر انضباطًا. من هنا أقترح عليك الذهاب فى المساء إلى سرادق العزاء.

سكت عبد الوهاب للحظات بدت كالدهر ثم قال لى بلهجة اشتراطية: طيب أنا موافق إنما بشرط.. رجلى على رجلك.. ونروح سوا فى سيارتك أنت حتى نكون معًا وننصرف معًا.

فى السرادق ليلاً دخل محمد عبد الوهاب متوكئًا على ذراعى، فقد كانت متاعب عينيه وقتها لا تسمح له بالرؤية لأبعد من أمتار قليلة. وفى صدر السرادق جلسنا. وبعد لحظات نهضت من مقعدى فسألنى عبد الوهاب مخضوضًا: رايح فين؟

قلت له: أبدًا. إنما وجهاء الدولة الموجودين لازم نفسهم يجلسوا جنبك لزوم الكاميرات.. وبعدين أنا لمحت أحمد فؤاد حسن من مسافة وأريد أن أسأله عما جرى ظهرًا فى الجنازة. كلها خمس دقائق وأعود إليك أو قريبًا منك.

فى أذن أحمد فؤاد حسن شرحت له الموقف همسًا وقلت له: إننى سوف أتسلل منصرفًا بعد قليل فى الاستراحة بين مقرئين.

اعترض أحمد فؤاد حسن بدوره قائلاً لى: الأستاذ جاء معك بسيارتك وتتركه هنا بمفرده؟ كيف سيعود إلى بيته؟

قلت له: حينما يقف عبد الوهاب فى انصرافه باحثًا عن سيارة توصله سيجد بدل السيارة ألفا. إنما المهم عندى هو أن يستمر موجودًا فى السرادق لأطول فترة ممكنة.

وكما عرفت فيما بعد فإن هذا هو بالضبط ما حدث. كلما انتهى مقرئ من التلاوة وبدأ جزء من الجمهور فى الانصراف ليحل محله جزء آخر كان الجميع يلمحون عبد الوهاب فورًا من بعيد. وبدل الانصراف يسارًا كانوا يتجهون يمينًا ليقولوا له تنويعات من نفس المعنى.. يا أستاذ عبد الوهاب البقية فى حياتك.. أم كلثوم راحت.. وفريد راح.. وأنت البركة فيك.

فى الواحدة صباحًا اتصل بى عبد الوهاب. وبرغم الإرهاق البادى فى صوته ومبادرته بالشكوى من قيامى بالتخلى عنه.. إلا أنه كان مستريحًا نفسيًا تمامًا لما جرى. مستريحًا ومكلومًا أيضًا. وفى تلك اللحظات تأكد لى من جديد عمق الفجيعة الشخصية التى يعانيها عبد الوهاب من رحيل أم كلثوم.

بالطبع هناك العمر والعشرة والتاريخ والمشاركة والذكريات.. وهناك أيضًا جانب آخر: إنه برحيل أم كلثوم فقد عبد الوهاب أكبر ناشر صوتى لموسيقاه باتساع العالم العربى.

لكن، بمعنى من المعانى، استمرت فى العقل الباطن لعبد الوهاب فكرة الخوف من أنه ربما يكون قد أصبح «من العهد البائد». الخوف من الزمن.

والزمن فى حياة الفنان هو مجده. وهو أيضًا شبح العجز عن المزيد من العطاء.

فى سنوات سعاد حسنى كان الزمن بخيلاً وسخيا، حليفًا وعدوًا، دافعًا لها وسيفًا عليها. هى من أسرة رقيقة الحال ضمت ١٧ أخًا وأختًا. الأب خطاط موهوب لكن مزواج . البنت الصغيرة اللهلوبة تمثل على نفسها وتعيش فى تقاطع من خلافات دائمة بين أبوين مطلقين. فى السياق أصبحت شقيقة كبرى لها من الأب ـ هى نجاة ـ مطربة فى الإذاعة.. وصغيرة. سعاد أيضًا شاركت أحيانًا فى برامج «بابا شارو» للأطفال بالإذاعة المصرية.

إنما التحول الكبير الأول فى حياة الصبية سعاد حسنى جاء من مكتشفها: عبدالرحمن الخميسى.

لم أعاصر عبدالرحمن الخميسى. وبالدقة تقابلنا ثلاث أو أربع مرات فى عصر ما قبل التاريخ. أقصد تاريخ بدايتى المتواضعة فى الصحافة.. ومن موقع هو أبعد ما يمكن عن نموذج عبدالرحمن الخميسى. لكن فيما قرأته عنه وأعرفه كوقائع عامة.. فإنه كان شخصية استثنائية. لم يكن كاتبًا فقط.. وإنما كاتب وشاعر وقصاص ومترجم وموسيقى ووفدى وناصرى ومسرحى وناشر ومنشور ودائن ومدين وعاشق ومعشوق ومستور ومفلس وعاطل وصاحب فرقة مسرحية وجائع ثم سبب اختفاء الكباب من بر مصر بين ليلة وأخرى. لم يبق فيما قرأته عنه سوى أن يكون عبدالرحمن الخميسى.. ضابط احتياط. وبجسمه فارع الطول، كان من الممكن أن تصدق عليه.

عبدالرحمن الخميسى إذن هو المكتشف الأول لسعاد حسنى. عنده قصة طقت فى دماغه اسمها «حسن ونعيمة». ليست ابتكارًا ولا اختراعًا ولا فتحًا مبينًا. إنما فكرة الإذاعة المصرية رحبت بها أولاً كمسلسل أصبحت بطلته السيدة كريمة مختار فى دور «نعيمة» باعتبار الإذاعة تعتمد بالدرجة الأولى على الموهبة الصوتية. ومؤخرًا فقط سمعت حوارًا مذاعًا مع السيدة كريمة مختار قالت فيه، بكل محبة ورقة ومودة، إنها مع تطور الحلقات لاحظت أن الخميسى يجىء معه الاستوديو بفتاة شابة متقوقعة ومنكمشة فى أحد أركان الأستوديو بغير أن تنطق بكلمة. مع الوقت عرفت كريمة مختار أن الخميسى يفكر فى تحويل المسلسل الإذاعى فيما بعد إلى فيلم سينمائى، وأن تكون هذه الفتاة المنكمشة ـ اسمها سعاد حسنى ـ هى «نعيمة» على الشاشة البيضاء، وأنه يجىء بها فى كل تسجيل بتنبيه واحد: اجلسى هنا صامتة تمامًا لكى تتعلمى من كريمة مختار فن استخدام الصوت فى التعبير عن مشاعرك الداخلية.



الخطوة التالية أصبحت مشروع فيلم، ليكون من إخراج هنرى بركات المعروف عنه أنه مخرج أفلام فاتن حمامة والرومانسية المرتبطة فى نفس الوقت بشباك التذاكر.

أما المفاجأة الحقيقية فهى أن يصبح محمد عبدالوهاب (ضمن شركته مع عبدالحليم) هو منتج الفيلم، وبتلك الصفقة يصبح محمد عبدالوهاب هو قانون السوق.. شخصيًا، قانون اللعب فى المضمون والمغامرة فقط بأسماء لها رصيد مسبق عند الجمهور وفى شباك التذاكر. فى هذه المرة أصبح لمحمد عبدالوهاب الفنان الصوت الأعلى من عبدالوهاب المنتج. إنه هنا لا يغامر بفلوسه فقط على وجه جديد مجهول لفتاة اسمها سعاد حسنى، وإنما شريكها فى البطولة هو أيضًا وجه جديد لمطرب ناشئ اسمه محرم فؤاد.

لكن الفتاة الشابة الطموحة سعاد حسنى حينما طلب محمد عبدالوهاب مجيئها ليرى بنفسه أولاً صلاحيتها للشاشة البيضاء فوجىء بها تقول له بكل جرأة: والنبى يا أستاذ عبدالوهاب.. أنا فى دور «نعيمة» نفسى كمان.. أغنى.

سألها عبدالوهاب بكل وقار واهتمام: والله؟ لك فى الغناء؟ وكمان جدًا جدًا؟ طيب سمعينى حاجة أنت حافظاها وتغنيها.

وبجرأة أكثر.. إذا بتلك الفتاة تغنى لعبدالوهاب أغنيته الشهيرة «كل ده كان ليه». تنحنح عبدالوهاب بكل صبر وأدب قائلاً لها: صوتك فيه حاجة (جيدة؟ سيئة؟ لم يوضح) إنما يا شاطرة.. خبطتين فى الراس توجع. كفاية دلوقت خبطة واحدة. كفاية نغامر بك أولاً.. كممثلة. أما الغناء فله مشوار تانى لك مع نفسك وصوتك.

غامر عبدالوهاب إذن كفنان ضد قانون عبدالوهاب كمنتج. فى زمن تفتح على المواهب. والسينما المصرية فى ذروة عطائها الإنتاجى وكبار الفنانين يتحمسون للاكتشاف والاستكشاف. الزمن أيضًا صبور مع الموهبة. فحتى اللحظة التى قامت فيها سعاد حسنى ببطولة فيلمها الأول هذا فى سن السابعة عشرة لم تكن أكثر من موهبة خام قابلة للانطفاء أو اللمعان. لم تكن حتى تعرف القراءة أو الكتابة.

رعاية عبدالرحمن الخميسى لسعاد حسنى جعلته يصبح مع الزمن واحدًا من ثلاثة كشافين كبار لمواهب تلك الفتاة وصاحب فضل أساسى فيما ستصبح عليه عند الملايين من الجمهور.

كان إصرار سعاد حسنى على التعلم هو الأساس وسباقها مع الزمن أتاح لها بطولة أفلام بعد أفلام.. بعضها عادى المستوى وبعضها أصبح علامات مميزة بحجم فيلم «القاهرة ٣٠» عن قصة لنجيب محفوظ وفيلم «الزوجة الثانية» عن قصة لرشدى صالح.. وكلاهما من إخراج صلاح أبوسيف.

ومع ذلك كان الزمن، الذى هو حليف سعاد حسنى فى تلك المرحلة، هو الذى يدخرها لدور عمرها. دورها فى بطولة فيلم «خللى بالك من زوزو» عن قصة لصلاح جاهين وألحان لكمال الطويل وسيد مكاوى.

فى نيويورك تقابلنا.. أنتونى كوين النجم السينمائى الأمريكى الكبير (ومن أصل مكسيكى).. وأنا. كانت المناسبة هى دعوة من صديق مشترك للبقاء فى نيويورك أسبوعين أو ثلاثة ومتابعة التصوير الخارجى لفيلم جديد من بطولة أنتونى كوين. وبتلك الصفة، وباستثناء مواعيد التصوير، فقد أصبحنا نحن الثلاثة نقضى معظم الوقت معًا.

فى إحدى المرات قال لى أنتونى كوين مداعبًا: أنت تذكرنى بشبابى.

وأردت أن أرد إليه المجاملة فقلت له: وأنت تذكرنى بزوربا اليونانى.

انكمشت فجأة ابتسامة أنتونى كوين وقال لى: آه.. أنت تنكأ جرحى. فهذا الفيلم تحديدًا هو الأقرب إلى نفسى وقلبى من بين كل ما قمت بتمثيله. وفى نفس الوقت هو أيضًا معركتى الدائمة مع جمهورى.

كانت المفارقة كبيرة وموحية ولم ينجل غموضها إلا مع شرح أنتونى كوين. قال: تتذكر طبعًا أن «زوربا اليونانى» هى قصة من الأدب اليونانى بطلها هذا، باسم زوربا، إنسان بسيط وتلقائى وعفوى ومحب للحياة والناس والطبيعة ومتواضع فى طلباته لكنه طموح فى أحلامه وبداخله قدر كبير من براءة الأطفال.. الخ. المشكلة هى أن هذه هى تركيبتى النفسية فعلاً.. وما أطمح لأن أكونه فعلاً. لكن ترجمة هذا إلى دور على الشاشة تحتاج إلى مؤلف وسيناريست ومخرج ومنتج يكونون جميعًا بقدر الحماس نفسه.

ثم سكت أنتونى كوين قليلاً قبل أن يضيف: حينما قرأت تلك القصة اعتبرت أننى وجدت كنزًا. وبعد مشوار طويل نجحت فى تحويل القصة إلى فيلم على الشاشة وبقدرة قادر اتسع جمهورى السينمائى حول العالم ليصبح بالملايين. وأينما ذهبت بدأ الناس ينادوننى باسم زوربا. حتى الموسيقى الشهيرة فى الفيلم أقوم بالرقص على نغماتها.. أصبح الناس يطلبونها منى حيثما ذهبت. بالطبع كان هذا يسعدنى تمامًا ويوقظ إنسانيتى لأن هذا هو ما كافحت طوال النصف الأول من عمرى لكى أكونه. لكن مع الزمن

اكتشفت بأن عليّ أن أكافح في النصف الثاني من عمري لكي أقنع جمهوري بأنني قادر على أداء شخصيات أخرى على الشاشة.. قد لا تكون بنفس الثراء الإنساني كما في حالة زوربا، لكنها قد لا تقل فنًا أيضًا.

شيء من هذا ربما يكون قد حدث أيضًا في حياة سعاد حسني السينمائية. لكن.. بينما في حالة زوربا اليوناني كانت الشخصية مطروحة من السابق في عمل أدبي متكامل وممتع في حد ذاته ويعرفه كل قراء الأدب اليوناني.. إلا أن فيلم «خللي بالك من زوزو» كان شيئًا مختلفًا.. من نبت ظروفه ومجتمعه وزمنه.. وبغير أصل أدبي.

في البلد نكسة كبرى منذ يونيو ١٩٦٧. وجراحة شاملة للحياة المصرية وإصرار متناد على أن تكون حرب يونيو فصلاً في قصة ولكنها ليست خاتمة القصة، وجيش جديد يجري بناؤه تحت القصف والقصف المضاد، ومليون شاب يشكلون هذا الجيش معظمهم من المتعلمين وخريجي الجامعات أتاحهم استثمار سابق في مجانية التعليم، وحرب استنزاف وزعيم يرحل ورئيس جديد يتولى السلطة وسؤال يفرض نفسه على الجميع: لماذا يتأخر انطلاق الجيش لتحرير الأرض؟

وسط هذا كله، بل ومع هذا كله، لابد أن تمضي الحياة ولا تتوقف. السينما لم تتوقف. لكن ماذا تقول السينما لملايين المعبأين المشتاقين ليوم الثأر؟ وفي حالة صلاح جاهين تحديدًا حينما يتحمس للكتابة للسينما.. ماذا يقول؟ إن قال جادًا راح في داهية. وإن قال هلسًا خان المليون جندي في الجبهة. إذن.. ما العمل؟

جاء العمل في هذا الفيلم «خللي بالك من زوزو» واحدًا من الإجابات على جمهور سنة ١٩٧٢. لا سياسة بالمرة وإنما قصة حب.. فقد تبدو ساذجة لأول وهلة ومجرد تسلية. إنما البطلة فتاة بسيطة شقية لهلوبة متعلمة من بين ملايين الفتيات في مصر الجديدة. فتاة لا تتبرأ من ماضيها ولكنها تثق بنفسها ومستقبلها وتستطيع القول في الضوء الساطع أنها تحب الحياة وتدرك خياراتها ومستعدة لتحمل النتائج.

وحينما اختار صلاح جاهين سعاد حسني لتكون فتاته هذه في الفيلم السينمائي فقد أصبح هو المكتشف الثاني لها بعد عبدالرحمن الخميسي. صلاح أيضًا يشترك مع الخميسي في كونه صاحب «سبع صنايع». شاعر ورسام وممثل وصحفي وزجال ومؤلف وسيناريست وقبل هذا وبعده ـ عجينة خالصة من الموهبة والرقة والرومانسية والأحلام الكبيرة.

من بين الأحلام أن يكون الفيلم غنائيًا، وسعاد حسني بطلته ترقص وتغني. حتى هنا: لا مشكلة. لسعاد صوت غنائي مقبول وهي غنت فعلاً في أفلام سابقة لكن من غير أن تترك بصمة صوتية غنائية. إلى أن تحركت كيمياء الفن والحظ عند إشارة مرور ذات يوم في قلب القاهرة.

في الإشارة لوحت سعاد حسني من سيارتها إلى الموسيقار كمال الطويل في سيارته: نفسي أغني.. ونفسي موت أغني من ألحانك بالذات.

وبأسلوب كمال الطويل المجامل رد عليها بقوله: إن شاء الله يا سوسو.. أنا كمان أحب إنك تغني..

بعدها ذهب كل في طريقه.. فإشارة المرور انفتحت. والإشارة خضراء.

في المساء تليفون من صلاح جاهين، وعشرته الفنية مع كمال الطويل عميقة وناجحة وسابقة: أنا عندي سعاد في البيت.. انت صحيح وعدتها إنك تلحن لها؟

أسقط في يد كمال الطويل وجرجر قدميه إلى بيت صلاح جاهين ليجد سعاد حسني وآخرين والحكاية فيلم جديد والشغل فيه بمرحلته الأخيرة وسيد مكاوي انتهى من تلحين أغنية باسم الفيلم. والآن.. هذه هي الأغنية الرئيسية يا عم كمال حسب القصة. أغنية «يا واد يا تقيل». البطلة أمامك والمنتج وراءك ولا مفر. عايز بيانو؟ أنا جاهز به لليوم ده.. تفضل.

تمعن كمال الطويل في الكلمات. بسيطة وشعبية، وتملأ النافوخ خبط لزق. إنما القصة إيه؟ والبطلة من؟ خلاص يا كمال. حكينا لك القصة عشر مرات. وشخصية البطلة عشرين مرة. البيانو جاهز. ولا مفر.

بمجرد أن جلس كمال الطويل إلى البيانو في بيت صلاح جاهين تبخر نصف حماسه: يا صلاح.. هذا ليس بيانو.. هذا بوتاجاز متنكر في شكل بيانو.

سواء هي طبيعة كمال الطويل، أو حظ سعاد، أوشقاوة صلاح جاهين، أو كيمياء اللحظة، فإن ما جرى في نصف الساعة التالي شيء لا يصدق. لقد ترك كمال الطويل البيانو واتجه إلى باب الحجرة ووقف ينقر الإيقاع على خشب الباب ملحنا الكلمات كوبليه بعد كوبليه.. وصلاح جاهين واقف إلى جواره بجهاز تسجيل. في تلك الليلة لم يعرف أحد ـ بعد ـ أن لحنا يمكن أن يولد بهذه الطريقة ويتدفق به كمال الطويل بهذه السلاسة كما لو أنه مولود باللحن في داخله. لم يدرك أحد أيضا أن ما يجري سيصبح سريعاً قنبلة الموسم.

إنما الأكثر أهمية هو أن الجميع لم يتصور أن كمال الطويل يمكن أن يعود إلى التلحين بمثل تلك المصادفة. في تلك الفترة كان قد هجر التلحين من أصله.. وانسحب قبل سنوات في منتصف لحن وضعه لصديق عمره عبدالحليم وأغنية «بلاش عتاب». فيما اعتبره عبدالحليم مفاجأة عمره.. فمشواره الفني مع كمال الطويل سابق وناجح ومبهر.

وفي عشرات المرات، بعضها كنت شاهدا عليها في بيت عبدالحليم حافظ أو وسيطا عند كمال الطويل من طرف عبدالحليم، لم يتوقف أملي في أن يسترد كمال حماسه ويعود إلى التلحين مرة أخرى.. ولعبدالحليم. الصداقة موجودة والود مستمر وتهاني كمال لأغاني عبدالحليم الجديدة الناجحة من ألحان بليغ حمدي متكررة. إنما.. أين أنت يا كمال من الموسيقى؟ موجود. لكن بعيد عن الموسيقى.

الآن.. حتى بعد أن وضع كمال الطويل لحن أغنية «يا واد يا تقيل» في بيت صلاح جاهين، نسي الموضوع تماما وسافر مع أسرته إلى الإسكندرية. وبروايته هو فيما بعد.. فإنه لم يكن متأكدا بدرجة كافية من أن صوت سعاد حسني سيكون قادرًا على التعبير عن الروح التي وضعها في هذا اللحن الخفيف السريع.

بالإسكندرية قالت له زوجته ذات صباح: ألن تسافر إلى ستوديو مصر بالقاهرة اليوم؟ هل نسيت موعد تسجيل أغنية سعاد؟ ومنذ متى تترك ألحانك هكذا كما لو أنها بلا صاحب؟ على الأقل تتأكد من حسن التنفيذ.

في موقع التنفيذ والتسجيل باستوديو مصر بالقاهرة وجد كمال الطويل كل شيء تمام.. باستثناء لحنه وصوت سعاد حسني.. الفرقة الموسيقية مدهشة وعازفوها مقتدرون وقائدهم أوركسترالي بديع، واللحن ـ ظاهرا على الأقل ـ منضبط. إنما النتيجة صيني بدل العربي.. أو أوركسترالي بدل الشعبي.. أو فصاحة بدل الشقاوة. طيب. متشكرين يا أساتذة وتعالى هنا يا عمر يا خورشيد (عمر خورشيد عازف الجيتار).. يا محمود (محمود عفت عازف الناي البديع) ومعلهش يا صلاح (جاهين) ساشرح لك فيما بعد بيني وبينك.

كمال منه للموسيقيين وبالتبعية للمغنية والمؤلف: يا أساتذة.. يا إخواننا.. معايا لو سمحتم. فلنبدأ من أول وجديد. هذه سعاد حسني وليست سعاد محمد. القصة بطلتها بنت أمها عالمة في شارع محمد علي. بتقول لولد بتحبه: يا واد يا تقيل يا مشيبني.. ده أنا بالي طويل وانت عاجبني.. بس يا ابني.. بلاش تتعبني.. علشان عمرك ما هاتغلبني.. معايا يا أساتذة؟ الغناء هنا يكون كده.. الموسيقى تكون كده.. الآلات المهمة كده..



هناك بعد ذلك من هم أكثر شبقًا وتنافسًا على الأضواء مع سعاد حسنى.. حية وميتة. هؤلاء ذهبوا إلى مطار القاهرة وانهالت الدموع خصيصاً.. مصحوبة بفتاوى مؤكدة بأن فى القصة جريمة قتل

السرعة كده.. الإيقاعات كده.. يا أساتذة.. نجرب مع بعض؟ كمان بروفة تانى.. وتالت.

بعد ساعات من الحفظ والتجربة والتسجيل وإعادة التسجيل وساعة بعد ساعة رضى كمال الطويل عن لحنه واستلقى على كرسيه بالغ الإرهاق، استعدادا للعودة بسيارته إلى الإسكندرية. لكن سيد مكاوى دخل عليه راجيا: يا أبوكمال.. إشرافك على شغلك نتيجته الشىء المدهش الذى سمعته. طيب أنا أعمل إيه؟ من يشرف لى على شغلى؟ أنا فى طولك وعرضك. لحنى أمانة تحت إشرافك.

فى الساعات المبكرة من الصباح التالى عاد كمال الطويل إلى الإسكندرية. بعد أسابيع خرج الفيلم إلى الأسواق مسويا الهوايل فى شباك التذاكر.. بأغانيه على ألسنة الملايين.

من تلك اللحظة تحولت سعاد حسنى عند جمهورها، بل وفى قرارة نفسها، إلى «زوزو» حتى فى التسجيل الموجود بصوتها على تليفونها المحمول كانت تقول: أهلاً وسهلاً.. هنا زوزو.. زوزو النوزو كونوزو». وفى مداعبات المصريين اليومية وغزلهم أحيانا أصبح مألوفا استخدام تعبيرات من نوع: يا واد يا تقيل.. ما تقولش أمين شرطة اسم الله.. ولا دبلوماسى.. هى عبرت وأعطت فأجادت، والنتيجة المدهشة من الناس: شلال من الحب.

بعدما مثلت سعاد حسنى أفلاماً عديدة تالية. بعضها حتى تنويعات على تركيبة «خللى بالك من زوزو».. تغنى وترقص وتمثل.. كما فى فيلم «أميرة حبى أنا» الذى قام كمال الطويل بتلحين كل أغانيه. كلها أيضا دخلت فى قاموس الملايين حينما يريدون التحدث عن «الدنيا ربيع والجو بديع.. قفل لى على كل المواضيع».

إنما اللمسة السحرية فى علاقة سعاد حسنى مع نفسها، وعلاقتها مع جمهورها، استمرت مرجعيتها هى «زوزو». بالضبط كما عشق أنتونى كوين دوره فى زوربا.. وصارع بعده ليقنع جمهوره بأنه.. إلى جوار زوربا.. يمكن أن يعبر عن شخصيات أخرى.

مشكلة سعاد حسنى أكثر تعقيدا.. هى امرأة أصبحت نجمة شباك. هى أيضا سندريللا. هى ثالثا تمثل وتغنى وترقص.. وبالتالى يصبح عليها أن تحتفظ باستمرار.. ليس بجمالها فقط.. وإنما بكامل لياقتها البدنية والجسمانية. لقانون السوق هنا - أو شباك التذاكر - شرطان صارمان مع هذه الشريحة من النجوم: قوة الإرادة.. بالإضافة إلى تحويل الزمن إلى عنصر محايد. وبينما الإرادة ممكنة.. إلا أن حيادية الزمن لن تتجاوز التسامح لبعض الوقت.. إنما ليس طوال الوقت.

مع الزمن استجد خصم آخر: المرض. فمع إصابة سعاد حسنى بشرخ فى العمود الفقرى، وعلاج خاطىء فى البداية، أصبحت آلامها لا تطاق. بعدها أصبحت نفس الأدوية التى تسكن آلامها هى التى تسبب لها زيادة الوزن، وهو ما يؤدى بدوره إلى ابتعادها عن حالة اللياقة البدنية التى تريدها لنفسها. وكلما نظرت سعاد حسنى فى مرآتها بحثا عن «زوزو» تجد أن «زوزو» تصبح أبعد.. وأبعد.. وأبعد.. الحلم يهرب، وفى فراغه يجىء شىء آخر: الاكتئاب.

ذات يوم اتصل بى محمد عبدالوهاب. إنما الصوت غير الصوت. والتفاؤل انقلب إلى تشاؤم. وخفة الظل تحولت إلى مجرد أداء للواجب بالسؤال الروتينى عنى اعتمادا من عبدالوهاب على مداعبته المتكررة: أنت ابنى الشقى.

كتمت عن عبدالوهاب انطباعاتى وتظاهرت بعكسها محاولا العودة به إلى طبيعته فى المئات من مكالماته السابقة. أبدا. اكتئاب.

كنت أستطيع التخمين بمناسبة وسبب هذا الاكتئاب. إنه رحيل يوسف وهبى الذى هو من جيل وربما من عمر عبدالوهاب، الآن هو بالغ الحزن ولم يعد يجد للحياة معنى.



كانت الكلمات الأخيرة شذوذا كاملا فى قاموس عبدالوهاب. هو اعتاد مخايلة الحياة.. وملاطفة الزمن.. حتى يلاطفه.. من الأطباء يعرف الكثيرين. الانضباط.. هو نفسه نموذج له. النوم المبكر واليقظة المبكرة والمشى داخل شقته لمدد محددة والأكل المسلوق ولا سجائر أو منغصات؟ كله موجود. البعد عن الهم والغم والأنفلونزا والبرد والهواء الملوث كله تمام. إنما المشاعر والأحاسيس؟ وفراق الأحباب؟ والزمن.. والزمن.. الزمن.

قلت لعبدالوهاب: بصراحة أنت عملت كثيرا للخروج من أحزانك على أم كلثوم.. الآن.. لماذا لا تجرب تغيير نمط حياتك؟

بعد أن قلت تلك الكلمات تمنيت أن أسحبها من جديد. هذا عبدالوهاب شديد الخبرة بالناس والحياة وأنفق من وقته الكثير سابقا لكى ينصحنى ويشد من أزرى فى مواجهة منعى من الكتابة فى جريدتى وأزمات عابرة بعيدة تماما عن محيط اهتمامه ومصالحه. كيف أعكس الآية وأستبيح لنفسى الآن إسداء النصح له؟

وعبدالوهاب يسايرنى: يعنى أغير حياتى ازاى بعد هذا العمر؟ أروح أسهر فى كباريه؟ أبعد عن البيت؟ أنت أيضا تمر عليك الأسابيع لا تغادر منزلك..

قلت له: لم أقل لك غادر منزلك.. أقول فقط.. غير الجو.. جدد الهواء.. تفرج على مسرحيات. افتكر مثلاً أنك فى ليلة كنت زعلان فى بيت محمد التابعى ووجود زكريا أحمد ونجيب حنكش. ألفت ولحنت لك ليلى مراد أغنية فورية باسم «عبدالوهاب لابس قبقاب» وأنك ساعتها نسيت همومك كما حكيت لى بنفسك.. وضحكت كما لم يحدث فى حياتك. الآن أغمض عينيك.. وافتكر ليلى مراد.. وبالمناسبة.. جرب تلبس قبقاب.

فى تلك المكالمة ناكفنى عبدالوهاب وناكفته.. بلا جدوى.. الاكتئاب هو الاكتئاب.

فى عز النوم دق التليفون إلى جوارى فى السرير. يا خبر؟ تقريبا نحن فى منتصف الليل. لقد رفعت السماعة مهيا نفسيا إلى الشخط فى هذا المزعج المقلق للراحة فى وقت غير مناسب.

طلع إنه محمد عبدالوهاب. وبغير تمهيد قال لى بحماس بالغ: أنت نايم؟ يا راجل افتح التليفزيون.

لكن.. لماذا أقوم من السرير وأفتح التليفزيون فيطير من عينى النوم حتى الصباح؟ لأن فى التليفزيون مسرحية دمها خفيف.. وبطلها باين عليه إنه كوميديان مهم.. ها ها ها.. والنبى تسمع.. ها ها ها..

لم أضحك لأن محنتى الفورية هى أن النوم طار من عينى. قضى الأمر. إنما حب الاستطلاع جعلنى أسأله: هذا تغيير كبير منذ مكالمتنا ظهرا.. إنما لازم شىء خطير هذا الذى يحدث.. ماذا جرى؟

- أقول لك سمير غانم ده باين عليه كوميديان مهم.. والنبى تسمع.. هاها هاها.. لأول مرة اعتدلت فى السرير، فالمسألة جد. قلت له: سمير غانم باين عليه؟ كأنك تقول عنه أنه فنان ناشئ. هو كوميديان مهم وله جمهور عريض من زمان.. من أول ما طلع مع الضيف أحمد وجورج سيدهم فى سكتش «دكتور.. الحقنى» و«زمان.. زمان».

وعبدالوهاب يستدرك: تمام.. تمام.. إنما أنت لم تفهم قصدى. أنا قصدى أقول لك أنه فى العادة الكوميديان يستثمر شيئا غير عادى فى خلقته يحوله من ضعف إلى قوة. يعنى فمه أوسع من اللازم كإسماعيل ياسين مثلاً.. أو عيناه فيهما حَوَل أكثر من اللازم كعبدالفتاح القصرى مثلاً.. أو صوته أجش أكثر من اللازم كنجيب الريحانى مثلاً.. أو حركة شفايفه مع لسانه أقل انضباطا من اللازم كحسن فايق مثلا.. أو جسمه أقصر وشنبه مقصوص بشكل لافت كشارلى شابلن مثلا. إنما سمير غانم الذى أراه الآن كله مضبوط ووجهه وسيم.. وبعد كده.. كوميديان يبقى شىء مهم، سألته مستغرباً: هل هذا مدح أم ذم؟

- مدح طبعا.. اسمع والنبى بيقول.. ها ها ها.. شوف.. هنا لازم يعمل ايفيه.. أيوه أيوه عفارم عليك.. هاها هاها.. والنبى تفتح التليفزيون.

قلت له: بدل فتح التليفزيون أنا عندى فكرة. إذا كان قد أسعدك إلى هذا الحد واستخرج الضحكات من قلبك بكل هذه الجلجلة.. فأقل شىء تكلمه فى التليفون وتبلغه بنفسك شعورك كما تحكيه لى الآن بالضبط..

- لكننى لا أعرفه شخصيا..

- الآن عرفته.

- ولا أعرف تليفونه.

- سأعطيك من الذاكرة رقم تليفونه. المسألة لا تحتاج إلى أى معرفة شخصية. تحتاج فقط إلى أن تضع نفسك مكانه حينما يتلقى مكالمة من الموسيقار محمد عبدالوهاب ليقول له: «أشكرك.. فقد أضحكتنى من كل قلبى..».

أخذ عبدالوهاب نمرة التليفون لكن بغير حماس ظاهر وبلا تأكيد مسبق.. ناوى يطلب سمير غانم أو لن يطلبه.

عصر اليوم التالى تلقيت مكالمة من سمير غانم. لم يكن فى الأمر مفاجأة فهو يتحدث بين فترة وأخرى. فى هذه المرة يحكى عن أشياء وأشياء ثم وسط الحديث قال: على فكرة سأغير من جديد رقم تليفونى. أصله غير معقول تداخل الخطوط وتطفل الناس الفاضية يوصل إلى هذه الدرجة.. تخيل.. آخرتها بعد نص الليل واحد فاضى يطلبنى.. أقول له أهلا وسهلا مين حضرتك؟ فيرد يقول لى: أنا محمد عبدالوهاب يا أستاذ سمير.. وحياتك ركبنى العصبى ورديت عليه بما يستحقه لأنه إنسان فاضى يتسلى على خلق الله.. وقفلت السكة فى وجهه.

حاولت أن أستوعب الموقف فتساءلت: لكن يا سمير.. كيف جزمت بأنه ليس محمد عبدالوهاب؟ فى النهاية صوت عبدالوهاب معروف للملايين.

رد سمير غانم بغضب: هذا ما استفزنى أكثر.. واحد فاضى يتقمص حتى صوت محمد عبدالوهاب. طيب.. اعطينى عقلك.. الأستاذ الكبير الموسيقار بتاع الجندول والكرنك وأنت عمرى وأم كلثوم وجبل التوباد ويا جارة الوادى وأخى جاوز الظالمون المدى والحبيب المجهول و... و... و... لما يكلمنى - جدلاً يعنى - يقول لى: يا أستاذ سمير؟ طيب إذا كانت البداية هى أنى أستاذ.. تبقى النهاية إيه؟ ناس فايقة ورايقة علاجها تغيير رقم التليفون.

قلت له: والله فكرة يا سمير.. طيب قبل ما تغير تليفونك هل أنت مرتبط غدا.. ظهرا؟ سأنتظرك ونذهب بسيارتك إلى أى مكان..

بعدها اتصلت بعبدالوهاب استكمالا للمكالمة الناقصة من ليلة أمس. الصوت عاد إلى رنينه. التفاؤل وخفة الدم استردا مكانهما. إنما لم يفتح مطلقا أى سيرة عن مكالمته مع سمير غانم. وبدورى لم أتطوع بالإضافة أو التعليق. بعدها سألنى: عايزين نقعد «نقر» سوا.. يعنى ندردش سوا.

قلت له: سوف أمر عليك ظهر غد لكن بعد استيفاء ثلاثة طلبات. أولاً - تكون فيه أم على، ثانياً - يكون عندك أكل ضار بالصحة، ثالثا - يكون الأكل لشخصين.

رد عبدالوهاب مقاطعا: الآن كل ما تقوله ضار بالصحة. ما له الأكل المسلوق أو الردّة بالملعقة؟ والبعد عن كل ما هو حراق وفيه ملح وشطة؟ هذه خبرة عمر ودكاترة متخصصين. إنما معلهش.. خليك براحتك وفى يوم حتلاقى كلامى تمام. بالنسبة لبكره.. من الآن اعتبر أن أم على ذات نفسها موجودة.. وكل ما هو ضار بالصحة موجود. سعاد (مديرة المنزل) عارفة نظامك وأنت منك للطباخ.

فى الطابق الثانى من العمارة إياها - مسكن عبدالوهاب - سألنى سمير غانم عند الباب: ممكن أعرف، لمجرد العلم بالشىء ليس إلا، دى شقة مين؟

قلت له: يا أخى شقة واحد صاحبى.

لم يطلع صاحبي. طلعت سعاد. بعدها الصالون. بعدها جاء عبدالوهاب ولحظتها مفاجأة سمير غانم. بعدها قلت لسمير غانم: دعني أقدم إليك يا أستاذ سمير فنانا ناشئا ومستقبله غير مضمون.. اسمه محمد عبدالوهاب.

الكيمياء تحركت والصدقة تحولت إلى كوميديا ومحمد عبدالوهاب هذا ـ المكتئب بشدة قبل ٢٤ ساعة ـ تحول إلى طفل من جديد بضحكاته وتفاعله مع سمير غانم.

فى السياق سألت عبدالوهاب: أين أم على؟ وفى السياق يتعمد عبدالوهاب تأخيرها، بعكس انضباطه الصارم مع مواعيده للغداء. أخيرا، وعلى مائدة الطعام، جاء الطباخ بأم على. هى حلوى مطبوخة مشكلة أساسا من العيش واللبن. وبرغم أننى عموما لا أحب الحلوى إلا أن طاجن «أم على» بالذات يصبح بالنسبة لى الأحلى مذاقا وطعما فى بيت عبدالوهاب.

بينما جلستنا مستمرة على المائدة طرحت سؤالا بسيطا: لماذا يمارس الفنانون أحلامهم دائما.. فرادى؟ لماذا لا يخصصون جزءا من اهتمامهم ووقتهم للانشغال بالمستقبل؟ لماذا يتعلق كل فنان بماضيه، وهذا حقه، بينما لا يعطى فى نفس الوقت مساحة للتفكير فى استباق الزمن؟

النقاش بدأ. والأفكار توالدت. والوقت مضى.

فى نيويورك ـ وهذا يعيدنى إلى أنتونى كوين ـ كنت متوقفا خلال نقاشات متقطعة ومستمرة عند سؤال جوهرى: هذا أنت أمامى.. أنتونى كوين.. ناجح ومطلوب ومكسر الدنيا بمناسبة فيلم زوربا اليونانى. بعد هذا العمر وهذه النجومية وهذا التكيف مع «قانون السوق».. هل أنت مضطر للمشاركة بفلوسك الخاصة منتجا لفيلم كهذا الذى أتابعه؟

رد أنتونى كوين بما يلى: السينما هى صناعة الأحلام وتسويقها. جمهور بالملايين ومنتجون بالعشرات. من هنا ولدت هوليوود. ولدت صناعة السينما الأمريكية التى صدرت بضاعتها إلى كل أنحاء العالم. هوليوود اخترعت عقود الاحتكار ونظام النجوم. حسب هذا النظام تتعاقد معى مثلاً إحدى شركات الإنتاج أو الاستوديوهات أو أصحاب رأس المال. أنا فى تلك اللحظة ما أزال نكرة ومجهولا ولو قلت لى اعمل المستحيل سأعمل.. لأن الحلم فى داخلى. وإذا لم تعجبنى الشروط فهناك آلاف غيرى جاهزون.

.. فى البداية أوقع أوراقا وكل دافعى هو حلمى بأن أصبح نجما ويصفق لى الناس. وبعد أن رضيت بالقليل وتعبت صفق لى الناس وتفاعل معى الملايين وأدركت قيمتى. ثم ماذا؟

.. فى الجانب الأول من القصة هناك شركة تفكر لك.. هى التى تحدد لك من تصاحب وماذا تقول وأين تتواجد ونوع الملابس التى ترتديها وأى حفلات تقبل الدعوة إليها. هناك جيش من الاخصائيين وخبراء العلاقات العامة يقررون لك مسبقا ماذا تقول وأين تقيم وفى أى مكان تستريح ومع من تتواجد. يعنى، باختصار، نظام النجوم هذا هو النوع العصرى من نظام الرق والعبودية. يتفرج عشرات الملايين حول العالم على نجمهم المحبوب هذا. ويتوحدون معه ويهيأ لهم أنه معبر عنهم وملك خاص لهم. لكن فى حقيقة الأمر هو لا يعبر عن نفسه. وإنما عما يقرره له الاستوديو. وهو أيضا ملك لأصغر موظف مختص فى ادارة هذا الاستوديو.

.. عند أول فرصة للهرب من نظام الرق والعبودية هذا.. كل من فينا يهرب.. بل وفى بعض الأحيان يدفع الفلوس والتعويضات لكى يهرب. أنت الآن تستغرب لأننى أنتج بفلوسى فيلما من بطولتى.. استغراب معقول، لكننى أشترى حريتى واستقلاليتى وحقى فى أن أختار لنفسى ماذا أريد أن أقدمه إلى جمهورى أملاً فى أن يصدقنى لأن اللعبة فى هذه المرة تصبح أكثر إنصافًا وعدالة. فى فيلم سابق كان ممكنًا أن أدعوك إلى العشاء ـ كما نتعشى الآن ـ لكن هذا يحدث فقط لمجرد أن الاستوديو هو الذى قرر ذلك، وهو الذى اختارك وكلفنى بدعوتك وهو الذى يضيف فاتورة العشاء إلى تكاليف إنتاج الفيلم بغير أن يسألنى الاستوديو مسبقًا: هل مثل هذا الشخص يريحك أو يزعجك؟ أنا عبد المأمور والشركة التى تحتكرنى هى التى تقرر لى من يكون ضيفى وليس أمامى سوى الإذعان وإلا فهناك عقوبات.. لو تكررت وتصاعدت تؤدى إلى خراب بيوت وقضاء على مستقبل واحتكام إلى قانون الغابة. الأقوى يأكل الأضعف. فإذا فكر الأضعف فى التمرد يجرى سحقه ليصبح عبرة لغيره.

ثم انتهى أنتونى كوين إلى الخلاصة: السحق هنا لا يعنى القتل المادى. يكفى القتل المعنوى. يكفى ضرب المتمرد فى مقتل من خلال توصيله إلى حالة من انعدام الثقة بالنفس وبأنه لم يعد له مستقبل. عنده ماض فقط. فليعش فى هذا الماضى لأن هذا كل ما لديه. ماض. بلا مستقبل.

سعاد حسنى، ولأسباب وظروف مختلفة، ربما تكون قد عانت من شىء من هذا. شىء من الإلحاح على أنها ماض بلا مستقبل. إنما الأسوأ هو أنها تصرفت على هذا الأساس. لقد تلبست نوعًا خاصًا جدًا من النجومية.. والدور تلبسها. هى «زوزو» لأنها فى حينها كانت فى أكبر حالات لياقتها النفسية والبدنية. جمهورها تفاعل معها أيضًا لأنه محتاج إلى «زوزو». بعد قليل تحولت المسألة إلى أن كليهما أصبح سجين الآخر. هى سجينة لجمهورها ـ جمهور زوزو ـ والجمهور نفسه لم يستوعب أن «زوزو» نفسها فكرة وحلم.. قد تجسده سعاد حسنى فى فترة. لكن غيرها يجسده فى فترة تالية.

لم يكن أى منهما واقعيًا مع الآخر. لا الجمهور خفض توقعاته من سعاد حسنى. ولا هى أيضًا عدلت من توقعاتها من الجمهور. هناك حقيقة تعلوهما معًا عنوانها: الزمن. وربما يحسب لسعاد حسنى أنها جربت الخروج إلى جمهورها بشىء مختلف عن «زوزو» ففوجئت بالفشل. نريد زوزو والمزيد منها. حاولت أيضًا أن تنسحب سعيًا إلى أن تعيد ضبط أوضاعها فى مواجهة الخصمين الطارئين: الزمن والمرض. فواجهها خصم جديد. فى الحرب على جبهتين آلام كافية ويجوز التكيف مؤقتًا مع أى منهما. إنما الخصم الجديد أصبح هو: جماعة آكلى لحوم البشرية.

هذا جديد.

من بين ٨٢ فيلمًا سينمائيًا ـ يعنى مشوار معتبر ـ كان آخر أفلام سعاد حسنى السينمائية فى سنة ١٩٩١ بعنوان «المتوحشة» المقتبس أصلاً عن مسرحية لجان إينوى. والفيلم من إنتاج سعاد نفسها.

بعدها رحلات العلاج المتقطعة. فى البداية باريس وبعدها لندن. فى حالات من هذا النوع فإن القاعدة الأولى حسب «قانون السوق» هى أن يبتعد النجم عن الأضواء بالكامل، خصوصًا كاميرات المتطفلين. فى هوليوود مثلاً، وحتى من غير مرض، تلتزم نجمة الاغراء مثلاً فى عقدها مع الشركة المنتجة بعدم التقاط أى صور لها تهز من شكلها فى خيال الجمهور كان يتم تصويرها بغير ماكياج.. مثلا.

سعاد حسنى لم تكن نجمة إغراء. هى جميلة.. لكنها ليست صارخة الجمال. لها قبول يحرك القلوب ولكن لا يحرك الغرائز. مع ذلك فالمرض هو المرض. وحينما يتلازم المرض مع زيادة الوزن تصبح الصور أول الممنوعات. ليلى مراد مثلاً مع آخر فيلم سينمائى لها لم تعد تسمح مطلقًا بالتقاط أى صور فوتوغرافية لها.

نتيجة رحلة العلاج هى التى تقرر الخيارات المتاحة أمام نجمة بهذه الشعبية. هناك خيار التغيير الآمن.. كأن تتحول من سندريلا إلى أم مثلاً. هناك خيار الاعتزال النهائى وهذا يعنى حياة جديدة مختلفة تمامًا وبعيدة بالكامل عن أية أضواء. هناك خيار التمسك بنجومية السندريللا مع تعديلات طفيفة.. وهذا هو الأصعب على الإطلاق لأن الزمن هنا له سلطة الاعتراض. سعاد ليست



زوزو.. وزوزو ليست سعاد. لكن للزمن تعليقا على الأحداث.

فى جميع الحالات هى التى تقرر وتختار على ضوء نتائج العلاج. ولكى يحدث ذلك سافرت سعاد حسنى للعلاج.. والعزلة. فى حالتها.. العزلة جزء من الدواء. لكن العزلة شىء.. والوحدة شىء آخر مختلف.

وفى عزلتها وغربتها ثم وحدتها.. استجدت على سعاد، بعد جبهتى الزمن والمرض، نصف جبهة أخرى. إنهم المتطفلون من المحيط القريب.. فمع الأضواء يجئ الهاموش. بعده الذباب.

وفى أيام أم كلثوم كان يوجد «هاموش». إنما، ولأنها أم كلثوم، فقد كان علاجها باترًا، وأقامت حول حياتها الخاصة سور الصين العظيم.. فاحترم الغريب والقريب خيارها هذا. مع ذلك، وفى لحظات «فضفضة» إنسانية.. كانت أم كلثوم تحكى لى عن منغصات تتجاوز خيالى. منغصات لحرق الدم.

فى أيام عبد الحليم حافظ كان «الهاموش» قد استقر أرضًا وتحول إلى صراصير. وبرغم كل الرائج عن شعبية عبد الحليم ونفوذه إلا أننى عاصرت معه فى مرحلته الأخيرة حالات من حرق الدم التى كانت تدفعه إليها صراصير المدينة. أمام الكاميرات كان عبد الحليم يكابر متظاهرًا بأنه لا يهتم. أما فى داخل غرفته المغلقة فقد كان يجهش بالبكاء. صعب على نفس عبد الحليم بعد كل ذلك المشوار والكفاح والشعبية أن يتعرض لذلك النوع من الضغط والابتزاز والقرف والتلوث من صراصير المدينة.

مع أفلام سعاد حسنى الأخيرة كان الصراصير قد تحولت إلى فئران. ومع مشوارها الأخير للعلاج أصبحت الفئران أفيالاً.. والأفيال من نوع خاص مخلّق يجعلها أقرب إلى أكلة اللحوم البشرية.

أتوقف هنا عند نموذجين:

فى الواقعة الأولى وجدت سعاد حسنى نفسها، وهى فى الغربة والعزلة والوحدة، وسط ادعاء بكلمات تستنطقها بما لم تقله. ادعاء بأنها ارتبطت مع عبدالحليم حافظ فى حياته، ولمدة خمس سنوات كاملة، بعلاقة زواج بعقد عرفى. تلك كذبة مجلجلة لم تنطق بها سعاد. هناك ارتباط عاطفى جرى بين عبد الحليم حافظ وسعاد ذات فترة. هناك غرام. هناك توافق عاطفى كان يمكن أن ينتهى إلى زواج. لكنه لأسباب لا تقلل من أى منهما، زواج لم يحدث.. وأصبح كل يسير فى طريق.. مكتفيًا باعتزازه بالطرف الآخر.. من بعيد لبعيد.

واستنطاق سعاد حسنى كذبًا، وفى حالتها تلك بالغربة، بمثل ما جرى كان يعنى استدراجًا لها إلى كمين بالغ الخبث.. ويسئ إليها والى عبد الحليم حافظ.. معًا. المغزى ببساطة، وبأثر رجعى، هو أنه كانت لعبد الحليم حافظ وسعاد حسنى حياة سرية أخرى يخفيانها عن الناس. وطرح مثل تلك الأكذوبة، مع رحيل طرفها الأول وعزلة طرفها الثانى، كان أقصى درجات الحقد على كليهما معًا.. والغل الدفين منهما معًا.. ولأسباب لها سياق آخرليس هذا مكانه. وأسوأ ما فى الواقعة هو أن سعاد لم تكن تستطيع الخروج أمام الكاميرات لكى ترد.. فذلك كان بالضبط هو الكمين المنصوب لها وسافرت إلى الغربة حتى لا تضطر إليه.

أما الواقعة الثانية فقد جرى نشرها قبل شهور قليلة من رحيل سعاد حسنى. الآن نحن أمام كذبة أخرى، وموجعة ومتوحشة بدرجة أكبر. الأكذوبة هى أن سعاد حسنى تعيش فى لندن هائمة على وجهها غير واعية بتصرفاتها، تلتهم فضلات الطعام والمشروبات، وتتصرف بطريقة مقززة حتى لمن يتعاطفون معها. وأيضًا.. تتسول. أما عنوان الأكذوبة، وببراءة الأطفال ودموع التماسيح، فهو: أنقذوا سعاد حسنى.

لكن العنوان مضلل. والمضمون متوحش. المضمون هو: دعوة للقبض على سعاد حسنى وإدخالها قسرًا إلى أقرب مستشفى للمجانين.



يا إلهى. تلك دعوة لا يقولها المرء.. حتى عن عدو. هو أيضًا كمين آخر مختلف.. استدراجًا لسعاد حسنى أمام الكاميرات.. فى أسوأ لحظاتها الصحية وقدرتها النفسية على مواجهة الكاميرات. فى الحالتين هى مدانة مقدمًا أمام جمهورها. مدانة إذا صمتت. ومدانة إذا تكلمت.

كان هذا التوحش شيئًا جديدًا فى هذه المدينة. جديدًا ومهينا وغير إنسانى بالمرة وفى لحظة دقيقة إنسانيًا يواجه فيها النجم أصعب معاركه.. وعلى جبهتين. بل إنه حتى بعد رحيل سعاد حسنى المأسوى فجعت فى أكلة اللحوم البشرية هؤلاء - وهو خيط واحد وإن اختلفت الدوافع والمصالح - بنشرهم أن سعاد حسنى كانت تعانى من.. من .. من: الشبق الجنسى.

مع خروج عشرات الآلاف من الشبان فى وداع سعاد حسنى بالقاهرة.. كان شلال الحب يحيط بها من جديد.. وإن تكن هى الآن قد أصبحت ذكرى. فى شلال الحب هذا كانت الرسالة واضحة بغير فذلكة ولا فلسفة. الرسالة هى: إن الفن ممتع.. ومبهج.. وهى فى حياتنا لكى نعتز به ونرعى مواهبه. الفن الجميل - ريشة وقلمًا ونغمة وصوتًا وصورة. وبما هو قليل من جمال الفن فى حياتنا نستطيع التصدى لما هو كثير من قبح.

لقد كانت الدموع فى عيون الجمهور صامتة.. وناطقة. هى دموع عرفان بسعادة أعطتها لهم سعاد حسنى وكل من صنعوا مشوارها. وهى كذلك دموع حسرة على أن سعاد حسنى كانت تستطيع إعطاء المزيد.

.... وهى أيضًا كانت تتمنى ذلك. ■

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

الشكوى الأولى

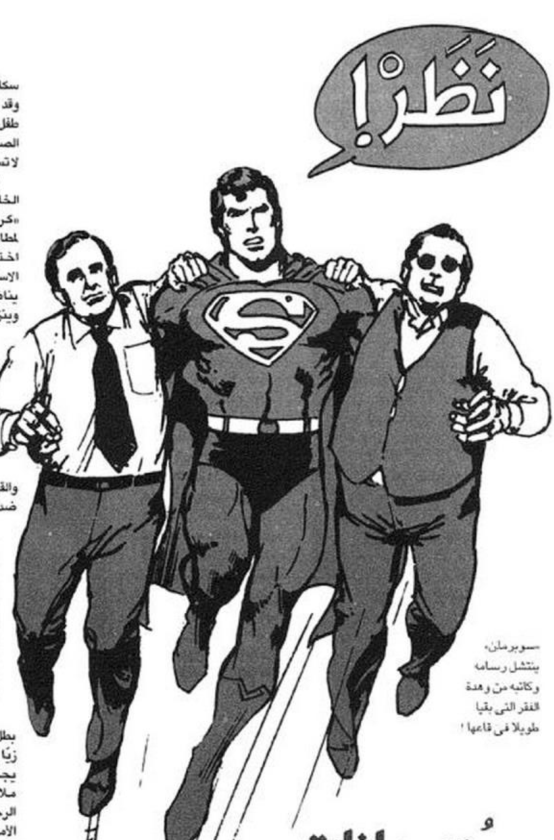
عندئذ أتى هذا الفلاح ليقدم ظلامته إلى المدير العظيم للبيت «رنزى» بن «مرو» فقال: «يا مدير البيت العظيم، يا سيدى، يا أعظم العظماء، يا حاكمًا على ما قد فنى وما لم يفن! وإذا ذهبت إلى بحر العدل وسحت عليه فى نسيم رخاء، فإن الهواء لن يمزق قلعك، وقاربك لن يتباطأ، ولن يحدث لصاريك أى ضرر، ومرساك لن تكسر، ولن يغوص قاربك حينما ترسو على الأرض. ولن يحملك التيار بعيدًا، ولن تذوق أضرار النهر، ولن ترى وجهًا مُرتاعًا. أقم العدل أنت يا أيها الممدوح الذى يمدح بهؤلاء الذين يمدحون، اقض على فقرى، انظر إنى مثقل بالحمل، جربنى، انظر إنى فى حيرة».

الشكوى الثانية

* «إن الإنصاف قصير، ولكن الضرر يمكث طويلاً، والعملُ الطيب يعود ثانية إلى مكانه بالأمس. والواقع أن الحكمة تقول: «عامل الناس بما تحب أن تعامل به»، وذلك كشكر إنسان على ما يعمله. ليت لحظة تخرُب، فتجعل كرمك رأسًا على عقب، وتفتك بطيورك، وتودى بدواجنك المائية. فالمبصر قد غشى بصره، والمستمع قد صمّ، والحاكم أصبح متمردًا. . .».

* «لا تنطق كذبًا. واحترس من الحكام. . إن قول الكذب عشبهم، وعلى ذلك من المحتمل أن يكون خفيفًا على قلوبهم. وأنت يا أكثر الناس تعلمًا، هلا تريد أن تعرف شيئًا عن أحوالى، تأمل، فإنى أملك مجرى ماء من غير سفينة، وأنت يا مرشد كل غارق إلى البر، نجِّ من غرقت سفينته نجنى. . .».

٣ كتب جديدة + كتابان ١/٢ ١/٢



«سوبرمان» ينتشل رسامه وكاتبه من وهدة الفقر التي بقيا طويلا في قاعها !

سُوبرمانات وفلسطينيُّون وبُوشناق وماركات مُسجّلة !

محيى الدين اللبَّاد

سوبرمانات !

وفقًا للسياق الذي يحكم صفحات من هذا النوع، كان من الأجدر بعرض الكتب هذا أن يبدأ بالتعليق على جائزة «بوليتزر» الأمريكية ٢٠٠١ للكاريكاتور، وليس جائزة «بوليتزر» الخاصة بالرواية لهذا العام كما هو حادث الآن. إلا أن هناك مبررًا قويًا للاستفتاح بالرواية الفائزة بـ«بوليتزر»: إذ هي رواية ضخمة (أكثر من ٦٠٠ صفحة) تجرى أحداثها في عالم قصص الشرائط المرسومة Comic Strips الأمريكية: شخوصها من الأبطال الخارقين من شاكلة «سوبرمان»، ورساميهم، وكتّابهم، وناشريهم.

المادة الخام التي اعتمدت عليها الرواية هي التاريخ التفصيلي لنهوض صناعة الشرائط المرسومة للأبطال الخارقين الأمريكان، بدءًا من ميلاد تلك الصناعة الذي تزامن مع اندلاع الحرب العالمية الثانية، ومع تهيؤ الولايات المتحدة الأمريكية لخوضها.

«خرطة» التاريخ التي تتناولها الرواية متخمة بالحكايات: حكايات الأفراد، وحكايات الشخصيات الخارقة المرسومة على صفحات الكتب، وحكايات مبدعيها من رسامين وكتّاب قصة وسيناريو، بالإضافة إلى حكاية أمريكا ذاتها (أو بمعنى أقرب: أسطورتها).

وتبدأ أحداث رواية «المغامرات المدهشة لكافالييـر وكلاي» The Amazing Adventures of Kavalier & Clay في مدينة «براغ» في أواخر الثلاثينيات وقت الاحتلال النازي لتشيكوسلوفاكيا. وفي تلك العاصمة المحتلة، يعيش أحد بطلي الرواية الرسام الشاب الموهوب «جوزيف كافالييـر». وبدأب وصبر، يدبر هذا البطل هروبًا موفقًا يلقي به خارج بلاده، إلى «ملجأ الأحرار» نيويورك، التي يصلها في التوقيت الذي ينبلج فيه فجر الصناعة الأمريكية الوليدة وقتئذ: نشر قصص الشرائط المرسومة. (بدأ مدّها - في الواقع - مع ظهور شخصية البطل الخارق «سوبرمان» الذي نشرته دار «ناشونال كوميكس» في صيف ١٩٣٩).

يقصد الرسام التشيكي اللاجئ ابن عمه كاتب الحكايات الطموح «سام كلايمان» الذي كان قد سبقه في الهرب إلى أمريكا، والذي سيصبح كاتب الحكايات والسيناريو والحوار لكتب المغامرات التي سيرسمها القادم الجديد. ولا يمر وقت طويل، حتى يطلق الثنائي الموهوب أول كتبهما المرسومة، التي تقوم ببطولتها الشخصية الخارقة التي اخترعاها وأسمياها «الهروبي Escapist».

ورغم أن الرواية لا تكرر قصة وتاريخ صناعة نشر مغامرات الأبطال الخارقين في أمريكا، ولا تقدم بديلاً مباشرًا مقابلاً لكل شخصية واقعية، ورغم توفيق الروائي الشاب في غزل تاريخ روائي لم يكرر رواية ما حدث بالفعل، ورغم أنه أعاد صياغة الأحداث الواقعية ورغم خياله السردي الغني، إلا أن المتابع لتاريخ كتب الشرائط المرسومة الأمريكية لن يضطر إلى صرف جهد كبير ليكتشف أصولاً - في التاريخ الواقعي - لكثير من شخصيات الرواية وأحداثها. وبيسر كبير ستستدعي ذاكرة القارئ المتابع «جوزيف شوستر» (١٩١٤ - ...) الرسام الذي خلق شخصية «سوبرمان» عام ١٩٣٩، ويطابقها مع شخصية الرسام في الرواية. وغالبًا لن تتخلى ذاكرة ذلك القارئ عنه، وستمده بما تختزنه عن «جيروم سييجل» (١٩١٤ - ...) كاتب القصص والسيناريو والحوار الذي شارك في خلق البطل الخارق، وأسر انتباه وإعجاب الملايين من القراء الشباب على مدى ستين عامًا. وسيجد في سيرة ذلك الكاتب الموهوب كثيرًا مما يقرؤه في الرواية عن شخصية الكاتب فيها.

كان البطل الخارق «سوبر مان» قد تملك قلوب قرائه وأثارهم بازدواجيته؛ فهو في هيئته الظاهرية المتواضعة التي يتخفى وراءها، صحفي شاب خجول يضع نظارات طبية. وهو بهذا يموّه على حقيقته المثيرة، ككائن خارق غير أرضي، بل من كوكب «كريبتون» الذي تمتع سكانه بقدرات خارقة لا قبل لإنسان كوكبنا بها. وقد انفجر ذلك الكوكب، وهلك سكانه جميعًا عدا طفل واحد هبط إلى كوكب الأرض محتفظًا بكل الصفات الخارقة لأهل الكوكب الهالك، والتي لا تستطيع قوة في الأرض أن تقف أمامها.

ويشب ذلك الطفل، ليصبح «سوبر مان» الخارق الكاره لهؤلاء الأشرار الذين فجروا وطنه «كريبتون» وتسببوا في هلاك أهله. ويتفرغ لمطاردتهم - هم وأمثالهم - بلا هوادة ليبطل اختراعاتهم العلمية الشريرة التي يريدون بها الاستيلاء على كوكب الأرض. و«سوبر مان» يناضل وحده بلا عون من أحد، وبلا رفاق، وينزل العقاب بأعدائه منفردًا، غير ملزم بقانون أو شريعة إلا ما يقرره هواه.

يطير «سوبر مان» ويشق أجواز الفضاء، ويحط من قمم ارتفاعات شاهقة، وينط إلى ذرى لا يستطيع بلوغها أحد. ينفذ من الحوائط الصلدة، ويخترق ببصره الحواجز السميكة ويرى ما وراءها. ويعبر الزمان قفزًا فوق السنوات والقرون، ويخوض حروبًا متصلة ومعارك شرسة ضد هؤلاء «الأشرار» الثابتين الملاعين.

وقد قدم الرسام «جوزيف شوستر» البطل الخارق «سوبرمان» على هيئة شاب هرقلي أشقر البشرة ناعم الشعر، يشبه نموذج البطل الرياضي الأمريكي في الثلاثينيات، ونجم السينما الأمريكية في ذلك الزمان، ويجعله في ملابس رياضية زرقاء اللون، وبعباءة حمراء تنتشر حوله عندما يطير. وبهذا وببعض اللزمات الأخرى، أعطاه الرسام لفتات تذكرنا بآلهة الإغريق القدماء.

وفي رواية «ميكاييل شابون»، يرتدي بطل قصص المغامرات الذي تقدمه - هو الآخر - زيًا رياضيا أزرق اللون يلتصق بجسده. كما يجعل المؤلف على عينيه قناعًا أسود يخفي ملامحه، مثلما أخفى عينيه كل من «باتمان - الرجل الوطواط» و«الشبح» في المغامرات الأمريكية المرسومة التي صدرت بالفعل لمنافسة «سوبرمان» ومقاسمته الأرباح الطائلة التي صبتها سوق النشر في جيوب ناشريه (ظهر في مواجهة «سوبرمان» أيضًا «كابتن أمريكا»، و«كابتن مارفل» و«الرجل العنكبوت»، وكثيرون غيرهم لفوا لفّهم).

أما عن عدو البطل الخارق في الرواية، فإن قارئها سيتعرف عليه قبل أن يبدأ القراءة. فعلى غلاف الكتاب هناك رسم للبطل المقنّع مُحلقًا في الفضاء، ويهوي بقبضته على فك الفوهرر أدولف هتلر، الشيطان الأكبر بالنسبة للغرب في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات.

وإذا عدنا لأرض الواقع في التاريخ الماضي القريب، سنجد وجهًا آخر دراماتيكيًا للنجاح المالي الكاسح الذي حققه ناشر «سوبرمان»، ومنافسوه من الناشرين المقلدين. إذ إن هناك قصة مأساوية محزنة، حدثت بالفعل، ووجدت صداها في الرواية الفائزة بجائزة «بوليتزر»: كان الرسام «جوزيف شوستر» والكاتب «جيروم سييجل» قد باعا للناشر جميع حقوق النشر المتعلقة بشخصية «سوبرمان» عند بدء نشر كتبه، مقابل مبلغ مقطوع، ووقعا عقدًا لا يرتب لهما أي حقوق أخرى عن استغلال الشخصية التي اخترعاها في مغامرات جديدة، أو عند إعادة نشر المغامرات السابقة.

وقبل أن يمر وقت طويل، طرد صاحب دار

The Amazing Adventures of Kavalier & Clay

(المغامرات المدهشة لكافالييـر وكلاي)

By: Michael Chabon
Random House, New York, 2001.

النشر «ناشونال كوميكس» الرسام «شوستر» والكاتب «سييجل» من العمل لديه، واستأجر غيرهما ليقوما بمواصلة الكتابة والرسم لشخصية «سوبرمان». وترك الرسام والكاتب الأصليان مهنة الشرائط المرسومة مبكرًا، وانزويا بعيدًا في ضائقة مالية خانقة. وظل هذان المبدعان طويلاً في هذا الموقف المأساوى حتى بادر الناشر بلفتة دعائية ذكية، حين قام - طوعًا - بتخصيص راتب تقاعد شهرى مقداره ألف دولار لكل من الرسام والكاتب. وأذاع الخبر، ومعه نشر الرسم الذى يصور «سوبرمان» ينتشل رسامه وكاتب حكاياته من وهدة الفقر والضنك، ويحلق بهما عاليًا فى الفضاء المشرق!

وفى رواية «ميكاييل شابون»، يرتكب بطلاها (الرسام والكاتب) نفس الغلطة القانونية القاتلة التى ارتكبها الرسام والكاتب الحقيقيان، إذ يوقعان مع ناشرهما عقدًا يتنازلان فيه عن كل حقوقهما القانونية لاستغلال شخصية «الهروبى» التى اخترعاها ويعيشان فى ضنك وويل، بينما يرفل ناشر «الهروبى» فى نعيم الملايين، بالضبط كما حدث مع ناشر «سوبرمان» فى الحقيقة!

عكف الروائى الأمريكى الشاب «ميكاييل شابون» على روايته بدأب وصبر وبالتفصيل وباستمتاع آسر بغواية مغامرات الأشرطة المرسومة، التى لابد أنه غرق بين صفحاتها طوال طفولته وصباه، مما جعله يتملك تفاصيل تلك المهنة وخفايا صناعتها، وأسرار غرفها الخلفية. وبموهبته الروائية الفذة، وبقدرته الاستثنائية على الابتكار والحكى، وبجرأته الفريدة فى اختيار موضوع لروايته لم يسبقه إليه ولم يتوقعه أحد، أبدع رواية من الدرجة الأولى الممتازة.

وفى النهاية، قد يكون من اللازم أن نلفت النظر إلى أمرين:

أولهما: هو أن الرواية تجعل كلا من رسام الأشرطة المرسومة وكاتبها يهوديين، مثلما كان رسام «سوبر مان» وكاتبه من اليهود! والرواية تؤكد الحادثة الحقيقية لاستغلال الناشر الدنىء للرسام والكاتب، لكنها تلقى عليها ضوءًا جديدًا فى سياق الرواية الجديدة: مبدعان يبذلان الجهد ويتعرضان للموت خلال هروبهما من الاحتلال النازى، ويعبران الأطلسى ليصلا إلى أمريكا «بلاد الحرية»، ثم «يخلقان» بطلا أمريكيا «وطنيًا» ناجحًا، يغمر ناشريه بالمال ويجلب لهم الثروة والسعادة، ويسعد القراء الأمريكان، ويمجد قيم مجتمعهم المنتصر. وينتهى هذا كله بتناسى الجميع لجميل اليهوديين، وبإلقائهما فى غياهب الإنكار والجحود والظلم. ويبدو هذا إلحاحًا جديدًا على ضمير العالم وتذكيرًا بجحوده تجاه اليهود، وإنكاره لهم ولدورهم «العظيم» فى رفاهية البشرية ومقاومتهم للظلم.

أما الأمر الثانى الذى تلفت الرواية نظرنا إليه، فهو يتعلق بقيمة «صنعة» الشرائط المصورة ذاتها، التى لم تكن لتنال مثل هذا الاهتمام والتقدير منذ عقود قليلة، ولم تكن توصف بأكثر من كونها «صنعة صغرى» أو «وسيلة لأكل الخبز». لكن نظريات الفن والأدب الحديثة أسقطت مثل ذلك الموقف «الثقافى» المترفع من علياء برجه العاجى، وعلّمت أصحابه أن القيمة الاتصالية العالية فى مثل هذه الأعمال الجماهيرية، واتفاق الأعداد الهائلة من البشر على متابعتها، يفرض الاهتمام بذلك الإنتاج، ومتابعته، وتحليله، ونقده، والبحث عن مواطن الإبداع والإغواء فيه. كما تبقى - أيضًا - هذه الأعمال واسعة الانتشار جديرة بالاهتمام والمتابعة والبحث، لجسامة تأثيرها - إيجابًا أو حتى سلبًا - على وجدان المتلقين.

وقد كتب أحد نقاد «الشرائط المرسومة» (هل لاحظتم أن هذه «الصنعة» أصبح لها نقاد مثل باقى صنائع «الفن»؟) - كتب ذلك الناقد يومًا عن الرسام «جاك كيربى» الذى منحه جمهوره لقب «الملك» (مثل فريد شوقى عندنا) بعد أن سحرهم برسومه للشخصية الخارقة «كابتن مارفل» - كتب يقارن بين شرائط «كيربى» المرسومة المزدحمة بالبشر والحافلة بالحركة والحيوية، وبين لوحات «بيتر بروجل».

لعل الإنجاز الرئيسى الذى حققه الروائى الشاب فى روايته هو إبداع «فن» اعتمادًا على مادة الشرائط المرسومة التى طالما اعتبرها بعض أهل الفن والثقافة «الرفيعين» (خاصة من أهل العالم الثالث) صنعة لا تتمتع بالاحترام ولا توصف بالسمو والرفعة، لأنها تتسم بالعادية «الأرضية»! ■

فلسطينيُّون وبوشناق!

■■ حمل إلينا البريد الكتاب المثير الحافل بالشرّ والقسوة والقبح والتشوه والضعف، والذى (الكتاب) يمثل بالمقابل إحدى المحاولات الدءوبة للتغلب على الشرّ والقسوة والقبح والتشوه والضعف. كتاب «غوراجده منطقة آمنة» للرسام والصحفى الأمريكى «جو زاكوّ Joe Sacco» هو استطلاع (أو عدة استطلاعات) بالرسوم، كما هى عادة هذا الرسام الطيب واللطيف فى كتبه. وهذا العمل هو حصيلة ٤ زيارات قام بها الرسام لمدينة «غوراجده» البوسنية التى عانت من حصار طويل وقاس، ومن حرب عرقية قذرة استمرت ثلاث سنوات ونصف، بينما لم يسمع بها العالم من الإعلام الكونى بشكل كاف خلال تلك الحرب التى جرت فى إقليم البوسنة.

وإلى أن تبرد النسخة التى خرجت لتوها ساخنة من المطبعة، نتركها مؤقتًا، ونتوجه إلى المكتبة لنستل كتابى «زاكو» السابقين، وهما «فلسطين: أمة محتلة Palestine: A Nation Occupied» و«فلسطين: فى قطاع غزة Palestine: In Gaza Strip»، وكلاهما صدر (فى ١٤٢ صفحة.

وكتب «زاكو» الثلاثة من جنس غير مسبوق، إذ أن مادتها الأساسية هى الرسوم التى تجمع بين السخرية وخفة الروح والمأساة والعنف وقساوة القلوب، وبين القدرة الفائقة على الحكى والتشويق والتعاطف، والتوثيق المخلص الدءوب. والنصوص فى هذه الكتب قد أدمجت مع الرسوم، وهى تتراوح بين التعليق الوصفى السردى، وبين الحوار الذى تنطق به الشخصيات المرسومة - أحيانًا - وقد كتب فى «بالونات» تخرج من أفواه المتحدثين، كما هو دارج فى أعمال الشرائط المرسومة القصصية.

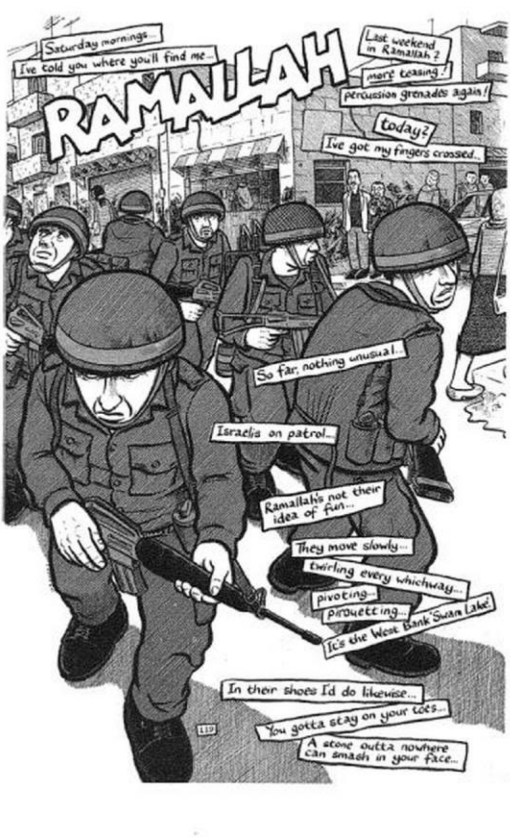
ولكل من الكتب ثلاثة مستويات:

مستوى يسجل فيه المؤلف - بالرسم والكتابة - شهادته عن الناس وأحوالهم وما يجرى عليهم فى ديارهم كما عاين ذلك بنفسه.

والمستوى الثانى يقدمه المؤلف كمادة تسجيلية وتاريخية موثقة بالرسوم المستمدة من مصادر أرشيفية، وصور فوتوغرافية قديمة، وخرائط، وما إلى ذلك. وأيضًا رسوم متخيلة عن وقائع حدثت فى الماضى ورواها له الشهود من كبار السن الذين التقاهم.

أما المستوى الثالث، فيستعرض فيه الرسام نفسه خلال محاولته استطلاع الحقيقة وتحرى الصدق على أرض الواقع ووسط أهله. ويظهر الرسام بشخصه فى إطارات الرسوم كما لو أن مصورًا كان يصحبه ويصوره خلال قيامه بالاستطلاع.

وهكذا يحوّل المؤلف نفسه إلى ما يشبه الشخصية الكارتونية التى تربط الأحداث والأماكن وسياق الكتاب. نراه فى الرسوم رجلاً صغيرًا يميل إلى القصر ويبدو أقرب إلى الولد، بشعر قصير وشفاه غليظة. وفيه قدر محكم من قلة الحيلة وخفة الدم تسهل دخوله قلبك. وتذكرك ملامحه بالدكتور نبيل شعث عندما كان شابًا نحيلاً وخفيف الدم.



يرتدى «زاكو» ملابس السائحين

PALESTINE: A Nation Occupied,
(فلسطين: أمة محتلة)

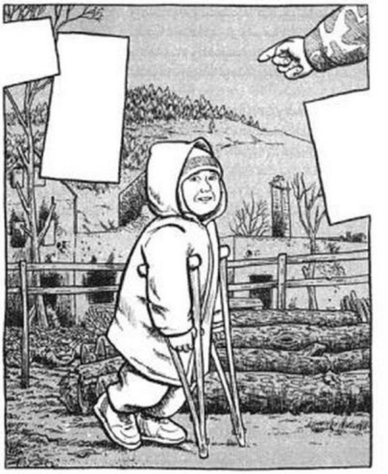
by: Joe Sacco,
Fantagraphics, Seatle, 1994.

PALESTINE: In Gaza Strip,
(فلسطين: فى قطاع غزة)

by: Joe Sacco,
Fantagraphics, Seatle, 1994.

Safe Area Gorazde
(غوراجدة منطقة آمنة)

by: Joe Sacco,
Fantagraphics, Seatle, 2000.





[اليمين]
مشهد من «غوراچدة» بعد وقف إطلاق النار لحرب التطهير العرقى المجنونة.

[أعلى]
مشهد من ٢١ مشهدًا للرسام / يأكل فيها -بشهية- على موائد الفلسطينيين أو البوشناق فى كتبه الثلاثة.

[أسفل]
القبعات العسكرية الحمراء كما شاهدهم «جو زاكو» يطاردون صديقه «أبو أكرم» فى وسط مدينة «نابلس»



الفقراء: سترة جلدية، وحذاءً مطاطيًا، وسروالاً من نوع الچينز. ويميز نفسه بين باقى الشخصيات بقفاز من الصوف بلا أصابع لايخلعه إلاعند تناول الطعام أو النوم. ويعلق على كتفه حقيبة صغيرة يحمل فيها آلة تصوير تبدو رخيصة ودفترًا لكتابة الملاحظات وتخطيط الرسوم السريعة. وفى «غوراچدة» يضيف «زاكو» إلى هيئته طاقية مضلعة من الصوف لاتقاء البرد الحالى ليوغسلافيا السابقة.

لايسكن «زاكو» الفنادق، بل يغوص داخل حياة الناس فى البقاع التى يزورها. ويبدو بساطه أحمديًا، فهو ينام الليل فى بيوت الناس، ويتكرر منظر مشاركته أهل البلاد طعامهم كثيرًا فى كتبه الثلاثة (٢١ مشهدًا يتناول فيها الطعام بشهية ضيفًا على الناس فى بيوتهم!). وفى أحد المشاهد، يصرح «زاكو» لمضيفه «سامح» (من أهالى مخيم «جباليا») بضرورة أن يذهب لأنه لم يحضر معه ملابس داخلية، فيتقدم المضيف إلى ضيفه بطاقم من ملابسه الداخلية وزوج من الجوارب. يرفض «جو زاكو»، فيسأله «سامح» مندهشًا: «لماذا؟». ويرد الرسام من خارج الإطار متحدثًا إلى نفسه: «لابد من بعض الحدود. قد أشارك لاجئًا فلسطينيًا فى طعامه، أو أن أنام فى فراشه، وتجرى على سيقاننا فى الليل نفس الفئران.. لكن أن ألبس ملابسه الداخلية؟.. لا.. لابد من الاحتفاظ بمسافة بينى وبين الناس».

وفى كتابيه الفلسطينيين، ينتقل «زاكو» بين مخيم جباليا، غزة، نابلس، رام الله، الخليل، طولكرم، والقدس. ويزور المستشفيات، حيث يروى له المصابون ما جرى لهم على أيدى العسكر الإسرائيليين فى الشوارع، وكيف أنهم يتتبعون المصابين إلى داخل المستشفيات حيث يواصلون تكسير عظامهم.

يشاهد «زاكو» المظاهرات وكيف قمع الجنود مظاهرة للنساء على طريق نابلس - رام الله، ويروى كيف يواجه الإسرائيليون الأطفال قاذفى الحجارة بالرصاص الحى وقنابل الدخان، ويزور إحدى القرى شرقى الخط الأخضر (يصفها بأنها «منجم للبؤس»)، ذبح الجنود والمستوطنون أشجار الزيتون فيها. ويتصادف وجوده وسط سوق الخليل عند مهاجمة العسكر له وإغلاق السوق وضرب الباعة والمشترين والمارة.

ويرسم «زاكو» ما رواه له الناس عن قتل العسكر للمتظاهرين، وعن التعذيب البدنى الوحشى أثناء استجواب المعتقلين والمعتقلات. كما يرسم شهادات الشيوخ والعجائز الذين يروون له ما جرى لهم منذ النكبة والخروج من ديارهم. وفى صفحات أخرى، يسترجع الرسام الأحداث التاريخية الماضية، وفيها نرى رسومه تضم شخصيات مثل هرتزل وبلفور وبن جوريون وجولدا مائير، وخرائط متنوعة.

ورسامنا ليس رسام شرائط مصورة تقدم مغامرات لأبطال خارقين، ولا لأبطال هزليين. إنه من الجيل الجديد لمدرسة الرسامين الأمريكان المعارضين لسياسة حكومتهم، وهى مدرسة ظهرت فى منتصف الستينيات وقت حرب فيتنام. نقل هؤلاء الرسامون هموم المجتمع والسياسة والعالم، وناقشوا فى أعمالهم المسائل الكبرى، بحيث لم تعد - مثلما كانت من قبل - صفحات للتسلية وتزجية أوقات الفراغ. كان على رأس هذه المدرسة الأمريكية (التى اعتبرت نفسها «هامشية» أو «تحت الأرض») الرسام الشاب الموهوب «روبرت كرومب Robert Crumb»، الذى فتح باب هذا الاتجاه واسعًا.

لم يكترث جيل الرسامين «الهامشيين» هؤلاء بـ«الجمال» فى رسومهم، ولا بالأسلوب، لكنهم اهتموا بالأفكار والمواقف والدور الوظيفى للرسم كناقل للدعوة والتحريض والحقائق. وقد شكل هذا الاهتمام نائقة جديدة فرضت نفسها بقوة، وحفرت لنفسها مجرى عميقًا فى فن الجرافيك الأمريكى الحديث.

ويندهش القارئ/ المتفرج من قدرة «زاكو» المذهلة على نقل تفاصيل دقيقة بيسر بالغ: فنرى فى رسومه الآثار الباهتة لإطارات السيارات على

الأرض الموحلة، ومشاهد لسيارة تتخبط في ظلمة الليل وسط جو عاصف وعلى أرض موحلة غير مستوية (كل هذا في عتمة السواد!)، كما نرى ريحًا سفوفًا خفيفة تقطع الطريق على السيارات حاملة الرمال من جانب من الطريق إلى آخر. ناهيك عن الدقة والدأب والتوفيق والحساسية الفائقة في رسومه لملامح المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية والمناظر فيما بينها، وفي توثيقه لملابس الجنود ومعداتهم وطرز ناقلاتهم، والبيوت الملفقة في المخيمات والتي بنيت بلا أسقف ثابتة. أما الذي يكاد يكون معجزًا، فهو رسمه للشخصيات الفلسطينية التي تناولها - بلا تكلف وبحميمية - وانشغل بتقديم تنوعها الجسدي والروحي، وكذا تعدد وتنوع ملابس تلك الشخصيات من جميع الأنماط الاجتماعية والأعمار والمناطق، في واقعية حارة، وفي حلول تيبوغرافية نادرة التوفيق والجرأة.

وبتأمل رسوم الكتاب، يتأكد القارئ/ المتفرج أن الصور الفوتوغرافية، التي تلتقطها كاميرا «زاكو» في مواقع زياراته، لا يمكنها أن تلبي الرسام في حالات كثيرة، مثل: سعيه إلى توثيق الماضي من خلال الأحداث التي يرويها له شهودها من الشيوخ والعجائز. كما لا يمكن أن تفيده الصور في الحركة الحية العنيفة للأشخاص في كثير من المشاهد، ولا في تكرار ظهور الشخصيات في لقطات كثيرة مختلفة ومن زوايا ومناظير متنوعة. مما يؤكد تملكه لخيال خصب، ودأب حرفي، ومهارات واسعة وتواضع محمود.

يقدم «زاكو» كتبه على أنها «تحقيقات صحفية»، وهي - في جانب منها بالفعل كذلك، وتوضح بجلاء أن مبدعها صحفي استطلاع بامتياز. وقد كانت دراسة «زاكو» الجامعية في الصحافة وليست في الفنون الجميلة أو الرسم. ولن ندخر - هنا أيضًا - فرصة التعبير عن غبطتنا له على عدم انتظامه في دراسة أكاديمية للفن، ولعله بذلك أفلت من التشويه الذي تلحقه مثل تلك الدراسة برسام يشغله هذا النوع من الأعمال الجماهيرية.

***

وفي كتابه عن غزة، يفتتح الصحفي / الرسام كتابه - بعد وصوله إلى قطاع غزة عن طريق القاهرة - بلوحات بانورامية، كل منها صفحة مزدوجة تروي بؤس الأحوال في مخيم النصيرات بقطاع غزة، حيث الفقر وتشوه الأحياء وعشوائيتها، والوحل، وفيضان مياه الصرف الصحي في الشوارع، والماعز التي ترعى القمامة.

ينزل «زاكو» ضيفًا على «عمار» اللاجئ المتعطل ساكن المخيم، ويشاركه طعامه ومسكنه. وبعد يومين يتحدثان وهما يتمشيان، ويحكي له «عمار» عن حلمه بالعثور على عمل، ليستطيع ترميم بيته، وتبليط أرض غرفه، كما يحلم «باستكمال» مرحاض حقيقي. يتبنى «زاكو» على حلم المرحاض، الذي استعمله في الليلة الماضية، ووجد أن أشياء كثيرة تنقصه، وأولها: الجدران.

ورغم الضائقة التي يعيشها «عمار»، إلا أنه يودّع ضيفه الأمريكي في موقف سيارات السيرفيس عند سفره لمدينة غزة، ويصرّ المضيف على أن يدفع أجر الرحلة مقدمًا للسائق السيرفيس.

ويعج الكتاب - مثل توأمه - بمشاهد ووقائع ضرب الأطفال رماة الحجارة بالرصاص الحي، وإغلاق الطرق والتفتيش المهين، واعتداء الجنود بالضرب على المصابين في المستشفيات.

وفي نهاية كتاب غزة، يتقابل الرسام / المحقق بالمصادفة مع سيدتين إسرائيليتين من تل أبيب في زيارة لمدينة القدس، ويتطوع ليكون دليلهما إلى القدس العربية التي يعرفها، ويشجعهما على التجول بين الفلسطينيين المقدسيين في السوق العربية ويهدئ من مخاوفهما منهم، ويثنيهما عن رفضهما دخول المدينة العربية. وتدعوه السيدتان لزيارتهما في تل أبيب وتناول الغداء معهما في أحد مطاعمها.

وفي المطعم المفتوح، يسرح «زاكو» بأفكاره، ويكتشف أن ما حكته السيدتان من تفاصيل حياتهما اليومية يماثل بالضبط السيدات اللاتي يعرفهن في أمريكا. ويتذكر أنهما قالتا له إن واحدة منهما جاءت من أوروبا الشرقية والأخرى من ألمانيا. وكأنه يقول لنفسه: وما الذي أتى بهما إلى هنا؟

ويتناول ثلاثتهم - خلال التجوال في القدس وفي تل أبيب وعلى مائدة الطعام - أمورًا شتى، لعله قصد بعرضها تقديم موقف المواطن الإسرائيلي العادي، ومدى نجاح الدولة الصهيونية في إلصاق موقف المواطن بموقفها بشكل عام. وإجمالاً تتبدى إنسانية الفلسطينيين و«عاديتهم» في مقابل تعقيدات الشخصية الإسرائيلية وضعف شعورها بالأمان مما يدفعها إلى العنف والقسوة.

وينهي «زاكو» كتابه «فلسطين: أمة محتلة» بصفحة طريفة تبدأ بصورة عريضة تجمعه وصديقه «سامح» في زيارة رجل أعمى من أهالي مخيم جباليا، حيث يجلس ثلاثتهم على أرض غرفته. ويعتذر لهم مضيفهم الأعمى عن عدم تمكنه من تقديم الإفطار لهما، ولا حتى الشاي، لأن أولى زوجتيه مريضة، بينما تزور الثانية أهلها. ويضاحكهم قائلاً: «يبدو أني مضطر للزواج من ثالثة!». ويرد «زاكو» النكتة سريعًا: «أظنك لو استطعت عقد هذا الزواج الجديد خلال ساعة، قد نحصل عندك على وجبة غداء!».

«هاق هاق هاق!».

الكتب الثلاثة مطبوعة باللون الأسود وحده، وبتقشف اقتصادي محمود ومقبول. وهذا يجعل التفكير في ترجمة كتب «زاكو» إلى العربية ونشرها أمرًا واجبًا. فهي - إلى جانب التشويق والطرافة فيها - حافلة بالمعلومات الواجب إيصالها إلى كل عربي: معلومات ضرورية تتجاوز بكثير ما نحصّله من مشاهدة الأخبار والتحقيقات عن فلسطين على شاشة التليفزيون (سواء أكانت عربية أم فضائية). إنها معلومات ستهز مشاعر كل عربي تصله، وتقربه من فلسطين الحقيقية اليومية الحية.

كان لابد أن نبدأ بفلسطيننا رغم أن الكتابين عنها ليسا الأحدث. والآن نعود إلى الكتاب الثالث: «غوراجدة - منطقة آمنة». رأى «زاكو» أن الإعلام الغربي لحرب البوسنة والهرسك (١٩٩٢ - ١٩٩٥)، لم يكن متوازنًا ولا حقيقيًا، لذا اختار «زاكو» مدينة «غوراجدة» التي يسكنها ٥٧٠٠٠ مواطن من البوشناق (أهل البوسنة) المسلمين، وهي مدينة ظلت محاصرة طوال الحرب - اختار أن يقدم بها نموذجًا للمذابح الجماعية التي حفلت بها تلك الحرب الوحشية.

وصل الصحفي / الرسام المدينة بعد أن دخلتها قوات الأمم المتحدة إثر اتفاقية دايتون. ويفاجأ عند وصوله باستقبال حكومي، وبضيافة في فندق فخم. كما يفاجأ بعشرات من الصحفيين التليفزيونيين يسددون ميكروفوناتهم وكاميراتهم - منذ اللحظة الأولى من وصولهم - إلى الأطفال والنساء. يقول «زاكو»:

[وجدت البلدة كلها «مببسبسة» (من «بي. بي. سي»)، و«مسننة» (من «سي. إن. إن»)، فآثرت الفرار!]. يفر رسامنا من فندق الضيافة ومن زملاء المهنة، و«يسرح» كعادته بين الناس، ليستطلع منهم، بالتفصيل وبحميمية، ما جرى لهم من مآس خلال ثلاث سنوات ونصف عاشوها تحت نيران الحرب وتهديد المذابح الجماعية.

يشارك أهل البلدة الجريحة احتفالاتهم المجنونة داخل البيوت والتي يحاولون بها نسيان الماضي البشع، ويتعرف في إحداها على صديقه (الذي سيلازمه طوال الكتاب) المدرس المدعو «الدين»، والذي سيدور به في أنحاء البلدة، ليطلعه على تفاصيلها وخفاياها وقاعها المستغلق، ولمقابلة أهلها الذين أغلق الرعب أفواههم.

حكوا له عن الماضي قبل اندلاع الحرب، وكيف شبوا أطفالاً يلعبون معًا ويصطادون السمك صحبة دون تمييز بين الصرب والكروات والبوشناق، ولم يكونوا قد خبروا بعد التعصب العرقي المجنون، الذي كان وراء ما رواه له أهل البلدة من فظائع الحرب ومجازر التطهير العرقي.

كالعادة، توغل «جو زاكو» في حياة الناس، وفي تنقلاته الحرة - كصحافي أجنبي - بين المناطق المختلفة، نقل الرسائل الشخصية من هنا وهناك، وقضى للناس حاجاتهم، واشترى لأهل «غوراجدة» سراويل الجينز من «سراييفو».

عاش معهم، ونام في بيوتهم، وأكل من صحونهم (كعادته في كل كتبه). وتعلم التدخين هناك لأول مرة، ودخن سجائرهم السيئة من ماركة «درينا» التي تُصنع في «سراييفو» عاصمة إقليم البوسنة. وينهي



[أعلى]

«جو زاكو» بين أطفال «غوراجدة» الذين يحاولون الاحتيال عليه، بصفته سائحًا أمريكانيًا !

[أسفل]

مشهد لإغلاق وسط مدينة «الخليل»، والعسكر الإسرائيليون يخلون السوق، ويمنعون المدنيين من عبور الطريق.



«زاكو» كتابه بفصل بعنوان «درينا»: السجائر، والنهر الذى سميت باسمه.

لعبت سجائر «درينا» - كما لعب النهر - دورًا مهمًا خلال الحرب، فقد كان الجنود الذين دافعوا عن «غوراجدة» - طوال الحرب العرقية - يتقاضون رواتبهم عددًا من علب السجائر من تلك الماركة بدلاً من النقود: ٣٠ علبة كل شهر. كذلك كان حال أساتذة الجامعة الذين كانوا يجلسون فى غرفهم بالكليات فى نهاية الشهر يحملون أكياسًا من البلاستيك مملوءة بمرتباتهم (علب سجائر «درينا»).

ويعرف «زاكو» أن نهر درينا كانت تطل عليه ثلاث مدن من إقليم شرق البوسنة، وبعد أن تم «تطهير» اثنتين منها كلية من البوشناق المسلمين، بقيت المدينة البوسنية الوحيدة على ضفاف النهر هى «غوراجدة». لذا يختتم الرسام كتابه بإطار معبا بفكاهة سوداء مريرة، رسم فيه نفسه يخاطب صديقه «الدين». قائلاً له:

«إذا فُقد إقليم شرق البوسنة - يومًا ما - مدينتكم «غوراجدة» ووقعت فى أيدى الصرب، لن تكون للإقليم أية إطلالة على نهر درينا. وفى تلك الحال سيكون عليكم أن تجدوا لسجائركم اسمًا آخر!».

هاق هاق هاق! - بايخة! فبعد قراءتنا وفرجتنا على كتبك الثلاثة، أصبحنا نعرف حيلك التى صارت مكشوفة، والتى تحاول بها إخفاء ميلك الإنسانى الطيب ناحية أصحاب الحق. صحّ؟

ماركات مُسجّلة!

«اللوجو» (بالجيم المصرية) هو الرمز (وأحيانًا المعنى)، وفى الاستعمال الدارج الحالى: هو العلامة التجارية المميزة، التى أصبحت إحدى سمات عالمنا واقتصادنا «الجديد» وزمننا الحاضر.

ومنذ عقدين، بدأ توحّش «اللوجو» (ولنتفق بدءًا من هذا السطر على تسميته بـ«الماركة»)، واستقوت «الماركة» على المستهلكين، وعملت -بلا كلل- على انكسارهم أمامها، حتى امتطت ظهورهم.

ولم تعد «الماركات» التجارية - فى كثير من السلع كالملابس والحقائب على سبيل المثال - تستحى وتختفى عن الأنظار فى ثنايا السلعة وأجزائها المستورة دون أن تفرض نفسها على الأبصار، ولم تعد تقنع بالتوارى الذكى والاكتفاء بالانكشاف لمن يبحث عنها. أصبحت «الماركة» التجارية الآن على ظهر القمصان من الخارج مكبرة فى مساحة الصحيفة، أو أصبحت تحتل كل صدارة قميص الـ«تى - شيرت» دون أن تدفع لمرتديها مقابلاً لهذا الاستخدام الدعائى. بل تجبر ذلك المستهلك على أن يدفع ثمنًا مرتفعًا للقميص الموسوم صاغرًا وقرير النفس. صار الفرد أضعف وأصغر من «الماركة»!

عندما قرأنا عنوان الكتاب «No Logo - لا

NO LOGO

للماركة!» فى بعض الإعلانات المختصرة عن الكتب، تسرعنا فى طلبه. وطاف بخيالنا تصور أنه كتاب عن الاتجاهات الجديدة فى تصميم العلامات البصرية المميزة، والتى ظهرت مؤخرًا ضد الاتجاه التقليدى فى تصميم تلك العلامات: الاتجاه الهندسى البارد القاسى عديم القلب (الذى يزهو أصحابه أحيانًا بـ«عدوانية» تصميماتهم!). ويصل الأمر بتلك الاتجاهات الجديدة التى بزغت منذ سنوات قليلة إلى المناداة بعدم توحيد العلامة البصرية المميزة والكف عن تثبيت تصميمها، بل تدعو إلى تنوعها واختلافها وتعدد هيئتها، وإلى إكسابها بعدًا فرديًا، شخصيًا وعاطفيًا.

عندما وصل الكتاب، إذا به ليس كما توقعناه على الإطلاق، بل كتاب «صعب» فى الاقتصاد والسياسة، وإذا هو مظاهرة سياسية ضد التوسع الرأسمالى العدوانى الجديد والعنيف والكاسح، الذى تنجزه ماركات تجارية عملاقة (تزداد كل يوم عملقة) لتغطى به سطح كوكبنا كله. لم يكن للكتاب أى علاقة بالتهيؤات المذكورة آنفًا!

كتبت الدارسة الكندية «ناعومى كلاين» (٣١ سنة) كتابها فى ٤٩٠ صفحة، لتعرى الرأسمالية الجديدة وتفضح توحشها، ولتكشف أنها رأسمالية خرجت عن كل المعايير والقيم، حتى المعايير الرأسمالية السابقة. وترى «كلاين» أن الرأسمالية الجديدة قد تخلت عن الصناعة، واستبدلتها بالتسويق والدعاية. فلم تعد تلك الرأسمالية تهتم بإنتاج السلع، بل بخلق «ماركات عالمية عملاقة»، وأصبحت تلقى باستثمارات هائلة فى حملات لعولمة هذه الماركات، وجعل كل منها «بديهة كونية» تقتحم حياة الناس، وتتحكم فيها.

وتحدد سلطة «الماركة» أسعارًا مبالغًا فيها للسلع التى تحمل تلك الماركات، بغض النظر عن القيمة الفعلية للسلعة، وعن تكلفة إنتاجها، وعن فائدتها الوظيفية. لذا لم يكن مستغربًا أن يتلازم هذا الاتجاه الرأسمالى الجديد مع نزع الأهمية عن أمكنة إنتاج السلع، بحيث لم تعد تلك الرأسمالية ترتبط بوطن، ولم تعد تشغلها نسبة البطالة فى أى وطن.

وتعدد المؤلفة «ماركات» مثل «نايك Nike»، و«بيبسى Pepsi»، و«ماكدونالدز Mcdonald's»، و«ليفيز Levi's»، وتحكى تفاصيل وقصصًا عن مقدار ما استثمرته كل منها فى الدعاية. وتخص ماركة «نايك» برصد مبالغ دفعتها لأبطال الرياضة والشخصيات العامة مقابل مشاركتهم فى حملاتها الإعلانية المباشرة وغير المباشرة، بحيث تحولت كلمة «Nike» إلى بديل لكلمة «الرياضة».

صدرت الطبعة الأولى من الكتاب فى كندا قبل الاجتماع الوزارى لمنظمة التجارة العالمية الذى انعقد فى مدينة «سياتل» الأمريكية عام ١٩٩٩، والذى أفشله تظاهر ١٠٠٠٠ شاب وشابة تدفقوا من الولايات المتحدة وخارجها لمعارضة ذلك الاجتماع. وبعد هذه المواجهة الناجحة، اكتسب كتاب «No Logo» أهمية فائقة، وأصبح مرجعًا سياسيًا وفصلا مهمًا من الأدبيات السياسية للموجة اليسارية الجديدة التى نشأت مؤخرًا فى مواجهة «العولمة» والليبرالية الجديدة، والتى ترفض أن يتحول البشر من «مواطنين» إلى مجرد «مستهلكين».

وازدادت أهمية الكتاب بعد قمة «كوبيك» (مدينة الكاتبة)، والتى ارتفع عدد من تظاهروا فى مواجهتها إلى ٢٥٠٠٠ شاب وشابة. وبازدياد الضجيج المثار حول الكتاب، تحول إلى حركة سياسة نشطة متزايدة الأعضاء، لم تعد مقصورة على كندا والولايات المتحدة وحدهما، بل سرعان ما عبرت (تلك الحركة) المحيط الأطلسى إلى القارة الأوروبية التى صدرت فيها طبعة خاصة للكتاب باللغة الإنجليزية فى العام الماضى ٢٠٠٠.

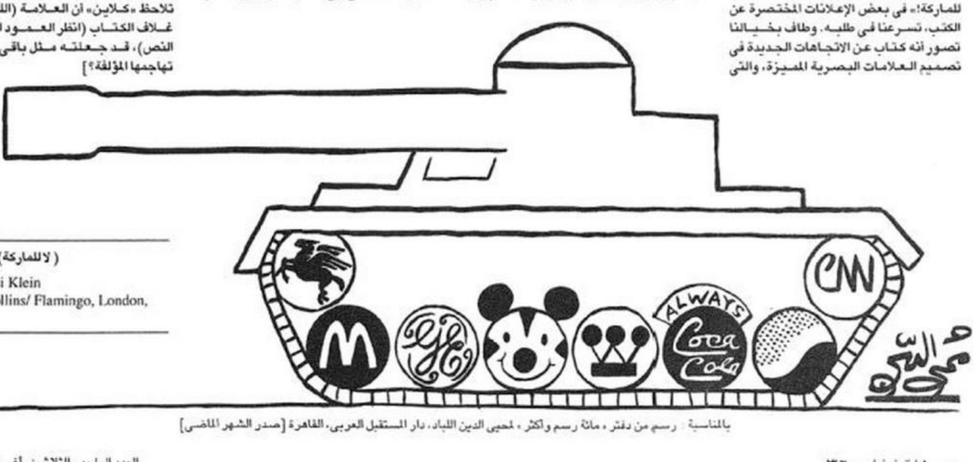
وأنشئ موقع على الإنترنت لهذا الكتاب الذى تحول إلى حركة (www.nologo.org). وينشر الموقع المقالات التى نشرت فى الصحافة والتى تتعرض للكتاب بالعرض والتقييم والنقد، وفيه أيضًا أخبار «الحركة» وأخبار القمع الحكومى والبوليسى المضاد. كما ينشر الموقع الأخبار الاقتصادية والحكايات التى تؤكد صدقية ما جاء بالكتاب، تكتب المؤلفة تعليقات شبه يومية، كما يكتب قراء الكتاب، والمتعاطفون مع أفكاره تعليقات أخرى.

فى الموقع أيضًا بيانات يمكن لمن يدخله أن يضيف توقيعه إلى التوقيعات على البيان الذى يتفق مع آرائه. وهناك أيضًا صفحة لرسائل الأفراد تنشر ما يرد إليها من الرسائل.

وعلى تلك الصفحة نجد رسالة من قارئ يلفت نظر مؤلفة الكتاب إلى أن كتابها ذاته أصبح سلعة تجارية تباع بثمن يزيد كثيرًا على تكلفة إنتاجها. وتوجه قارئة أخرى سؤالاً إلى المؤلفة: كم قبضت من ناشرى كتابك؟ ولماذا لم تنشرى نص الكتاب على الإنترنت وتجعليه متاحًا لعدد أكبر من الناس يقرءونه بلا مقابل بدلاً من صياحك المتكرر: اشتروا الكتاب! اشتروا الكتاب!

ويسجل عليها قارئ آخر مطبًا وقعت فيه الكاتبة حين استعملت كلمة «زيروكس» كفعل بمعنى عملية نسخ النصوص!

أما القارئ الذى لم يوقع رسالته باسمه، وأسمى نفسه «لا أحد no body» فيكتب: [أليست مفارقة جديرة بالتسجيل أن يسوّق كتاب «No Logo» مغلفًا بالبلاستيك وبحملة إعلانية واسعة ككل السلع. والأنكى من هذا: ألا تلاحظ «كلاين» أن العلامة (اللوجو) على غلاف الكتاب (انظر العمود الأول من هذا النص)، قد جعلته مثل باقى السلع التى تهاجمها المؤلفة؟]



بالمناسبة: رسم من دفتر «مائة رسم وأكثر» لمحيى الدين اللباد، دار المستقبل العربى، القاهرة [صدر الشهر الماضى]

No Logo (لا للماركة)

By: Naomi Klein
Harper Collins/ Flamingo, London, 2000.

فلاسفة علماء .. أم

فض الاشتباك بين العلم والفلسفة

■■ من رحم الفلسفة، نشأت العلوم كلها، سواء كانت العلمية منها أو الإنسانية، ومنذ القدم كان هناك المفكر الموسوعي الذي يشتغل بالفلسفة والعلم معًا مثل أرسطو عند الإغريق وابن سينا عند العرب. وكان يطلق على العلوم الطبيعية اسم الفلسفة الطبيعية. إلا أن العلوم نمت على مر الزمن لتنظلم وتنفصم عن الفلسفة. وابتداء من القرن السادس عشر أخذ العلم بالمعنى الحديث «Science» والذي يختلف عن العلم أو «المعرفة» بالمعنى القديم، يستقل تدريجيًا عن الفلسفة. فانفصلت أولاً العلوم العملية كالفيزياء والفلك والكيمياء والبيولوجيا. وتلى ذلك انفصال العلوم الإنسانية أيضًا كالتاريخ والاجتماع وعلم النفس. بل وصل الأمر في منتصف القرن العشرين إلى أن نادت بعض المذاهب الفلسفية بنهاية الميتافيزيقا والتأملات الغيبية. وأن أهم دور للفلسفة هو خدمة العلم بتدقيق اللغة وألفاظها لتعبر بدقة عن العلوم. وما لبث أن حدث بعدها رد فعل عنيف لهذه النظرة. وعاد الفلاسفة إلى النظر فيما وراء العلم وما وراء الطبيعة. كما حاولوا تحليل المنهج العلمي منطقيًا واستخدامه في الإجابة عن أسئلة فلسفية. بل ظهر أيضًا علماء كثيرون يتفلسفون علميًا ويتخذون من المنهج والمنطق العلمي أساسًا لنظرتهم إلى الكون ووجوده وما وراءه. والحقيقة أننا نمر حاليًا بمرحلة فيها تداخل كثير بين الفيزياء أو الفيزيقا وبين الميتافيزيقا. وهناك أسئلة كانت تُعد منذ زمن قليل أسئلة ميتافيزيقية لا يسألها إلا الفلاسفة، لكنها الآن تدخل في الأبحاث والمناقشات العلمية البحتة، كالسؤال عن أصل الكون وكيف بدأ وما مصيره وما هو الزمان وغير ذلك. على أن هناك أيضًا من العلماء من يستنكرون تفاقم التداخل بين الفيزيقا والميتافيزيقا. وكما يقول جلاشو الفيزيائي الحاصل على جائزة نوبل: «لدينا الآن الكثير من النظريات الغامضة في الفيزياء تماثل لاهوت القرون الوسطى المظلمة، وسيؤدي هذا إلى أن تحل مكان العلم عقائد متجمدة»!

فلسفة العلم في القرن العشرين

د. يمنى طريف الخولي

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٠

هذا بعض من خواطر يثيرها ذكر العلاقة بين الفلسفة والعلم. على أن الدكتورة يمنى الخولي تتناول هذه العلاقة تفصيليًا في كتابها «فلسفة العلم في القرن العشرين»، وهو كتاب غزير في مادته ولا يمكن تلخيص كل ما ورد فيه، وربما تمكنّا من عرض ما نعتقد أنه أهم ملامحه. تعرض الدكتورة يمنى في كتابها تاريخًا موجزًا للفلسفة العلمية في العصور المختلفة تمهيدًا للوصول إلى القرن العشرين. وهي تتبع في ذلك نسقًا منهجيًا صارمًا تعلن عنه من السطور الأولى في كتابها وتكرره بعدها أكثر من مرة، وهو أنه لا فلسفة للعلم دون ذكر تاريخ وقائعه المهمة وتاريخها في سياقها. كما أنه لا تاريخ للعلم بدون فلسفة تضع العلم في إطار تطوره وتقدمه المستمر في تفاعل مع الهيكل الحضاري والاجتماعي. هكذا يبحث الكتاب تاريخ المفاهيم والمناهج العلمية المختلفة والمتضاربة على مر العصور. وتبدأ باستنباط أرسطو ومنطقه الذي ساد العلوم كلها لألفي عام. وأرجو ألا يجفل القارئ من ألفاظ كالاستنباط والقياس. فكلنا قد مارسنا ذلك في المدرسة الثانوية في صورة نظريات وتمارين الهندسة الإقليدية عن الخط المستقيم والمثلثات والزوايا.. إلخ. فالاستنباط إذن هو الانتقال بالتفكير من قضية أو عدة قضايا هي المقدمات للوصول إلى قضية أخرى هي النتيجة.

وعمومًا فإن أساس الاستنباط والقياس الأرسطي هو الانتقال من الكلي إلى الجزئي، وقد أسهم في سيطرة الاستنباط الأرسطي على فلسفة العلم لزمن طويل أنه أصبح على يد الراهب توما الإكويني من أهم أسس اللاهوت المسيحي، حيث نجح توما في أن يحل عن طريقه الكثير من المشكلات اللاهوتية. وصار كل من يخرج على فلسفة ومقولات أرسطو خارجًا على الدين نفسه، الأمر الذي اتُّهم به جاليليو عندما قال أن الشمس هي مركز الكون وليست الأرض، في حين كان أرسطو يؤكد أن الشمس هي التي تدور حول الأرض مركز الكون. على أن طول هيمنة الاستنباط الأرسطي على العلم لا تنفي وجود إرهاصات لمنهج علمي آخر مضاد له هو المنهج التجريبي الاستقرائي. ومرة أخرى فقد مارسنا كلنا هذا المنهج في المدرسة الثانوية، فهو منهج ما أجريناه من تجارب علمية عن تمدد المعادن مثلاً وتجربة المنشور الثلاثي وانكسار الضوء. وكنا نسجل في كراساتنا العملية جدولاً للتجربة ثم الملاحظة وأخيرًا نصل إلى استقراء النتيجة. وقد ظهرت إرهاصات لهذا المنهج التجريبي الاستقرائي في تجارب مثل تجربة أرشميدس المشهورة عن قاعدة الطفو، وظهرت على نحو أكبر في تجارب بعض العلماء العرب مثل جابر بن حيان أبو علم الكيمياء. ولم تتحدث الدكتورة يمنى عن فلسفة العلم عند العرب وعند قدماء المصريين إلا حديثًا موجزًا لا يشفي غليلاً ويغلب عليه بعض نزعة قومية على غير منهج الكتاب عمومًا. ولعل سبب ذلك أن معظم مراجع الفلسفة العلمية هي أساسًا مراجع غربية ترى أن كل شأن حضاري يبدأ بالإغريق وتهمل ما قبلهم وما بعدهم لتقفز إلى النهضة الأوروبية.

هكذا سيطر القياس الأرسطي لألفي عام، حتى بدأت الثورة العلمية بالمعنى الحديث للعلم، ثورة تلتزم بالمنهج التجريبي الاستقرائي وهو منهج على عكس استنباط أرسطو، يبدأ من الجزئيات ليصل إلى الكليات، فإذا كان الحديد يتمدد بالحرارة وكذلك النحاس والرصاص و....إلخ، إذن فالمعادن كلها أو الفلزات تتمدد بالحرارة. وهذه الثورة الاستقرائية لم تطح بالمنهج الأرسطي بين يوم وليلة، وإنما تم ذلك تدريجيًا في دفعات متتالية على أيدي العديد من العلماء والفلاسفة، كان كل منهم علامة طريق. وبدأ تنظير هذه الثورة على يد فرانسيس بيكون (١٥٦١ ـ ١٦٢٦)، كما ساهم في الثورة على النظرة الأرسطية الاستاتيكية للكون علماء مثل كوبرنيكوس وجاليليو، حتى كانت قمة ثورة الاستقراء التجريبي بأبحاث نيوتن (١٦٤٢ ـ ١٧٢٧) وبما نتج عنها من قوانينه عن الجاذبية والحركة. وقد أودعها نيوتن في كتابه «الأسس الرياضية للفلسفة الطبيعية» أي للعلوم الطبيعية بلغة ذلك القرن. ويعد هذا الكتاب بمثابة إعلان لانفصال العلوم الطبيعية عن الفلسفة حيث يضع نيوتن في الكتاب هيكلاً متكاملاً للفيزياء الكلاسيكية ومنهج العلم الحديث في القرن السابع عشر. وأصبحت ميكانيكا نيوتن وحتميتها العلمية تسود الأبحاث والأجواء العلمية حتى القرن التاسع عشر. وأصبح العلم هو اليقين الجديد، حيث الكون معتم بالكامل والعلم لديه القدرة على التنبؤ بما سيحدث في المستقبل وبما حدث في الماضي القريب والبعيد (في الجيولوجيا مثلاً) وذلك من خلال ما يحدث حاليًا.

إلا أنه مع أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ظهرت أزمة حقيقية في علم الفيزياء، وهو علم في الأساس من العلوم العملية الأخرى. وسبب هذه الأزمة هو أن ميكانيكا نيوتن على الرغم من نجاحها هي ونسبية أينشتين بعدها في تفسير سلوك



علماء متفلسفون؟

مصطفى إبراهيم فهمي

الأجرام الكبيرة كالمجرات والنجوم والكواكب، إلا أنها فشلت تمامًا فى أن تفسر وتتنبأ بسلوك الجسيمات تحت الذرية الدقيقة الصغر كالالكترونات مثلاً. وتطلب الأمر ظهور نظرية جديدة للوصول إلى هذا الهدف وهى ميكانيكا الكم، التى ظهرت على أيدى عدة علماء، كان أولهم ماكس بلانك (١٨٥٨ ـ ١٩٤٧) حيث بيَّن بلانك فى أواخر عام ١٩٠٠ أن الضوء يُبث فى كمّات وليس متدفقًا. ثم تلى ذلك فى ١٩٢٦ أن أسهم هانزنبر (١٩١١ ـ ١٩٧٦) فى النظرية الكمية بطرحه لمبدأ عدم اليقين الذى يوضح أن العلم لا يتنبأ بنتيجة واحدة محددة لسلوك الجسيمات تحت الذرية. فإذا تحدد مكان الجسيم مثلاً بدقة لا يمكن تحديد سرعة حركته بنفس الدقة، وإنما يمكن التنبؤ بعدة نتائج لسرعة الحركة لكل منها درجة من الاحتمال. هكذا كانت ميكانيكا الكم ثورة حقيقية ضد الحتمية العلمية المطلقة، وحلت الكثير من المشاكل فى فيزياء الإشعاع والجسيمات وهى فى الأساس من الإنجازات الإلكترونية.

وترى الدكتورة يمنى أن نسبية أينشتين وميكانيكا الكم تعدان من أهم النظريات العلمية فى القرن العشرين وأنهما أساس ثورة هذا القرن الفيزيائية، وهذا حقيقى بصورة عامة. إلا أن بعض العلماء مثل هوكينج البريطانى يرون أن نسبية أينشتين مع كل ما فيها من أفكار جديدة قضت على فكرة الزمان المطلق وأدخلت بُعد الزمان كبُعد رابع لكون الزمان الذى يؤثر ويتأثر بالأحداث وليس مجرد مسرح لها، هذه النسبية مع كل إنجازاتها، إلا أن هوكينج يرى أنها مازالت تصنَّف كنظرية فيزيائية كلاسيكية فيها الكثير من حتمية نيوتن. وأينشتين نفسه كان معارضًا لمبدأ اللايقين فى ميكانيكا الكم وقال عنه قولته المشهورة: «إن الله لا يلعب النرد بالكون». أما النظرية الخالصة فى ثوريتها فهى ميكانيكا الكم وحدها حيث أنزلت ضربة قاصمة بالحتمية الميكانيكية ووضعت مكانها احتمالات إحصائية تسمى أحيانًا الحتمية الإحصائية.

وقد واكبت ثورة ميكانيكا الكم تغيرات موازية فى فلسفة العلم. فزاد دور المنطق عامة والمنطق الرياضى خاصة فى تحليل الفلسفة واللغة، وظهرت فئة الفيلسوف المنطقى ومن أبرز أفرادها برتراند راسل (١٨٧٢ ـ ١٩٧٠)، وتبعه تلميذه النمساوى فتجنشتين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١) الذى أكد أن نشاط الفلسفة يجب أن يقتصر على توضيح الأفكار بالتحليل المنطقى للغة، وبهذا فإنها تخدم الموضوع فى العلم. وكل ما لا يطابق الواقع التجريبى يعد لغوًا، ومن هنا فإن الميتافيزيقا لغو فى معظمها، فهى تتناول ما لا يمكن إخضاعه للتجربة والحس، ويسمى هذا المذهب الوضعية المنطقية أو التجريبية المنطقية. فهى وضعية بمعنى أنها ترفض ما يتجاوز العالم التجريبى وتتبع المنهج الاستقرائى الذى يميز العلم عن أى نشاط آخر. ثم هى منطقية من حيث إنها تمنطق النزعة الاستقرائية وتستخدم المنطق الرياضى لتحليل المفاهيم العلمية ولبناء لغة العلم. وبهذا فإن المنطق الرياضى ليس عصبًا للفلسفة فحسب بل هو هيكلها بأسره.

وقد بدأت الوضعية المنطقية فى فيينا، ثم انتقلت إلى انجلترا مع ظهور النازية، ونقلها إلى مصر وحمل لواءها فيها د. زكى نجيب محمود، وكانت له معارك مع علماء وفلاسفة فى دفاعه عنها. وتهاجم د. يمنى الوضعية المنطقية هجومًا عنيفًا لتطرفها التجريبى المنطقى ولها كل الحق فى ذلك. لكنها تذكر من أسباب نقدها لها أنها تحاول القضاء على الميتافيزيقا الابنة المدللة للفلسفة! على أن هذا ليس بسبب مهم لنقد الوضعية المنطقية، فهناك الكثير من الفلاسفة والعلماء يرون أن الميتافيزيقا ابنة فاسدة مخربة للفلسفة تجللها بعار الخرافة!

كما سبق القول كان أهم تجمع للوضعية المنطقية هو جماعة فيينا (١٩٢٢ ـ ١٩٣٨) وكان الكثير من أفرادها يعملون أصلاً كعلماء فيزياء أو رياضة ثم استغرقتهم الفلسفة أيضًا، ومن هؤلاء شليك (١٨٨٢ ـ ١٩٣٦) عالم الطبيعة الذى أخذ بتجريبية ماخ الحادة. وكان ماخ (١٨٣٨ ـ ١٩١٦) من رواد الوضعية المنطقية، لكنه تطرف فيها حتى أصبح يرى أن القوانين العلمية هى فحسب أحسن وصف ممكن للعالم التجريبى وليست تفسيرًا له، فالقوانين والنظريات العلمية مجرد «أدوات» للربط بين الظواهر والسيطرة عليها، ومن هنا سمى هذا الاتجاه «الأداتية»، والقانون العلمى يوصف بالصلاحية أو عدم الصلاحية حسب قدرته على أداء الوظيفة العلمية وبالتالى فهو ليس تقييمًا استقرائيًا. هكذا أطيح بالاستقراء وأصبحت معايير الملاءمة منطقية منهجية وليست تجريبية. وأهم هذه المعايير البساطة، بمعنى وجود أقل عدد ممكن من المفاهيم والعلاقات الأساسية وتبلور اتجاه الأداتية فى الفلسفة البراجماتية فى أمريكا (بيرس وليم جيمس وديوى) حيث لا توصف الفكرة بأنها صادقة أو كاذبة، وإنما هى مفيدة أو غير مفيدة. ظلت الوضعية المنطقية والأداتية هما الاتجاهان السائدان حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين. وهذان الاتجاهان فيهما بشكل عام محاولة لتبرير المعرفة العلمية وإيجاد مبررات لمصداقيتها ونجاحها فى مهمتها. وهكذا تصل بنا د. يمنى إلى نهاية الفصل الخامس فى كتابها، وعنوان هذا الفصل هو «التجريبية أصبحت منطقية»، وهذا الفصل بالذات يتطلبَ فيما نعتقد جهدًا كبيرًا فى قراءته، ولعله كان يتطلب تبسيطًا أكثر، أو لعل القراء لا يمارسون كثيرًا قراءات من هذا النوع مما يجعلنا فى حاجة إلى مران أكثر.

ثم يدخل بنا الكتاب فى فصليه الأخيرين إلى النصف الثانى من القرن العشرين حيث يبلغ ذروته إبداعًا وإمتاعًا، ويبدأ النصف الأخير من القرن بظهور الفلسفة العلمية لكارل بوبر (١٩٠٢ ـ ١٩٩٤) التى تنتقل بفلسفة العلم من منطق التبرير إلى منطق الكشف العلمى، ومعالجة هذا الكشف على أساس قابليته للاختبار التجريبى والتكذيب أو التفنيد، ليفسح مكانه لكشف أفضل وأكفأ. والعلم هكذا بناء، طبيعته الصيرورة والتقدم الدائم، وليس مجرد لبنات كشوف جديدة تضاف للبناء، وقدم بوبر صياغة دقيقة لمنطق الكشف العلمى تعتمد أكبر اعتماد على المنطق الرياضى. كما دافع عن الميتافيزيقا لأنها فى نظره مهمة لتقدم العلم بإلهامه بالفروض الخصبة. وأكد أن الاستقراء خرافة. وأن العلماء لا يبدأون بالملاحظة الخالصة وإنما يبدأون أولاً بالفرض الاستنباطى، والوقائع التجريبية لا تبرر الدعوى بصدق النظرية ولكنها تبرر الدعوى بكذبها. ومثال ذلك قضية أن كل البجع أبيض، فهذه لن يثبت صدقها وجود ملايين البجعات البيضاء. لأن وجود بجعة واحدة غير بيضاء كاف لإثبات كذب القضية. والعلماء يتمسكون بالفروض التى لم يتم تفنيدها بعد بوضعها حدًا للتقدم العلمى حتى اللحظة الراهنة. فإذا ظهر ما يفندها حاولوا الوصول إلى فروض أفضل يسلمون بها مؤقتًا، وهلم جرا، بحيث إن العلم لا يتوقف أبدًا ويواصل تقدمه باستمرار





والكشف العلمي ليس عملية آلية بل عملية خلق وإبداع أشبه بما يحدث في الإبداع الفني. وهذه نظرة فلسفية مازال لها وجود مؤثر إلى الآن.

أدى مذهب بوبر إلى أن أصبحت فلسفة العلم في جوهرها فلسفة التقدم، وأصبحت التقدمية لا العقلانية هي صلب العلم. وظهرت الحاجة في أواخر القرن العشرين إلى تحديد مفهوم جديد معاصر للعقلانية العلمية. وانصرفت جهود فلاسفة مثل فيرابند ولودان إلى تحديد هذا المفهوم، وحسب هذه النظرة فإن النظرية الجديدة تكون أكثر تقدمًا عندما تكون أكفأ في حل المشاكل وليس عندما تكون أقرب إلى الصدق أو أكثر قابلية للتكذيب كما يقول بوبر. وعادت إلى الظهور من جديد جدلية هيجل وماركس، حيث يحدث تراكم كمي تدريجي لا يلبث أن يؤدي إلى قفزة كيفية أو ثورية تصبح نقطة بدء لتراكم جديد، وهلم جرا، ويعد بشلار (١٨٨٤ - ١٩٦٢) أشد فلاسفة العلم حرصًا على إبراز الطابع الثوري الجدلي للتقدم العلمي. وهذا التقدم ليس مجرد استمرار تراكمي لمسار الماضي، وإنما ينتهي إلى شق طريق جديد تمامًا، أي «قطيعة معرفية». واستخدم فوكيه (١٩٠٩ - ١٩٨٤) فكرة القطيعة المعرفية للفصل بين الحقب المعرفية، كما استخدمها التوسير في محاولة لتجديد صياغة الماركسية. وأصبح مفهوم القطيعة المعرفية كما تقول د. يمنى «موضة» في مجال العلم والفن.

كان ما يغلب على معظم هؤلاء المفكرين انهم يتناولون العلم كما هو موجود عليه حاليًا بغض النظر عن تاريخه، أي أن فلسفتهم العلمية كانت غير تاريخية. وما لبث توماس كون (١٩٢٢-١٩٩٦) أن التقط مفهوم الثورة الذي بدأ به بوبر، ليقيم فلسفة تاريخية للعلم على أساس هذه الثورة. وهكذا بدأ «كون» مرحلة فلسفة العلم التاريخية، وأدخل فيها الوعي التاريخي، لأنه لا يمكن إدراك فلسفة العلم إلا من سجلات تاريخية، وتاريخ العلم سلسلة متعاقبة من النماذج الأساسية أو الإرشادية (البارادايم) كما شرح في كتابه المهم «بنية الثورات العلمية»، وقد ترجمه للعربية الأستاذ شوقي جلال. وعندما يجري البحث العلمي في إطار النموذج الأساسي فإنه ينتج علمًا عاديًا تراكميًا. ثم لا يلبث النموذج الأساسي أن يعجز عن التنبؤ بظواهر جديدة أو تفسيرها، فيظهر علم ثوري ينتقل من النموذج الأساسي القديم إلى آخر جديد. والنموذج الأساسي يمثل المجتمع العلمي أيديولوجيًا ويتأثر بالعوامل الاجتماعية والنفسية والظواهر الحضارية الأخرى. وتتالى هذه النماذج يمثل الحقب التاريخية مثلما تمثلها الأنشطة الإنسانية الأخرى من أدب وفن وسياسة.

ثم يأتي إمري لاكاتوش المجري (١٩٢٢ - ١٩٧٤) الذي وصل بفلسفة العلم التاريخية إلى أوجها. وهو يرى أن تاريخ العلم يتم رسمه عبر انتقالات متوالية من برنامج أصابه التدهور إلى آخر واعد أكثر تقدمية. ويختلف لاكاتوش مع بوبر عندما يقول الأخير أن واقعة تجريبية واحدة نافية تكذب إحدى النظريات على نحو منفرد مستقل، فيتم رفضها فيرى لاكاتوش أنه ليست هناك تجربة تكون حاسمة بصورة قاطعة، فهذا تبسيط مخل بواقع العلم. فالنظريات العلمية العظيمة لا تكون في شكل نظريات منفردة، وإنما هي برنامج متكامل للبحث والتقدم العلمي لا يتأتى من نظرية معينة، وإنما يتأتى كما سبق القول بالانتقال من برنامج بحث أصبح متدهورًا إلى آخر تقدمي واعد. وإذا كان «كون» يركز على دور تاريخ العلم في فلسفته، فإن لاكاتوش يضيف إلى ذلك الاهتمام بدور فلسفة العلم في تاريخه، أي أنه يهتم بالعلاقة التبادلية بين الطرفين.

ظهر بعد ذلك فلاسفة علميون عديدون استوعبوا الاتجاه التاريخي، ومن أبرزهم فيرابند (١٩٢٤ - ١٩٩٤). وفي رأيه أنه لا معنى للملاحظات في حد ذاتها، كما أنه لا

معنى للفرض فى حد ذاته، وإنما هما كل متكامل أو كيان واحد. وإذا كانت فلسفة العلم قد سادتها أولاً نظرية الاستقراء الذى يبدأ بالملاحظة، ثم سادها بعد ذلك اتجاه مناقض يبدأ بالفرض، فإننا مع نهايات القرن العشرين نجد أن نظرية المنهج العلمى تتخذ صورة المركب الجدلى حيث الفرض والملاحظة يتكاملان معًا. كما يؤكد فيرابند أن العلم لم يكن أبدًا أسير منهج واحد محدد، بل إن له مناهج عديدة بين استنباط واستقراء وتنظير وتجريب وحدس، وكل هذه المناهج مقبولة مادامت تلائم طبيعة المشكلة العلمية المطروحة وتؤدى إلى حلها.

هذا عرض لبعض مما فى كتاب د. يمنى الخولى، والكتاب عمل ضخم فى حجمه وقيمته بما لا يمكن تلخيصه تلخيصًا جديرًا به. ولاريب أن المؤلفة بذلت فيه جهدًا خارقًا بما ضمنته فيه من مادة غزيرة منسقة، الأمر الذى يجعل للدكتورة يمنى مكانتها «المكينة» بين كبار مؤلفينا فى الفلسفة بوجه عام والفلسفة العلمية بوجه خاص، والمؤلفة لا تكتفى فى كتابها بمجرد العرض، وإنما هى أيضًا تنقد وتؤيد وتفند حسب ما تعتنقه من فلسفة علمية. وبقدر ما يكون عمل كهذا كبيرًا خلاقًا، فإنه يكون فى نفس الوقت عملاً يثور حوله الاختلاف. وقد أثار هذا العمل بالفعل أوجه اختلاف سواء بين الفلاسفة أو العلماء.

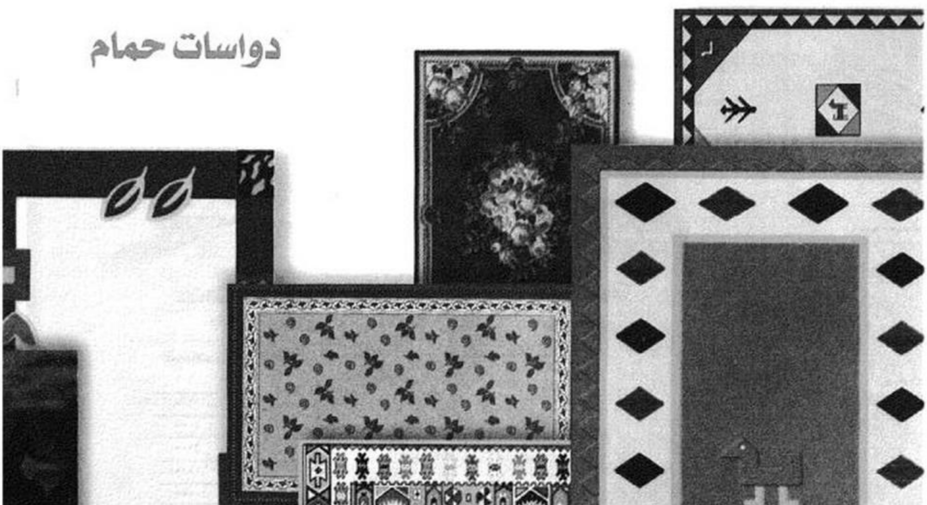
وقد ورد فيما سبق من هذا العرض بعض أوجه الاختلاف الفلسفية، على أن هناك أيضًا سؤالاً قد يلح على أى قارئ عند الانتهاء من هذا الكتاب الرائع: ترى هل يفكر العلماء حقًا حسب هذه المناهج؟ أذكر أنه حينما كان الدكتور زكى نجيب محمود يعمل على نشر الوضعية المنطقية فى مصر، أن رد عليه د. عثمان أمين معارضًا واستشهد فى ذلك بكتابات لعلماء غربيين يستنكرون تمامًا أنهم يفكرون فى أبحاثهم العلمية على النحو الذى تسوقه الوضعية المنطقية، على أن د. فؤاد زكريا يستهل كتابه «التفكير العلمى» بقوله إن التفكير العلمى ليس هو تفكير العلماء بالضرورة، فالتفكير العلمى ليس ما ينصب على مشكلة تخصصية معينة مما يدرسه العلماء المتخصصون. وإنما هو ما نستخلصه ويتبقى فى أذهاننا من حصيلة العمل الشاق الذى قام به العلماء، وذلك حتى نستخدمه فى حياتنا اليومية كطريقة معينة للنظر فى الأمور ومعالجة المشكلات بما يحرر الإنسان من مخلفات عصور الجهل والخرافة. وهذا فيما نعتقد يجعل فلسفة العلم مدخلاً مهمًا لنشر الثقافة العلمية والتفكير العلمى بين الجماهير.

وقد يرى بعض أهل العلم أن هناك بعض هنات غير مقصودة فى الكتاب، مثلما ورد فى ص ١١٤ عن مادة الكون المظلمة، وهى مادة كما يدل اسمها لا تُرى، وتُعرف فحسب بتأثير جاذبيتها، كما أنها المادة الغالبة على الكون حيث تشكل ٩٠-٩٩٪ منه، أما ما نراه من مادة مضيئة من مجرات ونجوم وكواكب فلا تشكل إلا ١ - ١٠٪ من الكون. وقد عرف الكتاب المادة المظلمة بأنها تمارس جذبًا هائلاً يشد حتى الضوء فلا يصدر عنها، والحقيقة أن هذا تعريف للثقوب السوداء التى تنجم عن تقلص النجوم أو المجرات على نفسها. والمادة المظلمة قد تكون أو لا تكون فى جزء منها ثقوبًا سوداء. وهناك نظريات كثيرة عن تعريف المادة المظلمة تبعد بها تمامًا عن أن تكون ثقوبًا سوداء. ثم هناك فى ص ٣٦٥ تفسير للداروينية يرد فيه أن عملية الانتخاب الطبيعى تعنى أن الأنواع الأقوى القادرة على الفتك بمنافسيها هى التى تبقى وتحكم بالفناء على الأضعف، وهذا تفسير استغله دعاة اليمين الرجعى والاستعمار فى سياساتهم لتبرير الاضطهاد العرقى والطبقى. والأولى أن يقال إن الأنواع الأكثر تكيفًا هى التى تبقى على الرغم من أنها قد تكون الأضعف، مثلما بقيت الثدييات الضعيفة عند فناء الديناصورات الأقوى كثيرًا. وفى موضع آخر يرد فى ص ٤٣٧ أن جسيمات زد ودبليو جسيمات ذرية وسيطة فى حين أنها على وجه الدقة جسيمات تحت ذرية أى أصغر من الذرة وتعمل كوسيط فى نقل القوى النووية الضعيفة التى لها دورها فى التحليل الإشعاعى. والكتاب فيه أيضًا ترجمة لكلمة Effect على أنها «تأثير»، فى حين أنه واضح من السياق أن الترجمة الأنسب هى «ظاهرة». ذلك أن كومبتون عالم الفيزياء لم يؤثر فى الإشعاع، ولكنه وصف ظاهرة له فسميت ظاهرة كومبتون، كذلك فإن دوبلر لم يؤثر فى موجات الصوت، وإنما وصف ظاهرة لها سميت ظاهرة دوبلر.

وتستخدم الدكتورة يمنى أيضًا كلمة «تكميم» للتعبير عن التقدير الكمى، ولعل الأفضل أن يكون التعبير عن ذلك بكلمة «تكمية»، وقانا الله وإياها شر التكميم والكمامات التى يضعها الأقوياء على أفواه الضعفاء. كما تستخدم د. يمنى كلمة «تقويم» لتقدير القيمة، وهى ولا شك صحيحة لغويًا، ولكن مجمعنا اللغوى أقر أيضًا فى المعجم الوسيط استعمال كلمة «تقييم» لنفس الغرض، بل وفضلها عن التقويم ليصبح لتقدير القيمة كلمة واحدة مميزة ليست محملة بشحنات أخرى مثل الإصلاح والتأديب.

وأسلوب د. يمنى اللغوى فيه أحيانًا فخامة وطنطنة تؤدى إلى بعض شطحات و«حيودات» فى هذا الأسلوب «المكين» لا تتمشى مع العلم ولا مع الفلسفة، وخاصة فلسفة الوضعيين المنطقيين الذين يدققون الكلمات، بينما تصفهم د. يمنى بأنهم «غضبوا غضبًا مضريًا لا يبقى ولا يذر»! فهل كل خواجات النمسا وإنجلترا على علاقة بمضر؟. ثم هناك «بهاء الفلسفة السرمدى»، وبوبر الذى «وضع السرج على فكرد وامتطى صهوة جواده»، ولعل الجواد كان مكرًا مفرًا مقبلاً مدبرًا معًا، وإن لم يوضح لنا ذلك. وتتملك د. يمنى النشوة من أن علم الفلك خرج من أعطاف التنجيم، فتصبح فى عجب، «سبحان من يخرج الحى من الميت»، ولعلها تقصد أنه سبحان من يخلق من الفسيخ شربات، لأن التنجيم لم يمت أبدًا بل هو فى بلادنا أوسع انتشارًا بكثير من علم الفلك، وحتى عندما نصل عند خاتمة الكتاب إلى ذروة الاستمتاع به علميًا نفاجأ بعبارة عن فتح فوقعة اللؤلؤة التى لم تفتح من قبل، وهو قول يماثل التعبير الشهير لوصف لحظات الوصال فى كتاب ألف ليلة.

على أن هذه كلها هنات كما سبق القول، خاصة أنها لا تنال من سياق الفكر فى الكتاب ولا تنال من قيمته، وأى مؤلف يتصدى منفردًا لعمل فريد كهذا، يكون عرضة لمثل هذه الهنات وأكثر. فالكتاب مما لا يستغنى عنه أى مثقف متخصص أو غير متخصص، ونحن نرجو أن يكون كتاب د. يمنى التالى عن فلسفة العلم فى الحضارة العربية، وأن يكون بنفس المنظور العلمى الشامل وليس من منظور شوفينى أو سلفى. ■



بواقى التصدير والرواكد

مراكز البيع:

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدي. نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣
مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٢٣٠
الزيتون: ١٣ ش عين شمس. ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧
عين شمس: ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول
ت: ٢٩٦٦٥٦٤
الشرابية: شارع الآلايلى ت: ٢٣١٤٣٤٦
المرج: ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين
الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠
شبرا: ٦٤ ش روض الفرج. دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٨١٠
ناهيا: ٦٢ ش ناهيا بولاق الدكرور ت: ٣٢٧٢١٨٧
الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل عمارة العمدة أمام مصنع العلف
العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٤٠٨٦٢
إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦
الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت:٥٧٢١١١٨
مصر القديمة: ٦ ش أثر النبى ت: ٥٣٤٠٩٨٧
المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦١٦٥
حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان. محطة الجراج ت: ٠١٠/١٤٥٥١٠٧
القلعة: ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠٦٥
القناطر الخيرية: ٢٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤ ٠١٢٤٥٣٥٦٩٩
شبين القناطر: ٩ ش الدلتا
دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى
العاشر من رمضان: دوار العاشر. طريق الإسماعيلية
الفيوم: ش ٢٦ يولية عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٣٢٢
دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦
ميت غمر: ١ ش بورسعيد
سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٢٨٩٠
حلوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رايل ت: ٥٥٥٩٨٨٧
المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخريبى
فيصل التعاون: ٣٥٧ شارع الملك فيصل. محطة التعاون. الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦
بلقاس: ش طريق الحرية. خلف المحكمة
العاشر من رمضان: الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٤
العاشر من رمضان: المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨
مكرم عبيد: ٣٥ شارع أبو داود الظاهرى. مكرم عبيد ت: ٢٨٧٢٦٣١
الأقصر: ش مدرسة الصنايع. السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

العباسية: ١٥ ش العباسية. ميدان الجيش ت: ٥٨٩٣٨٥٠
بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت:٢٢٠٨٥٥٥
بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠
السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٢٢٨٧٨٠
المحلة الكبرى: ش شكرى القوتلى من ش الجيش
طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش النحاس ت: ٤٠٨٢٧٤
المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٣٧٢٦٤٧٤
كفر الشيخ: ٤ ش الشهيد محمد الدمرداش الشيتانى ت: ٢٢٣٠٨٥
الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية. فلمنج ت: ٥٨٠٤٧٩٧
رمادا: برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥٤٨٢٩٣٩
صفط اللبن: سنتر الصاوى. شارع التحرير
بنى سويف: ٥، ٦ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦
قنا: ش كوبرى دندرة عمارة أحمد عامر ت: ٣٢٣٦٤٨
قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة.
الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٣٢٢٣٢٩
أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى
الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٥٧٦٥ ٢٢
شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى
أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء
دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٣٢٨٠١٣
كفر الدوار: ١ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧
أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى ٠٥٥٣٤٠٩٥٤٤
السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧
كوم حمادة: ش مستشفى المواساة خلف مجلس المدينة
المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦١٦
كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين ت: ٠١٠١٩٣٢٤٢٨
العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢١١٠٩ ٠٦٨٣٦٥٦٥٦
فاقوس: ش الساحة عمارة المتيم. خلف المحكمة ٠١٠١٩٧٧٥٣٣
دسوق: ش الجيش. أمام عمر أفندى
بورسعيد: ميدان المسلة - برج المسلة ت: ٠١٠٥١٣٤١١٤
منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة. طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣
بنى سويف الجديدة: ٣٦ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٢٨٣٧٢٨
دار السلام: شارع الفيوم أمام مجمع المدارس
الزنانيرى الإسكندرية ١٠٢ ش الزنانيرى - سيدى جابر ت: ٥٤٦٠٩٩٩

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com



مصر.. هى الأرض «المقدسة» الوحيدة فى العرف المسيحى بخلاف فلسطين. إلى رحابها لجأت «العائلة المقدسة» طلبًا للأمان وفى صحرائها الساكنة المسيجة بالمهابة والجلال، ظهرت «الرهبنة»: طقسًا مسيحيًا «قبطى» الطابع. قبطية الرحلة المقدسة.. وقبطية الدير، بين المعتقد، والطقوس، هما موضوع هذا الملف المصور والذى يشارك فيه بمعلومات أساسية عن «تاريخ الرهبنة القبطية» الأنبا موسى أسقف الشباب بالكنيسة المصرية.



صورة بانورامية لدير السيدة العذراء فى درنكة والمنطقة المحيطة به

كونوا هنـــاك

الرحـلة المقدسـة .. فى الأرض المقدسـة .. مصـــر

هـــانى شـــكرالله

■■ الكتابة فى أىٍّ من شئون الأقباط فى مصر تحيطها الألغام من كل جانب.. ولعلى أستدرك موضحا أن المسألة نسبية، فالألغام تحيط كل كتابة هذه الأيام، تزيد بصورة مطردة حين يقترب الكاتب من الشأن الدينى (إسلاميا كانٍ أو مسيحيا)، ولكن أين الألغام فى كتاب مصوَّر عن رحلة العائلة المقدسة إلى مصر، صادر باللغة الإنجليزية عن دار النشر التابعة للجامعة الأمريكية بالقاهرة (AUC Press) بالتعاون مع (الجمعية الوطنية لإحياء التراث المصرى) ويحرره ويقدم له السيد جودت جبرا مدير المتحف القبطى بالقاهرة منذ ١٩٨٥؟! الكتاب ينتمى إلى نوع من الكتب يطلق عليه فى الغرب «كتاب منضدة القهوة» (coffee-table book)، غالى الثمن، فاخر الطباعة، يقوم أساسا على التصوير، يلعب النص المكتوب فيه دورا مساعدا للصورة،

Be Thou There The Holy Family's Journey in Egypt

كونوا هناك

رحلة العائلة المقدسة فى مصر

edited: Gawda Gabra
Photos: Norbert schiller
The Auc Press, Cairo, 2001

ويفترض فيه السهولة فى السرد، جمله قصيرة واضحة، تقدم المعلومات الأساسية وتبتعد قدر الإمكان عن مواطن الجدل وكل ما من شأنه أن يثير حساسية ما لدى القارئ. نحن إذن إزاء كتاب أبعد ما يكون عن حقول الألغام، قُرّاؤهُ من المصريين لا يجيدون اللغة الإنجليزية فحسب، ولكنهم على الأغلب على دراية بمفهوم «منضدة القهوة» وما يليق بها من كتب، وهى أمور مستغلقة على أكثرية الشعب المصرى أقباطا ومسلمين. وهو فضلا عن ذلك كتاب مناسبات، صادر فى إطار احتفالات الألفية الثانية لمولد المسيح، وهى التى رأت فيها الحكومة المصرية فرصة لتسويق مصر سياحيا سواء عن طريق حفل رأس السنة الشهير فى سفح الأهرامات بالجيزة أو من خلال حملة استهدفت جذب الحجاج المسيحيين الراغبين فى تتبع رحلة العائلة المقدسة فى مصر فى ذكراها الثانية بعد الألف. ولعيس فى أى من هذا نقد للكتاب، أو استهانة به. فكيف يكون حال النشر إذا كان من بين شروطه أن يكون كل كتاب منشور فى متناول الأكثرية، ذوقا أو محتوى أو مفهوما؟ وإذا كان لا يمكننا أن نطالب دور نشر مصرية وعربية بهذا فبالأحرى ألا نطالب به دار النشر التابعة للجامعة الأمريكية وهى التى تنشر باللغة الإنجليزية وتستهدف بصفة أساسية قارئًا غير عربى، تكون له مرآة على الثقافة المصرية والعربية، وهو دور محمود فى حد ذاته، لعبته دار نشر الجامعة الأمريكية فى القاهرة بتميز كبير.

«كن هناك»، قالها ملاك الرب ليوسف النجار رجل مريم العذراء والدة يسوع المسيح، وفقا لرواية انفرد بها إنجيل متَّى وحده من بين أناجيل العهد الجديد الأربعة.. و«هناك» هى مصر، والرواية هى رواية لجوء العائلة المقدسة إلى مصر هربا من بطش هيرودس ملك اليهود تحت الحكم الرومانى، وردت مقتضبة فى الإصحاح الثانى من الإنجيل المذكور تنتهى بنهايته ولا تتضمن أية معلومات عن إقامة العائلة المقدسة فى مصر أو عن مدة هذه الإقامة. فعند مولد يسوع فى بيت لحم جاء إلى أورشليم مجوس من المشرق (الحكماء الثلاثة فى الترجمات الغربية للإنجيل) يسألون «أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له». وتمضى رواية إنجيل متى: «فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح فقالوا له فى بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبى: وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا. لأن منك يخرج مدبر يرعى شعبى إسرائيل». يدعو هيرودس المجوس إليه ويطلب منهم الذهاب إلى بيت لحم والتأكد من الصبى ثم العودة إليه وإبلاغه بما وجدوا «لكى آتى أنا أيضا وأسجد له». يجد المجوس ضالتهم، يسجدون للصبى الوليد ويقدمون له هدايا ذهبا ولبانا ومرا ثم يوحى إليهم فى حلم ألا يرجعوا إلى هيرودس فينصرفوا عائدين إلى موطنهم.

وهنا نأتى إلى المقطع/المفتاح: «وبعدما انصرفوا إذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك. لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه. فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف إلى مصر. وكان هناك إلى وفاة هيرودس لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى». ثم يخبرنا الإصحاح نفسه أنه «لما مات هيرودس إذا ملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلا قم



أيقونة قبطية من القرن التاسع عشر، وتظهر فيها الصورة التقليدية لرحلة العائلة المقدسة فى مصر

كــونوا هنـــاك..



«من مصر دعوت ابنى»: الأيقونة التقليدية لرحلة العائلة المقدسة فى مصر





موكب من الشمامسة والمصلين احتفاء بأيقونات جديدة حصلت عليها كنيسة أباهور جنوب المنيا

وخذ الصبى وأمه واذهب إلى أرض إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى، فقام وأخذ الصبى وأمه وجاء إلى أرض إسرائيل». هذان المقطعان المقتضبان هما كل ما ورد فى الكتاب المقدس بأسره بشأن رحلة العائلة المقدسة فى مصر. كل ما عدا ذلك - وهو جم - ينتمى إلى التقليد الكنسى، بعضه مسيحى بوجه عام وأكثره قبطى، بل ولعلنا لن نكون بعيدين كثيرا عن الحقيقة إذا تكهنا بأن المسيحيين المصريين الأول ربما لعبوا دورا بارزا فى إعطاء قصة «الهروب إلى مصر» الوزن الخاص الذى احتلته فى التقليد المسيحى فيما بعد. فقد لجأ المؤولون - اقتداء بالرسل - إلى النبوءات التى تحفل بها التوراة لإضفاء أبعاد قدسية كبرى على الرحلة، لتصير مصر بفضلها أرضا مقدسة - الأرض المقدسة الوحيدة فى التقليد المسيحى بخلاف فلسطين - ولتصبح زيارة العائلة المقدسة إلى مصر تحقيقا لنبوءة النبى أشعيا والتى ذهبت إلى أن الرب بعد أن يصب جام نقمته على مصر ويدمر أصنامها ويهلك كهنتها سيبعث إليها بمخلص عظيم، ويومها سيعرف الله فى مصر، ليقول الرب «مبارك شعبى مصر»، تلك العبارة التى تتردد كثيرا فى خطاب أقباطها وتتزين بها الكثير من كنائسهم.

«كن هناك» عنوان الكتاب، يذيله العنوان الفرعى «رحلة العائلة المقدسة فى مصر». ولا يسع القارئ وهو يتصفحه.. يتأمل فيما يحفل به من صور فوتوغرافية ويقرأ فى سطوره وما بينها.. لا يسع القارئ إلا أن يشعر بأن ضمير المخاطب فى العنوان يمكنه أن يشير إلى أقباط مصر ربما بأكثر مما يشير إلى يوسف النجار. «كونوا هناك» تلح على ذهن القارئ مع كل صورة وكل جملة، فالرحلة هى رحلتهم والقصة هى قصة امتلاك المصريين للمسيحية، تمصيرها وزرعها زرعا فى أرض مصر من سيناء إلى الإسكندرية وعلى ضفتى النيل من الدلتا وحتى الصعيد. لم يبق آباء المسيحية فى مصر على نص من نصوص الكتاب المقدس يمكن تأويله ليضفى على المسيحية بعدا مصريا إلا وأولوه. يتتبع الكتاب بالصورة والكلمة رحلة العائلة المقدسة فى مصر وفقا للتقليد القبطى، فيكشف عن تاريخ حى نابض بالحياة. مواقع لمكوث العائلة المقدسة تظهر

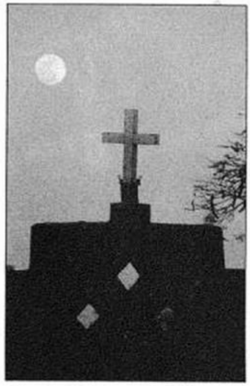


قبو كنيسة السيدة العذراء فى مسطرد، وفيه مكثت العائلة المقدسة وفقا للتقليد القبطى.

وأخرى تندثر، مواقع تشيد فيها الكنائس والاديرة وتصبح قبلة للحجاج، ومواقع أخرى تبقى مجرد بقع على خريطة مفترضة.. مواقع تقرها الكنيسة وأخرى يقررها أهاليها.. مواقع وآثار معجزات تحيط بكل منها قصص حافلة، البعض منها قديم قدم المسيحية فى مصر وبعضها الآخر مستحدث، مثل كنيسة الزيتون التى شاع بين الأهالى ظهور العذراء مريم بها عام ٦٨. صور نوربرت شيلر المصاحبة للنص تنطق بمصرية موضوعها، كل ما فيها مألوف. عين المصور ترى مصر والمصريين كما هم.. جمال الصور مستمد من الألفة والحب وليس من غـرابة وانبهـار بغريب وغير مـألوف.

هل حدث كل هذا؟ لم يهتم الباحثون الثلاثة المساهمون فى الكتاب كثيرا بالإجابة على هذا السؤال وإن كانوا قد عنوا باقتدار بتتبع مصادر وأصول الروايات المختلفة عن رحلة العائلة المقدسة فى مصر ومواقع إقامتها بها، وبينوا سياقها التاريخى الذى هو تاريخ المسيحية فى مصر قبل أن يكون تاريخا لرحلة لا سبيل للتاكد منها علميا، ولا نعرفها إلا من خلال التقليد القبطى. وبوجه عام السؤال غير مهم، ففى حالتنا هذه كما فى حالة أى تقليد دينى يصعب التوفيق بين التاريخ بوصفه علما يقوم على الشك والرواية الدينية التى تقوم أول ما تقوم على الإيمان. الحقيقة التاريخية الأساسية هنا تعنى بتاريخ الضمير، التاريخ الروحى لقوم ما وعلاقتهم هم بالزمان والمكان. القوم هم أقباط مصر والمكان هو مصر، يستحيل تصور أحدهما دون الآخر.

بالألغام بدأت وبها أنتهى. يذهب التقليد القبطى إلى أن العائلة المقدسة أمضت الستة شهور الأخيرة من رحلتها فى مصر ببيت مهجور على سفح جبل يسمى بجبل قسقام، وكانت هذه هى المدة الأطول لإقامتهم فى مكان واحد خلال وجودهم فى مصر.. وفى هذا البيت المهجور أيضا ظهر الملاك ليوسف يأمره بالعودة إلى أرض فلسطين «لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل من مصر دعوت ابنى». ويقال إن المسيحيين المصريين شيدوا كنيسة فى هذا المكان فى القرن الميلادى الأول، ويقال إنها أقدم كنائس العالم. الكنيسة اسمها كنيسة السيدة العذراء، يحيطها دير يسمى دير المحرق.



دير الأنبا حولباسون بديروط الشريف

كونوا هنـــاك..

الـــدير والراهـب

الأنبـــا مـــوسى

كانت الرهبنة قبل القرن الرابع الميلادى تقتصر على متوحدين يسكنون الصحراء فرادى، يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار، إلى أن جاء الأنبا (الأب) أنطونيوس المصرى وعاش مثلهم، إلا أن آلافًا اجتمعوا حوله، فأسس لهم ديرا، ووضع لهم أسس «الديرية»، والحياة الرهبانية.

ولما نفى بطريرك الكنيسة القبطية البابا أثناسيوس الرسولى إلى أوروبا، نشر سيرة الأنبا أنطونيوس فى كتاب ذاع صيته، فتأسست جماعات رهبانية مشابهة، فى أرجاء العالم المسيحى. ولهذا دعيت مصر «أم الرهبنة» ودعى الأنبا أنطونيوس «أب جميع الرهبان».

ويذكر التاريخ أن القديس أنطونيوس كان شابا قبطيا (مصريا) غنيا من قِمَن العروس (الواسطى - بنى سويف)، له أختٌ شقيقة، مات والداه، وتركا له مساحة شاسعة من الأرض الزراعية المثمرة، ولكنه فى يوم ممات والده، نظر إلى الجثمان المسجّى على الأرض، وقال فى نفسه مخاطبًا أباه: «ها أنت يا أبى تخرج من هذا العالم بغير إرادتك، أما أنا فسوف أخرج منه بإرادتى». ووزع كل ماله على الفقراء، وأودع أخته فى بيت للعذارى، ومضى ليبدأ نسكياته (أصوامه وصلواته وسجداته) على شاطئ النيل، فى قرية دير الميمون. وبينما هو يصلى ويقرأ فى الكتاب المقدس، جاءت امرأة لتغسل قدميها فى النهر، فانتهرها قائلاً: «كيف تفعلين ذلك أمام راهب؟». فأجابته قائلة: «الراهب لا يسكن فى المدن، بل يذهب إلى عمق الصحراء». فاعتبر هذا صوتًا من الله، ودخل حتى شاطئ البحر الأحمر، حيث ديره المقدس القابع هناك.

ويذكر التاريخ القبطى أن أنطونيوس حينما بدأ حياة الصلاة الدائمة، شعر بالملل، فظهر له ملاك يلبس الرداء الأسود، والقلنسوة يصلى قليلاً، ثم يضفر الخوص بيديه قليلاً. وقال له الملاك: افعل هذا فتطرد الملل. ومن وقتها صار الرهبان يلتزمون بالحياتين معًا: التأمل والصلوات الكثيرة، وعمل اليدين، ليعيشوا منه، ويتصدقوا بالباقى على الفقراء. وقتها كان ضفر الخوص (سعف النخل) المتواجد فى البرية، وصنع السلال هو العمل المتاح وكان أحد العلمانيين (أى المدنيين) يتعهد بالمجئ إلى الدير كل أسبوع ليأخذ السلال، ويبيعها، ويشترى للرهبان حاجاتهم الأساسية من غذاء وكساء ودواء.

كيف يتم اختيار الرهبان الآن؟

حين يتم اتخاذ قرار دخول الدير، ويشترك فى ذلك الكاهن الذى يعترف لديه الشاب، ورئيس الدير ومسئول طالبى الرهبنة بالدير، والشاب نفسه.. يترك الشاب عمله وأسرته، ويأتى للإقامة فى الدير حيث يستمر ثلاث سنوات فى ملابس بيضاء، يمتحن فيها نفسه، ويمتحنه فيها الدير.. فإذا ما استراح هو، واستراح رئيس مجمع الدير له، تتم رهبنته ويلبس الملابس السوداء، والقلنسوة التى تحمل ١٣ صليبًا تمثل السيد المسيح والاثنى عشر تلميذًا، إشارة إلى أنه متشبع بفكر المسيح والرسل، وحياتهم المقدسة. وتتلى فى الصلوات طلبة الراقدين (أى الموتى)، علامة أن هذا الإنسان «مات» عن العالم والمادة والشهوات الأرضية، ليحيا لله والملكوت السماوى.

بعد الرهبنة يكون الراهب تحت ملاحظة مستمرة من إدارة الدير، سواء فى حياته الدينية أو فى المسئوليات التى تسند إليه، أو فى نزوله إلى المدينة بتكليف من رئاسة الدير لبعض المهام.. وتتم محاسبة الرهبان فى حال انحرافهم عن طريق لجنة شئون الرهبان، المنبثقة عن لجنة شئون الأديرة، وكلها من الآباء الأساقفة رؤساء الأديرة.. وذلك لاتخاذ اللازم من إجراءات روحية أو ربما تجريد كامل. وفى هذه الحالة تتم مراعاة ظروفه، ليستقر فى حياة جديدة مدنية.

جـــوهر الرهبنة:

الرهبنة فى جوهرها هى «الانحلال من الكل، للارتباط بالواحد».. أى الابتعاد عن البشر جميعًا، حبًا فى الله، واكتفاء به تعالى.

وتعتمد الرهبنة على أساسيات مهمة مثل:

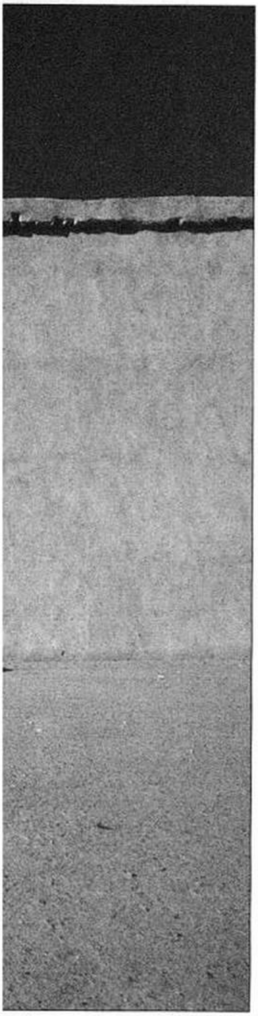
١- البتولية: أى عدم الزواج، ليس انتقاصًا من قدسيته وكرامته، فالزواج فى الكنيسة أحد الأسرار السبعة المقدسة، أما البتولية فهى دعوة إلهية يخص بها الرب بعض أبنائه وبناته، فيشعر الواحد منهم أنه لايحتاج إلى زواج، بل يحس بالسعادة الغامرة فى التسامى بطاقته الجنسية، لتصير طاقة حب لله وللإنسان، وليتفرغ نهائيًا للصلوات والعبادات، طلبًا لحياة القداسة والكمال، متشبهًا بالملائكة، الذين لا يكفون عن العبادة والتسبيح.

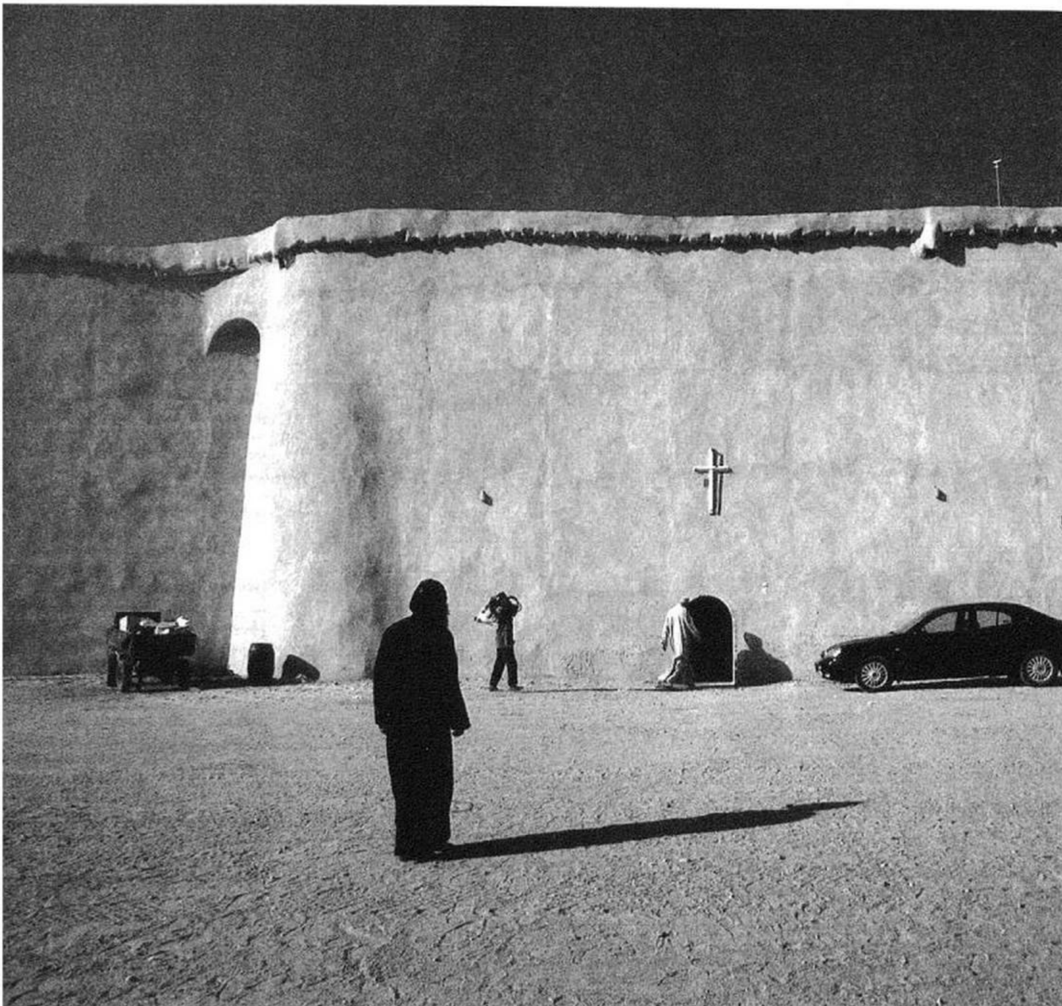
٢- الوحدة والانفراد: فالراهب الأمين، كثير الاختلاء والصلوات فى البرارى والجبال، قال بولس الرسول عن الرهبان: «وهم لم يكن العالم مستحقًا لهم تائهين فى برارى وجبال وشقوق الأرض» (عب ١١:٣٨). حيث كانت الرهبنة الانفرادية موجودة فى أيام يوحنا المعمدان (قبل ميلاد السيد المسيح مباشرة)، فى طائفة تدعى الإسينيين. فلما جاءت المسيحية، تم تعميد هذا الاتجاه، ليصير الرهبنة المسيحية.

٣- العفة والتجرد: بمعنى أن يتعفف الراهب حتى عن المقبول. فينسى المال والمقتنيات والأرضيات، ويضع العالم وراء ظهره، رافعا قلبه إلى السماء، وممتدا ببصره إلى الخلود.

٤- الطاعة: فالهدف الأساسى للرهبنة هو «قطع المشيئة» أى ألا يكون للإنسان مشيئة خاصة ذاتية، فهو لايريد سوى الله.

لهذا يطيع الراهب تعليمات أبيه الروحى، وتكليفات وإرشادات ونظام الدير الإدارى، فى





دير الأنبا بيشوى فى وادى النطرون

روح التواضع الجميل، الذى يرى فى الطاعة كل البركة.

ويحكى التاريخ الكنسى أن الرهبنة تطورت عبر المراحل الآتية:

١ ـ نظام العزلة والتوحد: ونقصد به المبادرات الفردية فى القرن الثانى، ثم القديس الأنبا بولا أول السواح (الذى قضى سائحا فى الصحراء عشرات السنين) وعاش من ٢٢٨ ـ ٣٤١م. والذى لم نتعرف عليه إلا من خلال زيارة القديس أنطونيوس له، حيث سأله الأنبا بولا عن أمرين:

ـ هرطقة أريوس وهل انتهت؟ فأجابه بالإيجاب.

ـ فيضان النيل وهل هو مستمر؟ فطمأنه أنطونيوس.

وفى هذا نرى أن انعزال الراهب فى جوف الصحراء، لا يلغى لديه انتماءين: الانتماء الكنسى: حين سأل عن أحوال الكنيسة، والانتماء الاجتماعى: حين سأل عن فيضان النيل والحياة اليومية للناس.

٢ ـ نظام الجماعات الرهبانية: وقد شهدتها مصر منذ أسسها القديس أنطونيوس عام ٣٠٥م؛ إذ ترك عزلته ليقود جماعة ضخمة من الرهبان. وكذلك جماعات أخرى مثل تلك التى للقديس آمون الكبير (٢٧٥ ـ ٣٣٧م) فى نتريا بالصحراء الغربية، وتجمعات شيهيت فى وادى النطرون، التى أسسها القديس مكاريوس الكبير (٣٠٠ ـ ٣٩٠م) وفى مناطق أخرى مثل بسبير والبهنسا وملوى وأسيوط وقنا..

٣ ـ نظام الشركة الرهبانية: وهى المرحلة التى أصبح فيها الرهبان يعيشون داخل أسوار دير كبير، وفى حياة شركة يومية، فى الصلاة والعمل والإنتاج والحرف والصناعات. وهذا النظام أسسه القديس باخوميوس «أب الشركة» (٢٨٦ ـ ٣٤٦م).

ثم جاء القديس الأنبا شنودة رئيس المتوحدين (٣٣٣ ـ ٤٥١م) ـ الذى أحيا اللغة القبطية واستضاف الآلاف فى الدير وقت المجاعة ـ فربط بين نظامى: العزلة والشركة، فى ديره «الأبيض» فى سوهاج، ووضع قوانين ونظم وأساليب إدارة الدير، حيث يقضى الراهب فترة مناسبة فى الدير، ثم يتوحد فى البرية (الصحراء) الداخلية، فى مغارات يحفرها الرهبان بأنفسهم، ولا يأتى المتوحد إلى الدير إلا على فترات ليأخذ بعض المأكولات المناسبة.

الرهبنة الآن

كان دور الرهبان ولايزال أساسيًا فى حياة الكنيسة، ولذلك حرص قداسة البابا شنودة الثالث (الذى ترهب وعاش فى دير السريان لفترة طويلة) على تأسيس أديرة قبطية فى المهجر، إذ فضلاً عن أن الرهبنة تقدم للكنيسة الآباء البطاركة والأساقفة، فإن تركيز الرهبان فى الدراسة أنتج لنا الكثير من الدراسات اللاهوتية والطقوس والعقيدة والتاريخ الكنسى.

كما قام الرهبان بحفظ الإيمان والتقاليد والطقوس، فى مواجهة الهرطقات التى واجهتها الكنيسة، أو أيام الاضطهاد التى تشتت فيها المسيحيون.

الرهبنة ـ ببساطة ـ هى عين الكنيسة وعقلها وقلبها، والحارس الأمين على اللاهوتيات والنسكيات والعقيدة وأصول طريق الملكوت.. لهذا قيل عن الرهبان إنهم «بشر سمائيون أو ملائكة أرضيون».. هذا حينما نجاهد بأمانة، وننال نعمة من الرب. ■

الجامعات المصرية عند مفترق طرق!

لبيب السباعى

> أصبحت أغلبية الأبحاث العلمية تتم بصورة نمطية تقليدية معزولة عن مشاكل المجتمع، بل إن كثيرا منها يعد تقليدا حرفيا لأبحاث أجنبية لأن كل هم الباحثين هو الحصول على الدرجات العلمية، ونشر بعض الأبحاث بغرض الترقية بغرض تحسين الوضع المالى بصرف النظر عن صلاحية تلك الأبحاث أو فائدتها التطبيقية لحل مشاكل المجتمع

بعد نحو قرن كامل من إنشائها تقف الجامعة المصرية عند مفترق الطرق، عليها أن تختار بين طريق السلامة وطريق الندامة.. وقد يبدو مثيرا للأسى والحزن ــ وهو كذلك ــ أنه بعد هذا الزمن الطويل تتجه مسيرة الجامعة المصرية إلى الخلف، وأن تتحسرعلى ما وصلت إليه الأحوال فى الجامعات المصرية، مقارنا بما كانت عليه قبل ربع قرن من الزمان.. فعلى حين كان المفترض والمنطقى هو أن تشهد هذه السنوات تقدما ملموسا فى مسيرة الجامعة المصرية، إذ بها للأسف تتراجع وبانتظام إلى الوراء!! ولعل ما تعرضت له الجامعات المصرية خلال الشهور الماضية من أحداث تكشفت خلالها عشرات بل مئات الوقائع، يؤكد أن الأوضاع وصلت إلى الحد الذى لايحتمل المزيد، وأنه إذا ما أرادت الجامعة المصرية طريق السلامة اختيارا تسير فيه، فإن أمامها مهمة شاقة لمواجهة هذه الأوضاع برغبة حقيقية فى الإصلاح، لاتهدف إلى التبرير للوصول إلى نتائج زائفة تقول إن كل الأمور على ما يرام، وأنه ليس هناك أبدع ولا أجمل مما هو موجود!!

بعد هذه المقدمة يبقى تشخيص الأعراض الرئيسية التى تجسد مظاهر الخطر التى قد تؤدى إلى اندفاع الجامعات ــ لاقدر الله ــ إلى طريق الندامة أو طريق اللاعودة..

يمكن ــ اجتهادا ــ تحديد هذه الأعراض فيما يلى:

١ ــ مظاهر لفساد السياسة العامة لإدارة الجامعات.

٢ ــ عدم إدراك معنى ومفهوم استقلال الجامعة كمؤسسة.

٣ ــ فساد بعض القيادات الجامعية وتجاوزاتها فى ممارسة العمل الجامعى.

٤ ــ الفساد المالى وإهدار المال العام.

٥ ــ تدهور المستوى العلمى سواء للأستاذ أو الطالب.

٦ ــ تدنى المستوى العلمى للمناهج ومحتواها وتراجعها بصورة مزعجة عن المستويات المناظرة لها عالميا، وبالتالى هبوط مستوى الخريج المصرى..

٧ ــ قصور البحث العلمى وتفشى ظاهرة خيانة الأمانة العلمية وتحول سرقة الأبحاث العلمية من حالات معدودة إلى ظاهرة تفشت فى مختلف التخصصات وهروب المسئولين عن مواجهتها تحت ضغوط العلاقات العامة والشللية.

هذه الأعراض التى طفت أو طفحت على جسد الجامعات المصرية فى وقائع لم تعرفها أو تسمع بها طوال تاريخها... فى هذه الوقائع انهارت قدسية الانتخابات الجامعية وانتهكت سريتها وضاعت معها مبادئ العدالة وتكافؤ الفرص، فقام الأساتذة ليس فقط بمحاباة أو مجاملة أبنائهم وأبناء زملائهم بل امتدت أياديهم إلى التزوير، وإذا بهم أمام النيابة العامة ــ تحت ضغوط النشر الصحفى والرأى العام ــ وإذا بالنيابة العامة تحيلهم إلى محكمة أمن الدولة العليا باتهامات لم يكن أحد يتخيل أن توجه يوما ما إلى أستاذ الجامعة.. اتهامات «بالاستيلاء وبنية التملك على كراسات إجابة وكشوف النتائج من الفرقة الأولى وحتى الفرقة الرابعة والمملوكة لجهة عملهما وارتباط هذه الجريمة بجريمة التزوير فى محررات رسمية واستعمالها فيما زورت من أجله، والإضرار العمد بمصالح الجهة التى يعملان بها [كلية الطب بجامعة القاهرة] بأن اتفقا على تزوير المحررات الخاصة بنجليهما الطالبين بالكلية بزيادة درجاتهما، مهدرين بذلك الثقة الواجب توافرها فى المعاهد العلمية والعاملين بها فضلا عن مبدأ تكافؤ الفرص».

كلمات النائب العام المستشار ماهر عبدالواحد تجسد حجم المأساة حين قال تعقيبا على قرار الاتهام: «إن هذه القضية ــ قضية تزوير درجات طلاب كلية طب قصر العينى ـ تعتبر نموذجا صارخا للفساد فى أحد المعاقل العلمية التى نعتز بها والتى نربأ بأن ينتسب المتهمان ــ وهما أستاذان!! ــ إلى هذه الكلية التى لها تاريخ عريق.. إلا أنهما بدلا من أن يكونا قدوة بما يحتلانه من مكانة مرموقة انزلقا إلى الخطيئة وأعمتهما مصالحهما الخاصة التى أراداها لنجليهما بغير حق، فاقترفا من الجرم ما ينزلق إليه أعتى المجرمين!! من استيلاء وتزوير واستعمال المحررات المزورة!!».

وجاء قرار النائب العام باتهام الأساتذة فى قضية التزوير مصاحبا لقراره باتهامات لمن وصفوا بالشواذ وبالطعن فى براءة متهم بالتجسس لحساب إسرائيل!! فى إشارة لتعدد نماذج الفساد!!

وكان قرار النائب العام تعبيرا صادقا عن مدى ما وصلت إليه الأمور.. فسرية الامتحانات انكشفت وميزان العدالة اهتز، وقائمة الوقائع تنذر بالخطر وتهدد بكارثة، فعندما يفقد الطالب وأسرته الثقة فى انه سوف ينال من الامتحان ما يستحقه تصبح العملية التعليمية كلها بلا معنى.. فى هذه الوقائع منحت الدرجات بدون حساب لأبناء الأساتذة وعقدت اللجان الخاصة جداً لأبناء وبنات الأثرياء من دول النفط، وسمح عميد الكلية لطالبة ابنة أحد رموز الثروة فى إحدى دول الخليج بأن تؤدى الامتحان فى غرفة خاصة ومعها مرافق ــ حارس خاص من خارج الجامعة ــ وعندما أمسك بها أحد الأساتذة فى حالة غش من نماذج معدة للإجابة سلفا، تم إبعاد الأستاذ المتشدد، واستكملت الابنة امتحانها بدعوى أن لوالدها ــ ثرى الخليج ــ استثمارات ضخمة فى مصر.. فى هذه الوقائع خرجت ورقة إجابة طالبة من كنترول كلية الآداب بجامعة القاهرة وسافرت ورقة الإجابة إلى الكويت!! ثم عادت مرة أخرى لتدخل الكنترول السرى!! وعلمت الجامعة العريقة بالواقعة ولم تحرك ساكنا!!

فى هذه الوقائع أصبح التفوق حكراً على أبناء الأساتذة وأبناء القادرين وأصحاب النفوذ أو أصحاب النقود!! وأصبحت وظائف أعضاء هيئة التدريس محجوزة لهم مقدما!!

فى هذه الوقائع أصبح شغل المناصب القيادية لأهل الثقة والرضى.. وأصبحت ملايين الجنيهات تنفق بدون ضوابط معروفة أو معلنة، فيحصل عميد كلية وزوجته الأستاذة على مليون جنيه مكافآت، ويحصل مراقب حسابات الكلية الذى يعتمد صرف هذه المكافآت ويتكتم أوراقها على عشرة آلاف جنيه مكافأة شهرية.. وفى هذه الوقائع يتستر المستشفى الجامعى الكبير والعريق على وفاة مرضى داخل المستشفى فى ظروف تصف هذه الوفاة بالقتل الخطأ أو على الأقل بالإهمال الجسيم.. ويتحايل المستشفى على المرضى وأسرهم فيقدم لهم طبيبا أجنبيا جاء إليه بالصدفة على أنه العالم والبروفيسور العالمى المشهور فيجرى جراحات لخمسة من المرضى يلقى اثنان منهم مصرعهما على طاولة غرفة العمليات، ويجرى التكتم على الوقائع!!

عشرات بل مئات من الوقائع على امتداد الجامعات المصرية كلها تنذر بأن الصمت والتجاهل هو طريق اللا عودة!!

إدارة الجامعة والكلية

تأتى بداية مرحلة التراجع فى مسيرة الجامعة المصرية من القيادات الجامعية سواء على مستويات رؤساء الجامعات أو عمداء الكليات.. ففى الوقت الذى كانت الآمال الجامعية تحلم بأن يتم شغل منصب رئيس الجامعة بالانتخاب من بين الأساتذة، إذا بالبرلمان يقر تشريعا بإلغاء أسلوب الانتخاب لمنصب عميد الكلية.. والمضحك أنه فى الجلسة نفسها التى قرر فيها مجلس الشعب أن يكون شغل منصب العميد بالتعيين، وافق على تشريع مماثل بأن يكون شغل منصب عمدة القرية بالتعيين أيضا، وبذلك تساوى عميد الكلية الجامعية مع عمدة القرية!!

والتشخيص فى هذه النقطة كما يطرحه الدكتور محمد عبدالرسول الأستاذ بجامعة عين شمس يكشف عن جذور عديدة ومتشعبة ومتداخلة تاريخية وسياسية واجتماعية واقتصادية وغيرها يصعب حصرها، ويحتاج كل منها لمتخصصين. وأحد أهم هذه الأسباب التى أدت إلى الأزمة المستحكمة هو اللائحة الحالية المنظمة لعمل الجامعات. فقد صدرت هذه اللائحة عام ١٩٧٢ ولم تجر أية مناقشات لهذه اللائحة قبل إصدارها بل ولم تناقش فى مجلس الشعب وصدرت بقرار جمهورى. ولم يعترض عليها آنذاك الكثير بل قوبلت بالترحاب لعدة أسباب منها: أنها احتوت على جدول جديد للمرتبات والبدلات كان مجزيا نوعا ما فى تلك الحقبة. كما أن تلك اللائحة عالجت ولو بشكل مؤقت مشكلة الدرجات الشاغرة والتى كانت تؤرق كل من جاء ميعاد ترقيته وتوقفت لعدم وجود درجات خالية. ومع أن هذه اللائحة تضمنت الكثير من السلبيات، فإن هذه السلبيات كانت من النوع التراكمى التى لايظهر أثرها إلا بعد حين، فإنها احتوت على قليل من الإيجابيات أهمها اختيار عمداء الكليات عن طريق الانتخاب من قبل أساتذة كل كلية وإعطاء صلاحيات أكبر للمجالس الجامعية وهى مجالس الأقسام والكليات والجامعات والاستفادة بخبرة بعض الأساتذة المرموقين بتعيينهم كأساتذة متفرغين لعدد محدد من السنين يصبحون بعدها أساتذة غير متفرغين لحد معين أيضًا وبموافقة مجالس الأقسام ووضع لوائح منظمة لتعيين الهيئة المعاونة لهيئة التدريس وتنظيم إعادة أو عمل أعضاء هيئة التدريس خارج الجامعات علما بأن هذه اللائحة قد أدخلت عليها عدة تعديلات دعمت سلبياتها وطمست إيجابياتها القليلة، ولكن بعد ما يقرب من الثلاثين عاما من تطبيق هذه اللائحة!!

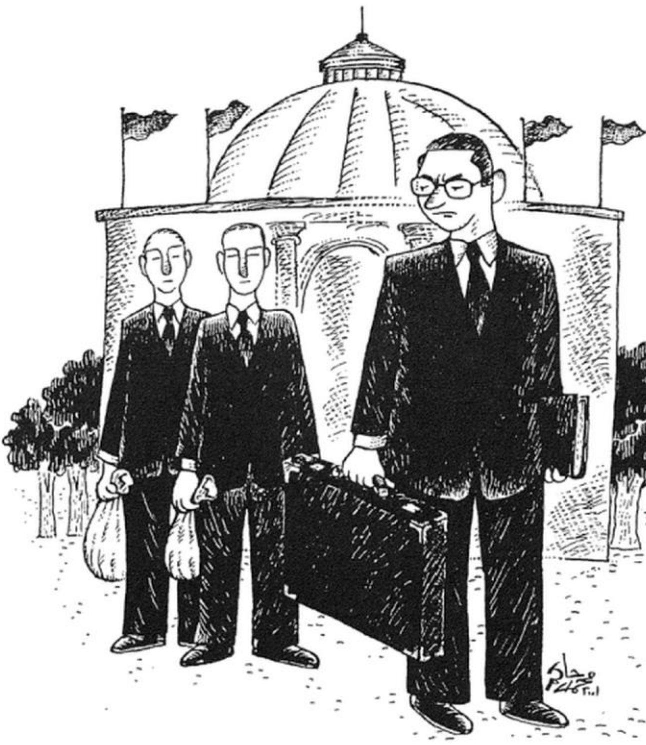
كانت الصورة أقل تفاؤلا وتراكمت المشكلات والتى يمكن إيجازها فيما يلى:

■ أعداد هائلة من أعضاء هيئة التدريس والهيئة المعاونة فاقت كل المعدلات العالمية بل اقتربت أحيانا من أعداد الطلاب فى بعض الكليات (مثل كلية الطب).

■ أصبح الهرم الوظيفى مقلوبا تماما قاعدته الضيقة وهى عبارة عن المعيدين والمدرسين ثم عدد قليل من الأساتذة المساعدين ثم عدد هائل من الأساتذة العاملين والمتفرغين يتزايد باطراد، غالبيتهم العظمى بدون عمل حقيقى وأصبح لا هم لأغلبهم إلا الصراع على بعض المقررات الدراسية وأماكن الجلوس والمكاتب والإشراف على طلبة الدراسات العليا، والكل.. من يعمل ومن لا يعمل يصرف مرتبات وبدلات كاملة بل وأجرا إضافيا غير منقوص، ورغم أن كل هذه الدخول لا تليق أصلا بأستاذ جامعى ولكن ما العمل فى أعداد هائلة تضيع معها ميزانيات الجامعات قلت أو كثرت.

■ ظهور ما يعرف بأخلاقيات الزحام فى معاملات الزملاء مع بعضهم البعض. بما أدى إلى تحويل معامل البحوث ودورات المياه أحيانا إلى مكاتب لتستوعب أعضاء هيئة التدريس... الجدد... وتقسيم الأقسام العلمية إلى عدة أقسام أصغر مع زيادة التشعيب الدراسى لاستحداث مقررات دراسية جديدة لإيجاد فرص عمل للأعداد المتنامية من أعضاء هيئة التدريس وعدم ظهور أجيال جديدة من الأساتذة المرموقين بمدارسهم العلمية المشهود لها، بل وظهرت بوادر لصراع الأجيال بصورة واضحة.

■ أصبحت أغلبية الأبحاث العلمية تتم بصورة نمطية تقليدية معزولة عن مشاكل المجتمع بل إن كثيرًا منها يعد تقليدا حرفيا لأبحاث أجنبية لأن كل هم الباحثين هو الحصول على الدرجات العلمية، ونشر بعض الأبحاث بغرض الترقية لتحسين الوضع المالى بصرف النظر عن صلاحية تلك الأبحاث أو فائدتها التطبيقية لحل مشاكل المجتمع وهذا من الوظائف الأساسية للجامعات. مع قبول أعداد كبيرة من الطلاب تعودوا على النجاح بمساعدة الدروس الخصوصية ونقلوا هذا التعود إلى الحرم الجامعى، ومع تفاقم المشكلات الاقتصادية وزيادة النزعة المادية انجرف كثير من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم لهاوية الدروس الخصوصية وما يتبعها من فساد وخراب للذمم أحيانًا فى عمليات التقويم والامتحان.



ومما زاد الطين بلة «كما يقولون» أنه عندما أرادت الحكومة إلغاء بند انتخاب عمداء الكليات (وهو أحد إيجابيات اللائحة) أرادت استرضاء أعضاء هيئة التدريس فجعلت تعيين الأساتذة المتفرغين بعد الستين آليا ومدى الحياة!!! وليست هناك دولة فى العالم تطبق مبدأ التعيين فى أى منصب مدى الحياة إلا فى مصرنا الحبيبة كما استحدثت اللائحة بعض المناصب القيادية الجديدة مثل تعيين نواب رؤساء الجامعات لشئون البيئة وكذلك وكيل مختص فى كل كلية أو معهد علمى.

كل هذا على سبيل المثال لا الحصر وغيره الكثير. لذلك فعندما تولى الدكتور مفيد شهاب وزارة التعليم العالى وبدأ فى خطوات جدية للإصلاح كان أول ما أعلن عنه هو ضرورة إصدار لائحة جديدة للجامعات تتواكب مع العصر وتحاول أن تتجنب السلبيات العديدة للائحة الحالية. وطبعا حدث ما حدث عند بدء ظهور ملامح تلك اللائحة والهجوم الضارى الذى تعرض له الوزير. وكان أكثره هجوما بغرض الدفاع عن المصالح الشخصية وليس دفاعا عن الجامعة ومصلحة المجتمع وتعرفون ما حدث بعد ذلك. والواقع أن للإصلاح خطوات أولاها إصدار لائحة حديثة لتنظيم الجامعات تناقش بدقة ديمقراطيا وعلى نطاق واسع تتجنب السلبيات وتركز وتزيد من الإيجابيات. وأهمها :

■ إعادة تنظيم الهيكل الوظيفى فى الأقسام الجامعية العلمية بحيث يكون التعيين فى مناصب فعلية حسب حاجة تلك الأقسام وليس لكل من قضى فترة معينة ويمكن التغلب على تاخير تعيين بعض الأعضاء بفصل الدرجات العلمية عن الدرجات المالية بحيث يحصل على مربوط الدرجة الأعلى من قضى فترة معينة وهذا لن يكلف الميزانية الكثير.

■ سينتج عن ذلك إعادة تنظيم الهرم الوظيفى مرة أخرى وتحديد أعضاء هيئة التدريس بشكل مناسب للعملية التعليمية.

■ تنظيم تعيين الأساتذة المتفرغين وغير المتفرغين مع تعويضهم بشكل لائق.

■ إعادة مبدأ انتخاب عمداء الكليات لأنه مهما كانت سلبيات هذا المبدأ وهى قليلة فإن فوائده كثيرة وعظيمة وهى التى أدت إلى ظهور مجموعة من القيادات الجامعية الواعدة ذات السمعة الطيبة تبوأت بعد ذلك كل المناصب القيادية الرفيعة فى الجامعات. كما أن التعيين له من المتاعب ما لا يعد ولا يحصى. فرئيس الجامعة المسئول عن هذا التعيين لا يعرف تقريبا إلا أساتذة الكلية التى أتى منها وبالتالى فتعيينه لعميد إحدى الكليات الأخرى يكون عن طريق المعرفة الشخصية أو الواسطة أو النفاق وغير ذلك وضرورة ربط الجامعات بالمجتمع عن طريق تنظيم البحث العلمى لكى يحاول حل مشاكل المجتمع ومشاكل الإنتاج وهى كثيرة..

■ إظهار مواد الثواب والعقاب بصورة واضحة لا لبس فيها وبنصوص قاطعة.

■ تحديد الأعداد والمناصب التى يسمح لها بحضور المجالس الجامعية المختلفة ذلك أن مجلسا يزيد عدد أعضائه على خمسين عضوا لا يستطيع مناقشة أى موضوع.

■ تحديد آلية مرنة واضحة لطرق التطوير الشامل للجامعات.

استقلال الجامعات

موجود ومفقود!

من الشعارات المرفوعة، والتى نؤكد عليها باستمرار، مبدأ استقلال الجامعات طبقا لما كفله الدستور غير أن واقع الأمر يقتضى الاعتراف بأننا أمام استقلال موجود نظريا وغائب أو مفقود عمليا!! فرئيس الجامعة يتم تعيينه لاعتبارات

مجهولة تماما من أساتذة الجامعة... ويتولى رئيس الجامعة بدوره تعيين عمداء ووكلاء الكليات دون أن يعرف أساتذة الكلية الحيثيات التى تم على أساسها اختيار «زيد» بدلا من «عبيد» لتولى منصب العميد.. وبالتالى أصبح رئيس الجامعة مدينا بمنصبه لقرار التعيين وأصبح كل عميد كلية أو وكيل لها مدينا بمنصبه لرئيس الجامعة، وبالتالى ضاعت استقلالية كل واحد من هؤلاء.. ولعل غياب معايير أو حيثيات اختيار «فلان» عميدا هو الذى فجر حكاية تعيين شقيق وزير التعليم العالى عميدا لحقوق الإسكندرية لأنه لاتوجد معايير واضحة للتعيين!! ثم يبقى قبل ذلك أن الإنفاق على الجامعة يأتى من الموازنة العامة للدولة.. وبالتالى فإن ما يسرى على الدول يسرى على الجامعات، فالدولة التى لاتملك مقدراتها الاقتصادية لاتملك حريتها أو استقلالها والجامعة التى تفتقد مواردها المادية الذاتية يصعب تصور استقلالها..

والحقيقة أنه ترتب على هذا الاستقلال الغائب للجامعات نتيجة مفزعة وهى أن الاستقلال لم يعد للجامعات بل أصبح لرؤساء الجامعات.. لم يعد استقلال الجامعة كمؤسسة علمية هو ما نحرص عليه بل أصبح استقلال رئيس الجامعة.. يفعل ما يشاء.. كيف يشاء.. وبالصورة التى تتفق مع رؤيته ومفاهيمه الخاصة دون أى اعتبار للسياسة العامة أو للأبعاد السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية والأمثلة فى هذا المجال يصعب حصرها.. فإذا كان القانون لايسمح لرئيس الجامعة مثلا بأن يزاول نشاطا تجاريًا، فإن شعار استقلال رئيس الجامعة يجعله يتصور نفسه هو الآخر «سيد قراره»، وبالتالى لايجد مانعا أو حرجا من ممارسة العمل التجارى فى أى مجال حتى لو كان مجال تربية الفراخ أو تجارة «البيض»!! بل ويفخر بإنجازاته فى الفراخ والبيض.

ولأن رئيس الجامعة رجل أعمال فلا مانع إطلاقًا من أن يفتح أبواب الجامعة على مصراعيها أمام الزملاء من رجال الأعمال، وهى الصورة التى عبرت عنها صفحات إعلانية لمستثمر ورجل أعمال فى قاعة مجلس الجامعة العريقة وقد اصطف عن يمينه وشماله ٤٥ عميدا وأستاذا وعالما وفى مقدمتهم رئيس الجامعة شخصيا.. والصورة لم تكن لقاء عقده المستثمر رجل الأعمال مع العمداء فى قاعة بأحد الفنادق مثلا ولكنها كانت للقاء الذى عقد داخل الجامعة وتحت قبتها الشهيرة وفى قاعة أحمد لطفى السيد.. قاعة مجلس الجامعة.. والمجلس الأعلى للجامعات!!

وتصدر رجل الأعمال الاجتماع وتحلق حوله العمداء والأساتذة يتلقون نصائح سيادته فى مظاهرة انتخابية قد يصلح لها أى مكان ماعدا هذا المكان - خاصة ونحن نؤكد بشدة أنه لامجال للعمل الحزبى داخل الجامعات - حرم الجامعة وقاعة عمدائها.. وهو عمل لم يجرؤ عليه طلعت حرب شخصيا برغم ما قدمه للاقتصاد المصرى، وإذا افترضنا حسن النية وأن ما جرى لم يكن - لاسمح الله - مظاهرة انتخابية لرجل الأعمال.. وأنه يريد فعلا الاستفادة بجهود هؤلاء العلماء والعمداء فى حل مشكلات الدائرة الانتخابية.. ألم يكن المنطقى والمقبول هو أن يقدم للمحافظ أو للجامعة قائمة بهذه المشكلات ويطلب من الجامعة باعتبارها «بيت خبرة علميا» أن تضع حلولا لهذه المشكلات مع استعداده لتمويل نفقات هذه الحلول!!

أما أن تختلط الأوراق بهذه الصوَرة فهذا يعنى أن «الفلوس» أصبحت هى المحرك الأوحد لجميع الأمور!! وأن شلالات المال أصبحت قادرة على اكتساح كل من يقف فى طريقها وأنها قادرة على أن تفتح بقوة جميع الأبواب حتى لو كانت أبواب الحرم الجامعى الذى لم يعد «حرما»!!

ترتب على هذا الاستقلال الغائب للجامعات نتيجة مفزعة وهى أن الاستقلال لم يعد للجامعات بل أصبح لرؤساء الجامعات.. لم يعد استقلال الجامعة كمؤسسة علمية هو ما نحرص عليه بل أصبح استقلال رئيس الجامعة.. يفعل ما يشاء.. كيف يشاء.. وبالصورة التى تتفق مع رؤيته ومفاهيمه الخاصة



والحقيقة تقتضى أن نقول إن ما طرح خلال هذه الواقعة يدعو للدهشة، فالسادة أعضاء مجلس الجامعة وعلى رأسهم رئيس الجامعة يستمعون لنصائح وتوجيهات رجل أعمال يرسم لهم ما يفعلونه وكأن تاريخ الجامعة ومسيرة عطائها للمجتمع حولها سوف يبدأ فقط من اللحظة التى اختار فيها سيادته أن يجعل لجامعة القاهرة «دوراً»!! وكأنه لم يكن للجامعة قبل ذلك أى «دور»!

والحقيقة الأخيرة فى هذه الواقعة هى أن العديد من العمداء الذين وقفوا بين يدى رجل الأعمال يعرضون السيرة الذاتية لكل منهم وينتظرون تكليفه لهم.. لو أن هؤلاء العمداء الأفاضل جاءوا إلى مواقعهم بانتخاب الأساتذة زملائهم.. لما تورطوا فى هذا الاجتماع!!

وأثارت الواقعة ردود أفعال عديدة.. تناولها كثير من الصحفيين والكتاب بالتحليل.. ومع ذلك مضى رئيس الجامعة بعقلية رجل الأعمال فى الطريق لتتكرر الاجتماعات مع رجال الأعمال بصورة يغلب عليها الطابع الدعائى خاصة ورئيس الجامعة يؤكد من جانبه أن الجامعة لم تتلق حتى الآن قرشاً واحداً من رجال الأعمال.

ولأن الاستقلال تحول من استقلال للجامعات إلى استقلال لرؤساء الجامعات بدأ تيار الخصخصة يدخل الجامعات دون إعلان أو موافقة واضحة وصريحة من الدولة، بدأ الأمر بصورة ترتدى ثياب الشرعية ثم تحول الأمر بعد ذلك وفقا لشطارة كل مسئول فى موقعه.

ومنذ سنوات ونحن نشهد ظاهرة بدأت تتسرب فى كل أنواع الخدمات والسلع... ظاهرة أن يكون لكل خدمة أو سلعة سعران وبالطبع مستويان، الخدمة أو السلعة المدفوعة «تساوى» والسلعة الأخرى بلا قيمة... الظاهرة منطقها أنه بجانب السوبر لابد من الترسو ومن حق من يملكون الثمن أن يحصلوا على كل ما هو «سوبر» وكل ما هو «متميز»!!

أما من لايملك الثمن فليس أمامه سوى الترسو فى القطار والمرمطة الطبية فى المستشفيات المجانية ومساكن الإيواء كوخ مناسب!! وشاطئ عين الصيرة للفسحة!!

بنفس هذا المنطق وبهدوء شديد تسللت الظاهرة القاتلة إلى المنطقة المحرَّمة، منطقة التعليم... فى ظل هذا المنطق بدأ المسئولون — الذين يبدو والله أعلم أنهم غير مسئولين — فى التعامل مع التعليم.. فاعتبروا أن هناك تعليما «سوبر» للقادرين.... وتعليما «ترسو» لغير القادرين وجامعات خمس نجوم وجامعات بمستوى لوكاندة العتبة للنوم!!

ثم تحولت الظاهرة إلى كارثة أغمضنا عيوننا عنها وكانت بدايتها بدعة إنشاء أقسام أو شعب للتدريس باللغات الأجنبية داخل الكليات الحكومية الموجودة فعلا... ويصبح داخل نفس الكلية تعليم مواز للتعليم الحكومى!! وأصبحت الكلية تقدِّم خدمة تعليمية من النوع «السوبر» مقابل كذا ألف جنيه ليس إلا... يدفعها أبناء القادرين حتى يتعلموا بعيدا عن زحام أبناء غير القادرين!! فأبناء القادرين يتعلمون فى قاعات مكيفة وأعدادهم محدودة والأساتذة الذين يعلمونهم يتم اختيارهم بعناية فائقة ويشترط فيهم أن يكونوا «وارد الخارج» ومن الذين حصلوا على الدكتوراه من أمريكا أو بلاد أوروبا!! وطبعا يتعامل هؤلاء الأساتذة بكل احترام مع الطلاب أبناء القادرين الذين يتعلمون بفلوسهم!! وفى الكلية نفسها يتعلم أبناء الحكومة فى ظروف مختلفة تماما... نعرفها جميعا!!

أولاد الناس الذين يتعلمون بفلوسهم يتسلمون الكتب الجامعية المستوردة من بلاد بره مع أول أيام الدراسة... أما أولاد «الإيه» فيتسلمونها قبل الامتحان بأيام فى صورة ملازم.... ملزمة بعد ملزمة!!

ولـلأسف انتشرت الظاهرة الكارثة بالتدريج... بدأت فى كلية التجارة بجامعة القاهرة رائدة الخصخصة ثم يوما بعد يوم أصبحت نظاما أساسيا فى جميع كليات التجارة وبعدها جاء الدور على كليات الحقوق ثم كلية الاقتصاد والعلوم السياسية!! وأصبح هناك نوعان من التعليم الجامعى... تعليم حكومى من الذى يقال عنه إنه «حاجة ببلاش كده» وفيه باختصار لا يتعلم الطالب شيئا.. وإلى جانبه التعليم الموازى وهو التعليم السوبر... الخمس نجوم وبالتكييف!!

وعلى طريق الخصخصة لم يكن هناك سوى القبول والاستسلام رغم خطورة ما يجرى على السلام الاجتماعى وعلى شعور «أولاد الإيه» بأن تكافؤ الفرص والعدالة الاجتماعية أصبح مجرد «شعار»!!

ولم يكن مهما أن نقبل ما يجرى أو نرفضه.. فقد سار قطار الخصخصة بهمة يدهس كل ما يقف أمامه!! ولذلك رضينا مرغمين ما دامت الحكاية لم تتجاوز كليات التجارة والحقوق!! ولكن قطار الخصخصة لا يعرف حدودا أو محطة وصول يتوقف عندها. فالمؤكد أننا مقدمون على مرحلة يصل فيها القطار إلى محطة كليات الطب الحكومية — وكأنه لا يكفينا ما يجرى فى كليات الطب الخاصة.

فإذا برئيس جامعة القاهرة لا يكتفى بما أنجزته الجامعة العريقة فى مجال الخصخصة حتى فتحت الجامعة أبوابها على مصراعيها لرجال الأعمال والمال يعتبرون الجامعة من أملاكهم ويوجهون الدعوات لضيوفهم فيها!! بل يطرح سيادته مشروعا جديدا بإنشاء كلية طب «أهلية» «بفلوس» فى أحضان جامعة القاهرة وبأساتذتها وإمكانياتها... وهى كلية مصاريفها لن تتجاوز عشرة آلاف جنيه فقط فى العام الواحد كما بشرنا عميد كلية طب قصر العينى الذى سيشرف أيضا على الكلية الأهلية!! وهى كلية سيلتحق بها المحظوظون.... أولاد المحظوظين من القادرين حيث يتعلمون الطب على أصوله السليمة.. بنفس المنطق... منطق السوبر والخمس نجوم فى ناحية مقابل الترسو و«لوكاندة العتبة للنوم» فى الناحية الأخرى!!

وبذلك سنكون بعون الله أمام نوعين من الأطباء، نوع أكرمه الله وتعلم بفلوسه تعليما

حقيقيا لعلاج القادرين أيضًا.. ونوع آخر من أطباء التعليم المجانى يعلم الله مدى درايتهم بالطب وهؤلاء سيتولون بالطبع علاج غير القادرين!!

ولأن جامعة القاهرة رمز للقدوة ــ أو كانت ــ فعلينا أن نتوقع أن تهرول باقى الجامعات لتكرار التجربة كما جرى من قبل فى كليات التجارة والحقوق!!

والخطورة هنا أنه لم يعد هناك للناس من أمل فى أن يكون أبناؤهم أكثر حظا منهم فى الحصول على حياة أفضل سوى أملهم فى التعليم الذى هو المصدر الأساسى لما يسمى «الحراك الاجتماعى» أى الذى يتيح للمواطن فرصة أن يتحرك من طبقة اجتماعية إلى طبقة أفضل استنادا إلى اجتهاده علميا فقط!! بحيث لا تكون هذه الفرصة متاحة فقط أمام أصحاب الثروات العشوائية والمجهولة من الذين ضاربوا على العقارات وهرّبوا الممنوعات وتزوجوا من الأجنبيات أصحاب الثروات!! فكانت كل هذه الطرق المشبوهة هى المنصة التى قفزوا منها إلى قمة المجتمع ومقاعد البرلمان وأصبحوا يملكون كل شىء!!

فرئيس جامعة القاهرة يؤمن بالخصخصة ولا يوجد ما يمنعه من تنفيذ ذلك فى جامعة القاهرة حتى، ولو لم يكن هناك ما يستند إليه فى سياسة الدولة... لأن الاستقلال لم يعد استقلال الجامعات.. بل استقلال رؤساء الجامعات!!!

تجاوزات الإدارة الجامعية

يرتبط ما سبق أو يؤدى ما سبق إلى شعور كل قيادة جامعية بسلطاتها التى هى بلا رقيب، ومن هنا وقعت حوادث الفساد والذى يشخصه الدكتور محمد أبو الغار الأستاذ بطب القاهرة بانه تسلل إلى الحرم الجامعى نتيجة لغياب الديمقراطية لسنوات طويلة وسلسلة التعيينات للقيادات الجامعية التى قد لا تتوافر فيها الكفاءة والنقاء اللازمان... وقد نتج عن ذلك أن المجالس العليا برياسة الوزير أو مجالس الجامعات والكليات فى مجملها لا تناقش إلا الموضوعات الروتينية.. أما السياسات فتاتى من أعلى جاهزة للموافقة وهكذا كبلت الجامعات وخرجت عما نص عليه الدستور وهو استقلال الجامعة التى وحدتها الأساسية هو «مجلس القسم» والذى لم يصبح له أى دور فى الأوضاع الحالية.

والجامعة تختلف عن المعهد أو المدارس العليا بانها تمارس إلى جانب التدريس وظيفة أساسية وهى البحث العلمى وبنظرة بسيطة على شبكة الإنترنت نجد أن البحث العلمى فى الجامعات المصرية ــ أو بمعنى أدق فى الكليات العملية ضعف مستواه وكاد يختفى من على خريطة البحث العلمى لولا أفراد معدودون يقومون بجهود فردية.. والمؤكد أن غياب البحث والروح العلمية هو مسئولية القيادات الجامعية التى لا تعطى اهتماما للبحث العلمى، ولم تقم بإجراء تقويم لموقف الأبحاث العلمية لتشخيص حجم الكارثة وهو أول خطوة للإصلاح وعلى الوزارات المعنية بتشجيع البحث العلمى أن تقوم بعملية فصل بين الجوائز التى تقدم فى مناسبات اجتماعية، وتلك التى تقدم لتشجيع البحث العلمى، والأخيرة يجب أن تخضع للتحكيم الدولى.

فى حين يرى الدكتور محمد على أبو العينين عميد كلية الهندسة ببورسعيد أنه إذا أردنا أن نصحح المسار للعملية التعليمية فلابد من قانون جديد ينظم العملية التعليمية الآن، لقد أعادت الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة النظر لمتطلبات التعليم العالى تحت ضرورة واضحة وصريحة هى إنقاذ هذه المجتمعات من خطر عدم التوافق مع التطور السريع جدا للتقدم التكنولوجى أو إضافة سبل جديدة للتعايش بين طبقات المجتمع.

والمجتمع المصرى يتمتع بهوية تمتد جذورها إلى آلاف السنين كان من نتائجها مجموعة ليست بالقليلة العدد من أصحاب الفكر المستقبلى التطويرى فى شتى مجالات العلوم المختلفة وليس الخطر الذى نتكلم عنه هو تزوير فى نتيجة طالب أو أكثر أو تعيين عميد مجاملة أو انحراف لعضو هيئة تدريس ولكن الخطر الأساسى هو الوضع القائم الفعلى للجامعات المصرية وما تقدمه إلى المجتمع من خريج جامعى على مستوى متدن من الفكر والأداء الوظيفى وعدم الاستمرارية فى رفع مستواه الإنتاجى مع عدم وجود القدوة والقيم والمثل المورثة لهذا المجتمع.

وإذا استطاعت الجامعة أن تعالج هذا الخريج فلن تكون هناك مشكلة من المشكلات المثارة الآن ولكى نصل إلى ذلك فلابد من قانون لتصحيح السلبيات الآتية:

● العمل الجاد على تنفيذ توصيات مؤتمرات تطوير التعليم الجامعى والتى تعقد سنويا فى الجامعات المصرية.

● استقلالية تامة للجامعات مع وجود هيئة مراقبة تعمل من خلال أسس تقويم لمسارات التعليم والبحث العلمى فى الجامعات وما قدمته إلى المجتمع من خدمات.

● زيادة المساحة لسلطات القيادات الإدارية فى الجامعة والكليات ومطالبتها بتقرير نصف سنوى من خلال الكلية والجامعة.

● تشديد الرقابة على أعضاء هيئة التدريس للوجود الفعلى فى كلياتهم حتى وإن اضطر إلى استخدام التوقيع الفعلى للحضور.

● الكتاب الجامعى لا وجود له إطلاقا فهناك كتاب مرجعى وكتاب بحثى أما الملازم فهى لشرح فكر المحاضر فقط من خلال الكتب العامة المنشورة والموجودة فى السوق وليس فى أكشاك الكتب.

● رفع ميزانية التعليم العالى فليس من المعقول أن يكون هناك تطور بحثى والميزانية السنوية المخصصة للطالب من الباب الثالث لا تزيد على ٣٠ جنيهًا فى السنة ونطالب بالبحث العلمى المتطور.

● إعادة النظر فى تعيين مدرس الجامعة بوضع فترة قبل التعيين للتقديم تحت مسمى مدرس تحت التمرين وهذه الفترة لا تقل عن عامين تحت مراقبة وملاحقة الأستاذ المتخصص ورئيس مجلس القسم.

● إنشاء الأسر العلمية من خلال طلبة القسم بريادة أحد أعضاء هيئة التدريس بالقسم ومعاونة الهيئة المعاونة لذلك.

السرقات العلمية تتحول لظاهرة

منذ سنوات وملف ما يسمى بالسرقات العلمية يتضخم يوما بعد يوم، ولم تتحرك جامعة من الجامعات لاتخاذ قرار واحد حاسم ومهما كانت الوقائع ثابتة والسارق متلبسا بالسرقة، فالعقوبة منعدمة أو شبه منعدمة ...ماذا كان مفروضا ــ على سبيل المثال ــ أن تفعل الجامعة بعد أن تتلقى تقريرا من لجنة ثلاثية تضم ستة من كبار الأساتذة بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة تقول فى ختام التقرير الذى يقع فى ٤٣ صفحة عن المقارنة بين رسالة ماجستير قدمها أحد الطلاب وبين بحث قدمه أستاذ مساعد بالقسم حتى يترقى إلى درجة أستاذ.. يقول تقرير الأساتذة إنه لاتخلو صفحة واحدة من الصفحات من بحث الأستاذ المساعد من نقل دون إشارة لفظا أو معنى من رسالة الباحث الحاصل على درجة الماجستير فضلا عن صفحات منقولة بالكامل من الرسالة وتنتهى من هذا كله ـ والكلام من تقرير اللجنة ـ إلى القول على سبيل القطع والتأكيد بأن بحث الدكتور أ.ع الأستاذ المساعد والمقدم للمناقشة فى الترقية لدرجة أستاذ فلسفة بكلية الآداب بجامعة القاهرة إنما هو منقول من رسالة الماجستير المشار إليها سابقا وهذا يعد أمرا يدعو إلى الأسف الشديد خاصة أن هذا البحث جزء رئيسى من بحوث الترقية إلى درجة أستاذ!!

ولأن الجامعة لم تجد فيما سبق مبررا كافيا راحت تبحث عن ورقة توت تستر الفضيحة ولجات إلى تشكيل لجنة ثلاثية أخرى من أساتذة جامعة أخرى هى جامعة عين شمس، فجاء تقريرها لايختلف عن التقرير السابق وهو أن الأستاذ المساعد سرق عرق وجهد طالب الماجستير ونسبه إلى نفسه حتى يترقى فيصبح أستاذا!! ولكن لأن الجامعة لاتريد لأستاذها المساعد الفضيحة بحثت عن وسيلة ثالثة فلجات إلى تكليف أستاذ من جامعة الإسكندرية لإعداد مايسمى «تقرير فاحص» لإنتاج الدكتور المتهم بالسرقة العلمية ولسوء



إذا أردنا أن نصحح المسار للعملية التعليمية فلابد من قانون جديد ينظم العملية التعليمية الآن، لقد أعادت الولايات المتحدة وفرنسا والمملكة المتحدة النظر لمتطلبات التعليم العالى تحت ضرورة واضحة وصريحة هى إنقاذ هذه المجتمعات من خطر عدم التوافق مع التطور السريع جدا للتقدم التكنولوجى

حظ الجامعة جاء تقرير الأستاذ السكندرى الفاحص مؤيدا لارتكاب الأستاذ المساعد لجريمة خيانة الأمانة العلمية وكانت النتيجة أن اضطرت الجامعة إلى إحالة الدكتور الأستاذ المساعد أ.ع.ع إلى مجلس تاديب أعضاء هيئة التدريس لما نسب إليه ما يمس الأمانة العلمية وتقديمه بحثا منقولا من رسالة ماجستير مقدمة لقسم الفلسفة بآداب عين شمس.

وتسقط على الأرض من الضحك عندما تعلم أن قرار مجلس التاديب جاء بتوجيه عقوبة اللوم للأستاذ المساعد وبعد أسبوع واحد من هذا الحكم تقدم للترقية مرة ثانية فلم يجد أساتذة القسم أمامهم سوى التوجه إلى أمين المجلس الأعلى للجامعات لتقديم مذكرة تطالب بمنع ذلك.. ولأن قرار مجلس التاديب لم يكن رادعا بما يكفى فقد تقدم الأستاذ المساعد مرة أخرى ببحث ثبت أنه أيضا منقول بل وتقدم بنفس هذا البحث المنقول إلى المجلس الأعلى للثقافة لنيل جائزة الإبداع الفلسفى لعام ٢٠٠٠. وفوجئت لجنة الفحص بأن البحث المقدم منقول من عدة مصادر ومراجع قديمة وحافل بالأخطاء والسقطات العلمية التى لاتليق بأستاذ!! وهو الأمر الذى أدى إلى أن يقوم الدكتورجابر عصفور الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة بإرسال خطاب إلى الدكتور نجيب الهلالى جوهر رئيس جامعة القاهرة تضمن حرفيا ما يلى :

«أعلنت لجنة الفلسفة بالمجلس الأعلى للثقافة عن مسابقة لجائزة أحسن كتاب فى الإبداع الفلسفى لعام ٢٠٠٠، وكان من بين المتقدمين للمسابقة السيد الدكتور/........ الأستاذ المساعد بقسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، وقد تقدم بكتاب يحمل عنوان:

«جالينوس فى الفكر القديم والمعاصر»

وقد انتهى رأى المحكمين للكتاب إلى أن الكتاب يتضمن فقرات كاملة نقلت حرفيا دون إشارة إلى مصدرها مما يدخل فى عدم الأمانة العلمية كما هو موضح فى التقارير المرفقة.

وقد رأيت أن أبعث إليكم بصورة من هذه التقارير لاتخاذ ما ترونه من إجراءات مناسبة تجاه هذا الوضع والتوقيع للدكتور جابر عصفور أمين المجلس الأعلى للثقافة الذى يبدو أنه ما زال يتوهم أن الجامعة كما كانت أيام كان هو أستاذا.. وكان متأكدا أن رئيس الجامعة سيتخذ من الإجراءات ما يردع كل من يفكر فى خيانة الأمانة العلمية.. ولكن مضى على الخطاب سبعة أشهر لم يحرك فيها رئيس الجامعة ساكنا فما الذى يمنعه.. وما الذى يمنع أى مدرس أو أستاذ مساعد أن يسطو على أبحاث الغير وينسبها إلى نفسه ما دام أنه لاعقاب ولا حساب؟ أو جاء العقاب من نوع ما اتخذه رئيس جامعة المنوفية الدكتور مغاورى دياب من عقوبات قاسية على عميد كلية السياحة والفنادق بالجامعة الذى اتهم بسرقة علمية ومخالفات أكاديمية فما كان من رئيس الجامعة إلا أن عاقبه «بالموافقة على قبول استقالته كعميد وعودته أستاذا للكلية المنتدب منها»!؟

والمؤكد أنه لم يعد خافيا على أحد كل أشكال الفساد التى تطرقت إلى الجامعات المصرية، والتى أصبحت موضوعا تنشره الصحف المعارضة منها والقومية، ومن أشكال هذا الفساد تفشى ظاهرة السرقات العلمية فى جامعاتنا العريقة ذات السمعة الطيبة والتقاليد العلمية الراسخة فيما مضى، ورغم كثرة وقائع السرقة العلمية التى يتم الكشف عنها، فإننا لا نرى إعمالا للجزاءات الرادعة التى تقضى بعقوبة الفصل لأى عضو هيئة تدريس يصدر عنه ما يمس شرف المهنة، وكان من شان هذا أن أصبحنا نرى من يرتكبون السرقة العلمية ويفلتون من

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، يا سيدى! تأمل؛ إنك فى حالة كهذه (فى كل ما سبق من الكلام الغامض قد شبه فيه «رنزى» بصيادى السمك)، لا تحرمن رجلاً رقيق الحال أملاكه، وهو رجل ضعيف أنت تعرفه، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النَّفَس له، ومن يغتصبها يكتم أنفه، ولقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين، وتكبح جماح اللص، ولكن تأمل. فإن ما تفعله هو أنك تعاضد اللص. والإنسان يضع ثقته فيك ولكنك أصبحت معتديًا. لقد نصبت سدًا للفقير فاحترس خوفًا أن يغرق، ولكن تأمل. إنك تيار سريع له. . .».

الشكوى السادسة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح للمرة السادسة ليشكو فقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، إن حزنى يفضى إلى نزاع، واتهامى يؤدى إلى تحول، والإنسان لا يعرف ما فى القلب. لا تكن خاملاً بل اهتم بالتهمة. فإذا قطعت فمن الذى يصل؟ إن مجداف القلوب فى يدك كالعمود السهل المتناول عندما يوجد الماء العميق. فإذا ارتطم القارب فإنه يدفع ولكن حمولته تتلف وتضيع على كل شاطئ رملى».

«إنك متعلم وإنك ماهر وإنك عادل، ولكن ليس فى النهب. (والآن) فإن مثلك مثل كل بنى الإنسان كل أعمالك ملتوية، ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيمًا إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجًا). . .».

الجامعات المصرية

العقاب، بل ويكرمون أحيانا ويتولون مناصب قيادية فى التعليم الجامعى ويتحكمون فى أعمال لجان ترقية الأساتذة، ومن أشكال الفساد أيضا تفشى ظاهرة الدروس الخصوصية وتزوير نتائج الامتحانات فى بعض الكليات، ولم تكن واقعة التزوير فى كلية طب القاهرة هى الواقعة الأولى، ولانظن أنها ستكون الأخيرة إذا استمر الحال على ما هو عليه.

إن كثيرا من وقائع السرقة العلمية والدروس الخصوصية والتزوير يتم إبلاغها للمسئولين بالجامعات بمن فيهم أمين المجلس الأعلى للجامعات، فلا يحرك أحد ساكنا، وحتى إذا تحرك وأحال الموضوع إلى مجلس تاديب، فإن غاية مايتم توقيعه من جزاءات عادة هو عقوبة اللوم! وكان الجامعة تكتفى بمعاتبة من يخل بشرف مهنته، وتناشده ألا يفعل ذلك مرة أخرى.

ولاشك أن أحد الأسباب الجوهرية لكثير من ظواهر الفساد الجامعى هو الترخص الشديد فى تطبيق لائحة الترقيات التى تقضى بإجازة البحوث المبتكرة فقط، لا البحوث المنقولة فضلا عن المسروقة، وليس بخاف على أحد المخالفات والتجاوزات المذهلة التى تحدث فى لجان ترقيات الأساتذة كمثال صارخ على الخلل الحادث فى اللجان العلمية، وهو ما يتطلب تغييرا جذريا فى تلك اللجان. وقد أدى هذا إلى تدنى المستوى العلمى لكثير من الأساتذة: فماذا ينتظر من لجان علمية تضم بين جنباتها أساتذة يتورطون فى السرقة العلمية، يمارسون حق الإشراف العلمى على تلاميذهم ويضمنون لهم الترقية عند التقدم لها؟ ماذا ينتظر من مثل هؤلاء سوى أن يقدموا للجامعة جيلا جديدا من أساتذة شديدى الضعف، يتفوقون على أساتذتهم فى فنون السرقة العلمية، ويتحولون إلى تجار لبيع المذكرات، ويحترفون الدروس الخصوصية!! وماذا ينتظر من مثل هؤلاء الأساتذة الذين ينتسبون إلى اللجان العلمية سوى أن يحاولوا فى الوقت نفسه التصدى إلى المتميزين من أعضاء هيئة التدريس والحيلولة دون ترقيتهم، فالقاعدة هى أن الشيء لايحب أن ياتى إلا بمن هو أسوأ منه.

وفى هذا الصدد يصبح ضروريا اتخاذ مايلى:

١ـ تاكيد استقلالية الجامعات، وأول شروطها أن تكون مناصبها القيادية بالانتخاب.

٢ـ صياغة مشروع قانون يعمل على إصلاح الأوضاع العلمية والمالية للجامعيين فى نفس الوقت الذى ياتى فيه متشددا فى صياغة لائحة جزاءات رادعة.

٣ـ أن يستبعد من لجان الترقيات أى عضو يدان بتهمة السرقة العلمية أو يتستر عليها.

٤ـ أن يستبعد من الإشراف العلمى على الرسائل الجامعية أو أنشطة الطلاب أى عضو هيئة تدريس يدان بالسرقة العلمية أو بما يمس أمانته وشرف مهنته.

٥ـ إجراء التحقيق الفورى فى كل ما ينشر بالصحف أو يبلغ للمسئولين بالجامعة عن السرقات العلمية وغيرها من صور الفساد الجامعى.

٦ـ صياغة لائحة جديدة للجان الترقيات تضمن حيدتها ونزاهتها، على أن تتضمن ما يلى:

(أ) ضرورة تحقيق توازن فى عدد أعضاء اللجنة الممثلين لفروع التخصص الدقيق، فلا يعقل أن يطغى فرع واحد من فروع التخصص على بقية الفروع، كما هو حاصل حاليا على سبيل المثال فى لجنة الفلسفة التى تضم سبعة أعضاء فى تخصص الفلسفة الإسلامية من مجموع أعضائها البالغ اثنى عشر عضوا.

(ب) وأن تشتمل بحوث المتقدمين للترقية على بحث واحد على الأقل منشور فى مجلة أجنبية محكَّمة وأن يشارك فى تحكيم البحوث أستاذ من خارج مصر.

(ج) حضور الفاحصين من الأساتذة المصريين من خارج اللجنة عند عرض التقارير.

ماذا يتعلم الطالب المصرى؟ وماذا يتعلم طلاب العالم من حوله؟

هذا هو السؤال الذى تحدد إجابته مدى ما وصلنا إليه ففى ظل كل هذه السياسات الخاطئة كان منطقيا أن يتدهور المستوى العلمى لعضو هيئة التدريس «المشغول» فى سوق الدروس الخصوصية والتجارة ولايجد الوقت لملاحقة التطور العلمى فى تخصصه أو المشاركة فى المؤتمرات العلمية أو حتى مجرد الاطلاع على الدوريات العلمية الحديثة وبالتالى تجمد مستواه العلمى وتجمدت المناهج الدراسية، وأصبح محتواها العلمى متزامنا مع الألفية التى مضت بل إنه فى بعض التخصصات العلمية كالطب والهندسة ما زالت مناهجها العلمية لاتتجاوز ما كان يدرس للطالب قبل ثلاثين عاما!! وبالتالى أصبحت هناك هوة واسعة تفصل بين ما يدرسه الطالب فى جامعاتنا وما يدرسه الطالب ـ فى نفس التخصص فى جامعات العالم من حولنا .. لانتحدث عن الجامعات الأمريكية أو الأوروبية بل نتحدث عن جامعات دول مجاورة .. فى هذه الدول وفى جامعات باقى الدول يتعلم الطالب كيف يبحث عن المعلومة وفى جامعاتنا مازال أساتذتنا لايعرفون سوى تعليم الطالب ضرورة أن «يحفظ» المعلومة ويختزنها بمفهوم الصم!! ما زلنا فى مدارس التلقين بينما جامعات العالم انتقلت إلى مدارس التفكير والإبداع.

جامعاتنا اليوم تقف عند مفترق الطرق وعليها أن تختار بين طريق السلامة أو طريق الندامة أو طريق اللاعودة!! وللأسف فإن الوقت المتاح أمامها للاختيار قد وصل إلى نهايته وما لم تتحرك سريعا سوف يصبح الانحدار فى طريق اللاعودة هو الطريق الوحيد الذى ستنجرف إليه برضاها أو رغما عنها..

تقدم صناعى
توسع جغرافى
واستمرار فى العدوان

سلمان أبو ستة

> اشترك فى هذه الدراسة أكثر من ٢٥٠ خبيراً فنيا من كبار المهنيين فى إسرائيل. واشترك فى العمل خبراء أجانب للإفادة من خبراتهم فى مواضيع مماثلة أو مطلوب دراستها

كيف ترى إسرائيل كبلد نفسها فى عام ٢٠٢٠؟ هذا سؤال شرعى يواجهه كل بلد، لأن إجابته تتطلب تخطيطاً لزيادة السكان والموارد الاقتصادية ورفاهية أهل البلد. ولكن ماذا عن إسرائيل ؟ كيف تخطط لأرض لا تملك ٩٢٪ من مساحتها بل هى أرض فلسطينية ؟ كيف تخطط وهى تحتل الضفة الغربية وقطاع غزة، ولا تعرف على وجه اليقين، هل ستبقى فى حوزتها أم ستصبح دولة فلسطينية ؟ كيف تخطط وهى لاتزال تحتل الجولان وتناوش على الجنوب اللبنانى وعلاقاتها مع سوريا ولبنان بين حرب وسلام ؟ كيف تخطط لبلد، أكثر من نصف اليهود فيه مهاجرون، والنصف الآخر جيل جديد ولد لتوه فى البلاد ؟ كيف تخطط لبلد يعتمد اقتصاده أساساً على التقنية العالية التى تستوردها إسرائيل من مصدر واحد هو أمريكا، ثم تعيد تصديرها إليها بعد التعديل ؟

هذه المواضيع والمشاكل كانت موضوع دراسة شاملة موسعة لعدد كبير من الخبراء بدأت فى عام ١٩٩٤ لتستشرف صورة إسرائيل بعد ربع قرن أى فى عام ٢٠٢٠، اشترك فى هذه الدراسة أكثر من ٢٥٠ خبيراً فنياً من كبار المهنيين من المكاتب والشركات الهندسية والمتخصصة والأكاديميين من كل الجامعات فى إسرائيل وممثلين لعشر وزارات، وممثلين عن الوكالة اليهودية وسلطة المياه ودائرة أراضى إسرائيل.

واشترك فى العمل خبراء أجانب للإفادة من خبراتهم فى مواضيع مماثلة أو مطلوب دراستها جاءوا من أيرلندة والدنمارك وهاواى وبريطانيا والسويد واليابان وهولندا وألمانيا، وبالطبع الولايات المتحدة.

تم العمل تحت إشراف صمويل نيمان (Neaman) فى معهد التخنيون(Technion) فى حيفا، وقام بتولى عمليات التنسيق والإدارة البروفيسور آدم مازور. وصدر العمل كاملاً عام ١٩٩٧ فى ١٨ مجلداً فى كل الاختصاصات مدعماً بالجداول والخرائط والرسوم.

تحت عنوان «لنحول الحلم إلى حقيقة».

يسعى مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠ إلى تحقيق أهداف عديدة بعضها متناقض. أولها يهدف المخطط إلى تخطيط بعيد المدى خلال ٢٥ سنة فى ظروف الشرق الأوسط التى لا يستطيع أحد التنبؤ بها، وكذلك يتعرض المخطط لضائقة محدودية الأرض التى تسيطر عليها إسرائيل ولا تكفيها للتوسع. ويسعى المخطط إلى إجراء التوازن بين المناطق العمرانية كثيفة السكان والمساحات الواسعة التى لاتزال خالية، وكذلك إلى كيفية الموافقة على المقترحات والقبول بها من كافة القطاعات الرسمية والشعبية. ويناقش المخطط احتمالات السلام وكيف يواجهها. كما يضع المخطط اقتراحات لآلية التنفيذ، لتحويل هذه الأفكار إلى واقع.

هذه الدراسات كلها تلخصت فى ثلاثة اسئلة رئيسة هى:

أولاً: ما الصورة المستقبلية لإسرائيل كدولة فى مصاف الدول الصناعية الأولى.

وثانياً: ما علاقة إسرائيل بما يسمى «بالشعب اليهودى» فى العالم، هل هى علاقة شراكة أم تبعية أم تعاون؟

وثالثاً: ما طبيعة إسرائيل فى أجواء «السلام»؟

وفى ضوء كل من هذه الأسئلة، يقدم المخطط تقديرات مدروسة للقدرات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية والسياسية والأمنية (العسكرية). ولكل من هذه الأسئلة ٤ درجات من التوقعات: أولها، استمرار الوضع الحالى كما هو عليه، والثلاثة الباقية: تقدير متفائل وآخر متشائم (أو أدنى) والثالث الأكثر احتمالاً.

على أن جميع المحاور تخضع لقاعدة أساس يتم العمل بموجبها وعليها وهى الأرض والناس، الأرض هنا هى الأرض الفلسطينية التى احتلتها إسرائيل عام ١٩٤٨ والأرض السورية التى احتلت فى الجولان وكلتاهما تدخل فى الحسابات الإسرائيلية، بينما لا تدخل الضفة وغزة فى هذه الحسابات. تبلغ مساحة إسرائيل التى بنيت عليها الدراسات ٢٢٥٠١كم٢. وهذه أكبر من مساحة إسرائيل عام ١٩٤٨، وهى ٢٠٢٥٥كم٢. منها ١٦٨٢كم٢ أرض تعتبر يهودية أثناء الانتداب البريطانى ومنها أيضا المناطق المنزوعة السلاح التى ضمتها إسرائيل بصورة غير شرعية فى العوجة جنوبا وعلى الحدود السورية شمالاً، ومنها أيضا ضم القدس الغربية خلافاً للقانون الدولى. والفرق بين مساحتى إسرائيل وهو ١٢٤٦كم٢ هو عبارة عن مساحة الجولان البالغة ١١٥٤كم٢، والأراضى التى قضمتها إسرائيل من جراء التعدى على خط الهدنة فى الضفة وغزة وإضافة المناطق الحرام إلى إسرائيل بصورة غير شرعية مضافا إليها تعديلات على الحدود الأردنية بعد معاهدة السلام الأردنية الإسرائيلية وكلها تساوى ٩٢كم٢ على الأقل. ولم يرد ذكر هذا التعدى ولا مقداره فى أى مطبوعة عربية.

كيف تستعمل الأراضى فى إسرائيل ؟ لقد كتبنا كثيرا فى دحض الادعاءات الإسرائيلية حول عدم إمكانية تحقيق حق العودة للاجئين الفلسطينيين، ووجدنا أن حوالى ٨٠٪ من اليهود فى إسرائيل يعيشون فى ١٥٪ من مساحة إسرائيل وأن ١٨٪ من اليهود الباقين يعيشون فى مدن فلسطينية أصلاً، وتبقى حفنة ضئيلة من اليهود فى الكيبوتز يعيشون فى مساحات واسعة من الأراضى الفلسطينية بعد أن أصبح أهلها لاجئين. الآن يأتى مخطط إسرائيل ليؤكد هذه الأرقام ويستعملها كقاعدة للتخطيط بحيث يبقى ٨٠٪ من اليهود يعيشون على ٢٠٪ من إسرائيل.

ولا يرى المخططون أن هذا الوضع سيتغير فى المستقبل إلا قليلاً. والسبب، كما يرون، أنه من الأفضل تحسين البنية التحتية وتقويتها فى منطقة محدودة، بدلاً من انتشار البنية التحتية على رقعة كبيرة وضعفها. كما أن هناك حاجة كبيرة للحفاظ على البيئة - بما فيها الأماكن المفتوحة والغابات.

وبالتدقيق فى مساحة إسرائيل والجولان المشار إليها (٢١٥٠١ كم٢) واستعمالات الأراضى فيها، نجد أرقاماً فى غاية الغرابة. تستهلك المساحات العمرانية ٥٪ فقط من مساحة إسرائيل بما فى ذلك الأماكن الفضاء والشوارع بينها (الصافى ٢٪ فقط). وتستهلك الأراضى الزراعية ٤٤٠٠كم٢ أو ٢٠٪ من مساحة إسرائيل. أما الباقى وهو ٧٥٪ فهو خاضع لسيطرة الجيش، بالاستعمال العسكرى للمعسكرات والمطارات وتدريب المدفعية والمناورات والمصانع العسكرية، وهذا يستهلك ٣٣٪. والباقى احتياطى يستعمل حالياً كمناطق مفتوحة، أو خالية، أو مناجم أو غير ذلك. أى أن ثلاثة أرباع مساحة إسرائيل تستعمل لأغراض عسكرية أمنية، وأن الربع فقط هو المستعمل للاستعمالات الزراعية، وأن ربع هذا الربع يستعمل للسكن !

وهذا الوضع لن يتغير كثيرا فى عام ٢٠٢٠. حسب المخطط: إذ ستزيد مساحة المناطق العمرانية

يصدر مركز الدراسات العربية فى بيروت قريبا الترجمة العربية لمشروع إسرائيل ٢٠٢٠ الذى أصدره معهد التخنيون فى حيفا عام ١٩٩٧

كيف ترى إسرائيل نفسها

بمقدار ٦٥١كم٢ فقط من ١١٤٨كم٢ إلى ١٧٩٩كم٢.

ويناقش المخطط عدد السكان بكثير من الحذر، لأنه يتعلق جذرياً بقدرة إسرائيل على جذب اليهود في العالم للهجرة إلى إسرائيل. ولذلك فإن تقديرات عدد السكان لعام ٢٠٢٠ المذكورة في المخطط لا تشمل الهجرة اليهودية إلا في أضيق نطاق. يتوقع المخطط أن يكون عدد السكان في إسرائيل كلها عام ٢٠٢٠، حوالي ٨١٠٠٠٠٠ من هؤلاء ٥٨٣٢٠٠٠ يهودي بزيادة سنوية ١٪ فقط و٢،٢٦٨،٠٠٠ فلسطيني بزيادة سنوية ٣٪. وهذا يعني أن نسبة الفلسطينيين (بمن فيهم سكان القدس) إلى اليهود ستزيد من ٢٣٪ عام ١٩٩٤ إلى حوالي ٤٠٪ عام ٢٠٢٠.

إن ما يسمى لديهم بالقنبلة الديموغرافية إنما هو تعبير عن عنصرية الصهيونية التي تسعى إلى إبقاء إسرائيل «نقية» من العرب. لا مناص لإسرائيل إلا أن تقبل بالواقع وهو أن تعيش في مجتمع مختلط تسوده الديموقراطية، وأنه لا يمكن أن تبقى إسرائيل يهودية خالصة، إلا إذا تقلصت المساحة التي يتركز فيها اليهود كلما قلت نسبتهم. وهذا يحولهم مع الزمن إلى غيتو يهودي خالص، وهو الثمن الذي يدفعونه لرفض التعايش مع محيطهم.

وإسرائيل لا تقبل الآن بهذا الواقع. فهي تحاول إيجاد وسائل أخرى لمطاردة وهم دوام الأكثرية اليهودية. وبدراسة متأنية لتوزيع الفلسطينيين واليهود في إسرائيل عامي ١٩٩٤ و ٢٠٢٠ حسب المخطط الإسرائيلي، نجد أن إسرائيل تنوي القيام بعملية تنظيف عرقي جديدة لتحقيق ذلك. ودون أن يذكر المخطط هذا صراحة، إلا أن مقارنة الأرقام وتوزيع السكان بين عامي ١٩٩٤و٢٠٢٠، يؤدي إلى استنتاج أن المخطط يهدف إلى الآتي: نقل الفلسطينيين من مراكز تجمعهم الحالية في الجليل والمثلث إلى وسط البلاد حيث الكثافة اليهودية، وحيث يفقدون قاعدتهم الزراعية والاقتصادية ويصبحون أجراء لدى اليهود. وبالمقابل يُشجّع اليهود على الانتقال من الوسط إلى الجليل والمثلث والنقب، بإغراءات الإعفاء من الضرائب وبالدعم الاقتصادي، لكي يقطعوا أوصال التواصل العربي السكاني الممتد من الشمال إلى الجنوب محاذياً لخط الهدنة. ويلاحظ أيضا أن إعادة التوزيع هذه تمنع الفلسطينيين من تكوين غالبية سكانية في أي مما يسمى «بالمناطق الطبيعية» - وهي أصغر تقسيم إداري للبلاد. وللسبب نفسه، وقبل إصدار المخطط، قامت إسرائيل بإنشاء طريق سريع واسع (رقم ٦) من الشمال إلى الجنوب يخترق المناطق الفلسطينية في إسرائيل ويستولي على بعضها ويقسمها إلى مناطق منعزلة دون أن يفيدها اقتصاديا أو يصلها بهذا الطريق.

وكأنما كانت هذه الخطط للتنظيف العرقي غير كافية، فلا يزال الذعر مسيطراً في إسرائيل من إمكانية بعث الحياة في الوجود الفلسطيني من جديد داخل وطنه الأصلي. والدليل على ذلك أنه في يناير عام ٢٠٠١، اجتمع حوالي ٣٠٠ خبير من وزارة الدفاع والجامعات في هرزليا شمال تل أبيب في مؤتمر عنوانه «توازن القوة الوطنية والأمن». ترك هؤلاء أسلحتهم النووية والجرثومية وصواريخهم وطائراتهم لمناقشة الخطر الداهم على إسرائيل وهو الأم الفلسطينية: إذ هي تلد ٦ر٤ طفل في المتوسط مقابل ٦ر٢ طفل للمرأة اليهودية. وهذا يعني أن لدى الفلسطينيين سلاحا لا يقاوم هو القنبلة الديموغرافية، ولو كان النازيون لايزالون يحكمون ألمانيا لما خرجوا بتوصيات أفضل من هذه. قدم المؤتمر توصياته إلى رئيس الدولة وهي كالآتي: قطع المعونات الاجتماعية عن الأسر الفلسطينية، ترانسفير (ترحيل) العرب من الجليل والمثلث والنقب إلى أماكن أخرى، واستبدالهم باليهود، ضم المناطق العربية في إسرائيل إلى الكيان الفلسطيني مقابل ضم المستوطنات في الضفة إلى إسرائيل، منح الفلسطينيين في إسرائيل إقامات دائمة بدلاً من الجنسية الإسرائيلية ومنعهم من التصويت، زيادة الأصوات اليهودية في الانتخابات بالسماح للإسرائيليين في الخارج بالتصويت. وهناك أيضا اقتراح بمنح كل يهودي في العالم جنسية إسرائيلية حتى لو لم يطلبها ولو بقي في بلاده. هذا الذعر الهائل يشي بضعف المشروع الصهيوني، والإدراك بأنه لا محالة فاشل مهما طال الزمن، وأن الأرض المغتصبة لابد أن تعود لأصحابها.

ويبدو أن المبدأ الصهيوني في «عودة اليهودي إلى أرضه» خلال نظام الكيبوتز قد فشل من حيث المبدأ ومن حيث الجدوى الاقتصادية. وتوشك الحكومة على إعلان وفاته. وهذه الأرض التي يستغلها الكيبوتز هي الأرض التي طرد منها أهلها وأصبحوا لاجئين. وأصبح الآن ٨٦٠٠ شخص فقط من مزارعي الكيبوتز هم الذين يعيشون على الزراعة، مقابل ٥٢٥٠٠٠٠ لاجيء أصحاب هذه الأرض محرومون من العودة إليها. ولذلك عمدت إسرائيل إلى «بيع» أراضي اللاجئين لمقاولي العقارات وبناء شقق عليها وتوزيع الربح بين الحكومة وبين المزارعين المستأجرين لهذه الأرض، مما يمثل خرقا واضحا للقانون الدولي.

مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠. المنسق العام: البروفسور آدم مازور. التخنيون، حيفا ١٩٩٧



كيف ترى إسرائيل نفسها

إسرائيل فى مصاف الدول الصناعية الكبرى

يهدف مخطط إسرائيل ٢٠٢٠ إلى وضع إسرائيل فى مصاف الدول الثمانية الأولى فى العالم حسب معايير اعتمدها المخطط. وهذا يعنى أنها أرقى من هذه الرتبة فى بعض النشاطات وأدنى منها فى نشاطات أخرى. ويحاول المخطط ردم بعض الهوات التى تعيق وصول إسرائيل إلى هذه الرتبة، وهى رقعة إسرائيل الصغيرة والكثافة السكانية المحصورة جغرافيا، وما يتبع ذلك من مشاكل التلوث والازدحام وملوحة المياه. وبالمقابل يثمّن المخطط إنجازات إسرائيل ومنها كمية التطوير الهائلة فى إسرائيل التى أدت إلى تقوية الاقتصاد ورفع مستوى جودة الحياة، وقد شكل التحديث التكنولوجى على الأخص قوة دافعة فى الصناعة العسكرية والصناعات الأخرى.

ففى مجال الاقتصاد والخدمات، تتوقع إسرائيل أن يصل ناتجها القومى العام إلى ٢٢٠ مليار دولار عام ٢٠٢٠ (حوالى ٢٧٠٠٠ دولار للفرد فى السنة أو ٣٧٠٠٠ دولار للفرد اليهودى فى السنة)، أى بزيادة أكثر من ضعف الناتج القومى الحالى. والناتج الحالى هو أكبر من نظيره فى مصر رغم أن عدد السكان ١٠ أضعاف عدد سكان إسرائيل. ويرى المخطط أن إسرائيل تقع فى مصاف الدول الصناعية بالقياس إلى نسبة الحضر العالية وقلة عدد سكان الريف، وعدد العاملين فى الخدمات (الدرجة السابعة بين ٢٤ دولة)، وحصة الخدمات فى الناتج المحلى الخام (الدرجة الثامنة) والعدد المنخفض للعاملين فى الزراعة (الدرجة السادسة) ونسبة رأس مال البشرى الذى يتمتع بدرجة عالية من التعليم العالى.

وحسب مخطط ٢٠٢٠، سيتوزع العاملون فى القطاعات الاقتصادية الرئيسة فى البديل الخاص بالتركيز على الصناعة كالآتى:

صناعة ٢٨٪، خدمات عامة ٢٢٪، تجارة وفنادق ١٦٪، شئون مالية ١٣٪ بنية تحتية ١٠٪ خدمات شخصية ٩٪ زراعة (أقلها) ٢٪. ويبدو التركيز واضحاً على الصناعة والخدمات مع إهمال الزراعة. وهذا يحتاج إلى قوة عاملة عددها ٣٢٠٠٠٠٠ عامل. ونسبة مشاركة القوة العاملة بالنسبة لعدد السكان نسبة هائلة تصل إلى ٤٠٪. بينما تبلغ هذه النسبة فى مناطق السلطة الفلسطينية ٢٠٪ وهى تشمل العاطلين عن العمل أيضاً، أى أن مشاركة القوة العاملة فى المجتمع تبلغ فى إسرائيل ضعف مثيلتها فى بعض البلاد العربية وأكثر.

أما فى المجالات الديموغرافية والطبيعية والبيئية، فتتأخر إسرائيل عن مثيلاتها فى الدول الصناعية، خصوصا فى مشكلة الكثافة السكانية وفى مستوى ملكية السيارات الخاصة ومستوى استهلاك الطاقة للفرد.

وللتغلب على هذه العقبات، يلجأ المخطط إلى ردم الهوة بالقياس إلى أربعة مسارات: مسار الدول الموجودة على هامش العالم الصناعى، مسار أوروبا الغربية، مسار أمريكا الشمالية، مسار اليابان.

يجد المخطط أن تقدم إسرائيل أكثر مقاربة لمسار أوروبا الغربية ويقتدى بهذا النموذج، وإن كان متأخراً عنه بعقد من السنين، ويتوقع اللحاق به خلال العشر سنوات القادمة. ويعترف المخطط بان تخلف إسرائيل عن أوروبا ليس مرده خللا فى التطور الصناعى، بل زيادة فى السكان بسبب الهجرة ومعدلات فى التنمية تفوق مثيلتها فى أوروبا وتؤدى إلى زيادة فى النفقات، فبينما يبلغ معدل السكان السنوى فى أوروبا الغربية ٠,٤٪، يصل هذا المعدل إلى ٢,٢٪ (مع الهجرة) فى إسرائيل. (لكن هذه الزيادة فى السكان وإن أنقصت من حالة الرفاه الاجتماعى مؤقتا، فإنها فى المدى البعيد سترفع الناتج القومى بسبب المساعدات المالية التى تتدفق على المهاجرين وبسبب القدرة على استيعابهم فى الصناعة بعد ذلك). ويقارن المخطط بين هذا الوضع وقدرة ألمانيا واليابان على إعادة توظيف طاقاتها بعد دمار الحرب العالمية الثانية. ويتوقع المخطط أن تحقق إسرائيل مكانة عالية فى مصاف الدول الصناعية بسبب «أحجام التنمية الضخمة المتوقعة فى إسرائيل، والطاقات البشرية الرائعة الموجودة تحت تصرفها ومستقبلاً بفضل نظام التعليم المتطور وهجرة اليهود من الخارج إلى إسرائيل»، كما جاء فى النص.

إسرائيل واليهود فى العالم

يشغل هذا الموضوع المخططين كثيراً، وهم يتحدثون عن اليهود كشعب يهودى متجانس واحد ولكنه موزع جغرافيا. ويتساءلون أيهما أفضل لإسرائيل: أن يأتى كل اليهود إلى إسرائيل بحيث تصبح «بيت اليهود ومركز حضارتهم ومستودع ذاكرتهم الجماعية»، أو أن تبقى الجاليات اليهودية مسيطرة على زمام المال والسياسة فى الغرب؟ ويبقى الموضوع سجالاً، إلا أن الاتجاه السائد هو زيادة الهجرة إلى إسرائيل من الجاليات التى لا تنفع إسرائيل كثيراً، والمحافظة على وجود اليهود فى البلاد المهمة.

ولابد أن هذا كان دائماً ديدن اليهود، لأن ٩٨٪ من اليهود يعيشون فى البلاد الغنية والصناعية، ولا يعيش فى الأقطار الآسيوية والأفريقية إلا ٢٪. ويطمح المخطط إلى أن تزيد نسبة اليهود فى إسرائيل من ٣٤٪ من يهود العالم اليوم إلى ٥٢٪ فى عام ٢٠٢٠.

لقد صرح شارون بأنه يريد استجلاب يهود العالم إلى إسرائيل. لكن المخطط الإسرائيلى الذى يبين عدد اليهود وأوضاعهم فى بلاد العالم وحاجة إسرائيل إليهم يبيّن أن هذا الهدف غير قابل للتحقيق بأكمله.

يقدر عدد اليهود فى العالم عام ٢٠٢٠ بحوالى ١٢٨٥٠٠٠٠ كحد أدنى و ١٣٨٢٠٠٠٠ كحد أقصى، سيكون منهم فى إسرائيل ٥٦٣٤٠٠٠ (٤٢٪) كحد أدنى و ٦٨٦٣٠٠٠ (٥٢٪) كحد أقصى. لكن عدد اليهود فى العالم يتناقص بنسبة ٠,٥٪ فى السنة بسبب التزاوج والتخلى عن الالتزام الدينى فى البلاد الغنية. ونسبة اليافعين من سن صفر إلى ١٤ سنة فى إسرائيل تبلغ (٢٣-٢٥٪) وهى أعلى بكثير من نسبتهم بين اليهود فى العالم (٩ - ١٤٪). وهذا معناه أن إسرائيل تستطيع صهر مجتمع جديد فى قالبها، وحسب نظام تعليمها المتطور، رغم أن هذا يعنى تكاليف أعلى من استحضار مهاجر كامل التعليم مثل حالة الروس.

ويؤكد المخطط على ضرورة بقاء الجالية اليهودية فى أمريكا قوية متماسكة مع توثيق التعاون معها بواسطة برامج عديدة. بينما يرى المخطط فى إنجلترا طائفة فاشلة عديمة القيمة(!). وباستثناء روسيا التى يرى المخطط ضرورة بقاء طائفة مهمة فيها، وفرنسا لأسباب تاريخية، يتوقع نزوح باقى الجاليات إلى إسرائيل. وهذا ما عناه شارون عندما دعا إلى هجرة كل اليهود إلى إسرائيل.

ويقدر عدد اليهود عام ١٩٩٣ فى أهم بلاد العالم كالآتى بالترتيب: الولايات المتحدة ٥٦٥٠٠٠٠، إسرائيل ٤٣٣٥٢٠٠، فرنسا ٥٣٠٠٠٠، روسيا ٤١٠٠٠٠، كندا ٣٥٨٠٠٠، بريطانيا ٢٩٦٠٠٠، أوكرانيا ٢٤٥٠٠٠، الأرجنتين ٢١٠٠٠٠، البرازيل وجنوب أفريقيا ١٠٠٠٠٠ لكل منهما، والباقى أقل من ذلك.

وبتفحص هذه الأرقام وتقدير عدد المستهدفين من الهجرة، نجد أن أعلى تقدير لهجرة اليهود لن يتجاوز ١٦٠٠٠٠٠ وأدنى تقدير ٨٠٠٠٠٠، فى حال بقيت الظروف فى إسرائيل مواتية ومشجعة للجذب، أو كانت الظروف فى الخارج مساعدة على طرد اليهود منها، (بسبب الأحوال الاقتصادية كما حدث فى روسيا أوائل التسعينيات، وهو الوضع الذى تغير الآن).

تحت عنوان: «لنحوّل الحلم إلى حقيقة» يسعى مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠ إلى تحقيق أهداف عديدة بعضها متناقض

هذا يعنى أن لهجرة اليهود سقفاً أعلى مهما اختلف مكانه، وأنه سيأتى اليوم الذى يتجاوز فيه الفلسطينيون فى إسرائيل عدد اليهود فيها بغض النظر عن الهجرة. وهذا ما نقدره فى عام ٢٠٧٠ كحد أقصى. لكن نسبة الفلسطينيين الآن فى فلسطين التاريخية، التى تشمل إسرائيل والضفة وغزة، تساوى ٤٧٪ من مجموع السكان، ونسبة اليهود ٥٣٪. ولو أخذنا فى الاعتبار أن نسبة كبيرة من الروس هم من غير اليهود، لانعكست هذه النسبة لصالح الفلسطينيين. ولذلك فإن الغالبية العربية ستتحقق لاشك، وخطط إسرائيل فى المحافظة على الأغلبية ما هى إلا وهم وسراب.

وترغب إسرائيل فى أن تكون «مركز الذاكرة اليهودية والثقافية والملجأ» لكل اليهود، وعليها أن تطور قدراتها لكى تستطيع التدخل لإنقاذ اليهود فى أى مكان فى العالم سياسيا وإعلاميا وعسكريا أيضا. وبالمقابل فإن على «يهود الشتات» تعزيز جهودهم لتكريس تفوق إسرائيل فى الاقتصاد والأمن. ولكى يتم هذا، فإنه يجب منع الذوبان اليهودى فى مجتمعات الدول الأخرى، وذلك بالتأكيد على تفوق المبدأ الصهيونى وتعليمه للصغار وعلى مستويات مختلفة فى المجتمعات. (على هذا الأساس، موّل بعض الصهاينة الأغنياء برنامج «حق مسقط الرأس»، لإحضار اليافعين من اليهود لزيارة إسرائيل وتشرب المبادئ الصهيونية فى إجازة مجانية. آخر فوج أحضر ٥٠٠ روسى من الصبيان للتعرف على إسرائيل والإقامة فى الكيبوتز).

ويأخذ المخطط فى الاعتبار أن اليهود ليسوا نسيجاً متجانساً، وإنما هم عينات من شعوب العالم، كل يمثل حضارة بلده. ولكنه يحاول إيجاد خيط مشترك بينهم حول الدين اليهودى والعقيدة الصهيونية معاً. ويذكر أن هناك مشاكل اجتماعية بين اليهود أنفسهم فى إسرائيل وهم يمثلون العالم كله، ثم هناك مشاكل بين يهود إسرائيل «ويهود الشتات»، وأيضا مشاكل بين يهود وغير يهود (يقصد الفلسطينيين) فى إسرائيل نفسها.

ورغم أن المخطط يقدر كثيراً الإنجازات فى إسرائيل خصوصا على الصعيد العسكرى والاقتصادى، إلا أن الطموحات أكثر بكثير من الإمكانيات. ويبيّن أن تركيز القوة اليهودية فى مكان صغير واحد له مساوئ، فوجودها مهدد، (مشيراً إلى أنه لا توجد لها ولا لأعمالها شرعية دولية)، ولذلك فإن الأمن الاستراتيجى هو أول وأهم الأولويات، بغرض الاحتفاظ بالمكاسب التى حصلت عليها من أرض اغتصبت ومياه سرقت ومهاجرين يهود يلزم إيواؤهم. وهذا الاكتظاظ أدى إلى مشاكل فى البيئة. كما أن المجالات الصناعية التى يمكن تطويرها محدودة بسبب عدم وجود الحيز الجغرافى الكافى.

ويرى المخطط أن علاج هذه المشكلة يجب أن يتم على النحو

الآتي: ضرورة الوصول إلى نظرية حرب مستحدثة غير مشروطة بالمكان ولا بمحدودية الجغرافيا. وذلك باستعمال RMA أي «الثورة في الفنون العسكرية» وهذا ما فعلته إسرائيل بتطوير سلاحها الجوي والصواريخ والأقمار الصناعية ومعالجة المعلومات إلكترونيا في تعاون لصيق مع الولايات المتحدة. ويقول الخبراء العسكريون إن الجيوش العربية ليست مؤهلة لما يمكن تسميته بالحرب الجوية الإلكترونية، وتركيا وإيران لاتزالان بعيدتين عن ذلك، وكان الخوف من العراق أن يطوّر هذا المفهوم قبل القضاء على قوته العسكرية، وأن إسرائيل أقرب تلك الدول إلى المستوى الأمريكي من حيث الفنون العسكرية. وإسرائيل بهذا الأسلوب تتغلب على حجمها الصغير، أرضاً وسكاناً، كما يقول المخطط.

والصعوبة الأخرى التي تواجهها إسرائيل أنها لا تستطيع أن تصبح دولة صناعية أولى دون أن يتسع حجمها الحالي. وتدلل على ذلك بأن سبب تفوق أمريكا هو الرقعة الجغرافية الكبيرة، وأن هذا سبب تجمع الدول الأوروبية في كيان واحد ولو لم يتم تجانسه بعد. أما الأمثلة الناجحة لدولة صغيرة ذات اقتصاد قوي، مثل سويسرا وسنغافورة، فيقول المخطط إن هذا استثناء له ظروفه الخاصة.

إسرائيل في أجواء السلام

لعل هذا السيناريو هو أهم وأخطر البدائل الممكنة، سواء بالنسبة لإسرائيل أو للعرب، ولذلك فإن المخطط يعترف بداية بالحدود الضيقة لهذا البديل، ويؤكد أنه لا مناص من التمسك بمبدأين: الأول «تعزيز الأمن القومي»، وبعبارة أخرى استمرار التفوق العسكري الإسرائيلي على العرب وتطويره، والثاني «ضمان الملكية القومية على الأرض»، وبمعنى آخر استمرار احتلال الأرض العربية واستغلالها للاستعمالات اليهودية.

إذن فأجواء السلام بالنسبة لهذا المخطط لا تعني إزالة النزعة العسكرية العدوانية في إسرائيل التي أدت إلى كل الحروب السابقة، ولا تعني الانصياع إلى القانون الدولي الذي يؤكد عدم جواز احتلال الأرض العربية أو مصادرتها عند بسط السيادة عليها. وعليه يتوقع المخطط زيادة المساحات المخصصة «للاحتياجات» الأمنية، وتحديد مناطق حدود جديدة، ويتنبأ بزيادة التوتر بين سكان إسرائيل اليهود والعرب.

بهذه المقدمة التي لا تبشر بخير، يفترض المخطط في سيناريو السلام بتفاؤل لا مبرر له أن الوضع الجغرافي (أي الأرض والحدود) والسياسي (أي المعاهدات التي تعطي شرعية لها) سوف يستقر، وأن النزاع العربي الإسرائيلي سوف ينتهي في كل القطاعات وأن إسرائيل ستقيم علاقات دبلوماسية مع كل الدول العربية والإسلامية. ويتوقع المخطط أنه خلال ٣٠ عاماً، سيكون في فلسطين، بين البحر والنهر، دولة إسرائيل وكيان فلسطيني في الضفة وغزة، له إدارة ذاتية، مع تقييد بارز في مجال الجيش والأمن. مع احتمال أن يشترك الاثنان في تركيبة فيدرالية أو كونفدرالية مع الأردن. وهذا معناه الرفض لدولة فلسطينية عاصمتها القدس وعدم عودة اللاجئين.

وتبلغ الجرأة بالمخططين أن يتصوروا أن هذا ممكن مع قيام علاقات عادية مع الدول العربية والإسلامية. بل إن الاستسلام العربي الذي يتخيلونه سيقابله على الجانب الإسرائيلي تقييد للحدود مع الكيان الفلسطيني والعرب بحيث تكون الحركة مفتوحة للأشخاص والبضائع اليهودية إلى خارج إسرائيل وتكون مغلقة أمام الأشخاص والبضائع العربية إلى داخل إسرائيل (!)، وتُمنع «الهجرة» العربية إلى إسرائيل، أي عودة اللاجئين.

ويتوقع المخطط أن عملية السلام ستتراجع عن اتفاقية أوسلو وتعود الأوضاع إلى حالة العداء السابقة، وقد تُلغى معاهدات السلام مع مصر والأردن، وستزداد الضغوط الدولية، ويتزايد الوعي في المجتمع الإسرائيلي والعربي بمزايا السلام، مما يبرر «الثمن» المطلوب دفعه أي القبول بالواقع. وفي النهاية سيتحقق سيناريو السلام حسب الفرضيات الإسرائيلية الأولى.

وترى إسرائيل أن هذا «السلام» سيعود عليها بفوائد خارجية كثيرة منها زيادة الاستثمارات وجذب المهاجرين اليهود، ويتبع ذلك تغييرات هيكلية بحيث يتخصص الاقتصاد الإسرائيلي في مشاريع تعتمد على العلم والتكنولوجيا، بينما يقوم الأرقاء العرب، بتوفير اليد العاملة الرخيصة. ويتوقع المخطط تقلصاً في قطاع الزراعة أمام الإنتاج الفلسطيني (وهو الآن ينتج ٢٪ من الناتج القومي ويستغل جميع الأراضي الفلسطينية المصادرة وأكثر من ثلثي كمية المياه من أجل ٨٦٠٠ شخص من سكان الكيبوتز يعملون بالزراعة).

أما التعاون الإقليمي الاقتصادي الذي يروِّج له شمعون بيريز، فلا يرى المخططون جدوى كبيرة من جهة إسرائيل للتعاون الإقليمي العربي الإسرائيلي: لأنهم لا يعتقدون أن السوق العربي مؤهل لاستقبال المنتجات الإسرائيلية المتطورة (أو بكلمات أبسط: العرب يشترون الكاميرات والتليفزيونات، ولكن لا يشترون أجهزة نقل المعلومات إلكترونيا). ومن منظور واقعي، لا يرى المخططون أن أصحاب رءوس الأموال العربية سيندفعون للاستثمار في إسرائيل، وهذا النفور سيقف حائلاً أمام الأنشطة الأخرى التي تصل بين المورد والمستهلك، وبكلمات أخرى، يدرك المخططون أن الشعب العربي لن يقبل إسرائيل، ولو قبلت حكوماته بها. وأنها ستبقى جسماً غريباً شاذًا عدوانياً، قابلاً للتوسع باستمرار.

وأكثر من ذلك: ترى إسرائيل أن هذا التعاون قد يعود عليها بالمشاكل، أولا إن انعدام المساواة بين الاقتصاد الإسرائيلي والعربي سيؤدي إلى توترات سياسية ومخاوف عربية من «الامبريالية الاقتصادية» لإسرائيل. كما أن دخول قوة عاملة رخيصة قد تسبب مشاكل اجتماعية بالمنافسة مع الطبقات الفقيرة في إسرائيل وقد تحدث تحولات سكانية «غير مرغوبة»، نتيجة لاستقرار عمال عرب في إسرائيل. ولذلك من المتوقع أن تركز إسرائيل على النشاطات التي تهمها وهي مجالات البنية التحتية والمواصلات والسياحة، والمياه.

أما البنية التحتية فغرضها ربط إسرائيل بالبلاد العربية في الاتجاهات التي تهم إسرائيل، دون تأثير سلبي عليها لو انقطع هذا الربط. ومن حيث المواصلات، فإن المخطط يقدم خرائط تفصيلية للطرق السريعة المزمع إنشاؤها مع بيروت ودمشق وعمان والعقبة والقاهرة عن طريق العريش والسويس. ويلاحظ أن تخطيط إسرائيل للطرق يمتد دائماً بشكل مواز للحدود وليس عمودياً عليها، بحيث تسهل الحركة داخل إسرائيل، وتصعب على العدو الخارجي الاستفادة منها إلا إذا اخترق الحدود. وهنا وضع المخططون نقاط حدود مركزة محدودة العدد، تعمل مثل صمامات الأمان، تسمح بالخروج من إسرائيل ولكن ليس بالدخول إليها. وقد تم اختيار ١٣ نقطة محصنة مجهزة بكل الاحتياطات الأمنية. وبوابات إسرائيل الرئيسة ستكون في المستقبل: ٣ على حدود قطاع غزة، ١ في طابا أو العقبة، ٢ شمال وجنوب القدس، ٢ على نهر الأردن، ٤ على حدود الضفة، ١ في رأس الناقورة في شمال فلسطين.

وعندئذ سيكون الطريق السريع، عابر إسرائيل، قد تم بناؤه بحيث يمتد من الشمال إلى الجنوب قريباً من خط الهدنة، مقطعاً بذلك أوصال القرى الفلسطينية في إسرائيل، ويتفرع الطريق في الشمال إلى فرع يتجه إلى دمشق والآخر إلى بيروت. أما في الجنوب فيتجه إلى بئر السبع، ويدور حولها لكي يحتضن منطقة تطوير جديدة تصل إلى أكثر من عشرة أضعاف المساحة الحالية، بما في ذلك إقامة خدمات صناعية واسعة ومطار كبير، وكذلك سيتم تطوير منطقة كبيرة في الجليل شرق عكا وحيفا. والغرض من مشروعي التطوير هذين هو إقامة مناطق صناعية جديدة مع تفتيت الكثافة العربية في الجليل والنقب، بحيث يصبح الوجود العربي في مناطق متفرقة معزولة وضعيفة.

ويهدف مخطط إسرائيل في «أجواء السلام» إلى تطوير المنطقة الساحلية الممتدة من قطاع غزة إلى العريش، والمنطقة الساحلية من حيفا إلى بيروت، ومنطقة العقبة وإيلات وطابا، ومنطقة طبرية والجولان، كما يقترح المخطط منافذ متعددة من النقب إلى سيناء والأردن. ويلاحظ أن جميع هذه المناطق توسع مساحة إسرائيل في أراض عربية، تحت اسم التعاون الإقليمي، كما أنها مخارج لإسرائيل وليست مداخل لها.

أما تأثيرات «السلام» في المجال الاجتماعي، فسيؤدي إلى تغيرات ديموغرافية؛ إذ سيبلغ سكان فلسطين من النهر إلى البحر التي ستبقى سيادة إسرائيل عليها أحد عشر مليون نسمة بدون مسيرة السلام، وثلاثة عشر مليوناً إذا حل السلام، وهذه الزيادة تعود إلى تشجيع اليهود على الهجرة إلى إسرائيل عند حلول السلام، وعودة بعض اللاجئين إلى الكيان الفلسطيني بعد إسقاط الحقوق القانونية لجميع اللاجئين.

وفي ظل السلام ستزداد روابط إسرائيل بالمجتمع الغربي، وفي نفس الوقت سيهدد إسرائيل خطر ذوبان الهوية الإسرائيلية في الثقافة العالمية، والخطر الناجم عن غياب التهديد الدائم لوجود إسرائيل، الذي يفتت الهوية الإسرائيلية (!). كذلك سيؤدي النمو الاقتصادي إلى توسيع الفجوات بين طبقات المجتمع وتتهمش المجموعات الضعيفة وتتركز في أطراف البلاد، بعيداً عن مراكز الطاقة في الوسط ويهدد هذه وجود قوة عمل فلسطينية رخيصة، وهذا ينسحب على الفلسطينيين في إسرائيل، فسيزداد اغترابهم عن المجتمع الإسرائيلي ثقافة واقتصاداً، ويؤدي إلى المطالبة بالحريات وربما الانفصال، ولذلك فإن المخطط يسعى إلى ردم هذه الفجوات الاجتماعية والاقتصادية ولكن بالقدر الذي يمنع تحولها إلى أخطار تهدد الدولة.

ماذا يمكن أن نستخلص من هذا؟

أولاً: لا فائدة من جلد الذات والشعور بالإحباط، لأن هذه الخطط وأمثالها هي مجهود طبيعي يقوم به المخططون في أوروبا وأمريكا بشكل روتيني. واستزراع بعض هؤلاء الخبراء في إسرائيل لا يعني أن هذا الجهد وليد إسرائيل، بل يعني أن الصهيونية العالمية تستقطب إمكانياتها في مقر عمل واحد، وهذا ما يسمح باستقدام هؤلاء الخبراء من كل مكان، وهذا ما حدث في الخليج، خصوصاً في الكويت، إذ تم وضع خطة هيكلية شاملة لمستقبل الكويت باشتراك خبراء وأجانب منذ منتصف الستينيات. ولاتزال الخطة سارية مع التعديلات اللازمة لمواجهة الظروف المتغيرة.

ثانياً: إن الخطط العربية للتطوير يجب ألا تقتصر على مشاكلها العادية من زيادة في السكان وقلة في الموارد وهبوط القيمة الإنتاجية للقوة العاملة، واعتماد الاقتصاد في بعض البلاد على سلعة واحدة مثل البترول. بل يجب أن تتعدى ذلك إلى مواجهة التحديات التي يمثلها وجود إسرائيل في المنطقة. أي أن الدفاع الساكن لا يكفي. يجب تفعيل المواجهة الديناميكية لكل التحديات التي تمثلها إسرائيل. وأضعف الإيمان أن تكون هناك خطط مضادة، خصوصاً أن مبادئ الصهيونية ثابتة، وأساليبها وخططها ووسائلها معروفة ومنشورة لمن يريد دراستها.

ثالثاً: إن خطط إسرائيل للمستقبل لم تتخل عن أي من ثوابتها القديمة. فالعقيدة الصهيونية لاتزال هي الوقود الذي يحرك إسرائيل، مع أنها قد تغيرت وتبدلت لتناسب الظروف المحيطة. ولا تزال إسرائيل إلى اليوم تستولي على الأرض العربية وتتوسع في الاستيلاء كلما تمكنت من ذلك. ولاتزال إسرائيل تمنع عودة اللاجئين إلى ديارهم وتمنع قيام دولة فلسطينية، متحدية بذلك المجتمع الدولي كله. وهي كدولة فريدة في العالم، تتمكن من إدامة هذا التحدي بقوة الولايات المتحدة. ولاتزال إسرائيل تزيد من تفوقها العسكري على العرب، وتلجأ إلى وسائل جديدة لم تطورها إلا

أمريكا وهى بالتبعية، تلك هى فنون الحرب الجوية والإلكترونية. وهذا ما يساعدها على تحقيق هدفين مهمين: الأول بسط نفوذها على مساحات أكبر وأبعد من الدول العربية المجاورة، والثانى تقليل عدد الإصابات فى الحرب، الأمر الذى لا تستطيع قبوله، خصوصا بالمقارنة بما يقبله خصومها.

رابعاً: إن إسرائيل تريد أن تحقق نفس الأهداف القديمة فى التوسع والسيطرة، ولكن بطرق أخرى، غير عسكرية مباشرة. التعاون الإقليمى ما هو إلا شعار تحته يتم تحقيق هذه الأهداف. وذلك عن طريق الترغيب والترهيب، الترغيب بمزايا اقتصاد قوى، والترهيب بقوة عسكرية كامنة خلف الأفق. وهذا هو نفس الأسلوب الأمريكى الذى ينفذ أهدافه تحت مظلة دولية إن أمكن، عن طريق مجلس الأمن، أو عن طريق التحالف، أو عن طريق مؤتمر إقليمى، أو عن طريق تركيب تحالفات إقليمية تخدم الهدف، أو عن طريق تفكيك تحالفات إقليمية تراها معادية لها. هذا كله دون أن يقتل جندى واحد. ولكن الوعد بالدولار والتهديد بالقوة خياران معروضان باستمرار.

خامساً: إن إسرائيل تحتاج أكثر من العرب إلى نوع «السلام» الذى تعرّفه تعريفاً خاصاً بها. فالواضح من مخطط إسرائيل لعام ٢٠٢٠ أن إسرائيل على وشك الانفجار إلى الخارج، لأنه لا الرقعة الجغرافية، ولا عدد السكان المنتظر، ولا الأهداف الاقتصادية، ولا الموارد الطبيعية مثل المياه والبترول، تكفيها أن تنكفئ على نفسها وتتقوقع. إسرائيل ترى أنها لابد أن تتوسع فعلاً ومجازاً، معنى ومبنى. تستبعد إسرائيل أن يتم انتشارها هذا باحتلال جديد، أو بحرب جديدة، ولو أن هذا وارد، ولم ينقص، بل زاد، من استعدادها العسكرى. ولكنها تريد أن يتم هذا الانتشار بطرق «سلمية»، لأن هذا له مزايا عديدة. أولها: أن يتم الاعتراف بشرعية وجود إسرائيل خصوصاً بتوقيع الضحية والمتضرر الأول: الفلسطينيين. إذ رغم ضعفهم العسكرى، يبقى خضوعهم واستسلامهم وتنازلهم عن حقوقهم غير القابلة للتصرف هو أهم هدف إسرائيلى. وحينئذ تسقط كل القرارات الدولية. وثانيها: أن سائر دول العالم، خصوصاً أوروبا والدول العربية الراغبة، ستهرع إلى التعاون مع إسرائيل بعد أن تم تطهيرها وإعلان براءتها. وثالثها: أن توسع إسرائيل فى ظروف السلام سيكون مطلقاً ليس له حدود، بعكس التوسع العسكرى الذى ستحدده إمكانياتها العسكرية ومواصلاتها، وسيحدده أيضا موقف المجتمع الدولى.

إذن فمخطط السلام هذا يعطى نتائج أكبر بثمن أقل. وهذا ما تسعى إليه إسرائيل الآن بكل قواها.

إلا أن خطط إسرائيل فى أن تنفذ أهدافها كلها ستبقى مجرد حلم. قطعاً ستنجح فى تحقيق كثير من أهدافها، ولكن هناك عللاً فى تكوينها وقوة فى خصمها. نقاط الضعف فى إسرائيل أن قوتها الاقتصادية ليست مرتبطة بالأرض ولا علاقة للأرض بها. إن صناعة التقنية العالية يمكن إنتاجها فى مناطق حرة فى أى مكان من العالم أو على ظهر حاملة طائرات، فمساحتها محدودة، وعدد العاملين فيها لا يتجاوز ٥٠٠٠٠، وهى جزء من العولمة التى تحكمها قوى السوق، وليس قرارات حكومة إسرائيل.

صحيح أن جيش إسرائيل مصدر قوة لإسرائيل، ليس لأسباب عسكرية فقط، بل لأنه وسيلة لصهر الشباب من ١٠٢ دولة فى بوتقة صهيونية واحدة، وتعليمهم التحدث بلغة واحدة هى العبرية. ورغم أن التقنية العالية فى الجيش ستغنى عن الحاجة إلى قوات مشاة تقليدية بالملايين، كما هو الحال فى الجيوش العربية، إلا أن الجندى يبقى مهماً فى النهاية لأنه يلزم للسيطرة على الأرض. وهنا تكون الإصابات فى الجيش، خصوصاً إذا استمرت لفترة طويلة ولو على مستوى منخفض، مصدر قلق شديد للمؤسسة العسكرية والمجتمع الإسرائيلى.

ونقطة ضعف أخرى فى إسرائيل، أنه كلما زاد تطورها الاقتصادى، كلما اقتصرت فوائد ذلك على شريحة صغيرة هى الإشكناز. وسيخلق ذلك، كما هو حاصل الآن، توترات شديدة مع الحاريديم، الذين يتكاثرون بسرعة، والمزراحيم (الشرقيون) الذين لا يزالون فى أسفل السلم الاجتماعى اليهودى. هذا الوضع سيؤدى إلى قلاقل سياسية داخلية، خصوصاً إذا بطل مفعول الدعاية الصهيونية التى تضخم التهديد العربى لوجود إسرائيل. وهذه القلاقل ستؤدى إلى المطالبة بالمساواة وتحقيق العدالة، وربما تؤدى إلى حرب أهلية محدودة.

على أن شرارة هذه القلاقل قد تبدأ بمطالبة الفلسطينيين فى إسرائيل بحقوقهم الكاملة، ولا يمكن تجاهل ذلك إذ ستصل نسبة الفلسطينيين إلى اليهود فى فلسطين إلى ٤٠٪ عام ٢٠٢٠. وقد تؤدى سياسة إسرائيل فى استمرار احتلال الضفة وغزة إلى نتيجة عكسية، ذلك أنه يصبح كل اليهود فى إسرائيل وحوالى نصف الفلسطينيين فى العالم مشتبكين ومختلطين فى فلسطين التاريخية، أى أنه قد تتم إعادة تركيب فلسطين الممزقة إلى حدودها الجغرافية السابقة ولكن بزيادة عدد اليهود ونقص عدد الفلسطينيين عما كانوا عليه عام ١٩٤٨. ورغم زيادة هؤلاء بالهجرة ونقص أولئك بالتنظيف العرقى فإنهم متساوون فى العدد الآن. ومهما استمرت الهجرة اليهودية فإن لها حداً أقصى سيصلونه خلال سنوات قليلة، ويبقى تكاثر الفلسطينيين قائماً ومستمراً. وبالطبع ستستمر إسرائيل فى سياساتها العنصرية وتطبيق نظام الفصل العنصرى (الأبرتهايد)، ولكنها لن تنجح، لأن الفلسطينيين ليسوا نظيراً للأفريقيين ولأن القرن الواحد والعشرين ليس مماثلا للقرن التاسع عشر.

هذا كله يتعلق بما يجرى فى إسرائيل وحولها. لكن الحقيقة الساطعة هى أن العرب لن يحققوا شيئاً من آمالهم، بل سيخسرون ما لديهم، إذا استمروا فى انتظار أن يسقط عدوهم من التعب أو التخمة. لابد أن يكون للعرب دور فاعل فى تقرير مصيرهم وتطوير قدراتهم فى كل المجالات. وهذا لا يكون إلا بقيام كل فرد من الملايين الثلاثمائة بدوره كاملاً. هذا هو التحدى الحقيقى للمستقبل. ■

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

الشكوى الخامسة

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، يا سيدى! تأمل؛ إنك فى حالة كهذه (فى كل ما سبق من الكلام الغامض قد شبه فيه «رنزى» بصيادى السمك)، لا تحرمن رجلاً رقيق الحال أملاكه، وهو رجل ضعيف أنت تعرفه، فإن أملاك الرجل الفقير بمثابة النَّفَس له، ومن يغتصبها يكتم أنفه، ولقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين، وتكبح جماح اللص، ولكن تأمل. فإن ما تفعله هو أنك تعاضد اللص. والإنسان يضع ثقته فيك ولكنك أصبحت معتديًا. لقد نصبت سدًا للفقير فاحترس خوفًا أن يغرق، ولكن تأمل. إنك تيار سريع له . . .».

الشكوى السادسة

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح للمرة السادسة ليشكو فقال: «يا أيها المدير العظيم للبيت، إن حزنى يفضى إلى نزاع، واتهامى يؤدى إلى تحول، والإنسان لا يعرف ما فى القلب. لا تكن خاملاً بل اهتم بالتهمة. فإذا قطعت فمن الذى يصل؟ إن مجداف القلوب فى يدك كالعمود السهل المتناول عندما يوجد الماء العميق. فإذا ارتطم القارب فإنه يدفع ولكن حمولته تتلف وتضيع على كل شاطئ رملى».

«إنك متعلم وإنك ماهر وإنك عادل، ولكن ليس فى النهب. (والآن) فإن مثلك مثل كل بنى الإنسان كل أعمالك ملتوية، ومفسد الأرض كلها يمشى مستقيمًا إلى الأمام (لا يرى أمامه اعوجاجًا) . . .».

محمود دياب من أيامه الأولى



إلى أعماله الأخيرة

فاروق عبدالقادر

■■ حين يُذكر اسم محمود دياب (أغسطس ١٩٣٢ ـ أكتوبر ١٩٨٣) ينصرف ذهن السامع ـ عادة ـ إلى واحد من أعماله المسرحية الكبيرة: «الزوبعة» أو «ليالى الحصاد» أو «باب الفتوح» أو «أرض لا تنبت الزهور»، تلك الأعمال التى وضعت اسم محمود دياب ـ مرة وللأبد ـ فى تاريخ المسرح المصرى والعربى. ورغم أنه قد رحل عن عالمنا منذ ما يقارب العشرين عامًا، إلا أنه مازال يحيا ـ على نحو من الأنحاء ـ فى حاضر المسرح العربى، فمازالت أعماله تُقدم ـ هنا وهناك ـ فى شتى أرجاء الأرض العربية.

والحقيقة أن «محمود» لم يتوقف، يومًا، عن الكتابة، اللهم إلا فى أيامه الأخيرة، حين أغلق كل الأبواب حول ذاته ساعيًا إلى النهاية، وأنه قد مارس كل أشكال الكتابة: القصة القصيرة والرواية والسيرة الذاتية، إلى جانب المسرح بطبيعة الحال: «المعجْزة» هى أول أعماله التى نعرفها: مسرحية من فصل واحد، فازت بجائزة «مؤسسة المسرح» فى ١٩٦٢، لم تُنشر ولم تُقدم على المسرح. وفى العام التالى قدَّم عمله المسرحى الطويل الأول «البيت القديم» (فاز أيضًا بجائزة «مجمع اللغة العربية» لعام ٦٢ / ١٩٦٣)، قُدم بعدها على المسرح (من إخراج على الغندور)، ونُشر فى العام ذاته، فى الفترة نفسها نشر محمود مجموعة من القصص القصيرة هى «خطاب من قبلى وقصص أخرى» التى صدرت فى يونيو ١٩٦٢، ثم رواية «الظلال فى الجانب الأخر» التى نُشرت فى ١٩٦٤ (أخرجها للسينما المخرج الفلسطينى غالب شعث فى ١٩٧٢، ولعب أدوارها الأولى محمود ياسين وأحمد مرعى ومحمد حمام ونجلاء فتحى).

فلنبدأ حديثنا إذن، بالنظر فى هذه الأعمال الأولى.

١ السباحة فى مياه قريبة

● فى «المعجزة» بساطة، لا نقول سذاجة الأعمال الأولى: مصنع صغير للنسيج تريد صاحبته أن تُصفيه وتبيع آلاته، وهذا يعنى بطالة العمال. فماذا بوسعهم أن يفعلوا؟ من اللحظة الأولى يحدد الكاتب ملامح شخصياته: هم جميعًا مهددون بفقد مصادر أرزاقهم، لكنهم يختلفون فى مواقفهم إزاء هذا التهديد: أحدهم لا يدرى ما يفعل، ينوء بأعبائه العائلية، ويساوى بين جميع العاملين فى الإدارة، فكلهم أعداء. أما الثانى فلا يرى حلاً سوى إحراق المصنع إن صممت صاحبته على بيعه، والثالث ـ لا ينسى الكاتب أن يقول لنا إنه مولع بقراءة الكتب ـ فهو الأكثر وعيًا، والأكثر تفاؤلاً بما سيجئ به المستقبل. أما «المعجزة» التى تحدث ـ أو بالأحرى توشك أن تحدث ـ فهى الفكرة التى يقترحها واحد من العاملين بالإدارة: لماذا لا يقوم العمال أنفسهم بشراء مصنعهم؟ إن مكافأتهم تزيد على المبلغ الذى تطلبه صاحبة المصنع ثمنًا لآلاته، وفى وسعهم ـ بعد ذلك ـ أن يستأجروا المبانى وبقية الأدوات، ويذهب ممثلون عن العمال لمناقشة الأمر مع السيدة. صحيح أنها قد توافق أو لا توافق، لكن الأمر قد أصبح واضحًا:

سلامة: هو مافيش حل غير إن المصنع يكون ملكنا علشان نضمن قوتنا وقوت عيالنا.

العامل: لكن افرض زى ما قلت ماقدرناش نشتريه؟

سلامة: نستنى لبكرة.. ولبعده.. وكل شيء حوالينا بيتغير زى ما أنت شايف.. وعمر الفكرة ما هتضيع.. إن احنا نكون أصحاب المصنع.. وضرورى فى يوم من الأيام الجاية هنكون أصحابه..

تلك هى «المعجزة»: صدى من أصداء قرارات التأميم وإشراك العمال فى مجالس الإدارة التى جاءت بها أوائل الستينيات (١٩٦١ بوجه خاص).

وفى مياه قريبة تسبح مجموعة «خطاب من قبلى»: عشر قصص قصيرة، أبطالها جميعًا هم موضوع القصة القصيرة بامتياز: الإنسان الصغير وهو يواجه مشكلات حياته، ونلاحظ أن هذا هو العمل الوحيد الذى يضع له صاحبه إهداء وهو يهديه إلى «من أعلن ثورته على الحياة الخاملة، الحافلة بالمتناقضات، ونادى بحياة جديدة هى حق الجميع..». مرة ثانية: إنها مرحلة أوائل الستينيات، بكل ما سادها من شعارات «التحول إلى الاشتراكية»، ومن ثم يتناول القاص أشكالاً مختلفة من الظلم الاجتماعى الواقع على أبطاله: فى قصة المجموعة «خطاب من قبلى» مجموعة من العمال يعملون فى أحد مشروعات توسيع قناة السويس (القاص من أبناء الاسماعيلية، إحدى مدن القناة، وقد كتب جانبًا من سيرته الذاتية عن طفولته فيها بعنوان «أحزان مدنية ـ طفل فى الحى العربى، ١٩٧١». من الناحية الأخرى فالقصة مكتوبة بعد تاميم القناة والأحداث التى تلت هذا التأميم)، والخطاب الذى جاء من «قبلى» يحمل لأحد الرجال نبأ موت امرأته وأم ابنه الوحيد، لكنه لا يكاد يذكرها. لا يكاد يذكر عنها سوى تلك الساعات القلائل التى قضاها معها «خاصة فى حجرتهما المظلمة.. (..) غير أن هذه الذكرى نفسها لم يعد لها من أثر على ذاته سوى رعشة خفيفة..». لعله نفس العامل أو واحد من رفاقه هو ما نلتقى به فى «نص يومية»: رغم مرضه وتعبه فهو يواصل عمله الشاق صعودًا على السقالات وهبوطًا منها، فهو بحاجة إلى قروش هذا اليوم كى يسافر ليرى ابنه المريض. «وتم الأمر فى ثوان حتى أن الدهشة لم تبرح وجوه الناس الذين كانوا أسفل العمارة والذين تكتلوا حول الجثة وقد تلاشت صرخاتهم وانعقدت ألسنتهم جميعًا وخَيَّم عليهم هدوء قاتم رهيب..». سواء كان اسمه «محمدين» أو «عبد الصبور»، وسواء كان يعمل هنا أو هناك، فالمصير واحد: هو العمل الشاق، والموت يتربص بالبعيد والقريب.

والعمال ليسوا وحدهم. الموظفون الصغار كذلك. بعد أيام يُتم «ممدوح» عامه الأربعين، مات أبوه منذ عشر سنوات وخلّف له إخوة وأخوات عليه أن يعولهم مرجئًا حقه الطبيعى فى أن يتزوج ويكون له طفل وبيت إلى يوم يبدو أنه لن يجئ، وهذه «السلفة» التى حصل عليها من أجل زواج أخته الكبرى كافية للبدء فى تنفيذ مشروعه هو، ولكن.. لا مفر: «وقال فى صوت هادئ لا ينم عن شيء: خذى الفلوس من جيب البنطلون..». وهذا رجل صغير آخر مطالَب بأن يشترى «فستانًا» لابنته، فيقرر الإقلاع عن متعته الوحيدة الباقية وهى التدخين، لكنه يلقى رجلاً أصغر، يُدينه بجنيهات قليلة، فيعطيه الجنيه الذى يملكه، ويعود للتدخين. فى ظل الفقر الشامل يستحيل تحقيق حتى الرغبات الصغيرة!

الأطفال كذلك يسحقهم هذا الواقع القاسى: «البائع الصغير» يقف أمام سور مدرسة ثانوية يبيع لتلاميذها أشياءه الصغيرة، لكنه فى ذكرى الاحتلال البريطانى يذوب فى مظاهرات الطلبة والعمال الهاتفين بسقوط الاحتلال حتى تضيع منه أشياؤه. وعلى الطفلين المُهرجيْن أن يلتقطا قروشهما القليلة من العبور ـ حرفيًا ـ فى دائرة النار. ولا يغفل القاص عن الإشارة إلى طريق الخروج من هذه الحياة القاسية: إنه التعليم وبذل الجهد فيه. وهذا ما يتضح فى قصتى: «حلم قديم» و«شيش بك..». الأولى عن فلاح فقير كان يحلم بأن يرى ابنه، يومًا، وكيلاً للنيابة، ويتحقق الحلم الذى كان يبدو عصيًا،

فانتابت الرجل فرحةً غامرة، لكن هذا لم يكن بلا ثمن، فهذه الحقيقة «سبقتها حقائق بيعه لفدانين من أرضه هما نصف ما كان يملك، وتضحية «أم فهيم» بكل ما كانت تعتز به من «مصاغ»، وحرمانه الطويل هو وبقية أولاده من الكثير خلال تلك السنوات..». والتعليم كذلك هو ما ميَّز «فتحي» عن أصحاب طفولته الذين لم يتموا هذا التعليم فبقوا عاطلين يعيشون على إيرادات قليلة مما تركه لهم الآباء. أما فتحي فقد أصبح طبيبًا وله عيادة في المدينة، فهل يستطيع «محسن» أن يرفض خطبته لأخته؟

تلك أهم «التيمات» المترددة في مجموعة محمود دياب الوحيدة. وبعد أن أنجز عددًا من أهم أعماله المسرحية، عاد إلى القصة القصيرة فنشر عددًا منها ـ فيما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٢ ـ لم تجتمع في مجموعة. بين يديَّ أربع منها: «الزائدون عن الحاجة»، و«دنيا أخرى أو عشرة أيام»، و«الصيد الأخير»، وأهمها «رأس محموم في طائرة سوبر سونيك». والملاحظة الأولى حول هذه القصص أنها أكثر إحكامًا وتركيبًا من قصص مجموعته، فلا شك في أن صاحبها أصبح أكثر تمرسًا بفنية الكتابة على وجه العموم.

«البيت القديم» هو ذلك الذي هجرته العائلة لتقيم في حي جديد، فما الذي دفعها لهجرة بيتها القديم؟

هي دراما الحراك الاجتماعي والتطلع الطبقي: مُوزِع بريد بسيط في بيته في حي شعبي، يتخرج ابنه الأكبر «أحمد» ويعمل مهندسًا، ويعمل الثاني «مصطفى» ـ الذي لم يكمل تعليمه ـ عاملاً في مطبعة، الثالث والابنة التي تصغره ما يزالان طالبين. يتعلق المهندس بفتاة جميلة بعد أن شاهدها مرات قليلة فيتقدم لخطبتها. أبوها كان «باشا» سابقًا وعضوًا في البرلمان القديم، المفاجأة أن العائلة ترحب به وتسهل أمر زواجه وتعجِّل بعقد القران، وتكون أولى نتائج هذه الزيجة إصرار المهندس على انتقال عائلته إلى عمارة حديثة في الحي الذي تقيم به عائلة زوجه.

التقابل بين هذين العالمين، إذن، هو موضوع الدراما: الأب والأم غير مرتاحين لهذا الانتقال الذي قاما به استرضاءً لابنهما، أما أكثر الجميع سخطًا وتململاً فهو الأخ العامل، وهو ذو حساسية خاصة لأنه لم يكمل تعليمه، وأنه ضحى بهذا ـ وما يزال يضحي ـ كي يوفر لبقية إخوته تعليمهم، وهو يقول لصاحبه بوضوح: «إنني لا أكاد أجد في نفسي انسجامًا مع هذا البيت أو هذا الحي بأجمعه.. الناس الذين يعيشون هنا لا يعيشون حياتهم، بل يصطنعون حياة مختلفة تمامًا..»، وهو لا يخفي، كذلك حنينه للبيت القديم والحي القديم.. «هناك الناس يحب بعضهم البعض، أما هنا فلا يهتم بكم أحد.. ومن يهتم بكم هنا وأنتم تسببون لهم الضيق وتشوهون أناقة الحي؟.. إنني لا أريد بيتًا نظيفًا إنما أريد أن أعيش حياة نظيفة..».

وتتطور الأحداث على نحو يناصر قضية مصطفى ويخذل مشروع أحمد في تحقيق الصعود الطبقي: إن الفتاة التي تعلق بها، ومن أجلها هجر الحي القديم والبيت القديم ليست سوى «بلهاء» عاجزة عن التفكير، تتصرف ـ رغم أنها في العشرين ـ تصرف طفلة لم تبلغ العاشرة، وكان هذا وراء تسهيل العائلة أمر زواجه منها، وتعجيلها بعقد القران دون أن تتيح له فرصة كافية للتعرف عليها. من الناحية الأخرى يحرز مصطفى نجاحًا ساحقًا في انتخابات النقابة، وهو لا يستطيع إخفاء فرحته، ويتوجه بحديثه إلى أحمد: «تسعون في المائة من الأصوات.. تصور.. هل جرَّبت في حياتك أن يحملك الناس على أكتافهم؟.. إنني لم يسعدني النجاح في ذاته إنما أسعدتني ثقة الزملاء.. حب الناس.. (..) عندما حملني هؤلاء الناس وراحوا يهتفون لي خطرت لي فكرة مفاجئة: إن هؤلاء الزملاء يهدفون إلى شيء ما كامن في نفوسهم.. لا يستطيعون التعبير عنه لأنهم لم يتعلموا.. ثم خطر لي أنهم لابد يريدون شيئًا أبعد من مصالحنا النقابية.. يريدون إحداث تغيير في شيء مهم وجوهري..».

كان ذلك همًا موجودًا في الواقع، وهاجسًا في ضمائر المبدعين، وبينهم المسرحيون بطبيعة الحال. ولعل التعبير عنه قد بلغ أوْجَه في مسرحية نعمان عاشور «عيلة الدوغري» التي عُرضت في الموسم المسرحي التالي (٦٣ / ١٩٦٤)، ووجدت شخصية أحمد تطويرًا وبلورة في شخصية «مصطفى الدوغري» الذي يتخلى عن طبقته وامرأته، مصعدًا نحو اللحاق بطبقة أخرى. وسوف نلتقي ببيت قديم آخر عند محمود دياب.. في واقع متغير ـ بعد أكثر من عشر سنوات، حين كتب «قصر الشهبندر».

في عوامة على النيل يقيم أصدقاء أربعة من طلبة كلية الفنون، لكلٍ منهم حكاية. والرواية في فصول أربعة، يروي ثلاثة منهم حكاياتهم، تتخللها حكاية الفتاة «روز» التي دخلت حياتهم مع واحد منهم. ونلاحظ أن هذا الشكل كان سبيلاً ممهدًا في الرواية العربية منذ نشر فتحي غانم رباعيته الكبيرة «الرجل الذي فقد ظله» في ٦١ / ١٩٦٢.

«جميل» هو من يبدأ الرواية، وهو أوفى الشخصيات حظًا من اهتمام الكاتب: جاء القاهرة يدرس الفنون، ووراءه أب هو صورة نموذجية لطاغية ريفي صغير، وجميل ـ بدوره ـ صورة نموذجية لأولئك الشباب القادمين من الريف يحملون عللاً في النفس والروح، يصدر عن رؤية «كلبية» للعالم والبشر، فهو يحتقر الناس ويستخدمهم أدوات لتحقيق رغبات ذاته المتضخمة دون مبالاة بهم أو اهتمام بمشاعرهم، وهذا ما يتجسد في علاقته بالفتاة الجميلة البريئة «روز»: كانت في الخامسة عشرة حين عرفها، أغواها فأحبته وتعلقت به حتى حملت منه، وحين وضعت بنتًا أهملها جميل وتجاهلها وراح ينصب شباكه حول زميلة له في الكلية. إنه ليس «الوغد التقليدي» لكنه محتقر للآخرين متعال عليهم يكاد يكون كارهًا للبشر، وحين تموت ابنته لا يعرف الشعور بالذنب، لكن الروائي أخلاقي ذو ضمير يقظ، وهو، من ثم، يعطيه جزاءه الحق: تنقطع عنه معونة أبيه فيعرف الفقر والإملاق، وتنكره صاحبته وأصدقاؤه «وازدادت حالة جميل سوءًا يومًا بعد يوم، وكانت عيناه قد فقدتا بريقهما، وجف عوده وذبل وجهه، وصار لا يعتني أقل عناية بمظهره..». إنهم هم ـ أعني أصدقاءه أولئك ـ هم الذين يقفون إلى جانب روز حين تموت ابنتها ثم حين تحاول الانتحار، ويسعى واحد منهم: «إسماعيل» الذي يبدو أكثرهم خشونة وإن كان باطنه يترقرق بإنسانية عذبة، حتى يجد لها عملاً في محل يبيع العطور في وسط المدينة، ومن ثم يهيئ لها سبيل بداية جديدة بعيدًا عن جميل وبلاياه. ولا شك في أن حرارة التجربة قد صهرتها وجعلت أقدامها أكثر ثباتًا على الطريق.

ولعل الاختلافات بين تكويناتهم النفسية والعقلية تتبدى في «المشروعات» التي يختارونها لإنجاز تخرجهم: اختار إسماعيل موضوع «عمال البناء»، وهو يتحدث عنه وعنهم: «إن الجهد الأسطوري الذي يقوم به هؤلاء الناس جدير بأن أسجله في مشروع.. (..) انظر إلى وجه الرجل فيهم، إلى التعبير القاسي الذي يطل من عينيه، إلى الظلال التي تبرز تقاطيع وجهه الفرعوني النحاسي المغبَّر، وعضلاته النافرة. انظر إليه وهو نائم كالميت، ثم وهو ينهض بانتفاضة ليتابع الشقاء من جديد.. ويُغني..». بالمقابل: اختار مصطفى أن يرسم «المعذبات» يعني بنات الليل اللاتي كان بعضهن يتردد على العوامة مقابل قروش، يقول: «بدأت أنفذ مشروعي فتعاقدت مع اثنتين من الموديلات عرفت أن لهما نشاطًا في الظلام.. وهذا تؤكده ملامحهن ذات الطابع الخاص الذي لا تكتسبه إلا من تزاول هذا النشاط، وراء هذا المظهر الذي يبعث الاشمئزاز يكمن الألم في أقسى صوره، حيوانية بشعة تخفي وراءها أعمق معاني الإنسانية». غير أن مصطفى مزَّق ما أنجزه من مشروعه وتحول إلى آخر عن «الفلاحين» لعله يتمم مشروع إسماعيل. ولأن كلاً من الأبطال الأساسيين يروي الوقائع من وجهة نظره، وكما يراها، فلا يتوقع القارئ أن يجد الحقيقة كاملة، فإن كثيرًا من «الظلال» تبقى «في الجانب الآخر».

قلت إن المخرج الفلسطيني غالب شعث اختار هذه الرواية وقام بإعداد السيناريو والحوار لها ثم أخرجها في ١٩٧٢، لكن الرقابة رفضت عرض الفيلم، ولم تُصرِّح به إلا في ١٩٧٤، أي بعد حرب أكتوبر، ولعل هذا المنع يتضح في ضوء التعديلات التي أجراها المخرج على نص العمل، وأهمها اثنان: الأول أنه جعل أحداثه تدور في ٦٧ ـ ١٩٦٨، والثاني أنه أضاف شخصية خامسة لطالب فلسطيني، يلتحق بالفدائيين بعد ١٩٦٧. ويغيِّر مشروعه أيضًا من تصوير «اللاجئين» إلى تصوير «الفدائيين».

٢ مسرحيات الستينيات، علاقة متوترة بين الفرد والجماعة

* على نحو من الأنحاء، يمكن القول إن بداية محمود دياب الرائعة كانت مسرحيته «الزوبعة»: فرغ من كتابتها في ١٩٦٤، وبدأ «المسرح الحديث» إخراجها في القاهرة في فبراير ١٩٦٦، ثم توقف العمل فيها وأُرجئت للموسم التالي، لكن عبد الرحيم الزرقاني أخرجها لفرقة إقليمية هي فرقة «البحيرة»، وتبعه حسين جمعة فأخرجها لفرقة إقليمية أخرى هي «كفر الشيخ»، وعرض الزرقاني هو الذي شهده الجمهور في القاهرة فلفت الأنظار ـ بقوة ـ إلى صاحبها، وكانت بدايته الرائعة كما أشرت:

كانت زوبعة حقيقية عصفت بالقرية الصغيرة وقوَّضت أمنها الزائف القائم على الجريمة والاغتصاب وشهادة الزور وتملق من يملكون وازدراء من لا يملكون. «حسين أبو شامة» ـ الذي يُفجِّر غيابه، لا حضوره، هذه الزوبعة ـ كان مظلومًا، لم يقتل ولم يسرق، لكنه أصبح هدف العدوان في القرية الظالمة، فاتُّهم بالقتل والسرقة وشهد عليه رجال من القرية بذلك، وحين حُكم عليه بعشرين عامًا يقضيها في السجن انتزع رجال القرية أرضه وبيته، وأحاطوا العائلة التي تركها وراءه ـ «صالح» و«صابحة» وأمه العجوز ـ بكل مظاهر الازدراء والاضطهاد ـ ثم يأتي ثرثاران من القرية إلى القاهرة ليعودا ويعلنا النبأ: لقد أطلق سراح «أبو شامة» وهو قادم للقرية، متوعدًا هؤلاء الذين تسببوا في ضياع سنوات عمره وإذلال أسرته، كل سنة قضاها في السجن برجل من رجال القرية، وتندفع الزوبعة لتجتاح كل شيء، تهز أمن الجماعة الزائف فتهتز قلوب الجميع، وتتحرك مشاعر الذنب كالأفاعي في الصدور. حسين أبو شامة جَسَّد ضمير هذه القرية وإثمها في ذات الوقت، هو الضحية الذي سيصبح



يمكن القول إن بداية محمود دياب الرائعة كانت مسرحيته «الزوبعة»: فرغ من كتابتها في ١٩٦٤، وبدأ «المسرح الحديث» إخراجها في القاهرة في فبراير ١٩٦٦، ثم توقف العمل فيها وأرجئت للموسم التالي

محمود دياب

التكفير، ومن خلال الزوبعة تنكشف الحقائق ويتعرى الزيف والكذب، فيصبح «صالح» و«صابحة» محط الأماني وموضوع التقرب والزلفى، ويحاول كل من اغتصب شيئًا من الأسرة البائسة رده إليها، عسى أن يكون في هذا تكفيره وخلاصه، ومبرر نجاته من رصاصات القادم يتوعد الآثمين.

لسنا بحاجة إلى القول إن «حسين أبو شامة» لم يصل أبدًا إلى القرية، وكيف يصل رجل مات في السجن قبل سنوات أربع كما يؤكد رفيقه الذي عاد؟ انزاح عن صدور الآثمين عبء ثقيل، لكن أشياء كثيرة قد تغيرت في ذات الآن، أهم التغيرات تلك الخدوش في مظهر الجماعة البراق الزائف، لم تعد الأمور بعد الزوبعة كما كانت قبلها: بدأت في التمايز أصوات الأفراد التي كانت ضائعة في ضجيج الجماعة، وقال شباب ورجال من القرية إنهم واقفون إلى جانب صالح وأسرته المظلومة، مات أبو شامة أو بقى على قيد الحياة. وصالح نفسه، بعد أن كان منطويًا على ذاته، يجتر ذلته وأساه، تطرده الجماعة دائمًا خارج أسوارها وتوصد أبوابها في وجهه، أيقن أنه لا سبيل سوى العمل كي يفرض وجوده داخل الجماعة ومكانه بين أفرادها، سيزرع قطعة أرضه التي رُدت إليه، وسيضاعف من جهده في خدمة أرض «الشيخ يونس» - فقيه القرية وصوت ضميرها الذي لا يستمع إليه أحد، وسيتزوج بالفتاة التي يهواها وتهواه، وأخته صابحة سوف تجد الرجل الذي يريدها، وسيعيشان داخل الجماعة لا خارج أسوارها.

وقد أُشبعت «الزوبعة» نقدًا وتفسيرًا، ومهما قيل تظل تحتمل مزيدًا من القول إنها ليست حكاية «قرية ظالمة» فقط، لكنها يمكن أن تكون حكاية النفس البشرية والمجتمع الكبير، ويمكن أن تكون حكاية الفرد في مواجهة الجماعة، ويمكن أن تكون حكاية الجريمة التي تقع نتيجة تواطؤ أصحاب المصلحة وشهود الزور والسلبيين المنقادين لضغوط الجماعة، والعدالة التي لا يمكن أن تتحقق وحدها، بل لابد من الجهد والعمل لتحقيقها. قد تكون «الزوبعة» هذا كله وغيره معًا، وهذا سبب اعتبارها واحدًا من أفضل الأعمال التي قدمها المسرح المصري في تلك الفترة، ثم هي لا تقول ما تقوله بحوارها الذكي وحده، بل بنسيجها الدرامي كله، ببنائها البسيط والمحكم في الوقت ذاته. قد يكون ثمة قدر من التطويل هنا أو هناك، أو خيط «ميلودرامي» يبرق ويختفي، لكن النص متماسك خلال فصوله التقليدية الثلاثة.

وقد نذكر هنا واقعة كانت لها آثارها على تقديم أعمال محمود دياب فيما بعد: بعد أن عُرضت «الزوبعة» على خشبة «المسرح الحديث» بشهور قليلة، عرض «المسرح القومي» المسرحية السادسة لسعد الدين وهبة «بير السلم» (من إخراج سعد أردش)، وهي تدور حول عائلة «الشبراوي» الكبير القابع في «بير السلم»، لا نعرف أهو حيٌّ فيُرجى أم ميت فيُنعى، ابنته «عزيزة» وحدها هي المؤمنة به، وهي الواثقة بأنه سيعود يومًا قريبًا، فيعطي لكل من حوله ثوابه أو عقابه، وحين يقوى اليقين بأنه سيخرج من مكمنه يتغير سلوك الشخصيات من النقيض للنقيض: الانتهازي يقلع عن انتهازيته، والمعتزل يخرج عن عزلته، والزوجة الخاطئة تصيبها نوبة قلبية تودي بها، والطفيلي الآخر يتهيأ للرحيل. قال محمود دياب إن «سعدًا» قد سطا على الفكرة الرئيسة في مسرحيته: أليس «الشبراوي» مكافئًا «لأبي شامة»، من حيث إن كليهما يفجِّر غيابه، لا حضوره، الأحداث في العمل، وفي ضوئه تتحدد مصائر الشخصيات؟ تحدث محمود بهذا لأصدقائه، ونُشر على لسانه هنا وهناك، ووجد صداه بين المهتمين والمشتغلين (كتب محمود العالم - وكان من أكثر نقاد المسرح جدية ومتابعة آنذاك»: ولعلنا نجد لهذه المسرحية كذلك آثارًا في مسرحية «بير السلم» للأستاذ سعد الدين وهبة.. التي كُتبت بعد مسرحية «الزوبعة»، وقد تختلف المسرحيتان من حيث البناء والفلسفة، فمسرحية «بير السلم» مسرحية رمزية فلسفية، على حين أن مسرحية «الزوبعة» تتجه إلى التعبير الطبيعي المباشر، لكن المسرحيتين تلتقيان حول معنى واحد هو الأب الغائب..(..) ولكننا في الحقيقة نجد في مسرحية محمود دياب معاني أكثر عمقًا وأشد إيجابية وأكثر تفاؤلاً مما نجده في مسرحية «بير السلم» - «المصور، ٦/١/١٩٦٧). كان سعد - آنذاك، ومنذ أن ترك العمل الصحفي في جريدة «الجمهورية» في ١٩٦٤ - أحد مراكز القوى في مؤسسات الثقافة الرسمية، وقد بلغ في وزارة الثقافة أرفع مناصبها أي وكيلها الأول. وكان محمود دياب يؤكد دائمًا أن «سعدًا» واقف لأعماله بالمرصاد، وأنه لم يكن بعيدًا عن المصادرات المتتالية التي تعرضت لها هذه الأعمال، وبعضها كان يوقف عرضه بعد أن تنتهي بروفاته (حدث هذا أكثر من مرة، والوقائع معروفة لمن عاش تلك الفترة). اليوم، وقد رحل الرجلان عن عالمنا، هل نستطيع أن نقطع برأي في هذه الدعوى؟

يُخيل إليّ أن في دعوى محمود دياب قدرًا كبيرًا من الصحة. وليست المسألة مقصورة على العلاقة بين «الزوبعة» و«بير السلم» فقط، لكنها قد تكون متعلقة كذلك باختلاف قرية محمود دياب عن قرية سعد الدين وهبة، بعبارة أخرى: إن شهرة سعد - في أعماله الأربعة الأولى التي عُرضت على التوالي: «المحروسة، ١٩٦١»، «كفر البطيخ، ١٩٦٢»، «السبنسة، ١٩٦٣»، ثم «كوبري الناموس، ١٩٦٤» - قامت على تقديمه للقرية المصرية، قبل ١٩٥٢ في الغالب، وكلها تدور «حول» القرية، لا «في» القرية، أي أنها ترى القرية بعيني ابن المدينة العامل في البوليس أو الإدارة، ونحن لا نعرف أهلها إلا من حيث هم موضوع استغلال وتسلط من جانب إدارة فاسدة تبدأ بالعمدة الجشع، وتنتهي إلى الملك في قصره، مرورًا بالمأمور وأعضاء المجالس النيابية وكبار ملاك الأرض جميعًا. أما أعمال محمود دياب فتقدم قرية حية يعيش فيها بشر أحياء، يتفاعلون ويفعلون ويدخلون في علاقات رفض وقبول، إضافة للدلالات الإنسانية الشاملة التي تشير إليها الشخوص والأحداث. وإذا أضفنا إحكام البناء في العمل المسرحي، رأينا أن مسرح دياب يمكن أن يكون تهديدًا قويًا للمسرح الذي قدمه سعد الدين وهبة، الذي لم تَخْلُ حياته أبدًا من معارك ضارية يكيل فيها الضربات ويتلقى الضربات، وتبقى - في معظمها - كتيمة تدور تحت السطح، لكنها قد تنفجر أحيانًا فتشغل الناس، وهو يضع طاقته الضخمة، وشبكة علاقاته وقربه من صانعي القرار، وخبراته الواسعة في خدمة مواصلة صعوده، فماذا بوسع محمود دياب - الذي لا يملك غير موهبته - أن يفعل؟

وفي ١٩٦٨ عُرضت المسرحية التالية التي أكدت رسوخ قدمي دياب على أرض المسرح: «ليالي الحصاد» (من إخراج أحمد عبد الحليم، لعب أدوارها الأولى محمود السباع وسهير المرشدي والمخرج نفسه). مرة ثانية: هي تلك العلاقة الجدلية المتوترة بين الفرد والجماعة، في بناء أكثر إحكامًا وإمتاعًا وصعوبة. الحدث المسرحي في «ليالي الحصاد» يتخلق أمامنا على ثلاثة مستويات متداخلة على المسرح، تبدأ بذرته على أحد المستويات لتنمو على المستويين الآخرين في تداخل وتخارج متصاعدين على طول فصول المسرحية أو «أبوابها» الثلاثة: في ليلة من ليالي «السامر» تبدأ القرية في الكشف عن مأساتها الحقيقية، لم يكن هذا هو الهدف في البداية كما يبدو، فحسَّان «الغاوي» منشد القرية وفنانها، يقول لنا إنها مجرد ليلة من ليالي الحصاد، يفرغ فيها الفلاحون إلى لهوهم وسمرهم، وأغاني الحصاد تترامى إلى أسماعهم من بعيد، ويبدأ السامر بأن يُقلِّد صغار القرية وشطارها هؤلاء الكبار فيها وما يفعلون من طرائف، ويتبادل الممثلون الأدوار في سرعة وخفة ومرح، ثم تبدأ المسرحية في الكشف عن الوجه المأساوي للقرية من وراء هذا القناع.

بصبر واقتدار، ينتقل الحوار على مستويات المسرح، وترسم كثير من التفاصيل حكاية «البكري» و«سنيورة»: المحور الرئيس أو اللؤلؤة الدرامية داخل هذه المحارة الجميلة: سنيورة، حسناء القرية المشتهاة من الجميع والملعونة منهم في الوقت ذاته، تقيم مع أبيها البكري في بيت يقع بين بيوت القرية ومقابرها، وبالضبط لم يكن البكري أباها، لكنه عثر عليها طفلة ملقاة بين المقابر، في نفس اليوم الذي دفن فيه امرأته الوادعة التي لم ينجب منها، وعاشا معًا من ذلك اليوم على أطراف القرية، يفرضان وجودهما على كل من فيها، فالبكري مكروه لكنه ضروري، هو صورة من عمله الذي يؤديه: يكوي بهائم القرية ورؤوس أطفالها بالنار كي يداويها، وهو مشهور بين أهل القرية - وأمامنا - بشيء آخر: إنه نَهِم دائمًا إلى المعرفة، ما من ورقة تقع في يده يفلتها دون أن يقرأ له أحد ما فيها، ولا تحمل إليه هذه الأوراق عن العالم البعيد إلا أخبار الحرب والجريمة. والبكري لا يستطيع الاستغناء عن سنيورة، هي نور ظلامه، والدفء في قلبه المنعزل المرتجف، ليس هذا فقط، بل إن في حرمانها كل الرجال الذين يتقدمون لها استئثارًا بها لنفسه، استئثارًا نلمح فيه طابعًا شهويًا لا يُخْطأ، إنما لهذا يرد عنها كل الطامعين. تُفتن القرية بسنيورة، ورجالها - حتى الكبار منهم، والحريصين على وقارهم - يغازلونها، ويفتحون العينين الجميلتين البريئتين على الفساد والشرور، على رغمها، أسقطت الجماعة على سنيورة اشتهاءها، ومن ثم عدوانها، وعلى رغمها أيضًا تتسلل هذه الصورة إلى سنيورة فتصبح حقيقتها: مصدرًا لكل الشرور في القرية: بسببها فقد «حسن أبو شرف» ذراعه، ونتيجة للمعركة التي تسببت فيها بين القريتين احترق «محجوب» وترك امرأته وأطفاله الثلاثة ينوحون وينتظرون عودته، وهجر «الشيخ نور الدين» إمام القرية وفقيهها ومعلمها المسجد، فلم تعد تقام فيه الصلوات، وقال للناس إن الشر في قريتهم، وأنه لن يعود إليهم حتى يتطهروا. ليس كل هذا فقط ما تسببت فيه سنيورة، هناك أيضًا «على الكتف»: أمهر سواق في المركز، من أجل سنيورة أضاع حقيقته وهجر عمله، وجاء ليقيم في القرية - تحت أقدام سنيورة وقريبًا منها - بلا عمل ولا أمل، هُزأة للرجال فيها.

هذا كله يتكشف لنا على طول فصول المسرحية الثلاثة من خلال لعبة تبادل الأدوار وإخراج الانفعالات المكبوتة. وتستعرض محكمة القرية شرور سنيورة، وتحكم عليها، وعلى البكري، بالخروج من القرية كي يعود إليها الخير والنور. إن الجماعة تنبذهما تمامًا بعد أن امتصا الصورة السوداء التي أسقطتها عليهما، ويخاف البكري من الوحدة والارتجاف، ومن سنيورة التي يحملها بداخله، ويقرر أن

أعمال محمود دياب تقدم قرية جنة يعيش فيها بشر أحياء، يتفاعلون ويفعلون ويدخلون في علاقات رفض وقبول



يتواءم مع الجماعة، فيُصدر ـ باسم القرية ـ حكمه على سنيورة بالموت، ويندفع على الكتف ـ أكثر الذين أضيروا بسببها، وبعد أن رفض هو وكل الرجال الزواج بها ـ لتنفيذ الحكم تندفع الصرخة من خارج المسرح وبعدها تندفع المفاجأة: إن سنيورة لم تمت، ليست هى التى قُتلت، بل فتاة بريئة لا شأن لها بالأمر كله، وينهار الخيط الرقيق الذى يفصل الحقيقة عن الخيال أمام عينىْ على الكتف (وكان يحرص دائمًا على إخفائهما وراء نظارة سوداء)، وينفتح أمامه باب الجنون على مصراعيه.

والمسرحية على هذا النحو تحتمل أكثر من تفسير واحد، وسنيورة ترتفع إلى شفافية الرمز من خلال تفردها، وفى المسرحية إشارات كثيرة يمكن أن تخدم هذا التفسير أو ذاك، لكن كل التفسيرات يمكن أن يشملها إطار عريض واحد هو العلاقة الجدلية المتوترة دائمًا بين الفرد والجماعة، بين الجزء المتميز والكل الذى ينتمى إليه، وهذا هو الاتجاه الذى مضت فيه أغلب الكتابات النقدية الجادة التى احتفت بالمسرحية احتفاء كبيرًا.

لقى العرض الأول لليالى الحصاد نجاحًا نقديًا أكثر مما لقى من النجاح الجماهيرى. قُدم العرض على مسرح كان يُفتتح للمرة الأولى آنذاك (مسرح الزمالك) إضافة لصعوبة النص وغيبة النجوم. بعبارة ثانية: لم يلقَ العرض الإقبال الجماهيرى الذى يستحقه، لكن النص نفسه بقى، وسيبقى طويلاً، درة من درر مسرح محمود دياب والمسرح العربى على الإطلاق. والدليل الذى لا ينقض أنه مازال يُقدم ويلقى الإقبال فى فرق الهواة والمسرح الجامعى ومسارح الأقاليم والمسارح العربية بعد أكثر من ثلاثين عامًا من عرضه الأول.

بين عرضىْ «الزوبعة» و«ليالى الحصاد» قدم محمود مسرحية من فصل واحد هى «غريب» (من إخراج نبيل منيب، قدمت مع مسرحيتين قصيرتين أخريين على «المسرح القومى» فى ٦٦/١٩٦٧)، وبعد «ليالى الحصاد» قدم مسرحيتين قصيرتين أيضًا هما «الضيوف» و«البيانو» (أخرجهما أحمد عبد الحليم «لمسرح الحكيم» أول ١٩٦٩).

«غريب» يصل إلى قرية صغيرة من قرى «الشرقية» فى الأيام التى تلت انتهاء الحرب العالمية الثانية، مُجْهَدًا يرتمى تحت شجرة فى مدخل القرية، تكتشفه «حليمة» ابنة «الشيخ يونس» فقيه القرية الضرير (الذى أصبح من ثوابت قرية محمود دياب)، وتصحو القرية على خبر الغريب الذى وصل القرية بعد طواف طويل، ومن خلال حوار بالإشارات وأنصاف الكلمات نعرف أنه أسير ألمانى جاء هاربًا من معسكر للأسرى فى «التل الكبير». بين أهل القرية رجلان دمرت الطائرات الألمانية بيت قريب لهما فى مدينة الإسماعيلية وقتلت أفراد أسرته، وهما يريدان أن يثأرا من هذا الأسير، ويرفض الشيخ يونس ـ فهو ضمير القرية أيضًا وصوت الحق فيها ـ ويعلن أن الأسير فى حمايته، ثم يرسل فى استدعاء فتى يذهب إلى المدرسة كى يستطيع التفاهم مع الغريب. وفى كلمات إنجليزية قليلة وعاجزة نفهم أن هذا الغريب ليس له مكان يستطيع الرجوع إليه، فالحرب نفسها قتلت زوجته وطفله فى ألمانيا، ولم يبق أمامه سوى أن يقيم حيث هو، وهو يستطيع أن يكون مفيدًا لأهل القرية وأن يمد يد المساعدة لهم بإصلاح ماكينة المياه فيها، إن لديه خبرات ومعارف تحتاجها القرية، وعن طريق المشاركة والعمل يمكن أن يبقى بين أهلها ويساهم فى حياتها. ويهبط الستار على مشاعر خفية وخجول تُنسج بينه وبين حليمة.

نص بسيط يدين الحرب ومآسيها من ناحية، ويؤكد دور العمل فى الانتماء للجماعة، من الناحية الأخرى.

ماذا يحدث حين يرسل أحد رجال القرية الذين غادروها صغارًا وعاشوا فى المدينة رسالة إلى أهل قريته ينبئهم فيها أنه قادم ليقضى بينهم أيامه بعد أن أحيل إلى التقاعد؟

الذى يحدث أن رجال القرية ونساءها جميعًا يختلفون أشد الاختلاف حول قرابة «الضيوف» القادمين لكل منهم، كلهم يؤكد أنهم أقرباؤه ويبحث فى شجرات العائلة عن الصلات التى تربطهم بالأعزاء القادمين من المدينة، وكلهم يتنازعون حق استضافتهم، وفى الظل تقف شخصية كانت بحاجة لمزيد من العناية. اسمه: «حسين أبو والى» وصناعته: من الأعيان. وبعد انتظار مرهق يأتى الضيوف: ثلاث شخصيات «كاريكاتورية»: البك وابنه وابنته. هكذا يحدث اللقاء بين المدينة والقرية: المدينة تهذى بكلام غير مفهوم، البك يستشهد بأبيات الشعر وبلاغة القدماء، الفتى والفتاة نافران من أهل القرية، متأففان ممن يقترب منهما، والفتاة تلبس ثيابًا قصيرة تستثير سخط النساء وتسيل لعاب الشباب، والترانزستور فى يد الفتى يهذى بضجيج غير مفهوم كذلك. اتضح، إذن، أن المدينة والقرية عالمان منفصلان، لا يمكن أن يلتقيا، هنا يحدث التحول فى نفوس أهل القرية جميعًا فيتملصون من وعودهم، وإلى بيت «حسين أبو والى: من الأعيان» ينتقل الضيوف، ليس مهمًا أن يكون قريبهم أو لا يكون، المهم أن فى بيته حمامًا ومقاعد نظيفة وأسِرة مريحة.

هؤلاء «ضيوف» محمود دياب وما فعلته بهم القرية: قرية بلا ملامح وشخوص بلا تمايز، والقادمون كاريكاتير مبالغ فيه كى تحدث المفارقة، والعمل لا يقدم سوى تلك الفكرة التى كانت بحاجة لمزيد من العناية: إنهم سيقبلون ضيافة واحد ليس قريبهم، لكنه «من الأعيان».

«البيانو» بطل المسرحية التالية، يمتلكه موسيقى فقير يسكن بيت واحد من تجار «الخردة». من البداية: الفن والحس الرقيق المرهف فى مواجهة التجارة والسوقية والحس الغليظ، يضيق الفنان بظروفه المادية العسيرة فيقرر السفر، لكنه لا يقوى على بيع البيانو فيتركه رهينة لدى «المعلّم» حتى يعود أو يصبح من حقه أن يبيعه وفاءً لديونه. الفنان حزين، لكنه لا يستطيع أن ينقل إلينا حزنه أو يقنعنا به أو يبرره لنا، إنه ليس أسى الفنان لكنه ضائقة مالية، هو حزن مسطح يعجز عن نقله إلينا لكنه ينقله إلى المعلم بعد أن عزف له لحنًا قصيرًا.

المهم الآن أن ملكية البيانو تؤول إلى المعلم، فماذا هو فاعل به؟ أفرد له حجرة خاصة حرّم دخولها على امرأته وابنه «عنتر» وتملكته رغبة جارفة فى أن يتعلم العزف عليه، ويتقارب مع ابنه الصغير الذى عرف أنه بيانو ولم يسخر منه، فطلب منه أن يأتيه بمدرِّسة الموسيقى فى مدرسته كى تعلمه العزف، ويكشف المعلم عن عجز وغباء، وتبذل مُدرسة الموسيقى جهدًا ووقتًا طويلين دون أن يفلح فى تعلم الحروف الأولى من السلم الموسيقى. فشل المعلّم إذن، وهُزم. لا فائدة. لن يتعلم البيانو، ولابد أن يرجع عن غيِّه ويبقى البيانو قائمًا كضريح مهجور، رمزًا للعجز والفشل. لقد حاول أن يدخل عالم الفن والحزن فخرج بالحزن وحده، ويقرر المعلم أن يبيع البيانو، ابنه الصغير يدخل والتاجر يفحص البيانو كى يشتريه، يقترب الصبى ويوقِّع عليه لحنًا ساذجًا، فيقرر المعلم أنه لن يبيعه كى يبدأ ابنه من البداية.

لأن التحول فى البداية غير مبرر فلابد أن يكون الحل فى النهاية غير متوقع. ثم: لماذا يعجز المعلم عن تعلم البيانو؟ ليست المسألة هنا أن يكون فنانًا أو لا يكون، لكنها مسألة تعلّم، فآلاف وآلاف يستطيعون أن يتعلموا السلم الموسيقى ولا يرتفعون إلى مستوى التأليف. عجز المعلم، إذن، عجز عن أن يكون متعلمًا لا أن يكون فنانًا، إنه عجز عن أن يكون إنسانًا، من حيث إن التعلم إمكانية إنسانية.

حين عُرضت هاتان المسرحيتان فى ١٩٦٩، كتبتُ عنها تحت عنوان أعتقد أنه ذو دلالة: «التقاط الأنفاس بعد شوط مجهد..»، وكنت أعنى شوط «ليالى الحصاد» (روز اليوسف، ١٠/٣/١٩٦٩).

وفى ظل «ليالى الحصاد» أيضًا كتب محمود دياب آخر مسرحيات الستينيات «الهلافيت»، فى ظلها نصًا وعرضًا: هى المسرح ـ داخل المسرح، وهى إخراج الانفعالات المكبوتة والأحزان التى لا تجرؤ على الظهور. والهلافيت ـ بالتعريف ـ هم هؤلاء «الذين لا يملكون شيئًا سوى أنفسهم إذا اختلوا بأنفسهم، أما إذا التقوا بالمجموعة المهمة فهم ملك لها.. إنهم هؤلاء الذين وُجدوا فى القرية يعملون فى خدمة الآخرين، فى الأرض أو فى البيت مقابل أجر، ثم هم فى أوقات فراغهم يُضحكون الآخرين بغير أجر..»، والمكان هو ذات المكان.. «مكان ما فسيح بالقرية، ليكن الجرن مثلاً.. يبدو أساسًا كأنما أعدته القرية لسهراتها..».

فى أمسية ذات قمر، ذات صيف، تأخر الشاعر عن الوصول فى موعده، ودفعًا للضجر أرادت «الجماعة المهمة» أن تتسلى. هذه الجماعة تضم «منصور أبو سعد» و«الحاج مبارك» وشيخ الخفر و«محمود أبو عامر» ويقدمه المسرحى بأنه الذى يتولى الاهتمام بالشؤون القضائية المتعلقة بأهل القرية فى المركز أو المحافظة..». هؤلاء سادة القرية ومستغلو أهلها. وفيما بين هذه الجماعة ـ من ناحية ـ وجماعة الهلافيت ـ من الناحية الأخرى ـ ثمة «المجموعة المتفرجة»، وهم الباقون من أهل القرية، هم «الأغلبية الصامتة» لو صح التعبير، هى صامتة لكنها ليست مصمتة، فحين تتصاعد الأحداث سنجدهم منحازين إلى جانب المسحوقين، فهم منهم فى نهاية الأمر.

البذرة التى تنمو هى التى يطلقها «كبير القرية» منصور حين يقول لشحاتة: أكثر الهلافيت حيوية: «من الساعة دى.. ولغية ما ييجى حسان الشاعر.. انت عمدة الجعدة دى كلها.. (..) هو إللى هيترأس الجعدة بحالها.. يجول زى ما هو عايز.. يتصرف على مزاجه.. وطلباته كلها مجابة..». وبطبيعة الحال لا يصدق الهلفوت شحاتة ما يسمع، لكنه، تدريجيًا، يتبين حقيقة الأمر: «ضرورى هم عايزين يضحكوا.. طب وماله لما أضحكهم.. ما فيهاش حاجة.. أنا أتكلم وأعمل عمدة وهم يضحكوا.. يعنى كل واحد ياخد حقه..»، وهو قد تلقى وعدًا بأن كل طلباته مجابة، ويريد أن يمتحن جدية الوعد، فيطلب أن يتعشى، ويفاجأ حين يلبى منصور طلبه ويأمر أحد أتباعه أن يأتيه بالعشاء من البيت، جمع شحاتة الهلافيت من حوله، وجعل من «الجحش» (لا يعرف لنفسه اسمًا آخر) نائبًا له، أو «شيخًا للبلد»، وثمة هلفوت كبير يقدمه المسرحى بأنه «شيخ الهلافيت، فى الثمانين تقريبًا، مريض بالقلب، يمشى على عكاز ولا يتكلم إلا همسًا»، ومعه ابنه الذى يسمع همساته ويبلغها للناس، هذا الهلفوت الكبير سيتدخل ليوجه اللعبة من بعيد، ويشير على

ماذا يحدث
حين يرسل
أحد رجال
القرية الذين
غادروها
صغارًا
وعاشوا فى
المدينة
رسالة إلى
أهل قريته
ينبئهم
فيها أنه
قادم ليقضى
بينهم أيامه
بعد أن أحيل
إلى التقاعد؟



محمــــود ديـــــاب

«الهلافيت» عمل من أعمال الثأر والثورة، هؤلاء المسحوقون، بعد أن يملأوا بطونهم، ويتاح لهم أن يواجهوا قاهريهم ومستغليهم، فإنهم يستردون إنسانيتهم ويفتحون أبواب الأمل في أن يناضلوا من أجل حقوقهم في الحياة الكريمة



الهلافيت بما يفعلونه في اللحظات الحاسمة.

طيب. بعد أن شبع الهلافيت وملأوا بطونهم. ماذا سيفعلون؟ طالبوا، أولاً، بحق التعبير. الحق في أن يقولوا ما يشاؤون. ما يثقل عليهم. ومن ممارسة هذا الحق الأولى تجسدت تفاصيل المأساة التي يعيشونها: «إيصالات الأمانة» التي يوقعونها لحساب منصور، ومواشيهم القليلة التي يشاركهم فيها، وحين يعجزون عن السداد يشتريها شريكه مبارك. انظر إلى الخدعة التي يمارسانها كما تجرأ واحد من الهلافيت وأفشى سرها: «أني عايز حد يفهمني.. إزاي جاموستي تتباع بسعرين.. الحاج مبارك جال اشتريها بخمسين.. جُلت له مش موافج..رجع وجال لي كلم سي منصور.. سي منصور جال لي بيع له بخمسين.. وبعت بخمسين.. أخدت خمسة وعشرين وروَّحت الدار.. أخويا إبراهيم إمبارح كان في السوج.. سمع سي منصور بيحاسب الحاج.. الحاج باع الجاموسة وإداله خمسة وتلاتين.. وجال له يبجى تمن الجاموسة كده مظبوط.. يعني بستين جنيه.. يبجى النص بتاعي بخمسة وعشرين.. والنص بتاعه بخمسة وتلاتين..». ليس هذا فقط وجه القهر الذي يتعرض له الهلافيت، ثمة وجه أكثر خطورة في مثل هذه القرية: إن منصور، الذي يعيش أعزب، يستغل حاجة الفقراء المكبلين بالديون كي تعمل بناتهم في بيته. والبقية معروفة. ويجرؤ شحاتة على فضح ما يحدث لهن حتى لو شمل هذا الفضح أخته والفتاة التي يتعلق بها قلبه. تهمس أخته في أذنه بما يحدث لهن فيرتفع صوته: «آدي سي منصور بتاع الشِعر وجعدات الضحك.. دي مش جحصة أختي بس.. دي جحصة كل البنات إللي دخلو داره وإللي هيدخلوه.. بنات الناس المحتاجة.. الهلافيت إللي زينا..». ويندفع إلى المكان رجل ممن لقيت بناتهم هذا المصير التعس يطارد المجرم «منصور أبو سعد».

«الهلافيت» عمل من أعمال الثأر والثورة، هؤلاء المسحوقون، بعد أن يملأوا بطونهم، ويتاح لهم أن يواجهوا قاهريهم ومستغليهم، فإنهم يستردون إنسانيتهم ويفتحون أبواب الأمل في أن يناضلوا من أجل حقوقهم في الحياة الكريمة. عُرضت «الهلافيت» ليلة واحدة في إحدى قرى محافظة «كفر الشيخ» (قرية «أريمون» من إخراج أحمد عبد الهادي، نهاية ١٩٦٩)، ورفضت الرقابة عرضها في القاهرة، ولم يسع محمود دياب لنشرها. وبعد رحيله بسنوات ثلاث قدمتُ نسخة منها لسلسلة «روايات الهلال» التي نشرتها للمرة الأولى (أكتوبر ١٩٨٦).

٣ مسرحيات السبعينيات، ملاحقة قضايا المصير

● مع بداية السبعينيات أنجز محمود دياب عملين هامين: مسرحية طويلة هي «باب الفتوح» (تحمل تاريخ الانتهاء من كتابتها: ١٧ يوليو ١٩٧١) وثلاث مسرحيات قصيرة بعنوان «رجل طيب في ثلاث حكايات» (تحمل أيضًا تاريخ الانتهاء من كتابتها: ٣١/١/١٩٧٠).

ولنبدأ بالأولى: لأن التاريخ يكذب ويجبن وينافق، فهو يسقط بعض الأمور عن عمد وينساها، ولأنه تاريخ السادة فنحن لا نرى فيه صورة الثوار - أعداء السادة - إلا بعيونهم، ويبقى الحكام والانتهازيون وقادة الجند، وحدهم، هم الأبطال. لهذا قررت تلك الجماعة - في لحظة ضجر بواقعهم ويأس منه - أن تعيد صياغة التاريخ بأن تتخيله على هواها، فترد إليه بعض ما أُنقص منه وتستبعد منه ما أضيف إليه. وراحت تستعرض لحظات التاريخ العربي حتى وقفت عند صلاح الدين - يقول عنه واحد منهم إنه أكثر الحقن المخدرة انتشارًا. تلك لحظة موازية: سَقطت فلسطين ومعظم أرض الشام في أيدي الفرنج. أصبح لهم أمراء في المدن وقوات في القلاع وملك في القدس. وسادة العرب مشغولون بدسائسهم ونزواتهم، وفي الأندلس يتهاوى الصرح العربي مدينة إثر مدينة. والفقراء في كل مكان يدعون الله أن يولِّي من يصلح. في هذا العصر جاء صلاح الدين وحقق انتصارًا في حطين (١١٨٧م)، غير أن هذا لم يكن نهاية أي شيء، بل بداية كل الأسئلة.

هكذا تبدأ اللعبة التي أجادها محمود دياب: خلق الشباب ثائرًا من أشواقهم وأمنياتهم، شبيهًا بهم. يفعل ما يعجزون عن فعله، ولأن صلاح الدين كان سيفًا بلا فكر، جعلوا بطلهم مفكرًا. صاغ أفكاره في كتاب أسماه «باب الفتوح» وجاء يحمله من إشبيلية، مؤملا أن يضعه بين يدي القائد المنتصر.. فيتزاوج السيف والفكر. فهل سينجح أسامة بن يعقوب؟

أمامنا مستويان وزمانان، يظلان منفصلين حينًا ثم يلتحمان. فلننظر إذن في الواقع الذي أحاط بصلاح الدين، ولننتبه. فهذا الواقع تجسيد صاغه المعاصرون لنا. حول صلاح الدين مؤرخه «العماد» (التقطه دياب من التاريخ: ابن العماد الأصفهاني. خدم «نور الدين» في دمشق، ورافق صلاح الدين في حملاته كلها، وكتب مؤلفًا أرّخ فيه لفتح القدس أسماه «الفيح القيسي في الفتح القدسي»، وعنه يقتبس دياب تلك السطور التي تصف معركة حطين، مثقلة بالسجع والزخرف الفارغ. لا يرى أبعد من سلطانه المظفر، حريص على مصالحه وقربه منه. يحكم على أسامة بالكفر بعد أن يلتقط سطورًا من كتابه) و«سيف الدين» قائد حرس السلطان: سيف بلا عقل، حريص على جاريته الحسناء، و الضيعة التي سيمتلكها في القدس، يرى في أفكار أسامة ما يهدد مصالحه فيهم بقتله. ثم يأمر جنده بمطاردته، ويلفق لرفاقه التُهم. هو هو في كل عصر. من ورائهما التجار: تجار البشر والترف والقوت. ما أن تفتح القدس أبوابها حتى ينطلقوا إليها كالكلاب المدربة في أثر الفريسة، يقومون بدور في مطاردة الثائر حتى يحيطوا به في النهاية.

ذلك جانب السادة. على الجانب الآخر نرى أهل عكا أمام بواباتها بعد أن فتحها السلطان يحول جنده بينهم وبين دخولها. باسمهم يتحدث أسامة إلى قائد الجند: «هؤلاء الناس جميعًا. فقراء كل عصر. تجمعهم خانة واحدة تأتي في الذيل. فعليهم إن وصلوا أن يأتوا في الوقت الذي يتناسب مع خانتهم، عليهم أن يصلوا في الذيل فتتلقاهم خانتهم: خرائب المدينة وحظائرها وعراء مزارعكم ومراعيكم ومواقف كلاب الصدقة على أبواب بيوتكم». ونرى «أبا الفضل» وعائلته:نموذج هؤلاء الذين نزحوا عن القدس بعد مذبحتها الشهيرة (١٠٩٩م)، قدم أبناءه وأحفاده للجهاد من أجل استردادها، وحين فُتحت وجد بيته - الذي عاش أعوامه المائة يحلم بالعودة إليه - تشغله امرأة يهودية، وتديره خانًا لأولئك التجار، وتضع نفسها وابنتها في خدمتهم وخدمة جند صلاح الدين. أبو الفضل هو حلم الانتقام الناري، فمن رأى الهول في طفولته كما رآه لن يحلم إلا بهول مقابل:

أبو الفضل، عشت حياتي كلها على أمل أن أشهد يوم الانتقام.. فإذا بصلاح الدين يقبل أن يوقف القتال ويملي شروطًا.. أية شروط؟ أن يدفعوا أموالاً يقيم بها قصورًا لقواد جنده؟ أين أنت يا زنكي لتقيم جبلاً من جماجمهم؟ (..) لن يمنع عنا مذابح جديدة إلا أن نجهز عليهم في مذبحة من ذَرْءِ مذابحهم. إن لم يكن صلاح الدين يدرك هذا.. فسأفهمه إياه..

غير أن أبا الفضل لا يُفْهِم أحدًا شيئًا. فتحت القدس أبوابها وضاع بيته، وجند السلطان يطاردون عجزه وضعفه حتى المكان اللائق به في إحدى خرائب المدينة، وبين المقاتلين أبناؤه وأحفاده!.

وفي لحظة من لحظات الدراما - وعلى نحو ما هو مألوف في عالم محمود دياب - يلتحم المستويان، وتقرر مجموعة الشباب أنها خلقت الثائر على غرارها: وسطًا فاترًا بين حَدين، وأنها وضعته في مأزق. فالثائر لا يسعى لإقناع السلطان بفكرته لكنه يفرضها فرضًا، ومن ثم ينضمون إليه ويصبحون أنصاره ويستمر الحدث: أسامة مايزال مُصرًا على أن يضع أفكاره بين يدي السلطان، لكن واحدًا من الشباب يرى رأيًا آخر: أن يفترقوا على موعد، ويرجع كلٌ إلى بلده، يجمع الناس حوله ويتلو عليهم كتابه.. «سنفجّر فيهم ينابيع الحكمة.. فربما أضافوا إلى «باب الفتوح» شيئًا يجعله أكثر عمقًا وأصلح للحياة.. ويصبح حلمنا ملكًا لجماهير الناس..». غير أن رأي الأغلبية ينتصر. فيبداون المحاولة. ويُقبض عليهم واحدًا بعد الآخر حتى لا يبقى غير أسامة، وحيدًا محاصرًا، يساومه التجار ويأبى. فيحيطون به ويقتلونه، وتبقى كلمات «باب الفتوح» في صدر «زياد» الفتى المصري الذي كان كاتبًا للعماد.

تلك الخطوط الأساسية في «باب الفتوح»، فماذا في «باب الفتوح»، أعني الكتاب ذاته؟ لنتأمل هذه الكلمات: «إني أمنح قلبي لله عن طيب خاطر، أما إرادتي فإني أحتفظ بها طالما أني مسؤول عما أفعل - عبيد الأمة صنفان: صنف يباع ويشترى في أسواق النخاسين، وعَبيد بالخوف والحاجة - لو أنَّا أعتقنا الناس جميعًا، ومنحنا كلاً منهم شبرًا من الأرض، وأزلنا أسباب الخوف، لحجبنا الشمس - إذا شئنا - بجنود يسعون إلى الموت.. ليذودوا عن أشياء امتلكوها واكتشفوا كل معانيها: الحرية، شبر الأرض وماء النبع، قبر الجد وأمل الغد، ضحكة طفلة تلهو في ظل البيت، وذكرى حب، وقبة جامع صلوا فيه يومًا صلاة الفجر. بأوجز كلمة: عظمة أمة...». وعن الحكم والحاكم جاء في «باب الفتوح»: «من حق الأمة أن تختار حاكمها بحرية، أن تعطي البيعة للأحكم والأعدل والأكثر إيمانًا بقضايا الناس - للأمة مجلس حكماء، يرعى بيت المال، ويراقب أعمال الحاكم ورجاله، يقوِّم ويهذِّب ويقيم الحد - من ملك أرضًا يملكها باسم الأمة. فإن أهمل، للأمة أن تعفيه منها...». ويلخص مطالب المحكومين من الحاكم: «لكل فرد في الأمة حق معلوم في المأكل والملبس والمسكن والعلم...».

لكن هذه ليست كل أفكار أسامة. ثمة فكرتان هامتان، تتضح إحداهما في حديثه إلى زياد، والأخرى في حواره مع المجموعة. فأسامة يرى أن أمتنا قد شاخت وترهلت، وهي بحاجة إلى شيء يقلب مصيرها رأسًا على عقب، شيء كطوفان هادر أو بركان متفجر، يفرغ كل ما بجوفها من قبح وعفن، ويحرق كل شيء لا يصلح للبقاء: «سراديب الدسائس، والمشانق، وكل أدوات الرعب والتعذيب، وسُتُر المحظيات، ودواوين الكذابين من الشعراء، وكُتب العلماء الجهلة، وسياط جباة المال، وتجار العبيد والمرتشين والقوادين، ولصوص بيت المال...»

وعلى أنقاض هذا كله تنهض أمة جديدة ونظيفة، شابة قادرة على مواجهة التحدى.

نعم، كالعنقاء أو الفينيق فى الأسطورة القديمة، لابد أن تشتعل النار كى يتخلق من الرماد طائر جديد.

وحين يرى أسامة أن ما فى كتابه أعجز من أن يجد حلاً لأبى الفضل الذى ضاع بيته وتبدد حلمه، يعترف لرفاقه ـ ولنا ـ على استحياء: «إنها مشكلة جديدة لم تكن تخطر لى ببال، وليس لها حل فى كتابى، كلما كشف الواقع عن نفسه بدا أشد تلونًا وتعقيدًا مما كنت أتخيله وأنا أحلم هناك فوق التل الأخضر..».

نعم، الواقع قبل النظرية، والحياة قبل الفكر.

ذلك أسامة بن يعقوب صاحب «باب الفتوح» وتلك أفكاره كما بدت لمحمود دياب صيف ١٩٧١، وتهيأ سعد أردش لإخراج العمل، وتقدم حتى البروفات الأخيرة، ثم هبط سيف البطش كى يوقف كل شىء، اعترضت الرقابة علي تقديم العمل فى «المسرح القومى» ولم يقيّض له أن يرى النور إلا بعد أكثر من خمس سنوات (نوفمبر ١٩٧٦) فبدأ مثل ثمرة ناضجة بعد أوانها، وبدا لى أن الكاتب لو رجع لنصه لأضاف لبطله همومًا جديدة متغيرة، لكن الحقيقة أنه استطاع أن يقدم نصًا مسرحيًا ممتازًا، وأن يمزج ـ على نحو دقيق ومتوازن ـ هموم الحاضر وحقائق الماضى. بعبارة أخرى: إن «دياب» لم يهدف لأن يقدم مسرحية «تاريخية» بأى معنى من المعانى، لكنه حمل همومنا المعاصرة وارتحل بها حتى وجد أنسب اللحظات التى تتيح لها أكبر قدر من التعبير والوضوح، وفى خلفية العمل ـ نصًا وعرضًا ـ القضية الرئيسة فى وجودنا المعاصر: فلسطين والتحدى الذى تواجهه الأمة العربية.

لا عجب أن ظلت «باب الفتوح» تقدم، حتى اليوم، على شتى المسارح العربية.

* ما ملامح هذا «الرجل الطيب» فى حكاياته الثلاث؟

نراه، فى الحكاية الأولى، يستمتع بلحظته الآمنة: جالسًا أمام بيته، يقرأ جريدته ويشرب قهوته ويتحدث إلى نفسه أو زوجته القابعة وراء النافذة، لا يزعجه سوى انقضاء الأيام الجميلة وانشغال الجيران كلٌ بهمومه الخاصة، ثم يفاجئه أول «الغرباء».. «أنيق الملبس، متين البنيان، جهم الخلقة، يتحرك بحساب وفى اعتداد مغالى فيه..»، إنه يتفحص البيت، ويدون الملاحظات فى مفكرته، يرفض يد الرجل الممدودة إليه، ويرفض الحديث إليه بأكثر من كلمات قاطعة تحمل معنى الاستخفاف، كما يرفض قهوته وصداقته. وما أن ينصرف حتى يُفاجأ الرجل بظهور غريبين مماثلين تمامًا للأول، يسلكان إزاءه نفس المسلك، ثم يصبحون ستة: ثلاثة يأتون من اليمين ومثلهم من اليسار، ثم أربعة آخرون، يتجمعون حوله، يوجهون له الإهانات المتتالية، وآخرها أنه ليس صاحب هذا البيت، يفزع الرجل فيأتيهم بأوراقه لكنهم يمزقون كل شىء: أوراقه ووثائقه وخطاباته وصوره ويتركونه وحيدًا ضائعًا.

لنقترب منه أكثر: إن له ابنًا واحدًا يعيش بالخارج، وهو قد اتخذ قرارًا: «غدًا.. مع أول شعاع للشمس سأبعث ببرقية إلى الولد أقول له فيها: عُد إلينا.. تعال عش معنا.. أنا وأمك والبيت بحاجة إليك. فالغرباء كثيرون.. (..) احضر حالاً.. ولا تنس وأنت قادم أن تحمل معك بندقية..» هذا من ناحية. من الناحية الأخرى فإن الرجل سيقاوم. «ستظل هناك وسيلتنا لنحتفظ ببيتنا.. سنتحصن بداخله أنا وأنت.. ستمسكين بسكين وأمسك أنا بساطور.. وسنقيم المتاريس.. ولن نسمح لغير الأصدقاء بالدخول..»، ثم إن هذا البيت يحمل آثار حياة كاملة عاشها الرجل طفلاً وصبيًا ورجلاً، كما عاشه ابنه من بعده، وهو باق فيه، مثله مثل الشجرة المعمرة الباقية فيه «أصيلة وراسخة.. جذورها ضاربة عشرات الأمتار فى الأرض..».

هل بقى شك فى أن المسرحى يقدم صياغة رمزية شفيفة للصراع العربى ـ الإسرائيلى؟ هؤلاء الغرباء الذين يتكاثرون، بعدوانيتهم السافرة واستهانتهم «بالرجل الطيب» وسعيهم إلى إفقاده كل ما يثبت وجوده وملكيته لبيته وأرضه، لهويته باختصار، بجمودهم وآليتهم ورفضهم أية مشاعر إنسانية.. هل يمكن أن يكونوا سوى هؤلاء الأعداء؟ ثم إن العمل يومئ إلى سبيل المقاومة: البقاء فى الأرض، والتسلح، والمقاومة، واستدعاء الابن الشاب البعيد للعودة، على أن يكون مسلحًا، لا أعزل.

فى الحكاية الثانية نرى الرجل الطيب فى سياق آخر: هو موظف منضبط: «أول من يدخل الشركة فى الصباح وآخر من يترك مكتبه.. لا أتغيب حتى وأنا مريض.. كل دقيقة من وقت العمل للعمل.. أخشى الخطأ مثلما أخشى الطاعون..»، ويرى الأخطاء الصغيرة والكبيرة وهو صامت، ولحظة المواجهة ينفجر فى امرأته: «أنا لست نبيًا يا فردوس.. هل أنا مكلف بإصلاح الكون؟ وأنا مالى..». لقد ظل أربعين سنة من الانضباط يعتقد أن أمنه الخاص منفصل عن أمن العالم من حوله، وأنه يستطيع أن يقبع فى ركن هادئ، لا ينتظر شيئًا سوى أن يأتى جاره ضابط الشرطة فيقضيا السهرة فى لعب الورق، وهو يعتمد على هذا الجار لفهم ما لا يفهم وتفسير ما لا يجد له تفسيرًا، لكن جاره لا يأتى هذه الليلة، يأتى بدلاً منه رجل يحمل طردًا ثقيلاً يحوى جثة رجل دون رأس. تُسقط هذه الجثة المرآة الصقيلة فتتناثر شظاياها، يروح الأمن الزائف وتأتى المواجهة: مواجهته لعجزه وتطامنه وعقمه، وتنبثق رغبته فى الفعل بعد أن يفشل فى خداع نفسه وزوجه معًا. حين يتمزق القناع يتبدد الوهم وتنبعث الصحوة: «أنا أعرف ماذا كنت تبغين أن أكون.. كنتِ تريدينني فارسًا.. وما أتعس ما تمنيت!.. فرسان هذا العصر ليسوا بالشجعان كما تتوهمين.. فى هذا العصر لا يكون الإنسان فارسًا إلا وبيده قنبلة.. منذ الساعة لن أمشى إلا وأنا أحمل القنابل فى كلتا يدىّ.. سأفجر قنبلة فى كل مكان أصير فيه..»، بعد الجثة تصل الرأس فى طرد آخر، معها ورقة كُتب عليها: «نأسف لتأخير الرأس، فقد وقع الأمر سهوًا عند التعبئة..» ويرى الرجل فيها دليل براءته، لكن هذا لا ينفى مسئوليته عن الجثة: «الجثة تخصنا بلا ريب.. وقضيتها تخصنا أيضًا حتى نهايتها..» ويخرج الرجل لإبلاغ الشرطة.. هذه قنبلته الأولى، أما الثانية فسيفجرُها فى الصباح: «قنبلة رهيبة أدمر بها كل شىء.. (يسحب ملفًا ضخمًا متخمًا بالأوراق من إحدى قطع الأثاث).. ما من عبث بالشركة أو تلاعب أو مسخرة إلا وهو مرصود بها، كنت ألحظ كل شىء وأرصده فى صمت.. سيشهد الصباح مواقف عظيمة لى، فمتى يأتى الصباح؟..». بعد خروج الرجل تمد الزوجة يدها فى هدوء فترفع الصندوق بغير جهد، وتلقى به داخل الصندوق الكبير، ثم تحمل الصندوق الكبير أيضًا مما يوحى بأن الصندوقين فارغان، وتنحيه جانبًا كى تعيد تنظيم المكان.

تنتهى القطعة المسرحية ولا تنتهى الأسئلة: ترى.. هل تدوم الصحوة ويكف الرجل عن طيبته (اقرأ: خضوعه، خنوعه، مذلته) ويرفع صوته مطالبًا بحقوقه، منددًا بالفساد الذى يراه ويعرفه، أم تراه سيعود ليقبع لائذاً بأمنه الزائف وثرثرته العقيمة؟، يتخطونه فى الترقية فلا يحتج، قصارى ما يفعله أن يمضى فى خداع نفسه واللجوء إلى «ممثل السلطة» لحل مشاكله، إن الشك فى استمرار الصحوة أقوى من اليقين، وأربعون سنة من الحياة الخانعة ليس من السهل التخلى عنها، لكن الجثة تشبهه، والقضية قضيته، وامرأته قد واجهته بكل شىء، ألقت فى وجهه بالحقيقة فقوّضت أمنه الزائف، وعليه أن يبذل جهدًا كبيرًا كى يعيد للمرآة المهشمة وجهها الصقيل.

يقول محمود دياب بأفصح لسان: انظروا فى دواخلكم أولاً وانزعوا جذور الخوف والاستكانة، فهى التى تقف دون الفعل، وهى التى تؤدى للعجز والعقم، كفوا عن الاعتماد على السلطة كى تحل لكم مشاكلكم، تمسكوا بحقوقكم، عضوا عليها بالنواجذ، وطالبوا بها، وارفعوا أصواتكم منددين بالفساد، هذا هو السبيل، لا سبيل سواه لاسترداد ما ضاع، لا مهرب ولا مفر، فالأمن فى البيت الصغير مرتبط بالعدل فى البيت الكبير، هذا من ذاك، وعلى فرسان العصر أن يفجروا القنابل فى كل مكان.

أما الرجل الطيب فى الحكاية الثالثة فنراه وسط أسرته، قبل عشرين عامًا خُطبت ابنته الكبرى لكن خطيبها لم يأت فى اليوم المحدد «اختفى الرجل فجأة، ولم يعرف أحد أين ذهب، حتى أصحابه المقربين لم يعرفوا.. ولم يكن هذا عن جبن أو خداع.. فقد كان رجلاً مثاليًا..» هذا ما تقوله أمها، لكنهما التقيا بعد عشرين عامًا وقد أصبحت «عايدة» عانسًا على أبواب الأربعين، وسيأتى الليلة فى التاسعة، وزمن المسرحية قبل التاسعة، والرجل الطيب مستسلم تماماً لكل ما يُطلب منه، يقول ـ أكثر من مرة ـ إنه لا جدوى من محاولة التمرد: يلبس قميصًا ذا ياقة منشاة رغم أنه يخنقه، وكرافت حمراء رغم أنه لا يحبها، ولا يملك تنفيسًا عن غضبه إلا أن يهمس لامرأته: «عشرون سنة من الصراخ والعصبية.. واستبداد البنت بالأب والأم وكل من بالبيت.. بصورة هى بعيدة تمامًا عن المثالية.. تجعل زواج البنت فى هذه الحالة ورحيلها عن البيت مع زوجها أمرًا أكثر روعة من أى شىء آخر.. (فى هدوء) لهذا فأنا فرحان الليلة.. غير أن صراخها لا يتيح لى أن أعبر عن فرحتى بالقدر الكافى..». إنه لون من الابتزاز العاطفى والاستبداد باسم الحب. اقترض الرجل المال من أجل الوليمة، وعايدة تصرخ وتصدر أوامرها للجميع، وفى أعماقها توجس أن تتكرر الخبرة المريرة القديمة، وقد كان بينها وبين اليأس شعرة كما تقول، إنها تريد أن يخضع لرغباتها كل شىء، بما فى ذلك موعد ولادة أختها الصغرى. ويهبط الستار والجميع يترقب وصول القادم، ونحن لا نعرف هل سيأتى أم سيتكرر ما حدث من قبل، وهل ستضع «ثريا» طفلها أم ستنتظر الصباح. وفى الخلفية ترتفع دقات الساعة.

ثلاث قطع مسرحية محكمة، نماذج للصنعة المسرحية فى أعمال الفصل الواحد، ملائمة تمامًا للمسارح «الفقيرة»، لذا يتواتر تقديمها فى مسارح الهواة والمسرح الجامعى وفرق الأقاليم (شهدتُ عرضًا «للرجال لهم رؤوس» بعد رحيل محمود مباشرة، لعب الدور الأول فيها الممثل الممتاز حسن عبدالحميد، فكانت من أفضل ما قدم له بعد رحيله).

* قبل أن ينتهى عام ١٩٧٣ كان محمود قد فرغ من كتابة عمله الطويل «رسول من قرية تميرة للاستفهام عن مسألة الحرب والسلام» (نشر فى ١٩٧٥) والذى اعتبره من أفضل الأعمال المسرحية التى كُتبت



يقول محمود دياب بأفصح لسان: انظروا فى دواخلكم أولاً وانزعوا جذور الخوف والاستكانة، فهى التى تقف دون الفعل، وهى التى تؤدى للعجز والعقم، كفوا عن الاعتماد على السلطة كى تحل لكم مشاكلكم، تمسكوا بحقوقكم

محمود دياب



هذا ما قاله محمود دياب قبل أن ينتهي عام ١٩٧٣: ثمة من يتربص ليسرق دم الشهداء وعرق المقاتلين وتضحيات الناس التي جعلت ما حدث في أكتوبر ممكن الحدوث، استشهد فكري على رمال سيناء، وهذا عمه القوي يأمر رجاله بالاستيلاء على أرضه

عن أكتوبر، إن لم يكن أفضلها على الإطلاق.
وقرية «تميرة» (وهو اسم قديم لمصر) مثل أية قرية مصرية، يُعرِّفنا بها أهلها في مشهد افتتاحي: «تميرة» زي كل البلاد، مركز كان أو كَفْر، فيها الطيب وفيها الشين - بس الناس الشينة يتْعَدوا، فيها الناس اللي بتهلك على لقمة العيش، وفيها الناس المرتاحة، لكن المرتاحين حدانا يتعَدوا، فيها ولاد فلحْم وفاتوها، ولا عدناش بنشوفهم أبدًا، بس إحنا بنتشرف بيهم، برضه ولادنا، وتميرة ولّادة، مهما فاتوها أو أخدوا منها، تولد وتطلّع جدعان...»، هي - باختصار - قرية من آلاف القرى، لكنها قد تتميز بقربها من خط القنال، وقد تتميز كذلك بوجود «أحمد أبوعارف» فيها، يقدمه لنا المسرحي بأنه «رجل تشكلت شخصيته ولغته من قراءته لإحدى الصحف اليومية بإصرار ودأب خلال سنوات طوال...»، بعبارة أخرى: هو حريص على أن تصله الصحيفة اليومية كل صباح، ليقرأ كل سطر فيها، وحريص على أن يفهم ما يحدث في وطنه وفي العالم، وأن ينقل ما فهمه لمن حوله.

ولأن أحداث المسرحية تقع ما بين سبتمبر ونوفمبر ١٩٧٣ فطبيعي أن يهتم الجميع بما حدث في أكتوبر، خاصة أن خمسة من شباب القرية يحاربون بين الجنود، عرفنا منهم «فكري أبو إسماعين»: نشأ يتيم الأب، في وصاية عمه «الحاج دسوقي» وهو رجل جشع متسلط، وهو قد زوّر وثيقة يدّعي فيها أن أخاه باع له فدانا من الاثنين اللذين يملكهما قبل موته، وهو اليوم يريد أن يضع يده عليه كي يبني فوقه بيتًا، تلك بؤرة الصراع في أحداث المسرحية: يرفض فكري وأخوه «حامد» ومن حولهما فقراء القرية، وإلى جانب دسوقي أعوانه والمستفيدون منه، وهم قليلون لكنهم أقوياء، ونحن لا نرى «فكري» إلا خلال الساعات القليلة التي قضاها في القرية قبل أن يعود إلى موقعه على الجبهة، عرفنا ارتباطه «بعائشة» ابنة «أبي عارف» وتصديه لعمه، ثم إرجاء النظر في الأمر حتى يعود، الذي يحدث أن الحرب تندلع، وينعكس هذا الحدث الكبير على القرية: يتزايد الاهتمام بأخبارها وأخبار أبناء القرية الذين يحاربون، ومع تطور أحداث الحرب تزيد الحيرة وعدم الفهم خاصة مع ترامي الأخبار عما حدث في «الدفرسوار» والموقف الأمريكي، وما يقوله دسوقي من أن الدول الكبرى قررت إنهاء الحرب، إنه يقول لأبي عارف: «أصلنا مش عايشين لوحدنا في الدنيا يا أحمد.. دي الدنيا مليانة دول.. والدول الكبيرة لها مصالح في كل حتة.. أمال هي دول كبيرة ليه؟ (..) المقابلات بين الدول شغالة على ودنه.. وبعد ساعة ولاّ اتنين هيقولوا بس لغاية كده.. شطّب انت وهو...».

إزاء هذه الحيرة تقرر القرية إيفاد رسولها أحمد أبي عارف إلى القاهرة، هناك صحفي كبير من أبناء القرية، عليه أن يقابله ويستفهم منه، وعليه أن يذهب للقيادة ليسأل عن أخبار فكري التي انقطعت.. يجمعون له قروشهم القليلة، ويقدم كلّ له قطعة من الثياب اللائقة، ويأتي رسول قرية تميرة إلى القاهرة.. فماذا حدث له؟

ضاع الرسول في القاهرة اللاهية بإعلامها: في الصحيفة التي توجه إليها عرف أن الصحفي ابن قريته في رحلة إلى أوربا، ومن هناك التقطته صحفية نشطة وقررت أن تجعل منه موضوعًا: «الموضوع اللي عايزة أعمله معاك ده له أهمية خاصة وكبيرة عندي.. أنا من شهرين بادور على موضوع جديد يفرقع.. ويعمل دوشة.. وانت أحسن موضوع أعمله»، وتقول عنه لرئيسها في الصحيفة: «أنا لقيت موضوع إنما يهوس.. وعايزة أعمله دلوقت (هامسة) فلاح عنده شوية ثقافة على قده.. بلده بعتاه مصر علشان يستفهم عن الحرب ومسألة السلام والسياسة الدولية كلها.. تصور.. إيه رأيك؟ مش موضوع هايل؟.. دا ممكن ياخد الصفحة بحالها بكرة..»، وهي لا تكتفي بل تتصل بصديقة لها تعمل في الإذاعة كي تقدمه في أحد برامجها: «اسمعي.. أنا عندي مفاجأة ليكي.. إنما تستاهل الحلاوة.. (سكتة قصيرة).. أنتي كنتي قلتي لي أنك بتدوّري على موضوع جديد للبرنامج.. وأنا لقيت لك لقية...».

هكذا.. تقاذفته الصحفية والمذيعة، وأفلس أبوعارف وعاد إلى قريته في اليوم التالي، حتى دون خُفي حنين! ولم يجد أحدًا يوجّه إليه الأسئلة التي تؤرقه، ولم يذهب إلى القيادة يسأل عن فكري ورفاقه، كل ما رجع به صورته المنشورة في الصحيفة:

المجموعة: يعني ما استفهمتش؟

أبوعارف (في شعور بالذنب): ما استفهمتش..

المجموعة: ولا رحت القيادة؟

أبوعارف: ما ملكتش أروح.. (..)

المجموعة (في استياء): أمال كنت مسافر ليه؟

وفجأة تصل سيارة عسكرية يهبط منها ضابط شاب يسأل عن أحد من أقارب فكري.. «الجميع مطرقون.. وتمر برهة صمت وكأنما اكتشف الجميع الحقيقة في نفس اللحظة.. الوجوه تتلاقى في نظرة مروعة..» من استشهاد فكري تنبثق صحوة الباقين، يحملون فؤوسهم ويتوجهون نحو أرضه ليواجهوا «دسوقي» إن جاء رجال للاستيلاء عليها، وتنتهي المسرحية على صوت أحد أبناء القرية من المقاتلين في الرسالة التي أرسلها لأهله: «وأوعم تفتكروا إن الحرب خلصت.. هي ما خلصتش.. (..) وكل الأولاد اللي هنا بيقولوا إن احنا هنحارب تاني.. ياريت يابا.. ياريت...».

هذا ما قاله محمود دياب قبل أن ينتهي عام ١٩٧٣: ثمة من يتربص ليسرق دم الشهداء وعرق المقاتلين وتضحيات الناس التي جعلت ما حدث في أكتوبر ممكن الحدوث: استشهد فكري على رمال سيناء، وهذا عمه القوي يأمر رجاله بالاستيلاء على أرضه، والعاصمة القريبة - البعيدة لاهية بإعلامها الزائف، دائرة في دوامتها التي لا تهدأ، لكنه أبقى الأمل في تحفز الفقراء من أهل قريته للدفاع عن أرض الشهيد، ومقاتل من أبنائهم يؤكد لهم العزم على مواصلة الحرب والتطلع للاستمرار.

رغم هذا النضج الفكري والإحكام الفني.. ربما بسببهما؟ منعت الرقابة عرض المسرحية، وكان أول عرض لها ما قدمته جامعة دمشق في «مهرجان دمشق للفنون المسرحية» في ١٩٧٧!

« لم تتحقق نبوءة - أمنية هذا المقاتل من تميرة. لم تتواصل الحرب لكنها أوقفت، وأخمدت طاقات النضال في دهاليز المفاوضات. وتدريجًا بدأت التوجهات الرئيسة تأخذ عكس مساراتها، وأبدل الأعداء بالأصدقاء، وبدأ هجوم ضار على المرحلة السابقة: سياساتها ورموزها، واستشعرت الأفاعي القديمة الدفء فأطلّت برؤوسها، وراحت صورة المجتمع القديم، الذي أسقط في ١٩٥٢، تعاود الظهور، وتهدد بالاستيلاء على كل ما حققه نضال المصريين خلال عقدين من الزمان (نكتفي بذكر واقعة واحدة دالّة: في ١٩٧٤ أُطلق سراح مصطفى أمين، واستُدعي توءمه من منفاه الاختياري، وسيطرا معًا على أهم مؤسستين صحفيتين في مصر!). وكتب محمود دياب «أهل الكهف ٧٤» ووصفها بأنها «كوميديا» لكنها تقطر مرارة وسوادًا، وقال إن العلاقة بينها وبين مسرحية توفيق الحكيم الشهيرة لا تتجاوز الاشتراك في الاسم.

أبطال «أهل الكهف» من البشر قليلون: «عم حسّان» خفير المخزن و«شوقي» الكهربائي الذي يصلح الأسلاك، ثم مجموعة غير متجانسة من الناس العاديين «نموذج لمجموعة ركاب أحد أتوبيسات القاهرة»، أما الأبطال الأكثر عددًا وأهمية فهم التماثيل: تسعة تماثيل شمعية من الحجم الطبيعي، بينهم امرأتان، والرجال يلبسون الطرابيش.. «ولهذه التماثيل طبيعة غريبة، فأنت إذا دققت النظر في الوجوه خُيِّل إليك أنك تعرف أصحابها، وسيدهشك هذا إذا لم تكن قد التقيت بهم بالفعل، غير أن دهشتك ستزول حتمًا حين تدرك أنك كنت تعرف هذه الوجوه من صورها التي كانت تمتلىء بها صحفنا ومجلاتنا، سواء في صفحاتها السياسية أو في صفحات المجتمع، وذلك حتى مطلع الخمسينيات، وجميع التماثيل بغير استثناء في ثياب السهرة..» لم يبق شك في أنهم حفنة من سادة المجتمع القديم، مجتمع ما قبل ١٩٥٢.

أليس معقولاً، إذن، أن تدب الحياة في هذه التماثيل التي بقيت في مخازنها أكثر من عشرين سنة؟ ما أن يقوم «عم حسّان» بفتح نافذة المخزن التي لم تُفتح طوال هذه السنوات حتى بدأت الحياة تدب في التماثيل واحدًا بعد الآخر: إنهم يتمطون ويتثاءبون وينفضون عن أنفسهم غبار السنين، وحين يقدرون على الكلام يستعيدون عالمهم القديم، وقد تصوروا الأمر في البداية مؤامرة من جانب «ميم باشا» صاحب القصر الذي تحول إلى مخزن، والذي كان حسان يعمل في خدمته، هاهو أحدهم يهدد: «لن أنسى هذه الإهانة لميم باشا ما حييت.. ولسوف أرد له الصاع صاعين.. سأثير القضية في الحزب، وعلى صفحات الجرايد.. وعلى كل المنابر.. لسوف أدمره سياسيًا (لاحظ البلاغة الرثة التي يستخدمها)، وحين تدب الحياة في الثاني يشاركه هذا التصور، هي مؤامرة من جانب ميم باشا نفّذها عن طريق خدمه، وهو - بدوره - يهدد: «أقسم لأرفعنّ الأمر إلى السراية.. وإلى السفارة.. نحن نعيش في بلد له برلمان ودستور وحكومة.. (..) بشرفي، لأنشر عنه كتاب.. وهاختار لون الكتاب أشد سوادًا من الليل (لاشك أن العارفين بتاريخ مصر القريب قبل ١٩٥٢ يذكرون «الكتاب الأسود عن العهد الأسود»)، هافضح علاقته بالأمريكان، وبالرقّاصة جورجيت، وبالشركة العالمية. وبكل شيء...».

وحين تدّب الحياة فيهم جميعًا يعيدون صورة من صور حياتهم كما كانت قبل ١٩٥٢: الخلافات الناشبة بينهم رغم اتفاقهم جميعًا في العداء لجماهير الناس (الفلاحين والعمال، والخدم بشكل خاص، ويقول تمثال ميم باشا: «وإني لأعلنها صريحة مدوية: ليس من حق مخلوق أن يقتل خادمي غيري!) واستنادهم جميعًا إلى «السراية» و«السفارة». وحين يكتمل جمعهم يأتيهم الصحفي «كاف كاف» كان مخزونًا في مخزن آخر، وما أن فتحت نافذة المخزن حتى دبّت فيه الحياة ولاذ بالفرار.. جاء يضع نفسه في خدمتهم ويعدّد الخدمات التي أسداها لهم بدفاعه عنهم وعن مصالحهم، وهو ليس غريبًا عنهم على أي حال، كانت تربطه بهم أوثق العلاقات قبل ١٩٥٢. يقول التمثال الثاني: «عزيزي الأستاذ كاف أنا كنت دايمًا باقدر مواهبك.. وباعتز بيك.. وبارشحك لأن تكون في المستقبل القريب الناطق باسم الحزب..»، ويقف كاف خطيبًا بينهم: «سوف تعود أسماؤكم إلى الصفحات الأولى كأبطال.. ستزول كلمات وتعود كلمات.. ستعلو أصواتكم من جديد..». غير أن الأصوات التي تعلو بالفعل

هى أصوات الجماهير التى جاءت.. «مجموعة كبيرة من عامة الناس.. بينهم عمال وفلاحون وبائعون جائلون وأفندية.. يقودهم حسان..»، يحاصرون التماثيل ويقفون فى مواجهتها ولا يسمحون لها بالخروج، يتمايز من قلبهم «شاب جاد» يتوجه إليهم بالحديث: «فى التاريخ شواهد كثيرة على أن دا ممكن يحصل.. بعد كل انتصار تحققه الفئات الكادحة من الناس تظهر شوية تماثيل من دول، تحاول توقف عجلة الزمن وترجعها لورا.. (..) عشان كده أنا مصدق عم حسان.. وهاروح أقف على البوابة.. وهامنع أى تمثال من دول يخرج من هنا.. يستحيل أسيب عشرين سنة من أعمارنا تروح هدر..»، ينضم إليه الناس حتى لا يبقى رجل واحد لم ينضم إليهم.. «ثم ينزل الستار بحركة بطيئة جدًا.. كأنما كان يتمنى لو ينتظر نهاية أخرى..».

ما تلك النهاية الأخرى التى كان المسرحى يتمنى أن ينزل عليها الستار؟ واضح أنه يريد القول بأن الصراع مايزال مستمرًا، وأنه لم يحسم بعد، وأن تلك التماثيل التى تهدد بالقضاء على منجزات عشرين سنة مازالت تحاول، وأن «الأستاذ كاف» الذى لاذ بالفرار فى مواجهة الجماهير لابد سيعاود الظهور للعمل فى خدمتهم، وأن حسم هذا الصراع مايزال، خبيئًا فى رحم الغيب، ينتظر مزيدًا من العمل والجهد. غنى عن القول أن الرقابة قد اعترضت على تقديم «أهل الكهف ٧٤»، وأنها لم تقدم فى مصر ـ قدر ما أعرف ـ حتى اليوم. نشرها محمود فى مجلة «الشباب» فى ١٩٧٥، وأعادت مجلة «أدب ونقد» نشرها فى ١٩٨٤.

• العام التالى كان عام «الانفتاح». مازلنا نذكر الصخب الذى أحاط التوجه السياسى ـ الاقتصادى ـ الاجتماعى الذى حمل هذا الشعار، والذى فتح كل الأبواب أمام المشروعات الخاصة، ورفع كل القيود أمام الاستثمارات ورؤوس الأموال، فى محاولة للتخلص من التوجه نحو «الاشتراكية»، وقيادة «القطاع العام» لخطة «التنمية الاقتصادية» إلى آخر ما ساد المرحلة السابقة من توجهات. كتب محمود دياب «قصر الشهبندر»، ووصفها بأنها «كوميديا غنائية» وتحمس لها المخرج الراحل كرم مطاوع، وخاض معركة مريرة لتقديمها باسم «دنيا البيانولا» (لعب أدوارها الأولى عفاف راضى ومحرم فؤاد وجميل راتب وإحسان القلعاوى وسواهم)، لكن العرض انتهى إلى احتراق المسرح الذى يُقدم عليه (مسرح البالون) قبل أن يستوفى أيام عرضه، وبقيت «قصر الشهبندر» بين أعمال دياب غير المنشورة حتى اليوم.

فما هذا القصر، وما حكايته؟

هو «قصر عربى قديم فى القاهرة، يبلغ عمره ٤٠٠ سنة، وهو مايزال يحتفظ بأبهته رغم عمره الطويل.. فى مظهره الخارجى على الأقل..»، وتدور أحداث الفصول الثلاثة فى الساحة الرئيسية للقصر، هنا يعيش «آل الشهبندر»، على رأسهم «حكمت هانم» آخر من آل إليه القصر «تخطت الأربعين ولازالت تحتفظ بجمالها، شهدت فى مطلع حياتها أيام عز ورفاهية هذا القصر، غير أنها لم تعد تمتلك من الدنيا سواه، فهى متشبثة به رغم ظروفها العسيرة..»، وابنتها الطالبة الجامعية «كريمة» المرتبطة بعلاقة حب مع قريبها «رشاد» الذى يعيش ظروفًا قاسية، فهو كاتب فى مخبز ويدرس الحقوق فى نفس الوقت، وآخرون، يتمايز من بينهم «هلال» صاحب «البيانولا» وابنه «خيشة» الذى يلعب دور المهرج فى صحبة أبيه، و«أبوالعز» الموظف السكّير الماجن، و«أحمد أفندى» المدمن لنوع من المخدرات، وزوجتاهما، والباقون «كلهم من آل الشهبندر.. تضم نماذج متعددة ومتباينة من الناس من أعمار مختلفة.. بينهم شباب الجامعات والمدارس.. فتيان وفتيات.. فيهم العامل والحرفى والموظف وبينهم أيضًا موظفات.. السمة التى تجمعهم جميعًا هى الفقر..».

وتعيش هذه الجماعة حياتها بحُلوها ومُرّها، والمسرحى المتمرس يحدد ملامحها بلمسات قليلة: ثمة الأرملة المكبوتة، والزوجة التى يغلق زوجها الباب فلا يسمح لها بالخروج، والسكير الذى لا يصحو، والمدمن الذى لا يفيق، والفتاة المرحة اللعوب، وفى قلب الجماعة قصة الحب التى تنمو صحيحة رابية بين «كريمة» و«رشاد». حتى يأتى «بهجت» بملايينه ورجاله وأحلامه الجديدة وثاراته القديمة ليقلب كل شىء، ويلقى بأحجار كثيرة فى مجرى الحياة فى قصر الشهبندر: «بهجت بيه.. رجل فى حوالى الخمسين من عمره.. أنيق بصورة زاعقة. فارع الطول وعريض.. مظهره وإن دل على الثراء الفاحش إلا أنه يدل على العنجهية والصلف أيضًا.. (..) الهانم لم تتعرف على الرجل للوهلة الأولى.. وتمر برهة.. وفجاة انفجرت فى قلبها أغنية حب قديمة..». إنه هو. ما أبعد ذلك الزمن وما أجمله!

نعم.. إنه حب الزمان القديم، وإنه ذكرى الماضى المترف الذى ذهب لغير رجعة. من حوارهما معًا ينكشف الماضى: كان بهجت شابًا لاهيًا («فسدان» كما يقول «عم بشار» بواب قصر الشهبندر)، ورفضه صادق بك الشهبندر زوجًا لحكمت، فرَحل بهجت، وقضى ثلاثين عامًا لا همّ له سوى جمع المال بكل الطرق.. «مفيش طريق يجيب فلوس مهما كان إلا ومشيت فيه..» وكان مقسمًا على أن يعود، لم ينس ثاره أبدًا «كنت ناوى أذل عيلة الشهبندر.. كنت ناوى أحرق القصر ده.. اشتريه وأحرقه.. واجيب دماغ باباكى صادق بيه الشهبندر تحت رجلى.. كنت ناوى اشتريكى..»، لكنه، بعد أن جمع المال وعاد، اكتشف أن القصر قد أصبح خرابًا، وأن حكمت قد اكتهلت! غير أن أمثال هؤلاء لا يردعهم رادع عن تحقيق مآربهم. وهم قادرون دائمًا ـ بما يملكون من قوة المال ـ أن يُطوّعوا الواقع.. هكذا تبرق فى ذهن بهجت فكرة خاصة بالقصر، وأخرى خاصة بحكمت. عن القصر: يحلم ويدفع حكمت إلى مشاركته الحلم: «تصورى يا حكمت لو قصر الشهبندر بقى أوتيل.. أوتيل شرقى.. كل شىء فيه على الطراز الشرقى.. العربى بالتحديد.. البنيان زى ماهو يفضل بمعماره القديم.. المضايف.. المشربيات.. السراديب.. الدهاليز.. الحمام التركى والطاحونة.. كل حاجة تفضل زى ماهى.. نضيف اللى لازم ينضاف ونصلح اللى لازم ينصلح.. (..) والستاير تنزل ألوان، ألوان فى كل مكان.. (..) ع البوابة حرس فى الزى العسكرى العربى القديم وشايلين سيوف.. الجرسونات بنات حلوين لابسين لبس الجوارى.. القعدات دكك وشلت.. من كل الألوان.. (..) تصورى.. قد إيه الموسيقى العربية والأغانى العربية القديمة تبقى حلوة فى جو زى ده.. ليالى ألف ليلة ترجع تانى فى القرن العشرين.. قصر الشهبندر هيبقى قصر من قصور هارون الرشيد.. ويرَجّع أحلام بغداد..».

هذا عن القصر.. فماذا عن حكمت نفسها؟

إنها تسأل بهجت ـ مباشرة ـ إن كان لازال يحبها، فيراوغ فى الجواب:

بهجت: هاغيّر حياتك دى كلها.. هارجّعلك العز القديم وأكتر منه.. هاعوّضك سنين الحرمان اللى عشتيها كلها واخليكى تشوفى الدنيا بنظرة جديدة.. هارجعك حكمت هانم الشهبندر من جديد.

الهانم (بهدوء كئيب): والتمن إيه يابهجت؟

بهجت: ترجعيلى حكمت الشهبندر بتاعة زمان.. بعذرية قلبها.. وبشبابها.. بصورتها اللى كنت باحبها.. (..) فى الدقيقة اللى وصلت فيها وأنا لسه واقف هنا (يشير إلى البوابة) فكرت أمشى فعلاً.. (..) فجاة لقيت حكمت الشهبندر بتاعة زمان قدامى.. حكمت الحلم.. هى نفسها، بعينيها، بنظراتها، بحلاوة روحها، بكبرياء بنت الشهبندر (اتضحت الأمور فجاة أمام الهانم، فرُوّعت وبدت كأنها تقاوم شعورًا بالإغماء..).

الهانم: تقصد إيه يا بهجت؟.. تقصد مين؟.. اتكلم.. (بهجت يبتسم ابتسامة خفيفة هى كل إجابته).. (صارخة).. إذا كنت تقصد كريمة.. هو دا المستحيل..

تحددت المسألة إذن: ليس القصر وحده هو المطروح للبيع والشراء، ولكن كريمة كذلك. قد تسأل ـ كما سألت حكمت ـ وأين يذهب كل هؤلاء الذين يعيشون فى القصر، الذين رأيناهم والذين لم نرهم، والذين تقول عنهم أنهم يعتبرون أنفسهم أصحاب القصر، لا ساكنيه فقط، ويكون رد بهجت جاهزًا: «ح نطلعهم طبعًا.. (..) فيه وسائل كثيرة لتطليع الناس.. وأهم وسيلة الفلوس.. (..) الفلوس بتسحر ياحكمت.. طول ما معاكى فلوس مفيش مستحيل..».

فهل تستطيع الفلوس ـ بالفعل ـ أن تحقق ما يشاء صاحبها؟ هذه حكمت هانم تحاول إقناع كريمة بقبول الصفقة: «مش ممكن واحدة ترفض ملايين.. ترفض كنز ينفتح فى بيتها ويغرقها دهب وتكون عارفة مصلحتها..». لكن كريمة قد اتخذت قرارها: «أنا بارفض بهجت بيه المليونير.. بارفض ملايينه كلها تمن لقلبى وكرامتى ومصير عيلة الشهبندر.. (..) أنا واحدة من سكان القصر ده.. هاقف فى صف السكان.. ومش هنسمح لمخلوق يدخل قصرنا علشان يحوله سوق للعبيد..».

صحيح أن هناك البعض يضعف ويتردد ويسيل لعابه وبهجت يزيد من قيمة ما سيدفع (ولنلاحظ أن هؤلاء هم المدمنون والغائبون عن الوعى، وأن نساء القصر أكثر صلابة فى الرفض من بعض الرجال)، ويقود رشاد ـ ومعه كريمة ـ جبهة الرافضين، وينتهى المشهد ـ والعمل كله ـ بكلمات حكمت الشهبندر: «أنت عملت فينا خدمة نشكرك عليها.. فتحت عينينا على الكنز اللى فى إيدينا.. وأولاد الشهبندر أولى بكنزهم.. هنحط إيد على إيد ونحاول سوا نطرد الفيران منه ونقويه علشان يعيش لأولادنا وولاد أولادنا.. زى ما عاش جيل بعد جيل».

عن عمد أطلت الوقوف عند «قصر الشهبندر» لاعتبارات عديدة: منها أنه كان العمل الأول الذى يُعرض لمحمود دياب بعد سلسلة متتالية الحلقات من المصادرات والإيقافات: «الهلافيت، ٦٩»، «باب الفتوح، ٧١»، «رجل طيب... ٧٢»، «رسول... ٧٣» ثم «أهل الكهف، ٧٤»، وأن العرض لقى إقبالاً جماهيريًا كبيرًا، كان عرضًا موسيقيًا غنائيًا جذابًا بنجومه ومغنيه، لكنه ـ فى ذات الوقت ـ كان لا يلقى القبول من



ما تلك النهاية الأخرى التى كان المسرحى يتمنى أن ينزل عليها الستار؟ واضح أنه يريد القول بأن الصراع مايزال مستمرا، وأنه لم يحسم بعد، وأن تلك التماثيل التى تهدد بالقضاء على منجزات عشرين سنة مازالت تحاول

محمود دياب

«المؤسسة الثقافية» والرسمية: آنذاك كان السادات في حمى عمله على تحويل التوجهات الرئيسة للواقع المصري في كل جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وفيما يتعلق بالثقافة الرسمية فقد كان جنرال الثقافة والإعلام، «ماكارثي» أو «إيان سميث» الثقافة المصرية، أعني يوسف السباعي، يقوم بدور فعّال في تنفيذ هذه التوجهات الجديدة: يستبعد الموهوبين ذوي الأصالة، يغلق مجلات ويُنشئ مجلات، ويسعى إلى إقامة «واجهة بديلة» للثقافة المصرية التي كانت ذات طابع تقدمي وإنساني، وبلغت أوجها الرائع من منتصف الخمسينيات لنهاية الستينيات على وجه التقريب، يعاونه في التنفيذ «وكيل أول» الوزارة: سعد الدين وهبة. وكان الاتهام الجاهز الذي يُوجه إلى كل صاحب فكر مختلف أو مخالف، أو كل صاحب فكر على وجه الإجمال، هو الاتهام «بالشيوعية»، خاصة بعد التوجه الكامل نحو القطب المعاكس في السياسة الدولية آنذاك: الولايات المتحدة، والتي وصفها السادات - بوضوح نادر - أن بين يديها ٩٩٪ من أوراق اللعبة، وقد تم اتهام محمود دياب - بين مثقفين ومبدعين كثيرين اختار كثيرون منهم الخروج من مصر، وبقيت أقلية تشهد على ما يحدث - بالشيوعية، وما أبعد أعماله عن هذا الاتهام، أيًا ما كان التوسع في دلالته ومعناه!

حدَّثني من أثق بصدقه أن عرض «دنيا البيانولا» شهد مشادات عديدة بين وزير الثقافة المسئول - من ناحية - ومؤلف العرض ومخرجه، من الناحية الأخرى. في واحدة من هذه المشادات، التي شهدها مُحدثي، وجّه السباعي الاتهام، صراحة، لكرم مطاوع بأن الشيوعيين قد خدعوه «وضحكوا عليه» بتعبير الوزير، ويؤكد محدثي أن احتراق «مسرح البالون» الذي كان العرض يُقدم على خشبته لم يكن بمحض الصدفة أو الخطأ، وأنه لم يكن بعيدًا عن الموقف الرسمي من العرض وأصحابه، واليوم، بعد انقضاء أكثر من خمسة وعشرين عامًا، لم يعرف أحد من حرق المسرح!



> حمل محمود أحزانه وارتحل إلى الإسماعيلية، كان يملك قطعة أرض صغيرة يحلم بأن يقيم عليها مسرحًا و«قرية فاضلة»، أطلق عليها الاسم الذي يحبه، والذي يعني مصر: «تميرة».. لكنه فوجئ بتحطيم السور، واقتلاع الأشجار والاستيلاء عليها

حمل محمود أحزانه وارتحل إلى الإسماعيلية، مدينته التي أحبها دائمًا وكان يلوذ بها، كان يملك قطعة أرض صغيرة هناك يحلم بأن يقيم عليها مسرحًا و«قرية فاضلة»، أطلق عليها الاسم الذي يحبه، والذي يعني مصر: «تميرة». لكنه فوجئ بتحطيم السور الذي يُسوِّرها، واقتلاع الأشجار منها والاستيلاء عليها، بزعم أنها داخلة في نطاق أحد مشروعات «المقاولين العرب» (يذكر الذين عاشوا هذه الفترة الكالحة من التاريخ المصري القريب، مدى النفوذ الذي بلغه عثمان أحمد عثمان، وقد أصبح وزيرًا للتعمير، وأصهر إلى السادات، وتولى تنفيذ كل مشروعات ومقاولات الدولة، وقد كانت وطأة هذا النفوذ ثقيلة، بوجه خاص، في مدينة عثمان: الإسماعيلية، التي كان يعتبرها من أملاكه الخاصة. وقد أغلق أجمل شواطئها، وجعله وقفًا على السادات وصحبه)، المهم.. في تلك الليلة من شتاء ١٩٧٦، وفي طريق عودته، اصطدم محمود دياب بسيارته، وأصيب إصابات بالغة.

إن هذه التفاصيل ذات دلالات بالغة فيما يتعلق بالسنوات الأخيرة من حياته.

* كما رأينا، لم تكن «باب الفتوح» مسرحية تاريخية، وكما سنرى لم تكن «أرض لا تنبت الزهور» مسرحية تعود إلى «التاريخ الأسطوري» لمملكة تدمر: ظل الواقع المصري يضرب في اتجاهه المحدد: إعلان أن «حرب أكتوبر هي آخر الحروب»، ثم المفاوضات التي تتقدم وتتعثر، وأخيرًا: قاصمة الظهر: رحلة القدس، لتتلوها «كامب ديفيد». وجاءت مسرحية محمود دياب استجابته الفكرية والفنية لهذين الحدثين الأخيرين بوجه خاص، هي عمله الأخير المكتمل، نشرت - للمرة الأولى - في مجلة «المسرح» في نوفمبر ١٩٧٩، وأعيد نشرها بعد رحيل صاحبها بثلاث سنوات «مختارات فصول، أكتوبر ١٩٨٦».

الحقائق التاريخية عن «مملكة تدمر» في بادية الشام تؤكد أن هذه المملكة الصغيرة خاضت في القرن الثالث الميلادي - ابتداء من عام ٢٦٠م - حروبًا ناجحة ضد دولة الفرس، حتى استطاع ملكها «أُذَيْنة» أن يبسط سلطانه على سوريا كلها، واعترف به الامبراطور الروماني الضعيف «جيلينيس» ملكًا على المشرق، ومات أذينة في ٢٦٨م، وتولت امرأته «زنوبيا» أو «الزباء» زمام الحكم من بعده، وظلت تدير شئون مملكتها حتى ٢٧٣م حين دمر الإمبراطور أورليانوس مدينتها وقوّض حكمها، لكن زنوبيا أو «الزباء» عاشت في التاريخ الأسطوري أو «الميثولوجي» العربي أطول كثيرًا مما عاشت في تاريخها الحقيقي.

لكن هذا كله ليس سوى «الإطار الخارجي» لما يريد المسرحي أن يقول، بعبارة ثانية: لسنا بصدد مسرحية «تاريخية» على أي نحو، نحن إزاء عمل فني يتعلق بأستار التاريخ كي يقول ما يشاء.. فلننظر كيف صاغ محمود دياب «أسطورته» وماذا أراد منها: أبرز وجوه الزباء أنها منتقمة، تسعى للانتقام لأبيها الملك «عمر بن الظرب» من قاتله ملك الحيرة «جذيمة الوضاح» أو «جذيمة الأبرص» قبل سبع سنوات، وقد نجحت في استدراج الملك العجوز، أرسلت له رسالة ومعها صورة لها، قالت في رسالتها: «لننس الماضي.. إذا كان أبي قد مات فالموت قانون يخضع له كل البشر.. وأنا حية ولي قلب يخفق.. وأنا أنثى، والأنثى تحتاج إلى رجل، وقد اخترتك أنت رجلاً، فكن رجلي..»، وهي تستعد «لعرس الدم» في قاعة عرشها الجرداء من كل شيء سوى صورة للملك القتيل. قالت لها عرافتها أن تحذر، فلا تجعل شيئًا من دمه يسقط على الأرض، فلو سقطت قطرة واحدة لكانت نذير ثأر نافذ، أما أختها «زبيبة» فترجوها ألا تقتله: «لا تقتليه.. أوقفي أنهار الدم.. فقد غصّت الأرض بيننا وبين الحيرة بما شربت من دم»، لكن آلة الانتقام لا تتوقف عن تحقيق حلمها الدموي، ويحدث فعل القتل على المسرح: أربعة نسوة عجائز يقطعن شرياني يديه ويستصفين دمه، لكن بقعة منه تسقط على الأرض «هذا دمه على الأرض.. إن قطرة واحدة تكفي لتُحدث فيضانًا في نهر الدم.. أي قدر صنعت لنفسي ولتدمر؟.. النهر جار وطافح ولا شاطئ ترسو عليه الزباء.. لا نجاة..».

الدراما الحقيقية هي ما ستدور بين الزباء من ناحية، و«عمرو بن عدي» وريث جذيمة، ابن أخته وطالب ثأره. كان شاعرًا ينفر من إراقة الدم وطلب الثأر، لكن شيوخ الحيرة يحاصرونه ويرغمونه عليه، وعلى رأسهم «قصير بن سعيد» وزير الملك القتيل. إن لدى «قصير» خطة كاملة، يمهد بها للملك حتى يقتل الزباء بنفسه، والخطة هي أن يلجأ إليها زاعمًا أنه لقي من مولاه أهوال التعذيب والتنكيل والنفي. هل جازت خدعته عليها فعلاً أم أنها قبلتها لأن بداخلها رغبة خفية في أن تلقى جزاء ما فعلت؟ لعل ما يُرجّح هذا الاحتمال أنها أرسلت رسّامها «ابن الحكم» إلى الحيرة كي يعود إليها بعديد من صور عمرو.. «أريد لصورته أن تكون تحت عيني في كل لحظة.. حتى إذا رأيته عرفته.. فهو لا سبيل له لقتلي إلا أن يتسلل إلى قصري..»، وهذا ما يحدث في النهاية: تنجح خطة «قصير» حتى أن الزباء ترسله - مفاوضًا باسمها - إلى «سابور» ملك الفرس، وبعد أن يعود برسالة منه تسمح له بالعودة كي يجلب تجارته ويستقر بتدمر، ويرجع بسرب من الجمال تحمل صناديق ضخمة في أحدهما عمرو بن عدي.

إن اللقاء بين الزباء وعمرو في المشهد الأخير هو جوهر الدراما، وهو ما تنتهي إليه كل الأحداث، بل هو ما صاغ المسرحي عمله كي يبلغه، وكي يدور بينهما هذا الحوار المثقل بالدلالات، انظر لهذا الذي جاء يقتلها ماذا يقول لها، إنه يعرض عليها الزواج:

عمرو: .. تزوجيني فننهي هذا العداء الموروث، ونعيش في عالم نُنشئه معًا لأنفسنا ولمن يأتون بعدنا.. عالم ليس في أعماقه تلك الأحقاد المدمرة القديمة.. (..).

الزباء: .. هل فكرت في شعبي وشعبك؟.. (..) ما قولك في شعبي وشعبك إذا نحن تزوجنا؟

عمرو (مصدومًا): شعبي لن يحب زواجًا كهذا.. فقد أرسلني لقتلك.. ولا أظن أن شعبك يحبه.. لسوف يكرهونه هنا وهناك لكنهم لن يوقفوه.. فالزواج إرادة منا.. أنا وأنت.. وسنجد من الأيام متسعًا لأن نغيرهم.. هنا وهناك.

الزباء: كيف؟

عمرو: بأن نجعلهم يحبونه.

الزباء: أنت بالفعل شاعر ولست ملكًا.. فتراث توارثه الناس على مدى أجيال. لا يتلاشى بكلمة من ملك.. (..) خذها كلمة من الزباء يا عمرو ولا تنسها: إن أرضًا ارتوت بالحقد لا تنبت فيها زهرة حب.

تلك «الحكمة» التي تقولها الزباء تضاف إلى بقية «الحكم» التي تحفل بها قصة الزباء في التاريخ الأسطوري العربي: «لأمر ما جدع قصير أنفه»، «لو كان يطاع لقصير أمر..»، «بيدي.. لا بيد عمرو».. إلخ، لكنها هي الهدف الرئيسي من صياغتها المعاصرة، وهي - ببساطة ووضوح - رأي المسرحي في السلام المصري - الإسرائيلي. على أي حال: لا تجد الزباء أمامها سوى أن تتجرع السم، وتموت «بيدها لا بيد عمرو..»، ويأتي «قصير» ليُخرج سيده كما أدخله!

٤ دراما الحياة والموت..

* في «أحزان مدينة - طفل في الحي العربي، ١٩٧١» حدثنا محمود دياب عن طفولته وصباه في مدينة الإسماعيلية، المدينة التي يحمل اسمها تاريخ نشأتها، التي ارتبطت - منذ هذه النشأة - بقناة السويس: المجرى المائي والشركة والقاعدة، والتحمت بالنضال الوطني المتصل بها على طول تاريخنا الحديث. هو من مواليد ١٩٣٢، وهو يبدأ هذا الجزء من سيرته الذاتية - لم يتح له رحيله الباكر أن يكملها - ببداية الوعي، ونشأة الحي الذي أُطلق عليه - لا يدري لماذا - «عرايشية مصر»، والذي يقع بين «الحي العربي» و«الحي الأفرنجي» من المدينة، وينتهي وقد وقف الصبي على أعتاب المراهقة، انتهت الحرب العالمية وبدأت ظواهر لم تعرفها المدينة من قبل تجتاح الحي الذي كان هادئًا وآمنًا. في أسلوب بسيط وإيقاع هادئ يبدو محايدًا، يصور محمود المتغيرات التي اجتاحت المدينة والوطن خلال تلك السنوات من ثلاثينيات القرن الماضي وأربعينياته.

ونحن نعرف أنه كان واحدًا من أسرة كبيرة العدد (ست شقيقات وشقيقان)، نزح الأب من إحدى قرى «الصالحية» واستقر في مدينة الإسماعيلية، موظفًا صغيرًا في بنك «باركليز»، وحين حصل محمود على شهادة «الثقافة» في ١٩٤٧ عمل في فرع البنك نفسه في مدينة السويس، لكنه لم يتخل عن حلم إكمال دراسته (في كلية الحقوق على وجه التحديد). فحصل على «التوجيهية» في ١٩٤٩، والتحق بالكلية التي تمناها في ١٩٥١، إبّان اشتداد الحركة الوطنية المعادية للإنجليز في منطقة القناة، واصطدم محمود بمدير عمله في السويس - وكان إنجليزيًا بطبيعة الحال - فقدّم استقالته وتفرغ لدراسته التي أنهاها في ١٩٥٥، عُيِّن بعدها مباشرة، محققًا في «إدارة قضايا الحكومة»، وترقى في عمله حتى أصبح «مستشارًا» قبل أن يهجره تمامًا في سنواته الأخيرة، ولاشك في أن هذه الصفة القضائية قد حَمَته من التعرض لمزيد من الاضطهاد في سنوات السبعينيات بوجه خاص.

وعمل محمود فور تخرجه، في مدينة أسيوط (ولعل إقامته في هذه المدينة هي التي قدمت له المادة الضرورية للقصص التي تدور حول عناء العاملين في مهنة البناء من أهل الصعيد، والتي صاغها في عدد من قصص مجموعته «خطاب من قبلي»، على النحو نفسه، فقد أفادته هجرة الأسرة إلى قرية الأب في محافظة الشرقية أثناء الحرب العالمية في مزيد من التعرف على حياة القرية)، وفي أسيوط تعرّف محمود إلى فتاة جميلة أصبحت زوجته الأولى، وأم ابنته «هالة» وابنه «هشام»، وجاءت معه إلى القاهرة حين نُقل إليها، لكنه تعرّض إلى حادثة دامية في ١٩٦١: انتحرت زوجته، واتهمه أهلها بقتلها، وأثبت محمود براءته، لكن الحادثة كلها خَلَّفت في عقله وقلبه آثاراً غائرة. (حدثني شقيقه الرسام المعروف إسماعيل دياب أن في مسرحيته «البيت القديم» الشيء الكثير عن تعرفه إلى زوجته الأولى وعلاقته بها)، كان من هذه الآثار اضطراب علاقته بالجنس الآخر، تزوج بعدها ثلاث مرات، وانتهت زيجاته كلها إلى الطلاق، وقد أنجب من أخراهن - وهي فنانة ديكور سورية - ابنته «هبة».

كان محمود عصبيًا، حادًا، متوترًا، كأنه كتلة أعصاب عارية، وكان كذلك عنيدًا، ذا صلابة غير عادية إزاء ما يعتقد أنه الحق، لا يعرف المهادنة، أو المساومة أو أنصاف الحلول أو أنصاف الأفكار، عالمه محدد بصرامة قاطعة: أبيض أو أسود، لا منزلة بين المنزلتين، ولا مقعد بين المقعدين، ولا لون بين اللونين: إما رفض لا يحتمل شبهة القبول. أو قبول لا يحتمل الرفض.

ولاشك في أن هذا التكوين العقلي والنفسي قد ضاعف من عنائه وعذابه، خاصة في سنوات السبعينيات الكالحة، بما سادها من خلط متعمد للقيم، وتحويل للتوجهات الرئيسة في السياسة والثقافة جميعًا.

سبق القول أنه بدأ بكتابة القصة القصيرة (فهو الشكل الذي يبدو أكثر يسرًا وطواعية)، وحصل على واحدة من جوائز «نادي القصة» في ١٩٥٩، ثم كتب الرواية، لكنه وجد في الكتابة للمسرح أكثر الأشكال الفنية ملاءمة له ولما يود أن يقول، ومنذ نبضت أولى مسرحياته بالحياة على الخشبة (٦٢/١٩٦٣) وقع في أسر هذه الغواية الساحرة، صحيح أنه مارس أشكالاً أخرى من الكتابة، لكنه يبقى «المسرحي» بالألف واللام، ويبقى بعض ما خلّفه للمسرح من أثمن ما عرف المسرح العربي على وجه الإطلاق. (افتح هذا القوس لأشير إلى انه كتب عدة أعمال للتليفزيون في القاهرة ودمشق، أما علاقته بالسينما فتمثلت في إعداد بعض أعمال دستويفسكي: «سونيا والمجنون» عن «الجريمة والعقاب» و«الإخوة الأعداء» عن «كرامازوف»، ليخرجها حسام الدين مصطفى، لكن هذه الكتابات كلها، وإن أسهمت في توفير احتياجاته المادية، إلا انها أرهقته إرهاقًا شديدًا، فما يكتبه لا يتم تنفيذه على الوجه الذي يراه، والناتج النهائي لا يرضيه، ولاشك عندي في أن علاقته بالسينما كانت بين عوامل اكتئابه في سنواته الأخيرة، أما علاقته بالتليفزيون المصري فانتهت إلى قرار بمنعه من دخول المبنى كله في ١٩٧٦!).

ولعل أهم ما في مسرحيات الستينيات (تلك الثلاثية الرائعة «الزوبعة»، «ليالي الحصاد» و«الهلافيت») تقديم صورة للقرية المصرية مختلفة عما هو سائد: شخوص حقيقية نابضة بالحياة يحملون هموما حقيقية كذلك. وبقدر ما تطرح هذه الأعمال هموم الفلاحين ترتفع إلى طرح قضايا إنسانية شاملة، يتم هذا دون مباشرة أو افتعال، دون صوت مرتفع او شعارات زاعقة، ولكن من خلال أبنية فنية بالغة الدقة والإحكام: في يسر وسلاسة يتم الانتقال من الماضي للحاضر، من التشخيص للواقع، من الخارج للداخل. إنك لاتكاد تجد في هذه الأعمال جملة زائدة أو في غير مكانها، هو مسرحي قادر بكل المعاني، يعرف جيدًا متى يقول ومتى يصمت، لا يُستدرج إلى «ميلودرامية» فاقعة، أو «سنتمنتالية» مائعة، لكنه يحدد - في لمسات قليلة - ملامح شخوصه يُعيِّنها فلا تتماثل - إن تشابهت - حتى حين يستخدم الأصوات الجماعية فهو يمايز بينها، فيجعل لكل منها ما يمتاز به عن بقية الأصوات، إنها ليست جماعات مصمتة تردد صوتًا واحدًا لكنها ذات تنويعات وتلوينات.

أما في سنوات السبعينيات فقد انتقل المسرحي من هموم القرية لهموم الوطن، وبقي على اتصال وثيق بالقضايا ذات الطابع المصيري في الواقع المصري والعربي. إن سياقًا واحدًا ينتظم هذه الأعمال: في ١٩٧١، حين كتب «باب الفتوح» كان مايزال يامل في أن يتزاوج الفكر والسيف، العقل والقوة، فجاء بأسامة بن يعقوب من إشبيلية. في لحظة من التاريخ رآها موازية لما بعد ١٩٦٧ ورحيل عبدالناصر، وأبقى الأمل في الشباب، هم الذين سيحفظون كتاب أسامة ويشيعونه بين الناس، وبعد أن اشتعلت النار في أكتوبر ١٩٧٣، وقبل أن تنتهي السنة ذاتها، جاء برسوله من قرية تميرة، لكنه رجع خائبًا مفلسًا مدينًا، لكنه أبقى الأمل أيضًا في أهل القرية الذين يتحفزون للدفاع عن أرض الشهيد، ومقاتل من أبنائهم يؤكد لهم العزم على مواصلة الحرب والتطلع إلى الاستمرار. وفي ١٩٧٥/٧٤ شهد محمود - كما شهدنا جميعًا - انبعاث رموز الماضي الكريه، خرج «أهل الكهف» من قبورهم يجرجرون الأكفان، ودبت الحياة في التماثيل الميتة، فدبت لاستعادة ما فقدته زمنًا طويلاً، لكنه أبقى الأمل كذلك: الناس يتجمعون حول بوابة الكهف ليمنعوا أي تمثال من الخروج «مستحيل أسيب عشرين سنة من حياتنا يروحوا هدر..». ثم شهد محمود - كما شهدنا جميعًا - غزو لصوص الانفتاح، فجعل «بهجت بيه» يعود إلى «قصر الشهبندر» الذي طُرد منه قبل ثلاثين عامًا، يعود ولديه خطة جاهزة للاستيلاء على القصر، وشراء كل الذين يعيشون تحت سقفه. مرة أخيرة: أبقى محمود الأمل: يتجمع أهل الشهبندر ويقفون وراء حكمت التي كفت عن مطاردة سراب ماضيها الجميل، وهي تقول بوضوح إن أهل الشهبندر أولى بكنزهم.. «هنحط إيد على إيد ونحاول سوا نطرد الفيران ونقوى.. علشان يعيش لولادنا جيل بعد جيل..».

نعم. حتى حينذاك كان الأمل يمكن أن يوجد، غير أن السنوات من ١٩٧٥ إلى ١٩٧٩ قضت على الأمل تمامًا: انفتحت أبواب الواقع - على كل مصاريعها - أمام المتربصين بدم الشهداء، وأمام رموز الماضي القبيح، وأمام ذئاب الانفتاح. وتم تغييب إرادة الناس وإبعادها، واختنق النضال الوطني والقومي وحوصر في دهاليز المفاوضات، ثم فُرض السلام الهش، الزائف والمصنوع، ومن ثم جاءت أغنيته الأخيرة كئيبة حزينة، مثقلة بالجدب والعقم والزيف والعنف والدم والجنون. مدّ محمود الخطوط لنهاياتها، ومرة أخيرة كان لرؤيته صدق النبوءة ومذاقها الجارح: لابد أن تموت زينب الزباء: حين استبدت برأيها ورفضت حب قائد جيشها والاستماع لنصحه، وفتحت أبواب تدمر للأعداء، وأرسلت عدوها يتفاوض باسمها، وأحاطت نفسها وجدران قصرها بصور العدو، وجعلت لعبتها المجنونة قانونًا أخضعت له كل شيء.

حين أغلقت كل أبواب الخلاص، مضت زينب الزباء لموتها، بعدها أغلق محمود دياب الأبواب حول ذاته ساعيًا لموته الخاص.

كان محمود عصبيًا، حادًا، متوترًا، كأنه كتلة أعصاب عارية، وكان كذلك عنيدًا، ذا صلابة غير عادية إزاء ما يعتقد أنه الحق، لا يعرف المهادنة، أو المساومة، عالمه محدد بصرامة قاطعة، أبيض أو أسود، لا منزلة بين المنزلتين



ومن المؤكد أن سنوات السبعينيات قد حملت لمحمود قدرًا كبيرًا من العنت والاضطهاد، كانت أعماله تُرفض حتى دون أن تُقرأ، حدث هذا في «باب الفتوح» في ١٩٧١، وتكرر الموقف في الأعمال التالية: لم تقدم «رسول من قرية تميرة..» (هل كانت مصادفة ان تُمنع مسرحية محمود، وأن تُقدم - بالمقابل - على مسارح الدولة، في الاحتفال بذكرى أكتوبر، مسرحيتان لسعدالدين وهبة معًا، هما «يا حبيبتي يا مصر» و«راس العش» إلى جانب مسرحية عن قصة قصيرة لوزير الثقافة يوسف السباعي، ورابعة لرشاد رشدي؟)، كذلك منع عرض «أهل الكهف»، وبعد أن خاض كرم مطاوع معركته التي انتهت بعرض «دنيا البيانولا» وحققت نجاحها الجماهيري، فات عليك الموقف الرسمي وما أدى إليه من إحراق المسرح الذي يقدم عليه العرض!

فماذا بوسع محمود دياب، بأعصابه العارية وحساسياته الفائقة، أن يفعل؟

يعرف أصدقاؤه، والقريبون منه أنه راح يغلق حول نفسه الأبواب، وغاص - طوال السنوات الثلاث التي سبقت رحيله - في وحدة كاملة: لا يزور ولا يُزار، اعتزل الأصدقاء والناس، وانقطع عن الصحف والإذاعات، ثم هجر عمله الرسمي، وراح يقضي أيامه ولياليه وحيدًا، تتراكم الصحف أمام بابه المغلق، لا يجيب طارقًا ولا يأبه بزائر. اكتفى بذاته تمامًا ووهنت علاقاته بالناس والأشياء، وغاص في رؤاه القاتمة والمتشائمة التي تستند لمعطيات الواقع، وتحمل صدق النبوءة وقدرتها على النفاذ.

وصباح يوم من أكتوبر ١٩٨٣ أدار محمود دياب وجهه للجدار، ومات. وعلى الفور فهم أصدقاؤه وعارفوه دلالة موته: كان رفضًا واحتجاجًا على واقع رآه فاسدًا بلا أمل، معتلاً بلا بُرء.

يمكنك أن تُجْمِل دراما حياته وموته في جملة واحدة: هذا مُبدع عظيم، أحبَّ بقوة وضرب بقوة، حتى كَلَّت قواه.. فتهاوى! ■

❝ موضوع الصراع بين الحزب القومى الاشتراكى الألمانى وبين التنظيمات اليهودية الأوروبية منذ العام ١٩٢٣، تاريخ وصول هتلر إلى السلطة، إلى سقوط الرايخ الثالث، مازال بعد مرور نحو نصف قرن يُجند أقلاما كثيرة تحاول ترسيخ وجهة نظر وحيدة؛ لأن المنتصرين فى ذلك الصراع يصرون على كتابة التاريخ من وجهة نظرهم، على عادة المنتصرين، فكيف إذا ما كان هؤلاء يتحكمون بأدوات التواصل من مقروءة ومسموعة ومرئية، الموجودة على أرض هذا الكوكب وفى فضائه؟!

ويدهش من يتابع هذا الموضوع، لا لفرط الإلحاح على إبراز الرواية اليهودية للحدث فحسب بل لهذا الطوفان من الكتب والمقالات والدراسات والأفلام التى تنحو هذا المنحى، مما يثير شكوكًا عميقة ويعطى انطباعًا بأن ما يراد إخفاؤه هو أكثر خطورة مما يراد إظهاره على الملأ، بالإضافة إلى أن إصرار ما ينشر ويذاع على إبراز سمة وحدانية «الهولوكوست» لا يخدم إلا مسألة التهوين من عذابات الآخرين، كى لا نقول الاستهانة بها. ❞

سبيلبيرج يعيد كتابة التاريخ سينمائيا

الهولوكوست على الطريقة الأمريكية!

ثائر معيطة



والكتاب الذى أود عرض بعض الأفكار التى تضمنها، فى هذه السطور عنوانه: «عهد الشاهد» للمؤرخة الفرنسية آنيت فييفيوركا، وهى مديرة باحثة فى مركز البحوث السياسية فى جامعة السوربون، متخصصة فى تاريخ يهود القرن العشرين.

تعالج المؤرخة فى هذا الكتاب مسألة «أقوال الناجين اليهود» من النازيين أى شهاداتهم التى بقيت «غير مسموعة» زمنا طويلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولكنها أصبحت الآن ملء السمع والبصر بعد أن استولى عليها مخرجو المسلسلات المتلفزة والأفلام الهوليودية، وعلى رأسهم ستيفن سبيلبيرج (مخرج الروائع) برأى السينمائيين العرب.

تضمن الكتاب أفكارًا جديرة بالاهتمام، ولا غرو فالمؤلفة مؤرخة رصينة لا عيب فى رصانتها إلا وقفها حصرًا على «عذابات اليهود» دون باقى البشر الأخرين، وسأركز على محور مهم من محاور «عهد الشاهد» احتل عشرات الصفحات منه، عالجت فيه المؤلفة تحول الشهادات المتعلقة بمعتقلات الحرب العالمية الثانية من «المذكرات» المكتوبة التى اكتسى أغلبها طابعا أدبيا (لأن العمل الأدبى وحده يدرك الخلود) إلى الشهادات المرئية المسموعة «الفيديوية» التى تكتفى بتسجيل أقوال كل من اعتقل.

شهدت نهاية السبعينيات انطلاقة زمن الحملة المنظمة لجمع الشهادات وتسجيلها، بعد أن أصبحت «إبادة اليهود» حاضرة بقوة فى الحياة السياسية سواء فى فرنسا أو فى إسرائيل والولايات المتحدة.

ولعبت محاكمة رودولف أيشمان فى ١٩٦١، حيث حوكمت الجريمة لا المتهم، كما كتبت حنة أرندت مما منع ترجمة كتابها الشهير عن «المحاكمة» إلى العبرية، لعبت دورًا كبيرًا فى إبراز الشهود، «عندما أصر المدعى العام الإسرائيلى هاوزنر على استدعاء مائة واحد عشر شاهدا من أجل إعطاء درس فى التاريخ للأجيال الحاضرة والقادمة». وجاء بث مسلسل «هولوكوست» الأمريكى فى نهاية السبعينيات ليُعَوْلم الكلمة، وكان مخرجه مارفن شومسكى قد نال شهرة واسعة من مسلسل «الجذور» الشهير.

وركبت المنظمات اليهودية الأمريكية الموجة منذ ١٩٧٣، وأدرجت فى برامج عملها «ضرورة حفظ ذكرى الهولوكوست». وركزت جهودها على المعاهد والجامعات. حيث لم يكن فيها سنة ١٩٦٢ إلا برنامجًا واحدًا فقط لدراسة الموضوع، إلا أنها تجاوزت المائة برنامج اليوم.

اللافت للنظر أن الهولوكوست فى الولايات المتحدة بلد الليبرالية القصوى والسوق، قد تأمْرك فى القطاع العام أولا. ففى عام ١٩٧٧ أنشأت الحكومة مؤسسة لملاحقة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بصورة مشروعة بعد استسلام ألمانيا، بذريعة البحث عن مجرمى الحرب فى صفوفهم. كما شُكِّلت لجنة رئاسية لشئون الهولوكوست فى الولايات المتحدة، فى الذكرى الثلاثين لقيام دولة إسرائيل. وفى السابع من أكتوبر عام ١٩٨٠ نشر قانون إقامة مجلس النُصب التذكارى الأمريكى للهولوكوست، وهكذا أصبحت ذكرى (الإبادة) موضوعًا متداولا بين الساسة الأمريكيين. وظهر ما يسمى «الاستعمال» السياسى للإبادة.

L'ERE DU TEMOIN

عهد الشاهد

ANNETTE WIEVIORKA

Plon - 1998 - 190pp

أما على صعيد القطاع الخاص، فلقد انطلقت فكرة المشروع السينمائي للناجين من الهولوكوست من مدينة نيوهيفن مقر جامعة ييل الشهيرة، وذلك بمبادرات فردية. وفي عام ١٩٨٢ تدخلت الجامعة نفسها لدعم المشروع. وفي ١٩٨٧ أطلق على المركز المحدث لذاكرة الهولوكوست اسم «محسن كبير» اسمه آلن فورتولوف. وبحلول العام ١٩٩٥ كان المركز يضم نحو ٣٦٠٠ شهادة أو عشرة آلاف ساعة من المقابلات الفيديوية، جُمعت من الولايات المتحدة ومن عشرات البلدان الأخرى.

وانتشرت الظاهرة وتكاثرت المراكز في المتاحف والنُّصب المخصصة للهولوكوست. إلا أن المركز الذي فاق كل ماعداه أحدثه المخرج المعروف سبيلبيرج في ١٩٩٤، فلقد غير مقاييس جمع الشهادات بعد أن أنهى عمله في فيلم «لائحة شندلر» الذي صوره في بولونيا. وأعلن أن هدفه الحفاظ على التاريخ كما عرفه الذين نجوا بأنفسهم منه. وهكذا أُحدث (مركز الوثائق المصورة لشهادات الناجين). ويلاحظ التماثل الواضح بين مشروع سبيلبيرج وبين مشروع جامعة ييل الذي سبقه، وولد المركزان من فيلمين «تخييلين» Fiction (الأول من مسلسل الهولوكوست والثاني من لائحة شندلر المستندين إلى عملين أدبيين متخيلين). ومع ذلك توجد فوارق بين المشروعين فمشروع الجامعة يعتبر «حرفيا» بالمقارنة مع مشروع سبيلبيرج «الصناعي»، ويرى هذا الأخير أن العمل يجب أن يتم بأقصى سرعة لأن «الناجين» يتقدمون في السن، ويجب تسجيل «شهاداتهم» جميعها، ويقدر عدد هؤلاء بثلاثمائة ألف. سجلت شهادات خمسين ألفًا منهم حتى نهاية ١٩٩٧ وستسجل شهادات مائة وخمسين ألفًا حتى عام ٢٠٠٠ في أي مكان وجدوا.

يقول ميكائيل بيرنباوم مدير المركز، وهو يستعرض حالة الوثائق الراهنة: لدينا عشرات الآلاف من المقابلات في ثلاثين لغة. ويقسم وقت كل مقابلة إلى ثلاثة أقسام يخصص ٢٠٪ لحياة الشاهد اليومية قبل الاعتقال و١٥٪ ليسرد حياته بعده، ويترك القسم الأكبر لفترة «الهولوكوست».

وبذلك تمكنا من تشكيل لوحة شاملة كاملة لحياة الجماعات اليهودية في القرن العشرين. ويقوم المركز بتدريب «المحققين» الذين يسجلون الشهادات. والتحديد المهم بالمقارنة مع أسلوب جامعة ييل يعتمد على إلزام الشاهد بتقديم رسالة في نهاية المقابلة تتضمن ما يتمنى أن يتركه إرثًا للأجيال القادمة. ويصر سبيلبيرج على أن تكون نهاية كل شهادة مماثلة لنهاية فيلمه لائحة شندلر (حيث وصل الناجون إلى الأرض الموعودة ـ فلسطين ـ ليرتاح ضمير الغرب المعذب الذي ساهم في صنع الهولوكوست). لذلك يدعى إلى المقابلة أولاد الشاهد وأحفاده، كدليل على انتصار الحياة على الموت، ورغبة في تحقيق الـ HAPPY END.

يعمل في مركز سبيلبيرج نحو ٢٤٠ شخصًا بشكل دائم ـ ماعدا المتطوعين ـ وخلافًا للرأي السائد، فإن تمويل المركز، الذي وصلت موازنته إلى ستين مليون دولار في السنوات الثلاث الماضية، لا يأتي من أرباح أفلامه، بل من مجموعة مؤسسات إعلامية وتجارية منها MCA يونيفرسال وشبكة NBC ومؤسسة تايم وارنر واسترمان.

وفي حين كانت المقابلات التي يجريها مركز جامعة ييل الهولوكوستي غير «توجيهية» وغير محدودة المدة، فإن مقابلات سبيلبيرج «موجهة ومحددة المدة» وتجرى طبقًا لبروتوكول يطبق في سائر البلدان. ثم ترسل الأشرطة إلى المركز في لوس أنجلوس، حيث تعالج بالثقافة الرقمية (ديجيتال) وتصنف. ويجرى تحضير التسجيلات لإدخالها على الحواسب (كمبيوتر) وبالألوان ليتمكن من يشاء من الاطلاع عليها بلغات متعددة، وستحتل مكانها قريبًا في شبكات المعلوماتية المعروفة.

تتساءل المؤرخة فييفيوركا: ما الشكل الذي ستتخذه «دنيا الشهادات» بعد تعميم هذه التقانات الجديدة (جمع تقانة) وأي رؤية ستكونها الأجيال الشابة عن الهولوكوست؟ وقد ولدت بعد ثلاثة أجيال من الحدث. وتكتب: لا يوجد من يتمكن اليوم من الإجابة.

> **اللافت للنظر أن الهولوكوست في الولايات المتحدة بلد الليبرالية القصوى والسوق، قد تأمرك في القطاع العام أولا. ففي عام ١٩٧٧ أنشأت الحكومة مؤسسة لملاحقة الألمان الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة بصورة مشروعة بعد استسلام ألمانيا، بذريعة البحث عن مجرمي الحرب في صفوفهم**

غير أن أمرًا واحدًا يبدو مؤكدًا، وهو أن سبيلبيرج وباقي المسئولين عن المراكز الجديدة لجميع الشهادات «الفيديوية» يتطلعون إلى اعتبار ما يصورون ويسجلون (القصة الحقيقية) وبالتالي إلى إحلالها محل التاريخ. ويدعون إلى «ثورة» في عمل المؤرخين وفي انتاجهم، لا بل يريدون قلب ميدان الوثائق التاريخية ذات الصلة بحدث ما. والمقصود في الواقع الوصول إلى ما يسميه ميكائيل بيرنباوم ـ مدير مركز سبيلبرج ـ أمركة الهولوكوست ـ أي إلى استيعابه في ثقافة الولايات المتحدة عبر تقديمه بشكل «ينقذ فكرة الإنسان» حيث تنتصر الحياة على الدمار.

يبقى أن نعرف موقف المؤرخين المحترفين من هذه الثورة المزعومة في علم وثائق التاريخ. وهذا ما لم تستطع السيدة فييفيوركا تجنب الخوض فيه كونها مؤرخة رصينة، لايبدو عليها الاقتناع العميق بهذه «الألعاب الفيديوية» الأمريكية رغم اهتمامها بالظاهرة التي نجحت بلا شك في غسل أدمغة الملايين وإقناعهم بصلاحية الرواية اليهودية وبوحدانيتها. لذلك أعطت الصفحات الأخيرة من الكتاب لموضوع: بين الشاهد والمؤرخ. حيث عالجت فيها العلاقة بين شاهد الحدث التاريخي وبين المؤرخ المتخصص، وطرحت مسألة التوتر السائد بينهما، لا التوتر فحسب، بل المنافسة. ولماذا لا نقول أيضًا الصراع من أجل «السلطة» هذا الصراع الحاضر اليوم في قلب الجدل الدائر حول تاريخ الأزمنة المعاصرة، عندما يدخل التعبير الفردي في صراع مع الخطاب العارف.

تستشهد المؤلفة بالكاتب الفرنسي Philippe LEJEUNE الذي يصنف حماة (الآداب الكبرى) الذين لا يحبذون السير الذاتية ويقول لهم: إنكم تتصرفون بالفعل كما يتصرف المحترف الذي يتهدده الهواة. وترى المؤلفة أن المؤرخ يجد نفسه في موقف حرج أمام شهادة المعتقل الذي أبعد عن وطنه.

وتلجأ إلى كاتب فرنسي آخر هو Pierre LABORIE الذي عالج موضوع الشهود العيان في كتاباته عن المقاومة الفرنسية (في أثناء الحرب الثانية) وتقول: إن ملاحظاته يمكن تطبيقها وقبولها في موضوع (ضحايا الهولوكوست والناجين منه) وتتفق مع (لابوري) في أن المؤرخ يجب أن يلعب دور (منغص) الذاكرة لأن هذه هي مهنته. ومنغص الذاكرة هذا يجب أن يهتم بالتذكير بوجود خطوط فصل وتقسيم لا يمكن التقليل من شأنها بين فضائل إحياء الذكرى وبين صرامة المنهج التاريخي.

وتتساءل المؤلفة: مع ذلك هل يستطيع المؤرخ، أخلاقيا ومعنويا، أن يكون منغص ذاكرة أمام شخص حي؟

وإذا كان المؤرخ يعلم أنه يملك المعرفة، وإذا أدرك تمامًا أن الشاهد يبتعد عن الحقيقة، فإنه يجد نفسه عاجزًا بشكل رهيب. وتضيف: لكل الحق المطلق بذاكرته التي هي هويته وكينونته. ولكن هذا الحق يمكن أن يدخل في نزاع مع واحد من ضرورات مهنة المؤرخ وشروطها، ألا وهو البحث العنيد عن الحقيقة. وتنوه المؤلفة بأن بعض المؤرخين اليهود الذين عالجوا مسألة «الهولوكوست» ومنهم راورل هيلبرج يفضلون الابتعاد على رءوس أصابعهم عن هذه الشهادات ويتركونها إلى النسيان أو إلى علوم أخرى مثل النقد الأدبي وعلم النفس اللذين ليس لهما المفهوم نفسه عن الحقيقة. وبوسع المؤرخ التصرف بشكل آخر، فيقرأ الشهادات ويسمعها أو يشاهدها، دون أن يبحث أبدًا عما يعرف جديا أنه لن يجده فيها: أي إضاءات لحوادث محددة، وأماكن وتواريخ وأرقام تكون دائمًا غير صحيحة.

والخصام الذي نراه اليوم بين المؤرخين والشهود ناجم من التشويش الملحوظ في «الأمكنة» أو مسارح عمل كل منهم. وكذلك في الأدوار المعطاة إلى هؤلاء. فالشهود صاروا كالمؤرخين، يدعون إلى «المحاكم» وإلى وسائل الإعلام وإلى قاعات الدراسة فيجدون أنفسهم غالبًا في حال خصام. والهدف المحدد للشهود بصراحة، كما تريده مؤسسة التاريخ المرئي (للناجين من الكارثة) هو استخدام هذه «الوثائق» كأداة تربوية شاملة لموضوع الهولوكوست. وهذا يعني ببساطة إحلال الشاهد محل المعلمين. هذا الشاهد المفترض فيه حمل معرفة لا يملكها للأسف. ومن هنا نشأت لدى بعض الشهود البارزين ظاهرة السأم من الإدلاء بشهاداتهم. غير أن الشهود العاديين من غير ذوي الثقافة لا يقاومون الرغبة بالظهور والشهرة. فيتجاوزون دورهم ويعطون للحضور دروسًا في التاريخ، دون أن يفطنوا إلى أن تجربة المعتقل لا تمنح صاحبها أي موهبة تنبؤية. وغالبًا ما يخرج الشاهد عن دوره، ويبدأ بشرح صعود النازية للطلاب والمستمعين ويحاول تعبئتهم لأهداف سياسية مرحلية. ولكنه كثيرًا ما يفعل ذلك بموافقة المدرسين الذين يتخلصون بواسطته من عبء جاف غير مشوق، هو تدريس تاريخ الهولوكوست.

ما المطلوب من هذا الإخراج التليفزيوني للشهادات؟ تكشف فييفيوركا عن الهدف قائلة: الهدف تحويل الشاب ـ شاب الجيل الثالث ـ الذي تابع الأحداث إلى شاهد لمصلحة الشاهد (الأول). وجعله حاملا لمعرفة مكتسبة عن (تدمير اليهود) لم يحصلها على مقاعد الدراسة، أو من خلال الكتب. ولكن ستقدم إليه عبر تجربة عاشها صاحبها في نموذج يبدو كأنه يعود إلى الأناجيل. سيكون هؤلاء الشباب «الحواريون» كما في أيام المسيح. فإذا ما غاب الشهود يكون عليهم حمل أقوالهم إلى بعيد. وتتساءل المؤلفة: ولكن أي أقوال يحملون؟ وعن ماذا يحكي الشاهد؟ إنه يقول ما بقي في ذاكرته، وهذه الذكرى لها قوة الواقع. (برأي الشاهد طبعًا). يتحدث الشهود جميعًا اليوم، في فرنسا وفي غيرها عن الكفاح ضد إنكار «الكارثة» وضد انبعاث الفاشية. ويتداخل هذا الخطاب في الخطاب السياسي الراهن، كأنه «مطبوع» فوق الشهادة لتصبح أداة لمصلحة الخطاب السياسي السائد.

وبعد أن تستعرض المؤلفة شهود سنوات التسعينيات وشاهداتها، هذه السنوات التي رأت ازدهار حركة «الشهود العيان» وتحلل أوضاعهم ومواقفهم، تصل إلى أولئك الذين «رأوا» ولكنهم يرفضون الشهادة ويحتجون بالصمت، وتتساءل كيف نفسر هذا الازدهار العجيب للشهادات والشهود؟ وما دوافع هذا «الحصاد» الفيديوي الباهظ التكلفة ماليا وزمنيا؟ وتقول: يدعي بعضهم أن هذا العمل يتم من أجل إنشاء «وثائق» تاريخ شفهية، ويرى آخرون في مشاريع جمع الشهادات جهدًا يائسًا لإنقاذ الفرد من القطيع! ومن أجل إعطاء حق الكلام للناس البسطاء الذين لا يعرفون تناول القلم للكتابة. وتضيف المؤلفة: تتوجه الشهادة إلى القلب لا إلى العقل وتولد الشفقة والعطف والنقمة والسخط والتمرد أيضًا. فالشاهد يوقع مع من يراه ويسمعه «جلفا عاطفيا» كالذي يوقعه من يكتب سيرته الذاتية مع القارئ؛ وبذلك أصبحت «النازية والكارثة» حاضرتين في المجال العام، واكتسحتا حياة الأفراد الذين «انتصروا على الموت». وتخلق هذه الرؤية لدى المؤرخ نوعًا من القلق والضيق ليس لأنه لا يأبه للألم ـ عندما يؤكد معتقلون أنهم لم يغادروا المعتقل إلى اليوم ـ بل لأنه يشعر بأن هذا التجميع والتقارب بين الشهادات لا يشكل وصفا تاريخيا، ولكنه يلغيه بشكل ما.

وهنا تطرح السيدة المؤرخة هذا السؤال الخطير والنهائي: كيف يبنى خطاب تاريخي متماسك إذا كان دائمًا في تعارض مع حقيقة أخرى هي حقيقة الذاكرة الفردية؟ وكيف نحض على التفكير والتأمل؟ وكيف نكون دقيقين صارمين عندما تجتاح العواطف والانفعالات المشهد العام؟

هل نفهم من هذه التساؤلات أن المؤرخة ـ وهي يهودية أيضًا ـ وضعت رصانتها كمؤرخة في نواس يتارجح بين القلب والعقل لتبقى منسجمة مع من يريدون استعمال الثقافة المتقدمة لترسيخ العواطف والانفعالات في سبيل فرض رؤيتهم المنحازة على الدنيا كلها وإلى ما لا نهاية له؟

وقبل أن نغادر عالم المسلسلات والأفلام والفيديو الذي يعرف غيرنا الاستفادة من أدواته في أمور تفيدهم وتعزز مواقفهم وتحفظ مصائرهم، خطر ببالي مطالبة «السينمائيين» العرب ممن يقلدون سبيلبيرج في مسلسلاتهم ذات العناوين الطنانة التي تبثها الأقنية الفراغية العربية، بالالتفات إلى عشرات الآلاف من ضحايا «الهولوكوست العربي» الذي تقوم به إسرائيل في وطننا. هؤلاء الضحايا الذين يقيمون في ديار مخرجينا ومموليهم الأكارم. عفوًا لست أريد من سينمائيينا إنتاج شهادات مسموعة مرئية من أجل الضغط على الولايات المتحدة لاستيعاب «الكارثة الفلسطينية» في ثقافتها .. كلا .. لست أريد منهم أي شيء.

عـــــروض موجـــزة

كتب عربيـة

مدينة السياسة
فصول من تطور الفكر السياسي في الغرب
محمد خاتمي
بيروت: دار الجديد، ٢٠٠٠، ٣١٨ صفحة



قبل هذا الكتاب، أصدر الرئيس الإيراني محمد خاتمي كتابين: «بيم موج» ويعني بالعربية «في اللجة»، ويتناول فيه خاتمي المشهد الثقافي الإيراني وعلاقته بمشاهد ثقافية أخرى حوله عربية إسلامية وعالمية، وكان كتابه الثاني «مطالعات في الدين والإسلام والعصر» وهي مجموعة من المحاضرات ألقاها خاتمي في بيروت، والكتابان صدرا عامي ١٩٩٦ و١٩٩٧ على التوالي.

ويأتي كتابه هذا الذي يبدو تعليميًا أكثر منه تعبيرًا عن أنساق فكرية وتوجهات وآراء في الدنيا والدين كما هو حال كتابيه السابقين، كتب أساسًا بالفارسية وترجم إلى العربية مؤخرًا، وهو ليس - كما يقول خاتمي في مقدمته - بحثًا عن تاريخ السياسة ولا تقرير لوقائع سياسية جرت في التاريخ، وليس شرحًا للأنظمة السياسية وأسباب بزوغها وعوامل أفولها، إنما هو «نظرات فلسفية في تراث عدد من أبرز رواد الفكر السياسي وأفكارهم. لذا يدرس خاتمي مدينة أفلاطون الفاضلة، وعند أفلاطون فإن المدينة تكون فاضلة إذا اتصفت بفضائل طبيعية أربعة هي: الحكمة والشجاعة والاعتدال والعدالة.

والحكمة عند أفلاطون صفة يمتاز بها النخبة العامة، والنخبة التي تملك الحكمة هي المناط بها شئون الحكم، كما أن الشجاعة لا يحوزها أيضًا سوى جماعة محددة وتلك هي طبقة الجنود، أما الاعتدال فصيغة إنسانية يحوزها عامة الناس وخاصتهم، أما العدالة فهي أن يؤدي كل فرد في إطار الجماعة دوره كما ينبغي من أجل ذاته والمجموع، ثم يدرس خاتمي أرسطو في فصل تال موضحًا التمايزات بينه وبين أفلاطون، ويجمع بينهما وبين سقراط وأفلوطين وتوما الإكويني في دراسة جعل لها عنوان ملكوت الدين وملك السياسة، ويخصص فصلاً مستقلاً عن الفارابي كي يمايز بينه وبين فلاسفة الغرب، ويشير إلى غاية المجتمع عند الفارابي وهي السعادة، والتي تعني عنده الخير المطلق، ويضع الفارابي المدن الجاهلة والفاسقة والضالة في مقابل المدينة الفاضلة، كما يميز بين التعاليم التي بثها الإسلام في أتباعه وما غرسته المسيحية في نفوس أبنائها، ويشير إلى اهتمام القرآن الكريم بالإنسان والكون، لذا لم يكتف التشريع الإسلامي بالواجبات العبادية وإنما اهتم بالدرجة نفسها بإقامة نظام اجتماعي وسياسي متكامل، ولذا باشر الإسلام منذ مجيئه بناء حضارة وإقامة نظام، ويقول خاتمي إن السياسة في الإسلام لم تكن بحاجة إلى الفلسفة، لأن الدين والشريعة القائمين على الوحي كانا يحددان الواجب في مجال الحضارة الإسلامية، ولذا بقيت الفلسفة على الهامش.

ويدرس خاتمي بعد ذلك أوروبا العصور الوسطى، ويخصص مبحثًا مستقلاً لصاحب كتاب «الأمير» أكثر الكتب السياسية شهرة في أوروبا وصاحب المقولة التي مازالت أصداؤها تتردد إلى اليوم: الغاية تبرر الوسيلة، ويغوص خاتمي أعمق عند توماس هوبز وجون لوك وجان جاك روسو، وينتهي كتابه بفصل عن الليبرالية التي يراها أطول نظام سياسي عرفته الحضارة الجديدة، ويشير إلى جذورها في الحضارة الغربية، كما يشير إلى الآثار السلبية الناجمة عن هذه الحضارة الجديدة وأزماتها التي تحملها بين جنباتها، ويتساءل في الختام: بأي زاد تزودنا ونتزود على عتبة هذه التحولات الخطيرة؟

□ □ □

الأنفاق والآفاق.. رؤية مستقبلية للصراع العربي الإسرائيلي
عبد الإله بلقزيز
الرباط: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٠، ١٨٢ صفحة



ينطلق المؤلف هنا عن فرضية أساسية، ربما تبدو صارمة لدعاة الواقعية السياسية وهواة التعامل مع الأمر الواقع مهما كان كارثيًا، هؤلاء الذين صفقوا لمعاهدات لا تفعل سوى تكريس الوجود الصهيوني وتدعيم وجوده على الأرض، فرضية المؤلف تقول إن الصراع ممكن والقدرة على الانتصار فيه واردة بشرط التوقف عن التعاطي معه وفق حسابات موازين القوى - العسكرية أساسًا - والتي هي في صالح إسرائيل في الوقت الراهن، وإنما التعامل معه بمنظور تاريخي ينظر إلى قدرات العدو في شمولها ويسعى إلى مقاربة التوازن ليس فقط على الصعيد العسكري وإنما أساسًا السياسي والتكنولوجي، بما يعني أن الصراع تاريخي حضاري ممتد، يلعب فيه البعد الثقافي دورًا بالغ التأثير.

والمؤلف يؤكد - كما يذهب إلى ذلك أصحاب الرؤية الواقعية - أن حسم الصراع عسكريًا مستحيل، واستعادة الأراضي العربية التي احتلت منذ عام ١٩٦٧ على الأقل بالقوة المسلحة لن يكون ممكنًا، لكنه يؤكد على أهمية المقاومة المسلحة التي تستند أساسًا إلى تنظيمات وقوى شعبية وطنية مثل حماس والجهاد وحزب الله وغيرها، وهي مقاومة «لايمكن استصغار شأنها، بل ينبغي الرهان عليها للرد على الصلف الصهيوني واستنزاف قوى العدو، والتأكيد على حق مقاومة الاحتلال وإشاعة روح الصمود في المجتمع العربي، وجميعها ذات عائدات سياسية ونفسية بالغة الأهمية».

يرى المؤلف أن معنى أن يكون صراعنا مع إسرائيل حضاريًا، هو أن المجتمعات ومخزونها الثقافي سيكون له الدور الأكبر، وأن يكون هذا الصراع طويل الأمد، فإن ذلك يعني أنه لا يمكن القبول بحل منقوص، لأن هذا الحل إن فرض بقوة الأمر الواقع وميزان القوى فلن يكون أكثر من هدنة مؤقتة.

وعليه، فإن من يكسب هذا الصراع هو من يستطيع أن يعبئ موارده تعبئة جيدة وفعالة، وهي ليست الموارد المادية فقط، وإنما الروحية والرمزية، وينبهنا المؤلف إلى قدرة إسرائيل على استعادة نصوصها التوراتية عند اللزوم، لتتحول هذه الدولة التي تدعي العلمانية عند الضرورة إلى دولة دينية أو على الأقل ذات أساس ديني.

المجتمع العربي إذن يحتاج إلى كسب معركة الديمقراطية، وتفعيل «منشطاته» في الثقافة العربية الإسلامية والمسيحية الشرقية، وإدارة موارده المادية والبشرية بشكل أكثر كفاءة، كي يكسب الصراع من أمده الطويل، لأن الصراع في حقيقته ليس على أرض احتلتها إسرائيل بالقوة دون الحق ويريد أصحاب الحق الذين لا يمتلكون القوة استعادتها، إنما الصراع يدور حول سؤال أساسي: لمن المستقبل في هذه المنطقة للمشروع الصهيوني أم للمشروع القومي العربي؟

وبهذا المعنى فإن المؤلف يجر إلى دائرة الصراع - وأظن أني أوافقه - قوى إسلامية ترى إسرائيل في حيازتها لأسلحة غير تقليدية وفي تقاربها مع العالم العربي ما يهدد أمنها واستقرارها بوصفها مناهضة للمشروع الصهيوني من الأساس.

ما الحل إذن؟ يطرح المؤلف عدة مهمات تسير في خط تصاعدي، تبدأ بوقف عملية التفاوض الجارية والعودة إلى الحد الأدنى المتمسك بقرارات الجامعة العربية والأمم المتحدة ومجلس الأمن، وتفعيل المقاطعة العربية، وبناء موقف عربي داعم للنضالات الشعبية السابق الإشارة إليها.

ويؤكد المؤلف أن هذه المهمات لن تقدم شيئًا جوهريًا في الصراع مع الإسرائيليين، لكنها ستفرمل الانحدار الحاصل اليوم، حتى يمكن أن تشيِّد حقائق سياسية واجتماعية وثقافية جديدة، تكون هي الحاسم في هذا الصراع التاريخي الممتد.

□ □ □

السلطان يستفتي شعبه
الطاهر أحمد مكي
القاهرة: دار الآداب، ٢٠٠٠، ٢٢٠ صفحة



تبدو مسألة الهوية في المغرب العربي مربكة إلى حد بعيد، والأحداث التي تفجرت أخيرًا في الجزائر وإن صنعتها بواعث اقتصادية في الأساس، إلا أن البعد الأمازيجي فيها يكشف عن خطر كامن، مرده التردد في حسم هذه الإشكالية برغم الإعلان الرسمي - دستوريا - في عهد الشاذلي بن جديد عن أن الأمازيجية إحدى مكونات الهوية الجزائرية، وهو إعلان لم يدخل حيز التطبيق وبقي دومًا في خانة جبر الخواطر.

هذا الكتاب يستقي مادته من «القوَّالون» أو «الحكاءون» في دولة المغرب، وهي كالجزائر فسيفساء يمكن أن يشكل تنوعها مصدر ثراء بالغ على الصعيد الثقافي والإنساني إذا أحسن صهرها في بوتقة الدولة، والمؤلف الذي عاش حوالي ٧ سنوات في إسبانيا (١٩٥٧ - ١٩٦٤) ضمن بعثة تعليمية، تردد على المغرب في زيارات عديدة، خالط الناس وهام في الشوارع والأسواق الشعبية، يجمع الحكايات ويصنف النوادر في طنجة ومراكش، وقد رأى فيما جمعه تعبيرًا صادقًا عن الوجدان المغربي، وانعكاسًا صريحًا لاهتمامات الرجل المغربي البسيطة ومواقفه من الحياة والناس والسلطة، والأخيرة بالذات محور حكايات عديدة، حيث يبدو الحاكم في أغلبها، شخصًا أبلهًا ساذجًا، منفوشًا بلا سبب سوى أن بطانته والمحيطين به يمنحونه إحساسًا كاذبًا بالعظمة والقدرة الفائقة على تقييم الأمور بحكمة تزنها بميزان الذهب، وهو ما يجعله يرفض النصيحة إن جاءته من الحكماء الصادقين، ويصر على مواقفه مهما كانت خاطئة ومدمرة، كما يتبدى في حكاية «السلطان يستفتي شعبه»، لكن لا مانع من أن يبدو السلطان عادلاً في مواضع أخرى قادرًا على تتبع أثر الحكمة

عروض موجزة

والرشاد كما في حكاية «القاضي العادل»، وبعيدًا عن السلطان فإن بعض الحكايات تبين دهاء العامة وتحايلهم وقدرتهم التلقائية على استكناه جوهر الحقائق أو قلبها إن لزم الأمر كما في حكاية «وقد يغضب القاضي» أو الصراع الأبله بين السادة من الأثرياء والمفاخرة بما يملكون وقدرتهم على تحقيق أقصى درجات الرفاهية والإشباع كما في «من فتح لفتح تفرق كثير»، والتي يسخر فيها الحكاء من هذا التنافس المرضي، وبعض الحكايات تتناول دهاء رجال الدين وتحايلهم لبلوغ غاياتهم كي يضمنوا المتعة في الدنيا والجنة في الآخرة على نحو ما تبدى في حكاية «الطريق إلى الجنة».

المهم أن المؤلف يؤكد لنا عبر أكثر من عشرين حكاية، أن وحدة المغرب لا لبس فيها، وأن العصبيات القبلية والتناحر العرقي، هي أمور من صنع الاستعمار وباحثيه المغرضين، والمنافسة الوحيدة التي تتبدى في الحكايات هي بين الأندلسيين والوافدين والمغاربة المقيمين، بسبب التفاوت في الثقافة والحضارة، أما «هدرة القوالين - أي حديثهم باللغة المغربية - فمفهوم لعامة الناس وإن احتوى على ألفاظ فرنسية أو إسبانية أو إيطالية أو بربرية، وإن جاءت أصوله من مصادر شرقية أو غربية.

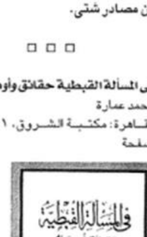
والخلاصة التي ينبهنا إليها المؤلف، أن المغرب وحدة واحدة، وأن التنوع اللغوي والثقافي هو مصدر غنى لا فقر، يثري الهوية العربية الإسلامية وتفدها من مصادر شتى.

□ □ □

في المسألة القبطية حقائق وأوهام

محمد عمارة

القاهرة: مكتبة الشروق، ٢٠٠١، ١٥١ صفحة



عرف التاريخ المصري دومًا وحدة وانسجامًا بين عنصري الأمة من المسلمين والأقباط، الذين وحّدهم النضال ضد الاستعمار والكفاح من أجل وطن حر مستقل، وعلى الجانبين كان هناك إلى جانب الشرفاء الوطنيين المستعدين للتضحية بدمائهم وأرواحهم في سبيل وطنهم وسعادته، خونة عملاء جعلوا من أنفسهم مطايا في خدمة المستعمر، وفي كل الأحوال كان ثمة مخطط هدفه تفتيت وحدة الأمة المصرية، وإشاعة الفتنة بين عنصريها.

والمؤلف يعرض في فصل تمهيدي لمخطط التفتيت الغربي المعاصر حيث يشير إلى البحث الذي نشرته مجلة وزارة الدفاع الأمريكية للمستشرق الصهيوني برنارد لويس لتفتيت العالم الإسلامي من باكستان إلى المغرب على أسس عرقية ودينية وإثنية ومذهبية، وكان لمصر نصيب في مخطط لويس الذي طمح إلى تقسيمها إلى دولة إسلامية في الشمال وأخرى قبطية في الجنوب، وهكذا يتم خلق التوترات دائمًا وإشعال النار في كل حدث قد لا يكون له صلة على الإطلاق بما يتم تداوله والنفخ فيه بعد ذلك بوصفه فتنة، خصوصًا مع بروز مستجدات معاصرة مثل الصحوة الإسلامية التي يتم تصويرها بوصفها خطرًا جاثمًا على العقيدة المسيحية وعلى المسيحيين كذلك. وانتشار منظمات حقوق الإنسان ومراكز البحوث التي لا يمكن اعتبار بعضها بريئًا في أهدافه ومراميه، ثم تغلغل النفوذ الغربي واستفحال خطر التبعية مع انفراد أمريكا بزعامة العالم وتنامي الدور - أو السعي إلى ذلك - الذي يلعبه أقباط المهجر بوعي أو بدون.

المهم أن المؤلف يستعرض حقوق الأقباط في إطار الدولة الإسلامية، وما كفلته الشريعة الإسلامية من ضمانات تجعلهم يشعرون بالأمان التام داخل وطنهم ذي الأغلبية المسلمة، ثم يعرض في عجالة للخلفية السياسية التي قادت إلى ما عليه الأمور الآن، ومخاطر استدعاء «ملف مطالب الأقباط» عند كل خلاف، ثم يفنّد بعض الأوهام التي تتردد دون تمحيص أو إعمال فكر، ومنها أوهام الخط الهمايوني وهو أحد القوانين الإصلاحية التي أصدرها السلطان عبد المجيد خان لإنصاف الأقليات غير الإسلامية من رعايا الدولة المسلمة، والذي أكد على مساواة هذه الأقليات مع المسلمين في التعليم والعبادة والوظائف وكافة الحقوق، ثم يناقش ما يتردد عن اضطهاد الأقباط، ويضع بالأرقام حجم أنشطتهم الاقتصادية والوظائف التي يتقلدونها، لنجد أن ٢٠٪ من شركات المقاولات في مصر يمتلكها أقباط، وهم أيضًا يمتلكون ٥٠٪ من المكاتب الاستشارية و٦٠٪ من الصيدليات و٤٥٪ من العيادات الخاصة و٣٠٪ من حجم رجال الأعمال و٢٠٪ من وظائف المديرين، أي أن ٦٪ من سكان مصر وهم الأقباط يمتلكون بين ٣٥٪ و ٤٥٪ من ثروة مصر وامتيازاتها.

والمؤلف لا يضن على الأقباط بأن تكون لهم هذه الحقوق في وطنهم، إنما فقط يرد على من يدعون أن الأقباط مضطهدون ويوجه المؤلف نداءه إلى أبناء الوطن الواحد: بالحكمة والعقل وبالحقائق الدامغة للأكاذيب، وبوجه أمتنا المشرق يجب أن نواجه مخططات الأعداء، وندحض مزاعم العملاء، ونرشد الجهلاء والدهماء.

□ □ □

مسرح بديع خيري

نبيل بهجت

القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠١، ٤٠٠ صفحة



هذه هي الدراسة الأكاديمية الأولى التي تتناول بالنقد والتحليل عطاء واحد من أهم رواد المسرح المصري، حيث تدرس في ثلاثة فصول إنجاز بديع خيري في مجال المسرح.

يتعرض المؤلف في الفصل الأول لنشأة بديع خيري والعوامل التي أثرت في تكوينه الفكري والنفسي ومحاولاته الشعرية والزجلية الأولى، ثم يعرض في الفصل الثاني للروافد الشعبية في مسرح بديع خيري، ويخصص الفصل الأخير للبناء الدرامي عند بديع خيري.

نعرف من نشأة بديع خيري أنه ولد بحي المغربلين في أغسطس ١٨٩٣، لأب ينحدر من أصول تركية، لكن تأثير الأم عليه كان أكثر كثيرًا من تأثير الأب؛ إذ كان هو ابنها الوحيد فيما كان للأب أبناء آخرون من زوجة ثانية وقد برزت موهبته الشعرية منذ وقت مبكر. وقد أتم دراسته حتى تخرج في مدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤، لكن الحارات الشعبية والمقاهي كانت هي معلمه الأول الذي أثّر في توجهاته الفنية والمسرحية بشكل لافت، يقول بديع عن تأثير المقاهي عليه: هي مدرسته الأولى في التأليف المسرحي، حتى لهجات البلاد العربية عرفتها وحفظتها في هذه المقاهي، إذ كان يتردد عليها أبناء تلك البلاد الشقيقة الذين يدرسون أو يتاجرون أو يسيحون في القاهرة.

عمل بديع خيري في مهن عديدة منذ تخرجه وكتب في صحف مختلفة، وكتب مونولوجات يلقيها ممثلون هواة، كان بينهم يوسف وهبي، وحين تقدم بديع خيري ليعمل ممثلاً في مسرح جورج أبيض رفضه ونصحه بالبحث عن مهنة أخرى، وجاءت الفرصة الذهبية لبديع خيري، حين اختلف نجيب الريحاني مع مؤلفه أمين صدقي لأسباب مالية، فهجره صدقي وانضم إلى مسرح منافسه علي الكسار، وبدأ الريحاني يبحث عن مؤلف آخر فوقع على بديع خيري الذي كان يكتب لمسرح الهواة باسم مستعار كي لا يفقد وظيفته الحكومية، لكن نجاحه مع مسرح الريحاني جعله يلقي بالوظيفة خلف ظهره ويكتشف مستقبله الحقيقي في مجال المسرح الذي شهد تنافسًا شديدًا بين فرقتي الكسار والريحاني، وبرغم الأسماء اللامعة التي ضمها أوبريت العشرة الطيبة: نجيب الريحاني وبديع خيري وسيد درويش، فقد سقط الأوبريت سقوطًا مدويًا، وواجه بديع خيري، وسيد درويش مأزقًا ماليًا، وبدآ يتعاونان في تلحين بعض الأزجال، ولحن بديع نفسه بعضًا آخر.

ولم يكن بديع خيري يكتب من فراغ، بل كان يتحسس الشعور المصري الوطني آنذاك ويستقي منه مادة أزجاله وأوبريتاته، كما ظهر في أوبريت البرنسيس الذي عرض في عام ١٩٢٣، وكتبه بعد إخراج السلطات البريطانية عن سعد زغلول تحت ضغط المقاومة الشعبية، ثم إعلان دستور ١٩٢٣ والمكاسب التي حققتها البرجوازية المصرية الصاعدة.

وقد كتب بديع لفرق منيرة المهدية وبديعة مصابني وعلي الكسار وآخرون.

المهم أن بديع خيري الذي لمع في المسرح مؤلفًا ومترجمًا وشاعرًا، أسس صحفًا وكتبًا تنتقد الأوضاع السياسية والاجتماعية بقوة، وكانت الروافد الشعبية لمسرحه وشخصياته مستقاة من البيئة المصرية ومنغمة فيها بطريقة رائعة، والمؤلف يقدم لنا بعضًا من هذه الروافد مثل جحا وقراقوش، وهارون الرشيد، والفشّار والدجال والفقيه المعمم وكشكش بيه، ويحلل البناء الدرامي لهذه الشخصيات في دراسة مستفيضة، تلقي أضواء مهمة على أحد رواد ورموز المسرح المصري.

□ □ □

إشكاليات الخطاب العربي المعاصر

كمال عبد اللطيف

نصر محمد عارف

دمشق: دار الفكر، ٢٠٠١، ١٨٢ صفحة



مازالت موضوعات هذه السلسلة البديعة «حوارات لقرن جديد» تترى، وعنها تتوالى حتى لتكاد أن تشمل كافة القضايا المطروحة على الساحة العربية اليوم وانعكاساتها على المستقبل. عبر صيغة سجالية بين نقيضين أو متقابلين معًا بالشأن ذاته، لكن لكلّ اجتهاده الخاص، وبعد ما قدمت سجالات حول أزمة الفكر السياسي والعولمة والخصخصة والعلمانية

عروض موجزة

والمرأة والإيمان والنقد العلمي وتجديد الفقه الإسلامي وغيرها، تقدم لنا محاورة حول إشكاليات الخطاب العربي المعاصر، يبدأها الدكتور كمال عبد اللطيف أستاذ الفلسفة بجامعة محمد الخامس مستعيدًا اجتهادات فرح أنطون حول العلمانية، والتي يرى أنها برغم مرور قرن من الزمان عليه مازالت صالحة للاستدعاء ومانحة للاستلهام، بقدر ما كانت في وقتها استثناء ومميزة، ومتجاوزة إلى حد بعيد، سواء في المبنى أو المعنى، ما كتب في الفكر السياسي آنذاك، ويحيلنا المؤلف للبرهنة على وجهة نظره إلى ما كتبه محمد عبده والأفغاني والطهطاوي وخير الدين التونسي وسواهم، ثم يقارن اجتهادات أنطون بآخرين معاصرين يقفون معه على الضفة ذاتها من أمثال فؤاد زكريا وحسن حنفي ومحمد أركون وهشام جعيط، ويشير إلى نقطة بالغة الدلالة، حيث كانت اعتراضات محمد عبده مثلاً على اجتهادات أنطون أكثر تسامحًا من اعتراضات أصحاب تيار الإسلام السياسي المعاصرين على مفكري العلمنة. والخلاصة أن عبد اللطيف ينتقد المزج بين الديني والسياسي، ويدعو كما دعى أنطون إلى الفصل بينهما لتحقيق مشروع النهوض العربي.

وبعد تحليله للمنطلقات المعرفية للخطاب العربي المعاصر والتي تتمثل في الاستبداد الفكري وأدلجة المعرفة والعلاقة بين المعرفة والسلطة والثروة والمراوحة بين الثنائيات الجامدة، وبعد استعراضه لمحددات الخطاب العربي المعاصر، يبسط الدكتور نصر محمد عارف أستاذ العلوم السياسية بجامعة القاهرة تصوراته عن قضايا الخطاب العربي المعاصر ويضعها تحت عنوان دال: «نهاية قرنين وقضايا واحدة»، وهي: إشكالية الهوية وثنائيات التآكل الداخلي للأمة وصراع الدولة - الاستلاب في ثنائية الصديق - العدو والاستقلال والتبعية - العروبة والشرق أوسطية والعولمة، ويشير إلى أن الخطاب العربي المعاصر تعامل مع هذه القضايا بما لا تستحقه من موضوعية ومنهجية ورحابة، وأنه كان دائمًا أسير الأيديولوجيا وسطوة التاريخ وسكونية الرؤية للزمان والمكان والمتغيرات من حوله.

وفي فصل أخير يعقب كلا الباحثين على دراسة الآخر، فيرى عبد اللطيف في دراسة عارف إعادة اجترار للأزمة ذاتها التي طرحت قبل قرنين من الزمان وتجاوزها الزمن وتجاوزتها معطيات الحاضر، بينما يرى عارف في دراسة عبد اللطيف نموذجًا لبحث جاد محكوم بالتحزب والتعصب والدعائية ضد المخالفين.

□ □ □

سعيد فريحة
عصر الصحافة العملاقة
محمد عبدالمولى
بيروت: دار الصياد، ٢٠٠١ (طبعة ثانية)، ١٩٠ صفحة



لم يكن الصحافي اللبناني الكبير سعيد فريحة حدثاً عابراً في سماء الصحافة العربية، كان صاحب قلم ورؤية وموقف، ومدافعاً صلداً عن قضايا الحرية وحقوق الإنسان ومهموماً بقضايا أمته ومنشغلاً بمعاركها، باعتراف مجايليه من الصحفيين في الوطن العربي كله.

أسس «فريحة» دار الصياد التي بدأت مجلة، ثم بالدأب والصبر والاجتهاد تحولت إلى دار صحافية تصدر عنها دوريات فنية وثقافية وسياسية واجتماعية.

بدأ سعيد فريحة حياته الصحفية في مدينة حلب السورية، حيث عمل محرراً في جريدة التقدم ثم راسل عدة صحف سورية ولبنانية.

اختار الأهل له أن يعمل «حلاقاً»، لكنه اختار الصحافة وغامر في دروبها الشائكة حتى أنشأ دار الصياد عام ١٩٤٣، وإنشاء دار الصياد ذاتها ملحمة يذكرها المؤلف تفصيلاً، ولم يتوقف فريحة عند مجلة الصياد، فأنشأ أسبوعية فنية «الشبكة» ويومية شاملة «الأنوار» التي عبرت عن التيار القومي العربي بكل صراعاته ومعاركه حتى بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧، وتوالت إصدارات الدار بين فنية وأدبية وعسكرية ومعلوماتية وغيرها من الإصدارات المتخصصة التي يشير إليها المؤلف، كما يشير أيضاً إلى أدب الرحلات عند سعيد فريحة، وكيف استطاع أن يحول رحلاته وأسفاره، ليس إلى مقالات سياسية فحسب، وإنما صور أدبية وأحياناً ساخرة، تلقي أضواء كاشفة على البلد الذي يزوره في جميع مناحي حياته، ويقدم لنا نماذج على ذلك برحلته إلى الشرق الأقصى وحكاياته عنها.

لم يختم بفصل عن أبنائه بسام وعصام وإلهام الذين مارسوا الصحافة ضد رغبة أبيهم، وحملوا مسئولية الدار من بعده واستمرت إصداراتهم حتى في ظل الحرب الأهلية اللبنانية، وتحت قصف المدافع ودوي القنابل، وهي قصة تحد وحب للصحافة وإيمان عميق بدورها.

كتب أجنبية

Them: Adventures with Extremists
(هم.. مغامرات مع المتطرفين)
Jon Ronson
Picador, 2001, £16.00



عندما يتحدث البعض عن نظرية المؤامرة في حادث ما يبرز للأذهان أمران الأول أن من الصعب إثبات وجود مؤامرة ويكون الرد أن المتآمرين أذكياء لدرجة التغطية على ما فعلوه، والثاني يشير إلى أن هناك بعض الحقيقة في الحديث عن وجود مؤامرة ولكن ليس كل الحقيقة.

ومؤلف الكتاب جون رانسون قدم سلسلة مثيرة في القناة الرابعة بالتليفزيون البريطاني تحت عنوان «الحكام السريون للعالم» وقد تحدث رانسون خلال هذه الحلقات مع نوعية مختلفة من المتطرفين الذين يعتقدون أن العالم تديره جماعة قوية من اليهود تحت مسميات مختلفة.. مثل النظام العالمي الجديد أو حكومة الاحتلال الصهيونية وغيرها. وطرأت الفكرة لعمل هذه الحلقات التي جمعها المؤلف في كتاب حيث أجرى رانسون، وهو يهودي حوار مع الشيخ عمر بكري محمد أحد زعماء التطرف المقيمين في لندن وكذلك مع زعماء لجماعة «كوكلوكس كلان» الأمريكية التي تركز في نشاطها على كراهية السود واليهود.

ويشير المؤلف إلى أن هذه الجماعات تتمتع بعدم الكفاءة رغم الحديث عن قدراتها التنظيمية والعسكرية. ويقول إن أنصار عمر بكري أطلقوا آلاف البالونات السوداء في ميدان الطرف الأغر في قلب لندن وتحمل كل بالونة بطاقة تدعو للجهاد ولكن للأسف لم ترتفع البالونات إلى أعلى لأن البطاقات كانت ثقيلة للغاية، كما أن أعضاء جماعة الكوكلوكس كلان خططوا لتنظيم حشد جماهيري كبير أمام محكمة ميتشجان لكن المنظمين لم يعرفوا المكان بدقة وانتهى الأمر باجتماع هزيل لم يحضره سوى ٢٠ شخصًا في محطة سيارات خلف المحكمة.

لكن ليس كل متطرف غير كفء كما يقول المؤلف نتيموثي مكفاي، الذي أعدم قبل أسابيع استطاع أن يقتل ١٦٨ شخصًا في مبنى بمدينة أوكلاهوما بالولايات المتحدة.

ويتناول المؤلف قضية بالغة الخطورة وهي أن معظم جماعات المتطرفين مخترقة من البوليس وأجهزة المخابرات ويشير على سبيل المثال إلى أن ٢٥٪ من أعضاء كوكلوكس كلان عملاء سريون لمكتب التحقيقات الفيدرالي الأمريكي.

ومن أطرف فصول الكتاب تلك التي تتبع فيها المؤلف أسس نظرية المؤامرة اليهودية ويلتقي مع زعماء المنظمات اليهودية التي يتهمها المتطرفون بأنها تسيطر على العالم. لكنه لا يستطيع إثبات مدى صحة هذا الاتهام بل إن زعماء المنظمات اليهودية يقابلون ذلك بالسخرية. ولعل من المفيد التساؤل هل شخصية المؤلف اليهودية هي التي أوصلته إلى هذا الاستنتاج أم أنها الحقيقة وأنه ليست هناك مؤامرة يهودية؟

□ □ □

Die Selbstbehauptung Europas
(هل تستطيع أوروبا أن تثبت وجودها؟)
Helmut Schmidt
Berlin, DVA, 2001



يقدم المستشار الألماني الأسبق هيلموت شميت من خلال هذا الكتاب رؤيته لأوروبا والعالم في القرن الجديد. ولأنه أحد أبرز السياسيين المخضرمين على الساحة السياسية الألمانية والأوروبية بل والعالمية حاليًا، فإن رؤية شميث تكتسب أهمية كبيرة. ويتصور شميث عالم القرن الحادي والعشرين مختلفًا أشد الاختلاف عن عالم القرن العشرين.

إنه عالم تتربع فيه أمريكا فوق القمة سعيًا لإثبات تفوقها الذي لا ينازعه أحد. ثم تبرز الصين في بواكير النصف الأول من هذا القرن قوة عظمى اقتصاديًا وسياسيًا وعسكريًا. وتستعيد روسيا قوتها ومكانتها كقوة عالمية بحسب حسابها. وقد تفاجئ الهند العالم بظهورها على مسرح القوى العالمية معترفًا بها في نادي الدول الكبرى الجديد. أما اليابان فسوف تظل قوة اقتصادية ومالية لا أكثر. وأما أوروبا فلن يكتب لأي دولة من دولها أن تتبوأ على حدة مقعد العضوية في هذا النادي، لا فرنسا بقوتها النووية.. ولا بريطانيا بعلاقاتها الخاصة بأمريكا.. الفرصة الوحيدة لأوروبا هي أن تبقى متماسكة

عــــــروض موجـــــزة

فى كيان سياسى واقتصادى وعسكرى واحد لا تنفصم عراه، إذا أرادت لنفسها أن يعترف بها أحد كقوة عالمية.

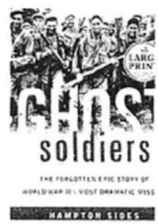
ويتنبأ هيلموت شميث بنشوب صراعات فى مناطق مثل الشرق الأوسط أو جنوبى آسيا أو أمريكا الوسطى، تتدخل أمريكا فيها عسكريًا وتسعى إلى توريط حلفائها الأوروبيين معها. وبالمثل فى الحالات التى تطلق عليها أمريكا وصف الدول المارقة (العراق - كوريا الشمالية) والتى يلعب الإعلام الأمريكى دورًا خطيرًا فى تسويقها.. وهو يرى أن الدول الأوروبية سوف تجد نفسها مضطرة حينئذ لوضع خط فاصل بين مصالحها الأمنية والدفاعية، وبين المصالح الأمريكية.. ولكن هذا لن يتحقق على المدى القصير.. إلا بعد أن يتولى المسئولية جيل جديد من السياسيين الأوروبيين يخلف هذا الجيل الذى قاد ثورة الطلبة فى الستينيات والسبعينيات، أى بعد عام ٢٠٢٥، وبعد أن تنجح دول الاتحاد الأوروبى فى تشكيل نظام دفاعى مستقل لا يعتمد على مظلة الدفاع الأمريكية.

□ □ □

Ghost soldiers: The Forgotten Epic Story of World War Two's most Dramatic Mission

(جنود أشباح.. قصة الملحمة المنسية لأكثر المهام درامية فى الحرب العالمية الثانية)

Hampton Sides
Dowoleday, 2001, 342PP.,
$24.95



يروى هذا الكتاب قصة واقعية حدثت فى الحرب العالمية الثانية، وهى عملية إنقاذ سجناء الحرب الأمريكيين فى الفلبين فى يناير ١٩٤٥ والتى يعتبرها المؤلف أكثر المهام الملحمية التى قامت بها القوات الأمريكية فى حربها ضد اليابان. ويتحدث المؤلف بشكل تفصيلى عن العملية، ولا يشغل نفسه تقريبًا بقضية أخرى، وفى سبيل ذلك يمتلئ الكتاب بأحاديث عن وحشية سلوك اليابانيين ولكنه يعتقد أن ذلك لم يكن سياسة رسمية لكنه يعود إلى شوفينية بعض القادة اليابانيين فى الحرب.

ويتناول المؤلف سجل القائد اليابانى فى الفلبين الجنرال ماساهارو هوما، والذى جرى إعدامه لإدانته بارتكاب جرائم حرب بعد انتصار الحلفاء. وقد كان هوما مسئولاً من الناحية الفنية عن إجلاء ١٠٠ ألف عسكرى أمريكى أصبحوا سجناء حرب بعد استسلام شبه جزيرة باتان فى الفلبين عام ١٩٤٢. لقد حاول هوما إنقاذ الجنود الأمريكيين لكن خطته وأوامره بمعاملة الأسرى وقعتا ضحية عاملين الأول أن المخابرات اليابانية قللت على نطاق واسع من أعداد أسرى الحرب الأمريكيين فى باتان لذلك كانت المواد التموينية التى يتم إرسالها إليهم قليلة وغير كافية، العامل الثانى أن الجنود اليابانيين تصديقًا منهم للدعاية اليابانية تصرفوا بوحشية ضد «العدو» الأمريكى.

ويقدم المؤلف تسلسلاً دراميًا لعملية الإنقاذ ولا ينسى أن ينتقل بين تفاصيل العملية وظروف الأسرى وأحوالهم. وعلى هامش ذلك لا ينسى المؤلف أيضًا أن يسرد قصصًا إضافية منها مثلاً جهود اليابانيين لإجلاء ١٦٠٠ من الأسرى الأمريكيين ونقلهم من «باتان» إلى داخل اليابان للعمل فى السخرة وقد وصل هؤلاء الأسرى إلى اليابان ولكن بعد أن مات المئات منهم سواء بالاختناق فى الحافلات التى كانت تقلهم أو نتيجة هجمات الأمريكيين عليهم.

الكتاب إجمالاً يتحدث عن البطولات الأمريكية فى زمن الحرب العالمية الثانية وهو أمر لا يمل المؤلفون الأمريكيون من الحديث عنه سواء الكتب أو الأفلام أو المسلسلات.

□ □ □

The Conservative Party from Peel to Major

(حزب المحافظين من بيل حتى ميجور)

John Charmley
Palgrave,2001, £15.99



عندما يتعرض حزب عريق كحزب المحافظين فى بريطانيا لهزة عنيفة تكاد تعصف بوجوده، فإن من المفيد الرجوع إلى تاريخ الحزب الحافل بالأحداث والانتصارات والإنجازات لعل فى هذه العودة إلى الماضى ما يعطى دفعة للحزب لكى يخرج من عثرته الشديدة حاليًا أو ربما يخلص قادة الحزب إلى استراتيجية تكون نابعة من صميم مبادئ الحزب وتلبى فى الوقت نفسه الحاجة للتغيير، وذلك لكى يعود الناخبون البريطانيون إلى النظر للمحافظين على أنهم جديرون مرة أخرى بحكم البلاد.

لقد تعرض الحزب لهزيمة تاريخية ساحقة فى أول مايو ١٩٩٧ على أيدى حزب العمال الجديد بعد أن أمضى المحافظون ١٨ عامًا متتالية فى الحكم، وبعد ٤ سنوات تقريبًا عاد المحافظون مرة ثانية وعلى التوالى ليتجرعوا كأس الهزيمة الساحقة أيضًا وكان تلك السنوات لم تغير من الأمر شيئًا. وإذا كان زعيم الحزب ورئيس الوزراء السابق جون ميجور قد قدم استقالته من زعامة الحزب عقب الهزيمة الأولى فإن وليام هيج زعيم الحزب خلال الهزيمة الثانية قدم استقالته أيضًا وبدأ الحزب فى اختيار زعيم جديد له وسط منافسة حادة بين عدد من زعمائه دون أن يكون هناك فى الأفق أى مؤشر على الخروج من النفق.

ويتحدث المؤلف جون شارملى فى هذا الكتاب عن تاريخ حزب المحافظين فى الفترة من عام ١٩٠٠ حتى عام ١٩٩٦ وكيف سيطر الحزب تقريبًا على مجرى السياسة فى بريطانيا خلال القرن العشرين حيث تولى الحكم ثلثى القرن تقريبًا وهى فترة كبيرة للغاية، ويتناول المؤلف التغيير الراديكالى الذى أحدثه المحافظون وأهم الزعماء فى تاريخ الحزب وبريطانيا وعلى رأسهم ونستون تشرشل وماكميلان ومارجريت تاتشر رؤساء الوزارات الراحلين. ولم يكن غريبًا أن تونى بلير رئيس الوزراء البريطانى الحالى وزعيم حزب العمال صرح مرارًا بأنه إذا كان القرن العشرين فى بريطانيا هو قرن المحافظين، فإنه من الضرورى أن يكون القرن الحادى والعشرون هو قرن الليبرالية، بمعنى أن يسيطر العمال فى شراكة مع الأحرار الديمقراطيين على الحكم فى البلاد. فهل تكون الهزيمتان المتتاليتان للمحافظين بداية النهاية للحزب أم أنها مجرد نكسة لن يلبث الحزب بعدها أن يعود للسيطرة على الساحة السياسية فى بريطانيا من جديد.

□ □ □

This is Serbia Calling

(هنا صربيا)

Matthew Colin
Serpent's Tail, 2001, £ 9.99



شغلت يوجوسلافيا خلال الشهور القليلة الماضية العالم بأحداثها الدرامية التى اشتعلت بالثورة على نظام ميلوسيفيتش والإطاحة بحكمه ثم اعتقال الديكتاتور اليوجوسلافى السابق وبعد ذلك، وفى تطور غير مسبوق تسليمه إلى محكمة جرائم الحرب الدولية فى لاهاى لمحاكمته بتهم عديدة تدور حول ارتكاب جرائم حرب ضد الإنسانية فى كوسوفا والبوسنة وأنحاء أخرى من يوجوسلافيا.

والكتاب الذى نعرض له يتناول ناحية مثيرة للغاية من نواحى الحياة فى عهد ميلوسيفيتش، وهى ناحية الإعلام. فالرئيس اليوجوسلافى الذى كان فى نفس الوقت يقود جمهورية الصرب أكبر الجمهوريات فى الاتحاد اليوجوسلافى، أقام نظامًا ذكيًا للغاية فى مجال الإعلام.

وكما يقول المؤلف، فإنه فى صرب ميلوسيفيتش كانت هناك سيطرة كاملة على الإعلام رغم أنه لم تكن هناك رقابة، ويستطرد قائلاً: كل شيء مسموح لكن فى الواقع لا شيء مسموح به. كل شيء ممكن لكنه فى الحقيقة مستحيل. كل شيء يبدو طبيعيًا وعلى الأرض لا شيء طبيعى.

لقد ركزت غالبية الكتب التى تناولت يوجوسلافيا حديثًا حول الكوارث التى أحدثها الصرب ضد غير الصرب فى يوجوسلافيا، فمن وحشية الحروب فى البوسنة وكوسوفا إلى التمييز العنصرى إلى جرائم التطهير العرقى لكن القليل من الكتب أو ربما لا يوجد كتاب تحدث عن المقاومة التى أبداها الصرب ضد حكم ميلوسيفيتش، وقد اختار المؤلف عنوانًا فرعيًا لكتابه هو «راديو الروك آندرول والمقاومة السرية» وهو يتحدث عن أساليب المقاومة التى قام بها الإعلاميون والصحفيون ضد نظام ميلوسيفيتش. وكانت هناك إذاعة تبث على موجة الـ FM أكثر معارضتها لسياسات ميلوسيفيتش منذ سنوات طويلة واكتسبت شعبية كبيرة وكانت تبث موسيقى الروك آندرول التى اعتبرتها موسيقى الحياة مقابل الموسيقى التى تؤكد على النعرة الوطنية التى تبثها الإذاعة الرسمية.

ويركز الكتاب على حياة العاملين فى تلك المحطة وتدعى «بى ٩٢» والذين عاشوا يبشرون الناس بإمكانية وجود بديل وبأن الأمور يمكن إصلاحها. وقد أعرب عديد من المستمعين الذين تابعوا المحطة عن سعادتهم قائلين إنها تقيم علاقة من الحب مع المستمع.

إن كتاب «هنا صربيا» يريد أن يقول إن هناك من هم داخل جمهورية الصرب من قاوموا حكم ميلوسيفيتش رغم الظروف الصعبة التى كانوا يواجهونها فى ظل حكم شمولى بامتياز.

□ □ □

تاريخ

أطلس تاريخ الإسلام
حسين مؤنس
القاهرة: الزهراء للإعلام العربي

طبعة جديدة للموسوعة التي كتبها العالم الراحل، والتي يتناول فيها أحداث التاريخ الإسلامي وأبطاله ورموزه وأهم الشخصيات التي تركت أثرها في مسيرة الحضارة الإسلامية.

■■■

الذاكرة والتاريخ في القرن العشرين الطويل
وجيه كوثراني
دمشق: دار الطليعة، ٢٠٠١

دراسة تاريخية اجتماعية عن الوطن العربي وأثر الحملات الصليبية عليه، وكذلك الحملة الفرنسية وما فعلته بمصر والصدمة الحضارية التي جعلتها تكتشف الجانب الآخر من العالم، كما لا يفوت المؤلف أن يقدم لمحات عن الصورة العربية الراهنة بكل ما فيها.

■■■

السلطان علي بن صالح القعيطي ١٨٩٨-١٩٤٨.. نصف قرن من الصراع السياسي في حضرموت
محمد سعيد القوال، عبد العزيز بن علي بن صالح القعيطي
لندن: دار الساقي، ٢٠٠١

كانت هذه الفترة، في النصف الأول من القرن العشرين مليئة بالصراعات السياسية والقبلية في حضرموت، المؤلف يتناولها مع التركيز على حياة السلطان علي بن صالح القعيطي وكفاحه ضد الإنجليز ثم نفيه وعودته مريضًا ليدفن في أرض أجداده.

■■■

محاضر مجلس شورى النواب
سعيد حسني
القاهرة: دار الكتب المصرية، ٢٠٠١

تتناول هذه المحاضر الأسس الأولى للديمقراطية التي شرع النواب في إرسالها منذ عهد الخديو إسماعيل الذي أنشئ في عصره أول مجلس لشورى النواب على النمط الغربي. وكان نواة للمجالس النيابية التي تشكلت فيما بعد، ومدرسة للتربية الديمقراطية الحقة.

■■■

نقود الشام
قتيبة الشهابي
دمشق: وزارة الثقافة، ٢٠٠١

دراسة تاريخية عن العملات التي كانت متداولة في بلاد الشام على مر التاريخ، مسكوكات أو عملات رسمية، صنعها الشعب بنفسه أو فرضها الاحتلال أو وفدت إلى الشام مع دويلات إسلامية مختلفة.

■■■

The Mirror of Spain, 1500 - 1700 The Formation of a Myth
(مرآة إسبانيا، ١٥٠٠-١٧٠٠ صناعة خرافة)
J.N. Hillgarth
Michigan UP, 2001, 584pp.

يرجع المؤلف إلى عصر الأمبراطورية الإسبانية ليقف على رؤية الأوروبيين في ذلك الحين لإسبانيا وشعبها وثقافتها، ويخلص في نهاية استعراضه لكتابات السفراء والرحالة الأوروبيين إلى أن آراءهم كانت مضللة ومشوهة للحقيقة.

■■■

The Waning of Renaissance, 1550 - 1640
(أفول عصر النهضة، ١٥٥٠-١٦٤٠)
William J. Bouwsma
Yale University Press, 2001, 288pp.

يحاول المؤرخ أن يصف عملية التحول من ثقافة عصر النهضة إلى ثقافة عصر التنوير وبالتالي نستطيع التعرف على متى وكيف بدأ العالم الحديث.

تعليم

مفاهيم جديدة لتطوير التعليم في الوطن العربي
حسن شحاتة
القاهرة: الدار العربية للكتاب، ٢٠٠١

عبر ثلاثة فصول يناقش المؤلف تعليم المستقبل ومستقبل التعليم، وتفعيل مسيرة تطوير التعليم، وتربية النشء في مجتمع معلم، ويعكس الكتاب اتجاهات تعليمية حديثة ومعالجة لتحديث التعليم وبعض المشكلات التعليمية.

■■■

Making the Most of College: Students Speak their Minds
(الاستفادة القصوى من الكلية: الطلبة يتحدثون عما يدور بعقلهم)
Richard J.Light
Harvard Universty Press, 2001, 256 PP.

المؤلف أستاذ في جامعة هارفارد ولديه ثلاثون عامًا من الخبرة في التدريس بالجامعة، وهو في هذا الكتاب يصف ويحدد العناصر المختلفة في الحياة الجامعية التي تجعل منها تجربة ثرية للطلبة. الكتاب قائم على بحث أعده ٦٠ باحثًا من ٢٠ جامعة إلى جانب مقابلات عديدة مع الطلبة.

دوريات

مجلة الدراسات الفلسطينية
صيف ٢٠٠١

صدر حديثا العدد السابع والأربعون من «مجلة الدراسات الفلسطينية» التي تصدر، فصليا، عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت. وأبرز ما ورد في هذا العدد ندوة عن تطورات الانتفاضة وأهدافها شارك فيها كل من مصطفى البرغوثي، صالح عبدالجواد، ممدوح نوفل وجميل هلال. واحتوى العدد المقالات التالية: الحجارة والصواريخ: النتيجة الحتمية لاتفاق أوسلو (معين رباني)؛ البعد الأردني لانتفاضة الأقصى (ذياب مخادمة)؛ أبعاد انتشار الصواريخ الباليستية في الشرق الأوسط (رياض قهوجي)؛ معركة القدس في مذكرات أنور نسيبة (موسى البديري)؛ الفلسطينيون في إسرائيل (إيليا زريق)؛ موقف الكنائس المسيحية في القدس في مواجهة الاحتلال (مايكل دمبر)، وفي باب القراءات كتب كل من بلال الحسن ومسعود ضاهر وكمال عبدالملك ونبيل كنفاني. أما في باب التقارير فتضمن العدد وثائق تأليف الحكومة الإسرائيلية (ترجمة خالد عايد)؛ وتقرير عن تأثير الانتفاضة في الاقتصاد الإسرائيلي (سمير صراص)، وتقرير عن اعتداءات المستوطنين على الفلسطينيين (إعداد مركز «بتسليم»).

روايات وقصص

المنتصتون
أحمد والي
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

مجموعة قصصية تتناول العالم الشعبي في ضواحي القاهرة وأطرافها ونجوع الصعيد، وتغوص في العلاقات الحميمة داخل الأسر، من خلال ٤٦ قصة منها: الحاوي وأبيع لأجلها عمري، وسعد أفندي.

■■■

الأناقة
الميلودي شغموم
الدار البيضاء، دار الثقافة، ٢٠٠١

رواية تجمع خيوط الحياة في المغرب وتنسج منها صورة عن المجتمع قديمًا وحديثًا، وتأثير التكنولوجيا والحداثة والعولمة على حياة المواطن المغربي.

■■■

الفراشة الزرقاء
ربيع جابر
القاهرة: هيئة قصور الثقافة، ٢٠٠١

تتوزع أماكن الرواية بين بيروت وجبل لبنان والقاهرة وتركيا، حيث ينتمي أبطال الرواية إلى عائلتين إحداهما تركية والأخرى لبنانية، ويستعرض المؤلف من خلالهما، الصراعات التي عصفت بمنطقتنا في نهاية القرن التاسع عشر وكيف تركت آثارها على العائلتين.

■■■

Racconti Dispersi (1928 - 1951)
Alberto Moravia
Edited by Simone Casini and Francesca Serra
Milan: Bompiani, 2001, 389pp., £30.00

اكتشف الدارسون أن الروائي الإيطالي الشهير ألبرتو مورافيا الذي توفي عام ١٩٩٠ ترك إنتاجًا أدبيًا غزيرًا متناثرًا على مدار ستين عامًا من العمل.

وقد جمعت دار نشر بومبيانتي هذه القصص «الضائعة» وأصدرت منها اثنتين وثلاثين قصة في كتاب عام ١٩٩٣. وقد أضيف لها هذا العام تسع وستون قصة تم العثور عليها مؤخرًا. ويتكون منها هذا الكتاب المنشور حديثا في إيطاليا.

سياسة

الديمقراطية المقيدة - حالة الأردن
علي محافظة
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

يلقي الكتاب أضواءً على عملية التحول السلمي نحو الديمقراطية في الأردن، والظروف والأحداث التي سبقتها ورافقتها على الأصعدة المحلية والعربية والدولية، كما يتناول الكتاب تطور العلاقات بين الأردن ومنظمة التحرير الفلسطينية.

■■■

الهولوكوست الفلسطيني
علي سعادة
عمان: على نفقة المؤلف، ٢٠٠١

يستعير المؤلف اللفظ الذي يتاجر به اليهود ويبتزون به العالم كله، كي يدللوا على ما لاقوه من قهر وتعذيب وإبادة في عصر النازي، كي يبين أن الفلسطينيين يذوقون على أيديهم ما ادعوا هم أنهم واجهوه.

وهو في سعيه هذا يعرض لعدد من الكتابات اليهودية المعاصرة المنصفة والمنتقدة للسياسة القمعية الإسرائيلية.

■■■

حجاب وحراب.. الكمالية وأزمات الهوية في تركيا
محمد نور الدين
بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

منذ عام ١٩٢٤، خلعت تركيا ثوب الإسلام وارتدت ثياب العلمانية الغربية، وسارت في طريق الحداثة على الصيغة الأوروبية خطوات مرتبكة، وفي الوقت الذي ظن أبو الأتراك مصطفى كمال أتاتورك أنه قضى على الإسلام واقترب ببلاده من أوروبا، إذا بتركيا اليوم تعيش صراع هوية لا يمكن إنكاره.

■■■

صنع القرار في إيران
نيفين مسعد
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠١

منذ ثورة إيران الإسلامية قبل ما يزيد على عقدين، والعالم مهتم بالتجربة الإيرانية التي بدت مستقلة وراسخة، وأضاف إليها الإصلاحيون كثيرًا مما منحها صبغة تنويرية حداثية، خصوصًا مع اهتمامها بالجانبين الديمقراطي والإصلاحي، والمؤلفة هنا تبحث في واحد من الموضوعات المهمة والمعقدة في نفس الوقت، وهو صنع القرار في إيران، وهي عملية تحكمها تراتبات وتوجهات واضحة.

■■■

محاكمة رئيس مؤقت

ماضي الخميسي

الكويت: دار الحدث، ٢٠٠١

حين وطأ العراقيون أرض الكويت أرادوا أن يرسخوا أقدامهم فيها، فأنشأوا حكومة موالية لهم جعلوا على قمتها علاء حسين، والمؤلف يتناول هنا محاكمة علاء حسين بوصفه رئيسًا للحكومة المؤقتة، ودفاعه عن نفسه وتبريره للمهمة التي اعتبرت بحق خيانة لوطنه.

■■■

من وحي نوفمبر

محمد الشريف عباس

الجزائر: المؤلف نفسه، ٢٠٠١

يتناول المؤلف الوجه الآخر لثورة التحرير الجزائرية، وكيف حاول البعض أن يزيّف الحقائق التاريخية ويستثمر مشاركته في التحرير ولو من بعيد كي يحقق مكاسب خاصة، المؤلف يسعى إلى تصحيح بعض المفاهيم عن ثورة المليون شهيد مبرزًا الأدوار العظيمة لأبطالها الحقيقيين.

■■■

قريبًا من الكرملين

سامي عمارة

القاهرة: دار الهلال ٢٠٠١

يرصد الكتاب حقبة مهمة في تاريخ ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي، مرحلة الانهيار منذ عهد جورباتشوف وحتى اليوم، يقيّمها المؤلف من واقع خبرته بالتاريخ والسياسة السوفيتية بوصفه صحفيًا ومحللاً سياسيًا، فضلاً عن كشفه لتناقضات المجتمع السوفيتي والتقلبات التي شهدها وآثارها على الشعب السوفيتي.

■■■

Fatal Attraction: Neighbors, Not Friends: Iraq and Iran after the Gulf Wars

(جيران لا أصدقاء: إيران والعراق بعد الحروب الخليجية)

Dilip Hiro

Routtedge, 2001, 388PP,£45

بهذا الكتاب يكون المؤلف الهندي الأصل ديليب هيرو قد أتم ثلاثيته التي بدأها بكتاب «أطول حرب: الصراع العسكري العراقي الإيراني» والذي تلاه كتاب «من درع الصحراء إلى عاصفة الصحراء: حرب الخليج الثانية». أما هذا الكتاب الأخير فيتناول تاريخ العراق وإيران منذ عام ١٩٩١ في علاقتهما تجاه بعضهما، وعلاقتهما تجاه الولايات المتحدة الأمريكية.

شـــعـر

اقتفاء الأثر

خليل صويلح

دمشق: دار المدى، ٢٠٠١

تجربة شعرية شبه ذاتية، فيها كثير من الذكريات العابرة التي يقف عندها المؤلف ليصنع منها مواقف أكثر عمومية فيحيل تأثيرها من الخاص إلى العام، مستفيدًا مما تمنحه الطفولة من بكارة ونضاوة للتجربة الشعرية والإنسانية على السواء.

■■■

الماء كله وافد إليّ

كاظم جهاد

القاهرة: هيئة الكتاب، ٢٠٠١

تتنوع قصائد الديوان بين السردي والتأملي، وتحمل الأبيات قضايا ومشاعر وعوالم متجددة ذاتية وإنسانية.

طب وصحـــة

التدخين والصحة

مصطفى عطري

الكويت: المركز العربي للوثائق الصحية، ٢٠٠١

كتاب جديد عن الأضرار البالغة للتدخين على الصحة العامة والأمراض التي يسببها بدءًا من الأسنان وحتى المعدة والجهاز التنفسي والعصبي والقلب، وكأن نسب التلوث المرتفعة التي تغطي سماء الكون لا تكفي المدخنين كي يلوثوا صدورهم بأيديهم ويعجلوا بنهايتهم.

■■■

الطب النفسي العربي

عدنان حسب الله - حسين عبد الغفار - عادل عقل

بيروت: منشورات المركز العربي للأبحاث النفسية والتحليلية، ٢٠٠١

مقارنة بين الطب النفسي في الغرب والطب النفسي في العالم العربي، وتستعرض الدراسات إنجازات وآراء سيجموند فرويد وابن سينا جنبًا إلى جنب مبينًا الفروق في الرؤية والتناول.

■■■

The Wisdom of Menopause: Creating Physical and Emotional Health During the Change

(حكمة سن اليأس: اكتساب الصحة البدنية والعاطفية أثناء التحول)

Christian Northrup (M.D)

Bantam Doubleday Dell Pub, 2001, 464PP, 27.95$

تعالج المؤلفة الطبيبة مسألة سن اليأس من خلال اقتراب طبي ونفسي واجتماعي، حيث لا تركز فقط على الهرمونات وخلافه وإنما تنظر لحياة المرأة بشكل عام في هذه السن، حين تكون المرأة قد تمردت وتعبت من التضحية والعطاء، ويكون الوقت ملائمًا لإعادة النظر في احتياجاتها وعلاقاتها بأسرتها وأصدقائها وزملائها.

الكتاب مليء بالنصائح العملية عن أفضل أنواع عقاقير الهرمونات والأنظمة الغذائية المستحبة، والوزن المثالي لهذه السن، بالإضافة إلى نصائح تجميلية أيضا.

عـــلـوم

The Extended Organism: The Physiology of Animal - Built Structures

(الكائن العضوي الممتد: فسيولوجيا الكيانات التي تبنيها الحيوانات)

J. Scott Turner

Harvard UP, 2001, 228pp., £32.95

يفحص الكتاب الكائنات العضوية التي تغير في البيئة المحيطة بها، أي الكائنات التي تمد سيطرتها إلى خارج أجسامها لتشمل أجزاء من البيئة المحيطة بها، تمامًا مثل العنكبوت وشبكته، فشبكة العنكبوت تمثل أداة لجمع الطاقة من البيئة المحيطة بالعنكبوت وتمد نطاق سيطرته وقدرته، وبالتالي يتساءل الكاتب إن كان من الممكن اعتبارها جزءا من جسم العنكبوت.

عمـــارة

Architecture Now

(العمارة الآن)

Philip Jodido

Taschen, 2001, 192pp., $ 39.99

مع بداية القرن الواحد والعشرين، يتضح للمتابع أن إيقاع التطور والتغيير يجري بشكل أسرع من أي وقت مضى. وفي هذا الكتاب يرصد المؤلف أحدث ستين عملاً معماريًا تم تشييدها في السنوات القليلة الماضية، ومن ضمنها تصميمات لاندو، وفوستر، وستارك، وماير، وجهري. إلى جانب بعض الأسماء الجديدة التي يتوقع لها المؤلف أن تصبح نجوم العمارة في المستقبل. الكتاب يحتوي على صور ملونة للأعمال المعمارية الحديثة التي يتناولها المؤلف.

■■■

The Look of Architecture

(مظهر العمارة)

Witold Rybczynski

Oxford UP, 2001, 208pp., $ 22.00

يتحدث المؤلف عن الأسباب التي تجعل الناس تحب العمارة وتجعل منها مزارات يحرص السائحون على مشاهدتها، ومن ضمن هذه الأسباب رغبة الإنسان في معرفة أو تخيل كيف كان من الممكن أن يكون في الماضي، وإلى أي مدى يفصله الزمن عن ذلك الماضي.

فكـــر

أصنام النظرية وأطياف الحرية

علي حرب

بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

يقدم الكتاب تحليلاً نقديًا لحرية الإبداع عند الغرب، من خلال قراءة في اللغة والإبداع عند تشومسكي، ويرسم خريطة للعقول المعرفية التي يتحرك فيها مفكرو الغرب ومفكرونا لتأويل الواقع وفهم الحقائق الراهنة.

■■■

الأختام الأصولية والشعائر التقدمية

علي حرب

بيروت: المركز الثقافي العربي، ٢٠٠١

يقدم المؤلف عددًا من الإجابات عن أسئلة ملحة لم يحسمها مفكرونا إما بسبب قائمة المحظورات التي تحد من الإبداع وانطلاق المفكر نحو آفاق أرحب في التفكير والابتكار، أو بسبب عدم القدرة على احتمال الاختلاف، وهو لا يزعم امتلاكه الحقيقة المطلقة إنما يقدم تصوراته ويراها قابلة للجدل والنقاش.

■■■

المسيحية والإسلام والقومية

أنطون سعادة

بيروت: دار سعادة، ٢٠٠١

ينفي المؤلف أي تناقض بين المبادئ المسيحية والإسلامية ويراهما يجاهدان من أجل الدعوة ذاتها، إصلاح حال البلاد والعباد، أو العمران بمعنى أوسع، وأن هذا الفهم لمبادئ الديانتين العظيمتين من شأنه أن يقتل كل فتنة في مهدها ويقود إلى مزيد من التقدم.

■■■

المحاكمة والإرهاب.. عقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر

تركي علي الربيعو

بيروت: رياض الريس، ٢٠٠١

يشيع بين المثقفين منهج التخوين والنفي والإبعاد، وهي مسألة بالغة الخطورة في الحوار بين الأنداد وحول الأفكار، لكنها للأسف ظاهرة لافتة ولا يمكن إنكارها أو تجاهلها. المؤلف يؤصل تاريخيًا لعقلية التخوين في الخطاب العربي المعاصر وآثارها المدمرة.

■■■

العالم.. النص والناقد

إدوارد سعيد

ترجمة - عبدالكريم محفوض

دمشق: اتحاد الكتّاب العرب ٢٠٠١

مجموعة من المقالات التي كتبها إدوارد سعيد بين عامي ١٩٦٩ و١٩٨١، وهي موضوعات تدور حول ثلاثة محاور حسبما يشير المؤلف: فحص العالم الدنيوي الذي يشكل أرضية النصوص، اختبار هذا العالم أمام النظرية النقدية المعاصرة، الآثار الناجمة عن سيطرة ثقافة قوية على ثقافات أضعف منها.

■■■

Culture, Ambition, and the Transformation of Nature

(الثقافة، والطموح البشري، وتحول الطبيعة)

Felipe Fernandes - Armesto

The Free Press, 2001, 545pp., $ 35.00

يقدم المؤلف نظرية مختلفة عن الحضارة، فهو يعرف الحضارة بداية بأنها العلاقة بين البشر والبيئة الطبيعية

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

الشكوى السابعة

* «إن منتهك حرمة القانون، وخاوق المتبع من الأمور لا يستطيع رجل فقير أن يقاوم نهبه إذا لم تواجهه العدالة. حقًا إن جوفى لملآن وقلبى لمفعم وقد طفح من جوفى تقرير عن تلك الحالة. لقد كان صدع فى السد، فتدفق منه الماء، وقد انفتح فمى للكلام. وعندئذ قد أعملت مجدافى لسبر الغور، ونزحت مائى، ورَوحت عما فى جوفى، وغسلت كتانى (ملابسى) القذر.

إن خمولك سيضلل بك، وشراهتك ستغشك، وإن عدم اكتراثك سيولد لك أعداءً. ولكن هل يمكنك أن تجد فلاحًا آخر مثلى؟ وهل الشاكى يقف على باب بيت الخامل؟ على أنه لا يوجد إنسان صامت قد أنطقته، ولا نائم قد أيقظته...».

الشكوى الثامنة

* «أقم العدل لرب العدل، والذى عَدْلُ عدالته موجود. وأنت يا أيها القلم، وأنت يا أيتها البردية، ويا أيتها الدواة، ويا «تحوت» ابتعدوا عن عمل السوء. وعندما يكون الحسن حسنًا فالأمر إذن حسن غير أن العدل سيكون إلى الأبد ويذهب مع من يعمله إلى الجبانة، وسيدفن وتطويه الأرض. أما اسمه فلن يمحى من الأرض، بل سيذكر للخير.

* إنك لا تعطينى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من فم «رع» نفسه. انطق بالعدل وأقم العدل لأنه خطير، وعظيم، ويعيش طويلاً، والثقة به قد عرفت، فهو يؤدى إلى العمر الطويل المحترم...».

قراءات جديدة

وقدرتهم على تغييرها لتناسب حاجاتهم.

ويقوم بتصنيف حضارات العالم المختلفة حسب الطبيعة البيئية المحيطة بها، فهناك حضارة الجزر التى تجمع الحضارات التى سكنت جزر هاواى والمالديف ومالطة وكريت.. وحضارة الصحارى وحضارة الغابات والحضارة الساحلية والتى تضم حضارات الفايكنج والفينيقيين إلى آخره.

فكر دينى

الإسلام الثابت الحضارة
الكسى مالا شينكو
دمشق: دار الحارث، ٢٠٠٠

انشغل الفكر المعاصر فى مرحلة من مراحله بالعلاقة بين الإسلام والشيوعية والصراع بينهما، حتى أن بعض الشيوعيين المسلمين رأى فى الشيوعية أفكارًا إسلامية وسعى إلى التقريب بينهما، لكن بقى الصراع مشتعلاً بسبب المادية المفرطة للأيديولوجيا الشيوعية والروحانية التى تشيعها شريعة الإسلام.

■■■

التسامح والعنف فى الإسلام
عطا الله مهاجرانى
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١

كتاب من جزءين، ويتضمن مقتطفات مختارة من أفكار مهاجرانى وكتاباته وخطاباته، ومناظراته مع المحافظين والتقليديين، ونقرأ فى الكتاب مرافعة طويلة لمهاجرانى عن الصراعات الخفية الدائرة فى إيران منذ ثورة الخمينى.

■■■

معانى القرآن
أبى الحسن بن مسعدة
تحقيق: هدى قراعة
القاهرة: مكتبة الخانجى ٢٠٠١

تحقيق جديد للكتاب الذى صدر له تحقيقان قبل أكثر من عشرين عامًا، والمحققة تقدم هنا نقدها ومآخذها على التحقيق الأول والثانى وتستفيد من أخطائهما.

فلسفة

القواعد الشرعية ودورها فى ترشيد العمل الإسلامى
محمد أبو الفتح البيانونى
قطر: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ٢٠٠١

ثمة أطر أساسية للدعوة فى سبيل الله، كيف يمكن الاستفادة من التراث الفقهى وما تمنحه النصوص والأحاديث والمأثورات، من أجل تعديل مسار المجتمع ومساعدته على النهضة، هذا هو سؤال المؤلف الكبير.

■■■

الصيرورة فى الفكر الفلسفى
عصام عبد الله
القاهرة: دار كليوباترا، ٢٠٠١

يقدم المؤلف تحليلاً لظاهرة التحول فى الفكر الفلسفى عند الغرب فى النصف الأول من القرن الماضى، وطبيعة هذا التحول وأسبابه، ويربط بين هذا التحول وعلم اجتماع المعرفة وأثره على الفكر الغربى.

فنون

طريقة النمل
هنرى زغيب
بيروت: الأوديسية، ٢٠٠١

دراسة عن المشوار الإبداعى والفنى للأخوين عاصى ومنصور الرحبانى، متناولاً أعمالهما الشعرية والمسرحية التى أدتها بصوتها الملائكى المطربة الكبيرة فيروز، وكيف أن هذه الأعمال مثلت طريقًا واسعًا ممهدًا ومتشعبًا فى نفس الوقت، ويعترف المؤلف بانه يدين بالفضل إلى الأخوين رحبانى فى مشواره الشعرى.

■■■

Enduring Creation: Art, Pain and Fortitude
(احتمال الخلق: الفن والألم والصلابة)
Nigel Spivey
Thames & Hudson, 2001, 272pp.

حول الفن الذى يعبر عن الألم، والإبداع بالرغم من الألم والمعاناة، وكيف يعمل هذا النوع من الفن على مواجهة الألم.

يعتنى الكتاب بالألم الذى يظهر بشكل مباشر فى أعمال التصوير الفنى مثل تصوير الحرب والوباء والمظالم الإنسانية المختلفة، على سبيل المثال لوحات المسيح المصلوب والشهداء ومذبحة الأبرياء وغيرهما.

■■■

Music and Musicians in Reenaissance Cities and Towns
(الموسيقى والموسيقيين فى مدن عصر النهضة)
Fiona Kisby (editor)
Cqmbridge UP, 2001, 188pp., £40.00

تحاول محررة الكتاب أن تقدم لنا دراسة عن الموسيقى فى سياق حضرى.

فمن خلال استعراض أشكال حضرية مختلفة وفى عصر النهضة من مدن دوقية وملكية مثل فيينا وبروكسل، ومراكز مستقلة مثل البندقية وأفينيون، ومدن كتدرائية وجامعية مثل أكسفورد، بالإضافة إلى غيرها من الأشكال الحضرية، تحاول الدراسات المقدمة فى الكتاب أن تصل إلى دور ووظيفة الموسيقى حسب السياق الحضرى الذى توجد فيه.

قـــــراءات جـــــديدة

مـدن وتنمية

New Shanghai: The Rocky Re- Birth of China's Legendary City

(شانغهاى الجديدة: الولادة الجديدة المتعسرة لمدينة الصين الأسطورية)

Pamela Yatsko

Wiley, 2000, 298pp., £ 14.50

تعرف مدينة شانغهاى الواقعة على سواحل الصين الجنوبية بأنها أحد أكبر المدن فى العالم. وفى أوائل التسعينيات قررت الحكومة الصينية تحويل مدينة شانغهاى إلى مركز مالى وتجارى عالمى يقودها إلى الألفية الجديدة.

تفسر الصحفية ياتسكو مؤلفة الكتاب كيف فشلت هذه الخطة الطموحة فى جوهرها، حيث نجحت فى تصميم ناطحات السحاب الزجاجية بينما فشلت فى إرساء الضوابط القانونية والقيم الإبداعية اللازمة لإنجاح المناخ الرأسمالى.

■■■

Mozambique and The Great Flood of 2000

(موزمبيق وفيضان عام ٢٠٠٠ العظيم)

Frances Christie and Joseph Hanlon

International African Inst., 2001, 176pp.

تحلل هذه الدراسة كارثة الفيضان التى أصابت موزامبيق فى العام الماضى ومدى نجاح وفعالية جهود الإنقاذ الدولية فى الحد من الخسائر. وتخلص الدراسة إلى أن التجربة كانت ناجحة، حيث إنه فى الوقت الذى مات فيه سبعمائة شخص تم إنقاذ خمسة وأربعين ألف شخص آخر كذلك فإن المنظمات الأكثر فعالية كانت تلك التى كان لها قاعدة فى موزمبيق أصلاً، أو التى عملت من خلال الأطر الحكومية، أما المنظمات الفردية والمستقلة فكانت أحيانًا مصدرًا للإزعاج فقط.

مذكرات وسير

مانديلا.. السيرة الموثقة

انطونى سامبسون

الرياض: دار العبيكان ٢٠٠١

ليس أهم ولا أكثر إثارة من حياة هذا الثائر العظيم الذى قدَّم نموذجًا للتجرد والنضال والقدرة على الصمود والاستمساك بالمبدأ حتى نهاية العمر، والكتاب يقدم سيرة مانديلا من خلال شخص عرفه وعرف كثيرين من المحيطين به من السياسيين والثوريين الذين رافقوه فى رحلة نضاله.

■■■

Commies: A Lourney Through the Old Left, the New Left and the Left-over Left

(جولة بين اليسار القديم واليسار الجديد واليسار المتبقى)

Ronald Radosh

Encounter Books, 2001, 216pp., $ 24.95

مؤلف الكتاب يسارى أمريكى ورث اليسار عن أبيه، واستمر فى نشاطه إلى أن بلغ منتصف العمر، وبدأ تدريجيًا يشعر بالجوانب السلبية فى الفكر الذى اعتنقه، وفى أخلاق زملائه ومبادئ الجمعيات التى اشترك فيها. يقدم المؤلف من خلال تجربته الشخصية صورة عن اليسار الأمريكى فى مستوياته المختلفة الشعبية والمثقفة.

نقـــد أدبى

شعرية كفافى

جريجورى جوزدانيس

ترجمة: رفعت سلام

القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١

دراسة فى شعرية الشاعر اليونانى قسطنطين كفافيس، من خلال تحليل مجموعة من النصوص الشعرية المهمة له وإبراز ما فيها من أبعاد فلسفية ورؤى نقدية وتعبير عن توجهات الشاعر وآرائه فى الكون والحياة.

■■■

جماليات المكان فى روايات جبرا إبراهيم جبرا

أسماء شاهين

بيروت: عمان. المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠١

يشير المؤلف إلى أن اختياره لموضوع الكتاب يرجع إلى ما يمثله المكان فى روايات جبرا، وقد اهتمت دراسات سابقة بموضوع المكان لكن ليس بالإسهاب والاهتمام البالغ الذى يوليه المؤلف للموضوع، والمكان عند جبرا فى ثلاث صفات هى المكان المغلق (البيت، السجن، غرف التحقيق، المقهى) والمكان المفتوح (الصحراء، البحر، الشارع) والمدينة (المدينة الحلم، المدينة الواقعية).

■■■

ملامح عربية فى الأدب الألبانى

محمد الأرناؤوط

عمان: اتحاد الكتّاب العرب ٢٠٠١

يكشف الكتاب عمق العلاقة بين الأدبين العربى والألبانى، ويتناول المؤلف بالدراسة ثلاثة شخصيات مشتركة بين تراث الأدبين: جحا، الشخصيات الكربلائية نسبة إلى ملحمة كربلاء، ثم شخصية أروى التى وردت فى ألف ليلة وليلة.

■■■

اليهود فى «الأدب الأمريكى

رمسيس عوض

القاهرة: مكتبة الأنجلو ٢٠٠١

دراسة تغطى فترة أربعة قرون من القرن السابع عشر وحتى القرن العشرين، وتشتمل على أربعة فصول، يتناول أولها صورة اليهودى فى الأدب الأمريكى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، والثانى أدب اليديش والثالث الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر، أما الفصل الأخير فجاء تحت عنوان نقاد وروائيون يهود أمريكان معاصرون.

■■■

كتاب الزاوية

الفلاح الفصيح

الشكوى التاسعة

* «لا تكونن ثقيلاً يا من لست خفيفًا. ولا تتوانينَّ يا من لا تسرع. لا تكونن متحزبًا ولا تصغين لقلبك. ولا تسترن وجهك من إنسان تعرفه، ولا تتعامين عن إنسان قد رأيته، ولا تردنَّ إنسانًا يشكو إليك. واترك هذا الخمول حتى أن حكمتك (القائلة): «افعل الخير لمن يفعله لك» يمكن أن تروى إلى مسامع كل الناس، وحتى يرجع إليك الناس فيما يتعلق بمطالبهم الحقة. والخامل لا أمس له، والأصم عن العدل لا رفيق له. تأمل إنى أشكو إليك وأنت لا تسمع شكواى...».

الخـــاتمـــة

بعد ذلك أمر «رنزى» بن «مرو» المدير العظيم للبيت اثنين من الحجاب ليذهبا ويحضراه ثانية. وقد خاف هذا الفلاح ظنًا منه أن ذلك قد عمل لمعاقبته على الخطبة التى فاه بها.

فقال «رنزى» بن «مرو»: «لا بأس انتظر هنا حتى يمكنك أن تسمع شكاياتك». ثم أمر بقراءتها. ثم إن «رنزى» بن «مرو» أمر بإرسالها إلى الملك المرحوم «بنكاورع» وقد سر منها جلالته أكثر من أى شىء فى الأرض قاطبة. وقال جلالته: «اقض بنفسك يا بن «مرو» (فى هذا الأمر).

فأمر المدير العظيم للبيت اثنين من الحجاب ليذهبا ويحضرا «تحوت نخت» فأحضر وأحصيت كل أملاكه.. ٦أشخاص.. قمح من الوجه القبلى وشعير وحمير.. وخنازيره وماشيته.. وقد أعطى بيت «تحوت نخت» لهذا الفلاح.

أفلام عبد الوهاب

أحسنت «وجهات نظر» بنشر الدراسة القيمة عن «عبد الوهاب أفلامه وأغانيه» للأستاذ سمير فريد في عدد يونيو ٢٠٠١. وإن كانت لدينا بعض الملاحظات حول الدراسة نوردها فيما يلي بقصد وضع الأمور في نصابها وليس بقصد التقليل من أهمية الجهد الذي بذل في إعدادها أو قيمته.

١- مادامت الدراسة لم تعتبر أفلام عبد الوهاب مقتصرة على أفلامه الروائية السبعة. فقد كان على الكاتب محاولة استكمال الصورة والتحرى عن سائر الأغنيات التي تم تسجيلها كأفلام سينمائية قصيرة أو تليفزيونية. ويذكر منها على سبيل المثال نشيد الوادى من إخراج محمد كريم ودقت ساعة العمل من إخراج حسن الإمام والجيل الصاعد من أعمال التليفزيون.

٢- نرجو ألا تذهب دعوة الكاتب للمحافظة على أفلام عبد الوهاب وترميم أصولها كصيحة في واد. آملين أن يحصل التعاون اللازم فيما بين مختلف وكافة الأطراف المعنية في مصر وسائر الوطن العربي. فقد تكررت في الصحف الفنية المصرية الإشارة إلى فقدان النسخة الكاملة من فيلم «لست ملاكًا» مما حال دون عرضه في التليفزيون المصرى، ولكن التليفزيون العراقي وجد لديه - على ما يبدو - نسخة كاملة غير منقوصة من هذا الفيلم، وقام بعرضها كاملة خلال عام ١٩٨٩ حسبما تسعفني الذاكرة، ولعل وزارتي الثقافة والإعلام في مصر تتعاونان مع التليفزيون العراقي لإنقاذ هذه النسخة الكاملة اليتيمة إن صح ما ذكر عن فقدان النسخة الأصلية للفيلم.

٣- نأمل ألا تقتصر الدعوة إلى ترميم أحاديث عبد الوهاب التليفزيونية على سلسلة الأحاديث التي عرضها التليفزيون المصرى، فقد عرض التليفزيون السورى في الستينيات ثلاثة أحاديث قيمة أجراها معه الأستاذ خلدون المالح وتابعها محبو عبد الوهاب في حينه بشغف واهتمام.

٤- لم يوضح الكاتب ماذا يقصد بالملف الصحفي للفيلم وهل هو كتيب الفيلم الذي أشار إليه المحرر في تقديمه للدراسة (برنامج الفيلم كما يسميه المخرج محمد كريم في مذكراته) وهل يمكن أن يكون الكاتب في اعتماده على تلك الكتيبات قد أعفى نفسه من مشاهدة بعض الأفلام موضوع الدراسة كما يمكن أن يستدل من حديثه حول فيلم «دموع الحب» بالذات!

لقد بدأ الكاتب في حديثه عن هذا الفيلم كما لو كان في غفلة عن أن بطلة الفيلم نجاة على مغنية فلم يذكر أنها غنت منفردة أغنيتي يا فرحة القلب وكل اللى بيننا أو أنها شاركت عبد الوهاب في أداء أغنيتي محلا الحبيب وصعبت عليك، ناهيك عن ظهور اسمها إزاء الصورة المنشورة من مشاهد الفيلم على أنها سميرة خلوصي. ولعل هذا خطأ مطبعي.

كما أن الكاتب قد سها عن ذكر موال «في البحر لم فتكم» الذي غناه عبدالوهاب في فيلم «دموع الحب» وكان آخر عهده بالموال كأغنية مستقلة قائمة بذاتها وإن لم يتخل عن الموال في بناء أعماله الغنائية اللاحقة.

٥- في حديثه عن فيلم «يحيا الحب» ذكر الكاتب أنه بخلاف الفيلمين الأولين اشتركت في تمثيل الدور النسائي الرئيسي مغنية هي ليلى مراد. وهذا خطأ ناجم عن خطأ إغفال حقيقة المغنية التي قامت بالدور النسائي في فيلم «دموع الحب» كما ذكرنا في ملاحظتنا أعلاه.

وحيث إن الدراسة هي عن «عبدالوهاب أفلامه وأغانيه» فقد تمنينا لو أن الكاتب أشار إلى الجزء من أغنية «ياوابور قوللى» الذي أعيد غناؤه من قبل عبدالوهاب وليلى مراد معًا في المشهد الختامي من فيلم «يحيا الحب» ليكون هذا المشهد وثيقة تاريخية بالنسبة لمحبي فن الغناء ودارسيه.

وقد كرس الكاتب في حديثه عن فيلم «يحيا الحب» معلومة افتتاح ستوديو مصر عام ١٩٣٥ وبهذا فإنه يحسم الالتباس الذي أحدثه مسلسل «أم كلثوم» الممتع في الأذهان حين أورد واقعة المحاولة التي قام بها مؤسس ستوديو مصر طلعت حرب للجمع بين عبد الوهاب وأم كلثوم سينمائيًا في غير إطارها الزمني الصحيح. إن المحاولة قد تمت بالفعل بعد النجاح الذي حققه عبدالوهاب في أول أفلامه «الوردة البيضاء» وليست سابقة له لأن ستوديو مصر لم يكن قد تم إنشاؤه بعد. وقد ظهر المخرج محمد كريم في المسلسل كأحد العاملين في ستوديو مصر وهو يعرض سيناريو «الوردة البيضاء» على أم كلثوم، بينما الواقع يقرر ومذكرات محمد كريم تؤكد أن كريم ترك العمل لدى شركة مصر للتمثيل والسينما قبل إنشاء ستوديو مصر والتحق بزميله الأستاذ يوسف وهبي وأخرج له فيلما روائيا مصريا ناطقا «أولاد الذوات» عام ١٩٣١ أي قبل فيلم «الوردة البيضاء» الذي بدأ معه تعاون كريم وعبد الوهاب ليدخلا ستوديو مصر لأول مرة عام ١٩٣٧ في «يحيا الحب».

٦- يعتبر ما ذكره الكاتب عن أغنية كده يا بلاش التي استبعدت من فيلم «يوم سعيد» قبل عرضه (دون ذكر من يغنيها) مكملاً لما ورد في مذكرات المخرج محمد كريم حول استبعاد أغنية لحنها عبد الوهاب للمطربة العراقية عفيفة إسكندر لتظهر في الفيلم (لم يذكر المخرج اسم الأغنية في مذكراته) وبهذا تكتمل الصورة بالنسبة للدارس المهتم بهذه التفاصيل.

كما أورد الكاتب في حديثه عن فيلم «يوم سعيد» وهو على صواب في ذلك أغنية واحدة من نظم أحمد رامي (طول عمرى عايش لوحدى) وهو بهذا يصحح الخطأ الذي وقع به مسلسل «أم كلثوم» في المشهد الذي عاتبت فيه أم كلثوم بيرم التونسي على الأغنية التي كتبها لفيلم عبد الوهاب ويرد بيرم بأنها أغنية واحدة فما بالك برامي الذي نظم كل أغنيات الفيلم!

٧- أغفل الكاتب جانبًا يستحق الاهتمام في أية دراسة عن أفلام عبد الوهاب. فقد أعد عبد الوهاب الموسيقى التصويرية لأفلامه واختار بعضًا منها كمقطوعات موسيقية سجلها مستقلة على أسطوانات ونزلت إلى الأسواق جنبًا إلى جنب مع أسطوانات أغاني أفلامه وكانت من أشهرها في حينه مقطوعات شغل / عتاب من فيلم «دموع الحب» وحبي / ألف ليلة من فيلم «يحيا الحب» وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

وختامًا. فللأستاذ سمير فريد خالص الشكر والتقدير على ما بذله من جهد ولكل مجتهد نصيب والله ولي التوفيق.

وجدى قبلاوى
عمان - الأردن

موسوعة الأدب العربي

أبدأ كلامي بإبداء إعجابي بمجلتكم خاصة أنه يتوجها دائمًا مقال الصحفي القدير «محمد حسنين هيكل» - علمًا بأنني أواظب على شرائها شهريًا وأتابع جميع ما يكتب فيها من مقالات قيمة بأقلام أساتذة أكفاء.

إلا أن لي ملحوظة أود أن أعرضها:

في العدد السابع والعشرين الصادر في أبريل ٢٠٠١م هناك مقال تحت عنوان «موسوعة الأدب العربي بين نبل الهدف وقصور الجهد» - للدكتور صبرى حافظ - وقد ذكر في ص٦٨ أن (هناك مجموعة كبيرة من الأخطاء الفاضحة التي لا يمكن التعلل بأنها آراء أو وجهات نظر مثل تلك التي ترد في المدخل الذي تناول الشاعر «محمد عبدالمطلب» وأخبرنا أنه ولد في «باصونا» بمحافظة «جرجا» في صعيد مصر (كذا). (ص١٥) لأن أي باحث عربي يعرف أنه ليست هناك محافظة باسم جرجا في صعيد مصر، وليست بها قرية باسم «باصونا» وينطوى هذا المدخل على العديد من الأخطاء مثل إشارته إلى أن عبدالمطلب عمل مدرسًا في المدارس الابتدائية ثم أستاذًا «بروفيسور» في مدرسة «القانون الديني» (كذا) ثم أصبح بعد ذلك أستاذًا في دار العلوم.

هذا ما ذكره الدكتور صبرى في مقاله، وبصفتي أحد مواطني محافظة سوهاج وعلى دراية تقريبًا بكل مدنها وقراها أود أن أوضح أن هناك قرية باسم «باصونا» تابعة لمركز المراغة التابع لمحافظة سوهاج - بل إنه جاء ذكرها كثيرًا في الحادثة الشهيرة لاقتحام بعض المسلمين لأحد البنوك بالمراغة حيث ذكر أن المجرمين قد فروا إلى الناحية الغربية في طريق «باصونا» حيث إنها تقع غرب المراغة.

أما عن «محافظة جرجا» - ففي الوقت الذي كان يعيش فيه الشاعر «محمد عبدالمطلب» فإن محافظة سوهاج كانت تعرف باسم «مديرية جرجا»، حيث إن المملكة المصرية كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى مديريات ولم يكن قد نشأ نظام المحافظات بعد. وكانت المحافظة تسمى «مديرية جرجا» وعاصمتها مدينة جرجا - ثم تحولت بعد نظام المحافظة إلى «محافظة سوهاج» وعاصمتها سوهاج - ولازال الزائر لمدينة جرجا يشاهد حتى الآن القصور الهائلة المقامة بواسطة الأسر العريقة التي كانت تقطن جرجا باعتبارها عاصمة المديرية، كما أن بها أسرا عريقة إسلامية ومسيحية.

لعل ملحوظتي تحوز قبولكم - ولازلت أكرر إعجابي الشديد بمجلتكم - ويزيد إعجابي أيضًا حين أطالع (نون) والتي يتحدث فيها رئيس التحرير بكل جرأة عن قضايا الساعة.

يوسف عرابى

تساؤلات شاب

تعليقًا على سلسلة المقالات التي ينشرها الأستاذ هيكل في مجلة «وجهات نظر» أود أن أطرح بعض التساؤلات التي تختلج في نفسي.

المشكلة التي أطرحها على الأستاذ هيكل تتلخص في هذه الجملة البسيطة وهي: ماذا بعد؟ نعم ماذا بعد؟! إلى أين تتجه مصر؛ أنحو نمو ورخاء! أهناك أمل في إصلاح حقيقي لأحوال البلاد.

بالنسبة لي أعتقد أن لا خير قادم! وقد يتساءل البعض: لماذا كل هذا التشاؤم.

إجابتي هي العجز بعينه.

فالإصلاح إذا افترضنا أنه تدريجي فهل لي أن أستعير عبارات (أمل دنقل) البائسة:

يا إخوتي الذين يعبرون الميدان في انحناء.

منحدرين في نهاية المساء
لا تحلموا بعالم سعيد

فكيف نأمل في إصلاح لا تطالب به إلا أقلية جهرًا! هذا بجانب تفككها بسبب الاستغراق في خلافات لا أحد يعلم متى تنتهي! إذن فلا تكفي الأماني الطيبة.

أما بالنسبة للتغيير الجذرى فلا أعتقد أن تفعلها هذه الأمة وفي هذا الزمن، ولي أيضًا أسبابي.

أولاً: قدرة الدولة على السيطرة على الأفراد عن طريق القوة المادية المتمثلة في أدوات القهر المادى إلى جانب أدوات السيطرة على الثقافة والمعرفة.

رسـائل

وجهات نظر
الكتب

وهنا لا اتمنى ألا يتحدث البعض عن سقوط الحواجز أمام الثورة التكنولوجية، فهل امتلك كل فرد جهاز دش يتابع به أحداث العالم أم يوجد داخل كل بيت جهاز كمبيوتر متصلاً بشبكة المعلومات، وحتى إن تم امتلاك تلك الوسائل امتاكد أنت من استخدامها فى البحث عن المعرفة أم من أجل الحصول على اللذة؟

كذلك لا اتمنى أن أسمع أن سلطة الدولة تضاءلت كثيرًا لأن هذا الأمر نسبى، نعم أتفق مع من يقول إن من يريد أن يوجه نقدًا فهو يستطيع أن يكتب مجلدات ولكن للأسف لا معنى لكل ذلك فى بلد (٥٥٪) من مواطنيه أميون وأكثر من ذلك الرقم أميون أمية ثقافية وذلك أشد خطرًا إلى جانب ارتفاع سعر الكتاب الجاد.

ثانيًا: تزايد معدلات العلمنة الشاملة والتى تتمثل فى تمركز الفرد حول ذاته، السعى الدائم نحو الحصول على اللذة والمتعة.

أتمنى هنا ألا يقوم البعض بذكر مزايا الشخصية المصرية المتفردة فتلك ظاهرة عالمية لا فكاك منها إلا بالرجوع إلى المطلق وإلا تآكل مفهوم الإنسان بما يحمله من قيمة.

ففى عالم تسوده العولمة أو القولبة أو التنميط الذى لمسته فى دراساتى للتسويق الدولى.

فى هذا العالم لا ننتظر أهدافا عليا ترتبط بمطلق أو سيادة أخلاق الضعفاء فهو عالم لا يعرف سوى لغة القوة، فالحديث عن القيمة هو نوع من الترف أو الدونكيشوتية فى ظل سيادة سياسة الأمر الواقع المعادية للتاريخ.

وثق سيدى أننى لا أتكلم من برج عاجى بعيدًا عن الأرض، فأنا من طبقة متوسطة فى طريقها للاندثار، درست فى كلية حكومية جزءا قصيرا من حياتى ثم أكملت فى كلية خاصة كما أن عملى يتيح لى الاتصال بكافة أصناف البشر، أى أننى لامست الواقع عن قرب.

أنا هنا لا أوجه نقدًا إلى المجتمع بقدر ما أعبِّر عن صدمتى، نعم صدمتى فعندما يحمل امرؤ قدرًا من المعرفة تعينه على فهم وإدراك الأمور من حوله، أى يحمل قدرًا من الفكر عاجزًا عن الفعل. والعجز ألم والفعل أمانة نحاسب عليها أمام الله العلى القدير.. فياله من عذاب.

إذن فما الحل؟

فكرت كثيرًا ولكننى لم أجده، ولن أجده واحدًا فردًا بل نجده جماعة تؤمن بهدف، جماعة تحمل قيمة بين ضلوعها، جماعة تؤمن بضرورة الإصلاح، إصلاح النفس أولاً والمساعدة فى إصلاح الغير ثانيًا.

ولا أجد ما أختم به كلامى إلا قول الله الكريم: «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» صدق الله العظيم

إسماعيل سليمان
اثنان وعشرون عامًا

الخـديو الأول

اسمحوا لي أن أعبر - مع جماهير المثقفين العرب - عن إعجابي الشديد بالمجلة التي أتشوق إلي قراءتها كل شهر، وقد دعوت الكثير من الأصدقاء والزملاء والمعارف في الكويت وغيرها لشراء المجلة شهريا أو الاشتراك فيها.

ملحوظة بسيطة.. ورد في مقال (مدرسة الطب المصري.. من أبي زعبل إلي قصر العيني) للأستاذ محمد فؤاد الذاكري المنشور في عدد مايو ٢٠٠١ من المجلة إشارة إلي (الخديو) محمد علي باشا و (الخديو) سعيد باشا. وأود أن أصحح خطأ تاريخيًا هنا، وهو أن أول من حمل لقب (خديو) هو الخديو إسماعيل الذى تولى حكم مصر في ١٨٦٣ ومنحه السلطان العثماني هذا اللقب في ١٨٦٦.

دكتور شعبان عبدالعزيز عفيفى
كلية الدراسات التجارية - الكويت

طه حسين .. والثـورة

أحسنت مجلة «وجهات نظر» صنعا حينما نشرت فى عددها الماضى موضوعا بعنوان «طه حسين.. رسالة لم تنشر عن ثورة يوليو» للكاتب إبراهيم عبدالعزيز؛ لما لهذا الموضوع من أهمية.

وتأتى أهمية وقيمة الرسالة فى أن موقف عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين من الثورة لم يكن معروفا إلى حد كبير - أو بصورة واضحة - لدى تلاميذه أو معاصريه وحتى فى كتاباته.

والرسالة المنشورة بلا شك هى وثيقة نادرة مؤصلة، وشاهد خطى باقٍ تبرز موقف د.طه حسين من ثورة يوليو تأييدا واعترافا بإنجازاتها العديدة وما يرجوه لها وما يتطلع إليه من خلالها وما يطمح فى تحقيقها له.

والفائدة الأخرى للرسالة أنها نشرت بعد ٤٩ عاما من ثورة يوليو التى أعادت للشعب كرامته وحقوقه وحريته وتوجت نجاحه المشرف.

ما أحوجنا إلى إخراج مثل تلك الوثائق والمذكرات المهمة التى يحتفظ بها البعض فى مكتبته الخاصة أو تزخر بها دار الكتب والوثائق القومية لكى تتعرف الأجيال على تراث مفكرى الأمة ومبدعيها.. فتاريخنا حافل بآلاف الوثائق والمخطوطات الثمينة التى تحتاج لجهد دءوب فى البحث والتنقيب والتحقيق والتنقيح، وتلك مسئولية الباحثين والعلماء والمحققين، وتحية لكتيبة وجهات نظر التى أسهمت بحق فى إثراء حياتنا الثقافية.

بدوى طه - القاهرة

نون

ليس بالمال وحده
ينهض الفكر العربى

سؤال الساعة الذى يؤرق الكثيرين من أبناء العالم العربى، ولا يفتأ معظمهم يردده بصيغ وعبارات متشابهة فى مبناها ومعناها هو: كيف يمكن إنقاذ الأمة من وهدة السقوط الذى يتهددها من جميع أقطارها؟ وكيف يمكن للقادرين من أبنائها سواء بالمال، أو بالفكر، أو بالسلطان أن يبعثوا نهضتها من جديد، وينفخوا الروح فى أطرافها الخامدة، وعقولها الراكدة، وإرادتها الغائبة؟ كيف يمكن بعد التجارب الخائبة التى امتزجت بوميض آمال ضائعة مرت بها على امتداد القرن العشرين، أن تجد الطريق إلى الخلاص من أسباب الضعف والتمزق، والنهوض من عثرتها التى طالت وامتدت حتى لتوشك أن تدفع بها إلى الهاوية؟

مناسبة هذا السؤال الذى شغل الكثيرين فى مصر وفى عدد من العواصم العربية، هو المشروع الذى طرحته قبل أسابيع نخبة من رجالات المال والأعمال، بدا أن المبادرة جاءت من جانبهم، وظاهرهم عليها عدد من المشتغلين بالأدب والشعر، ينتمون إلى عدد محدود من الدول العربية. اتفقوا فيما بينهم على أن «خلافات الرؤى الإقليمية المتصارعة، والانسياق وراء الدسائس التى تكيد للأمة وتمزق لحمتها هو السبب وراء هذه الأزمة». وانتهوا إلى أن غياب الفكر العربى ودوره فى توحيد الصفوف والنهوض بالأمة قد أدى إلى تكريس هذا الوضع الممزق. ومن ثم عقدوا العزم على إنشاء «مؤسسة للفكر العربى»، تعنى بمختلف جوانب الفكر من علوم واقتصاد وإدارة وفنون وآداب، توحد أفكار الأمة وتنبذ عوامل الفرقة فيها.. عن طريق رعاية وتشجيع الإبداع والبحث العلمى، واحتضان الموهوبين، واستعادة العقول العربية المهاجرة، وإعادة نشر الأمهات من الكتب.

أحدثت هذه المبادرة بكل ما أحاط بها من أضواء مبهرة، ووعود مبشرة.. هزة بين المثقفين والمفكرين. وما بين دعوات الغداء والعشاء، وما أعقب الاجتماعات المغلقة والمناقشات المفتوحة، تجدد الحديث عن العلاقة بين المثقف والمال، وبين المال والسلطة، وبين المثقف والسلطة. وفى عصر اقتربت فيه سطوة الثروة من نفوذ السلطان حتى لتبدو متوحدة أو فى أقل القليل متداخلة متشابكة، راح الكثيرون يبحثون عن الدوافع المحركة والأهداف المستترة وراء هذا الاهتمام الباغت لرجال المال والأعمال.

والذى لا شك فيه أن علاقة الثقافة أو الفكر بالمال والسلطان علاقة قديمة ملتبسة. لها جذورها فى التاريخ العربى منذ كان الشعراء يتخذون من مديح السلطان أو الأمير أو الخليفة بابًا للحصول على عطاياه ومكافأته السخية، يوم كان الشعر هو ديوان العرب ومرآة حياتهم الروحية والعقلية. وقد امتد هذا التقليد القديم إلى أيامنا هذه. وربما استفاد بعض العلماء والمفكرين العرب من هذا التقليد، ولكن الشعر والأدب وفنون الغناء وما إليها هى التى فازت بنصيب الأسد من أموال الأمراء والأثرياء ورعايتهم.

ولم يختلف الحال فى أوروبا كثيرًا عن ذلك. فقد التحق معظم الشعراء والموسيقيين والرسامين والنحاتين بالبلاط أو بقصور الأغنياء أو بالكنيسة. ولولا ما كانوا يجدونه فى كنف هؤلاء من الرعاية والتشجيع المادى والمعنوى، ما احتفظت النهضة الأوروبية بما تحقق لها من تراث فكرى وثقافى وحضارى.

وفى عصرنا الحديث، فإن كثيرًا من الجامعات والمستشفيات والمتاحف ومراكز البحوث ومؤسسات الرعاية الاجتماعية فى أوروبا وأمريكا، قامت على تبرعات أثرياء من رجال المال والصناعة، أو على ريع أموال خصصوها للإنفاق على أغراض خيرية. أو لأغراض البحث العلمى بإنشاء معاهد وكليات فى عديد من الجامعات المشهورة فى العالم: كمبردج وأكسفورد وهارفارد. ونسمع كثيرًا فى الآونة الأخيرة عن أثرياء عرب تبرعوا بأموالهم لإنشاء كراسى أو أقسام للدراسات الشرقية أو العربية فى الجامعات الأجنبية. وخلال السنوات الأخيرة حين استشرى مرض الإيدز، وجد كثير من أموال الأغنياء طريقه إلى مراكز الأبحاث العاملة لاكتشاف علاج لهذا المرض الفتاك.

ولم تتخلف مصر عن هذا التقليد الحميد، فقد أنشئت الجامعة الأهلية المصرية برعاية إحدى الأميرات قبل أن تتحول إلى الجامعة المصرية. وكان لكثير من الأثرياء فضل الريادة فى رعاية الفنون وجمع التحف واقتناء المواد الثقافية ورعاية الموهوبين خلال القرن الماضى.

ومن هنا فإن اجتماع هذه النخبة من رجال المال الذى تداعوا فيما بينهم للنهوض بالفكر العربى، سبيلاً للنهوض بالأمة العربية، ليس مما يثير الدهشة أو الاستغراب. بل يمكن القول بأنه امتداد لتقاليد عربية قديمة، ولسنن سارت عليها الأمم الحديثة التى يسهم أثرياؤها من رجال المال والصناعة فى تمويل أنشطتها العلمية والأدبية والإنسانية، وليس ما فعله بيل جيتس أخيرًا بغريب.

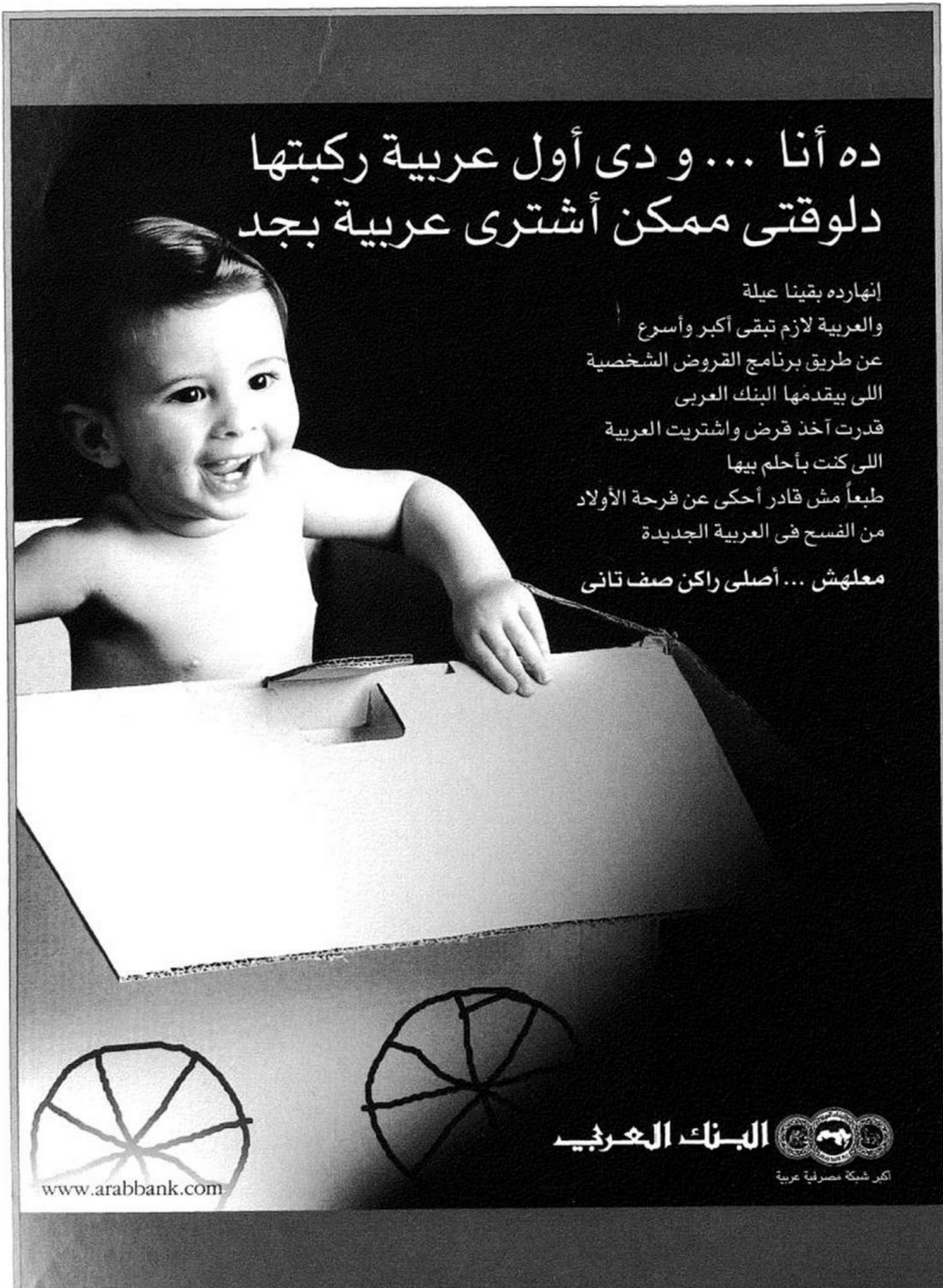
غير أن ما ينبغى أن يلتفت إليه هؤلاء الساعون إلى الخير من أبناء الأمة العربية، هو أن النهضة ـ أية نهضة فى أى مجال من المجالات ـ لا تتحقق بدون مناخ للحرية الفكرية والسياسية يسمح بإطلاق المواهب، وإشباع الحاجات الروحية والعقلية والوجدانية التى تغذى روافد الإبداع، وتفجر طاقات الابتكار، وتفتح نوافذ الفكر دون قيود أو سدود.

وبعبارة أخرى فإنه حتى لو توافر المال، وتهيأت الإمكانات المادية، والنيات الخالصة فى الرعاية والتشجيع والتمويل، دون أن يتحقق للعقول العربية ما ينقصها من مناخ الحرية، بعيدًا عن التعصب والجهل، وعن مطاردة الأدعياء والمذعورين، وملاحقة ذوى الأفكار البالية والعقول المغلقة، وتفتيش رجال السلطة فى الضمائر والأفكار، وتصيد المتعصبين والمتشنجين وأدعياء الدين، فلن تنجح مثل هذه المؤسسة إلا فى إقامة هيكل آخر يضاف إلى الهياكل المجوفة التى يمتلئ بها العالم العربى، والتى تتحول بمرور الوقت إلى ذراع للسلطة والسلطان، أو إلى أن تكون هى بذاتها سلطة للرقابة على الفكر والإبداع من حيث لا يحتسب. لأن مثل هذه المؤسسة سوف تجد نفسها مسوقة لأن تراعى فى اختياراتها ما يرضى عنه ولاة الأمور وما يسخطون عليه، ما يحبونه وما يكرهونه، ما يعتبرونه مواليًا لهم أو عدوًا لسلامتهم واستقرارهم.

ثم إن تشجيع الثقافة والبحث العلمى ورعاية الموهوبين شىء، والنهوض بالفكر العربى شىء آخر.. فالثقافة هى حركة الفرد الفكرية داخل مجتمعه وما يكتسبه من عادات ومفاهيم وأذواق فنية وتقاليد موروثة، ولكن الفكر يتولد من الحركة التبادلية بين الأفكار والثقافات المنبثقة عن المجتمعات القريبة والبعيدة، وما يعتريها من تقابل أو تصادم أو تلاقح. وهو أمر لا يتأتى إلا فى إطار القدرة على ممارسة النظرة التحليلية والنقدية وتطبيق مناهج الفكر العلمى. ومعظم الدول العربية لا ينقصها ذوو اليسار ولا الجمعيات والهيئات الحكومية التى تقدم الجوائز، وتطبع الكتب، وتنشر المجلات، وترسل المبعوثين للدراسة فى الخارج. وكل ذلك قد ينشط الحياة الثقافية ولكنه لا يصنع مناخًا يضمن للتيارات الفكرية أن تتحرك دون عوائق، ولا للمثقفين أن يقفزوا فوق حواجز المحلية والخوف من الجديد والركون إلى القديم. وبعبارة أخرى فهو لم ينجح حتى الآن فى صناعة نهضة عربية فكرية بالمعنى الحقيقى، ولا فى إنتاج فكرى يغزو العالم أو يشارك فى تشكيل صورته. فالمفكر هو مثقف بالضرورة ولكن المثقف قد لا يكون مفكرًا بالضرورة.

ومن أجل هذا كله، فليس المطلوب أن نعمل على توحيد الفكر العربى، وتنميط مقاييسه، وتحديد معاييره، وتأكيد أوجه الشبه وطمس أوجه الخلاف، بل العكس تمامًا هو المطلوب.. أى تحرير الفكر العربى من النمطية، والتوحد، والتقولب، والتشيع، والتمذهب وكل ما يحد الفكر ويقيده.. أى أن المطلوب هو إحداث ثورة فى المفاهيم السائدة إذا كان بمقدور أحد فى العالم العربى أن يثور. وكسر القيود إذا كان لابد أن تكسر. والانطلاق إلى آفاق جديدة إذا تمكنا من الانطلاق. والتطلع إلى المستقبل إذا لم نغرق فى ظلمات الماضى. وكل ذلك لن يتأتى بغير تحرير العقل العربى. وتحرير العقل العربى لن يتأتى بغير تحرير السلطة.. السلطة الدينية والسلطة الزمنية. وإلا فإن أموال قارون لن تكفى للنهوض بالفكر، والمشاركة فى صنع الحضارة، وتحقيق ما يصبو إليه أهل اليسار من النهوض بأمتهم. المال وحده لا ينشئ فكرًا ولا يبعث نهضة.. هذه حقيقة لا مراء فيها!

سلامة أحمد سلامة



ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد
إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة
معلهش ... أصلى راكن صف تانى
البنك العربي
أكبر شبكة مصرفية عربية
www.arabbank.com

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الواحد والثلاثون
أغسطس ٢٠٠١

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفني
حلمي التوني

مدير التحرير
أيمن الصياد

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربي والدولي

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادي

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

محتويات العدد:

كتاب العدد:

- الأنبا موسى.. الأسقف العام للشباب في الكنيسة القبطية.
- ثائر معيطة .. كاتب سوري
- سلامة أحمد سلامة .. صحفي.
- سلمان أبوستة.. باحث فلسطيني.
- فاروق عبدالقادر.. كاتب.
- لبيب السباعي .. صحفي.
- محمد الميلي .. المدير العام السابق للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة.
- محمد حسنين هيكل .. صحفي.
- محمود عوض .. صحفي.
- محيي الدين اللباد .. فنان ومصمم جرافيك.
- مصطفى إبراهيم فهمي.. أستاذ بالأكاديمية الطبية العسكرية.
- هاني شكرالله .. صحفي.

رسوم العدد للفنانين:

محمد حجي ـ محمد حاكم ـ سعد الدين شحاتة

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربي والدولي
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٢٠٤٩٠ / ٣٩٢٠٤٩٢ / ٣٩٢٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٢٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني (التحرير): e-mail: info@alkotob.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصري ـ اتحاد بريد عربي: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقي دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكي.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصري، ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة:

في مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١.٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهماً ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا دينار واحد ـ الجزائر ١٠ دنانير ـ المغرب ٣٠ درهماً ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال.
Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة